مجموع كتب ورسائل

الإمام القاسم بن إبراهيم

عليهم السلام

بسم الله الرحمن الرحيم

مجموع كتب ورسائل

الإمام القاسم بن إبراهيم

(الرسي)

ابن إسماعيل بن إبراهيم بن الحسن

ابن الحسن بن علي بن أبي طالب

عليهم السلام

(ت:٢٤٦هـ)

المجلد الثاني

مكتبة أهل البيت (ع)

صف وتحقيق وإخراج:

مكتبة أهل البيت (ع)

اليمن - صعدة - ت (٥٣١٥٨٠) سيار (٧١٣٨٤٢٩٨٩)

الطبعة الأولى

١٤٤٥هـ -٢٠٢٣م

جميع الحقوق محفوظة لمكتبة أهل البيت (ع)

كتاب مديح القرآن الكريم

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي منَّ علينا بوحي كتابه وتنزيله، وبما وَلِيَ تبارك وتعالى من أحكامه وتفصيله، بالإعراب والتبيين، وبما جعل فيه من دلائل اليقين على وحدانيته ودينه، وبما نوَّر في ذلك من تبيينه، وقوَّم سبحانه من صراطه وسبيله، بما شرع فيه من تحريمه وتحليله، وأقام به على كل صالحةٍ مرشدةٍ من دليله، وفصَّل سبحانه من كلامه فيه وقيله، ومن أصدق من الله قيلاً، وأحكم(١) لكل شيء تفصيلاً، فنزله بنور هداه تنزيلاً، فلم يغب في ذلك كله عنه من الهدى غائب، ولم يَخِب من طلاب الهدى به ولا فيه قط خائب، فيعدم من الهدى مراد مطلوب، ولا يحتجب عن الطالب له من هداه محجوب(٢)، أنزله الله بتفصيله إنزالاً، فقال تبارك وتعالى فيما نزَّل منه لرسوله صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا﴾ [الأنعام:١١٤]، فجعل منه بفضله ورحمته وحياً منزلاً، وقال سبحانه فيه: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ۝٥٢﴾ [الأعراف]، وقال سبحانه في تنزيله وما منَّ به فيه من تفصيله: ﴿حم۝١ تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ۝٢ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ۝٣ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ۝٤﴾ [فصلت]، فجعله سبحانه لعباده بشيراً ونذيراً، ووضعه للمؤمنين برحمته سراجاً منيراً، فمن أرد سرَّ الأسرار، وعلانيةَ مكتومِ الأخبار،

---

(١) في (أ): وأحصى لشيء تفصيلاً. وفي هامش: وأحسن لكل شيء تفصيلاً نسخة.

(٢) في (ج): ولا يحتجب عن هداه فيه محجوب.

التي أظهرها الله لصفوته من الأبرار، وخصَّ بعلمها من انتجبه لها[١] من الأخيار، فحباهم بفهمها واستخراجها، ودلَّ منهم بها من استدلَّ[٢] على منهاجها، فكشف لهم منها[٣] عن أنوار النور، وبيَّنَ لهم منها ما التبس على غيرهم من الأمور، فظهر لمن هداه الله بهم منها مكتومُها، وأسفر بعون الله لمن طلب علمها معلومُها، فسكنت إليها الأنفس، ونطق بها البكم الخرس، فقالوا بها ناطقين، ونطقوا بها[٤] صادقين، وحيوا بروحها بمنِّ الله[٥] مبصرين في الناس، وخرجوا بضيائها من الظلمات[٦] والالتباس، كما قال سبحانه: ﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴿١٢٢﴾﴾ [الأنعام]، وفيما بين الله سبحانه من آياته لمن آمن به ما يقول تبارك وتعالى: ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴿١١٨﴾﴾ [آل عمران].

وفي أن وحي الله حياة مِن أمر الله وروح، ونور وهدى ورشد ساطع يلوح- ما يقول سبحانه في وحيه، وفيما نزَّل منه على نبيه: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴿٥٢﴾ صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي

---

(١) في (ج): لنا.

(٢) في (أ): ودل بهم من استدل.

(٣) في (ج): فكشف لهم بها.

(٤) في (أ): ونطقوا عنها.

(٥) من كل هلكة وموت، وتحركوا بحياتها من بعد جمود وخفوت، ومشوا بنورها.

(٦) في (أ): من الظلمة.

لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ﴿٥٣﴾ [الشورى]، فجعله روحاً مُحيياً لمن قَبِلَه، ونوراً مضيئاً لمن تأمَّله، فنحمد الله على ما جعل فيه لأهله من الحياة، ووهب لهم به من الفوز والنجاة.

وقد ظن من ليس بِبَرٍّ ولا تقي، من كلِّ ضلِّيلٍ تائهٍ شقي، بجهله وضلاله واحتياره، وقلَّة علمه بكتاب الله وأسراره، وعندما اقتصر عليه من نظره ونقصِ فكره وتحيُّره، ولتركه علم ما خفي عليه من آياته عند ما جعله الله معدناً لعلم خفياته، ممن انتجب واصطفى، وجعل له المنزلة عنده والزلفى- أن في كتاب الله تناقضاً واختلافاً، وأنه إنما اعتسف القول فيه اعتسافاً، فقاده جهله بالكتاب إلى جهل رب الأرباب؛ لأن من جهل صنع الله للكتاب في آية واحدة من آياته كمن جهل صنع الله في أرضه وسماواته، لا فرق بين ذلك في حكمة ولا حكم، وواحدٌ ذلك كله في الخطيئة والجُرم. فمن جهل أن كل ما سمع من آية من آيات الكتاب فوحي الله وتنزيله، وأن كل آية منه فلا يحتملها ولا يحكمها إلا حكمة الله وتفصيله- فهو بكتاب الله من الجاهلين، وعن حكمة الله فيه من الضالين(١)، بل هو بالله في جهله ذلك إن جهله من الكافرين، ولأكبر(٢) نعم الله عليه فمن غير الشاكرين، والحمد لله فيه لا شريك له رب العالمين، ونعوذ بالله في كتابه من عمايةِ العمين، ونسأله أن يجعلنا لهداه فيه من المتبعين، وبما نزل فيه من حكمته ورحمته من المنتفعين.

---

(١) في (ج): وعن حكمه فيه من الضالين.

(٢) في (ج): ولأكثر.

وفيما أمر به من اتباعه في الإنصات له واستماعه ما يقول الله سبحانه لرسوله ﷺ: ﴿اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴿١٠٦﴾﴾ [الأنعام].

وفي ذلك أيضاً ما يقول لرسوله ﷺ: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴿١٨﴾﴾ [الجاثية].

وفي الإنصات والاستماع ما يقول الله سبحانه: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴿٢٠٤﴾﴾ [الأعراف].

وفيما في تنزيل الله من الموعظة والنور، وما جعله الله عليه من الشفاء لما في الصدور، ما يقول سبحانه: ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴿٥٧﴾﴾ [يونس]، فنسأل الله أن يجعلنا وإياكم إلى ما فيه من الهدى والنور من المهتدين.

وفي تبيين ما نزَّل الله في كتابه من الآيات، وجعل فيه من الهدى والمواعظ الشافيات، لمن قَبِلَه وفهمه عن الله جل جلاله من عباده البررة المتقين ما يقول سبحانه: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴿٣٥﴾﴾ [النور]، فمثَّل سبحانه ما في كتابه من نوره وهداه، وما وهب من تبيينه

فيه(١) برحمته أولياءه، بمشكاة(٢) قد ملئت نوراً بمصباح في زجاجة نقية ككوكب دريٍّ، ومثَّل كتابه بما فيه من هداه بنور مصباحٍ زاهرٍ مضيٍّ، قد نقيا من كل ظلمة وغلس، وصفيا من كل كدرٍ ونجس، فأعلمنا سبحانه بأنه هو نور السماوات والأرض ومن فيهما؛ إذ هو الهادي لكلٍّ من اهتدى من أهليهما.

وقد قيل في التفسير: إن المشكاة هي الكوة التي تجمع ما فيها كما يجمع ما فيه السقاء والشكوة(٣)، فنور هدى كتاب الله محفوظ بالله مجتمع، وكل من وفقه الله لرشده فهو لأمر الله كله فيه متبع، لا يسوغ لأحدٍ عند الله من خلافه سائغ، ولا يزيغ عن حكم من أحكام الله فيه إلا زائغ، يُزِيْغُ اللهُ قلبَه بزيغه عنه، ويفارق من الهدى بقدر ما فارق منه، كما قال علام الغيوب، وخلَّاق ما ضل واهتدى من القلوب: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ۝٥﴾ [الصف].

وفيما جعل الله في كتابه من الحكم والفرقان والفصل ما يقول الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ۝١٣ وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ۝١٤﴾ [الطارق]، والفصل فهو الحكم الجد الرشيد، والهزل فهو اللعب والكذب والتفنيد، وفي ذلك ومثله وما نزل الله فيه من فصله ما يقول سبحانه: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا۝١﴾ [الفرقان].

---

(١) «فيه» ساقطة من (أ).

(٢) في (أ، ج): مشكاة.

(٣) الشكوة: وعاء من أدم للماء واللبن. (قاموس).

والفرقان فهو: التفصيل من الله فيه لرشده، فمن لم يرشد بكتاب الله فلا رشد، ومن ابتعد عن كتاب الله فَبَعُدَ كما بعدت عاد وثمود، ومن لم يهتد في أمره بكتاب الله وتنزيله لم يهتد بغيره للحق أبداً ولا لسبيله، بل لن يبصر ولن يَرى الحق عيناً ولا أثراً، ولا يزال ما لم يراجعه متحيراً ضالاً، ومعتقداً ما بقي كذلك حيرةً وضلالاً، يعد نفعاً له ما يضره، وثقةً عنده أبداً مَن يغرُّه، مرحاً بهلكته فرحاً، يرى غشه له بِرّاً ونصحاً، يخبط بنفسه كل ظلمة وعشواء، متبعاً في دينه وأمره كله لما يهوى، إن قال مبتدياً عسف، أو حكى عن غيره حرَّف، افتراءاً وبهتاناً، وقسوة ونسياناً، أثرة منه للباطل على الحق، ونقضاً لما عقد عليه من العهد والموثق، كما قال الله سبحانه: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾﴾ [المائدة].

فالويل كل الويل لمن لم يكتف في أموره وأمور غيره بتنزيل رب العالمين، كيف عظم ضلاله وغيه؟ وضلت أعماله وسعيه، فحسبه محسناً وهو مسيء، ورشيداً في أمره وهو غوي، كما قال سبحانه لرسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾﴾ [الكهف]، أفليس هذا الذي ظن -والله المستعان- ضُرَّهُ له نفعاً؟ وحسب ضلالته هدى، وهدايته إلى الجنة ردى، كما قال سبحانه: ﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [الزخرف].

وفي القرآن وأمره وما عظَّم الله من قدره ما يقول سبحانه: ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْءَانَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ۝٢١﴾ [الحشر].

وفيه وفي خلاله، وما منَّ الله به من إنزاله- ما يقول تباركت أسماؤه لمن نزله عليهم كلهم جميعاً معاً: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا﴾ [الرعد:٣١].

أو لم يسمع من آمن بالله قول الله سبحانه في آيات نزلها من الكتاب: ﴿هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنْذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ۝٥٢﴾ [إبراهيم]، وفي مثل ذلك بعينه، وفيما أنزل الله من تبيينه ما يقول سبحانه: ﴿هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ۝١٣٨﴾ [آل عمران]، ويقول سبحانه: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ۝٨٩﴾ [النحل]، فجعله سبحانه تبياناً(١) وحجة على من فسق وكفر، وهدى ورحمة وموعظة لمن اتقى وشكر.

وفيه وفي رحمة الله به وشفائه وما جعل فيه لكل ذي حكم من اكتفائه ما يقول سبحانه: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ۝٥١﴾ [العنكبوت]. فمن لم يكتفِ بضيائه فلا كُفي، ومن لم يشتفِ بشفائه فلا شُفي، ففيه(٢) شفاء كل داء، وبيان لكل قصد

---

(١) في (أ): بياناً.

(٢) في (أ): فمنه.

واعتداء، فلا يعرض عنه أبداً مهتدٍ، ولا يصد عنه إلا كل معتدٍ، هالك مهلك، يأفِكُ ويُؤفَك، يفتري على الله الإفك والزور، ويؤثر على اليقين بالله[١] الغرور، فهو أبداً التائه المغرور، وقلبه فهو الخراب البور، الذي لم يعمر بهدى الله منه معمور، ولم يسكنه من أنوار حكمة الله نور.

أو ما سمع ويله قول الله جل جلاله عن أن يحويه قول أو يناله: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة:٤٨]، فكفى بهذا على[٢] من أعرض عن كتاب الله بياناً وبرهاناً واحتجاجاً.

وأين بمن عرف الله وحكمته وإحسانه بتنزيل الكتاب ونعمته عن كتاب الله وتنزيله، وما فيه من فرقان الله وتفصيله؟ وهل يذهب عنه إلا عميّ القلب مقفله، لا يتدبر حكم الله ولا يعقله؟ كما قال سبحانه: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْءَانَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا۝٢٤﴾ [محمد]، فلا يسقط أبداً المعرفةَ بما جعل الله في كتابه من النور عن القلوب إلا انقفالها، ولا ينقفل قلب عما فيه من الهدى إلا بضلال، ولا يترك ما ذكر الله من تدبره إلا كل من كان من الضُّلالِ، فأما من نوَّر الله قلبه ورضي عقله ولبَّه فلا يعدل بتذكر ما أنزل الله من الكتاب، كما قال الله سبحانه: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ۝٢٦٩﴾ [البقرة]، وقال سبحانه في كتابه وما ذكر من

(١) بالله ساقطة من (أ).

(٢) «على» ساقطة من (أ).

نعمه وتذكيره به: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ۝٣٧﴾ [ق].

وماذا يا سُبحان الله يريد مِن خَلْقِ الله كلهم مُريدٌ رشيدٌ، بعد قوله تبارك وتعالى لقوم يسمعون: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ۝٨٣﴾ [آل عمران]؟ فأخبر سبحانه عن استسلام من في سماواته وأرضه لحكمه(١) فيهم وفي غيرهم وفرضه، وأخبرهم عن مرجعهم جميعاً إليه؛ ليحفظ كل امرئ منهم ما حكم به له وعليه؛ تعليماً من الله لهم لا كتعليم، وهداية من الله لهم إلى صراط مستقيم.

فكتابَ الله -أعانكم الله ما حييتم- فاحفظوا، وبه هداكم الله ما بقيتم فاتعظوا، فإنه أوعظ ما اتعظ به متعظ، وخير ما احتفظ به منكم محتفظ، لما جعل الله فيه لحافظه من النجاة، ووهب بمواعظه لمن اتعظ بها من الحياة، فعليه فاحيوا ما حييتم، وبه فتمسكوا ما بقيتم، ففيه ما يقول لمن كان قبلكم رب العالمين: ﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ ۝١٧٠﴾ [الأعراف]، فالتمسك به أحسن الإحسان، وحقيقة الإصلاح والإيمان.

وهو فكتاب الله المحفوظ الذي لم يَضِعْ منه قطُّ بمنٍّ الله آية، فيضيع بضياعها من الله نور وبيان وهداية، وكيف يذهب منه شيء أو يضيع، أو يتوهم أن الله سبحانه له مضيع بعد قوله تبارك وتعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝١١٥﴾ [التوبة]، وبعد

---

(١) في (أ): بحكمه.

قوله: ﴿يَامَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَاتِي وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ۝١٣٠﴾ [الأنعام]، وبعد قوله سبحانه: ﴿وَهَذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ۝١٢٦﴾، فكيف يصح أن يذهب منه شيء وهو صراط الله المستقيم وتبيانه لكل شيء، ففيه لعباده هدى وتقويم.

وفيه ما يقول سبحانه: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِي هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء:٩]، فهل بقي لأحدٍ من بعده عذر أو مُتلوَّم؟ وكيف يُصدَّق مفترٍ على الله في ضياعه وقد أمر تبارك وتعالى عباده باتباعه، فقال فيه: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِى مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ۝١٥٣﴾ [الأنعام]، وقال تبارك وتعالى فيه: ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ۝٣﴾ [الأعراف].

وقال سبحانه: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ۝١٥٥﴾ [الأنعام]، وقد قال قوم مبطلون عماة لا يعقلون: إن قد ذهب منه بعضه، فافتروا الكذب فيه وهم لا يشعرون، وقالوا من الافتراء على الله في ذلك بما لا يدرون.

فيا سبحان الله! أما سمعوا لقول الله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ۝٩﴾ [الحجر]، وقوله سبحانه: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَجِيدٌ۝٢١ فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ۝٢٢﴾ [البروج].

وكتاب الله فهو الذكر الحكيم، والقرآن المكرم العظيم، فمن أين يدخل عليه مع حفظ الله له ضياعٌ، أو يصح في ذلك لمن رواه عن أحدٍ من الصالحين سماع؟ مع ما كان لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من الأصحاب، وكان عليه أكثرهم من المعرفة بالخط والكتاب، إن هذا من الافتراء لعجب عجيب، لا يقبله مهتدٍ من الخلق ولا مصيب، فنعوذ بالله من الجهل والعمى، ونسأله أن يهب لنا بكتابه علماً، ويجعله لنا في كل ظلمة مظلمةٍ سراجاً مضياً، ومن كل غُلَّةٍ معطشةٍ شفاءاً وريًّا، فقد جعله رياً من الظمأ لمن كان ظمياً، وضياءاً من العمى لمن كان جاهلاً عميّاً، فهُوَ البصر المضيء الذي لا يعمى، والرَّيّ الرَّوِي الذي لا يظمأ، فمن رَوِيَ به من الصدى بإذن الله ارتوى، ومن أبصر ما فيه من الهدى سلم أن يضل أو يغوى، بل هو سراج السُّرُج، وحججه فأبلغ الحجج، كما قال الله ذو الحجج البوالغ، والحق المبين الغالب الدامغ: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴿١٤٩﴾﴾ [الأنعام]، وقال سبحانه: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴿١٨﴾﴾ [الأنبياء]، فمن عمي عن حججه فلن يبصر، ومن حاجّ بغيره فلن يظفر، ومن ضل عنه عظم ضلاله، ومن قال بخلافه كذب مقاله، ضياء سراجه ووحيه ساطع لائح، وعزم أمره ونهيه رحمة من الله ونصائح.

فيه قصص الأمم والقرون، وتفصيل الحكم كله والشئون، يخبر عن السماء والأرض وابتدائهما، وعن الجنة والنار وأنبائهما، وعما فطر من الجن والإنس، وخلق من كل بدن ونفس- بأخبار ظاهرة جلية، وأُخَر باطنةٍ خفية، إلا عمَّن

خصَّه الله بمستورها، وأطلعه بمنِّه على خفيِّ أمورها، فعنده منها ومن الخبر عنها عجائب كثيرة لا تحصى، وعلوم جمَّة لا تستقصى، فهو ينظر إليها ويراها بعين قلب منه يرعاها، فلا يخفى عنه ممَّا أظهر الله به منها خافية، وموهبةُ الله له في يقينه بعلمها من كل علم فكافية، فإن شاء أن ينطق فيها نطق، فأحقَّ في خبره عنها وصدق، وكان بها وفيها أصدق قائل، وإن سكت عنها سكت غير جاهل، فهو لعلومها قرين، وعلى مكتومها أمين، إن ذُكِّر منها بآية رعاها، أو سمعها عن الله وعاها، لا تصم عنها له أذن ولا يقين، ولا تعمى عنها منه فكرة ولا عين، فهو ينظر إلى ما أرته بيقين قلبه عياناً، كما قال الله سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴿٧٣﴾﴾ [الفرقان].

ليس بمنٍّ الله عليه ولا مع إحسان الله إليه بمستكبر عليها، ولا بمصرٍّ فيها، فيكون كمن ذكره الله فيها بإصراره، وإعراضه عنها واستكباره، فقال سبحانه: ﴿وَيْلٌ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴿٧﴾ يَسْمَعُ ءَايَاتِ اللَّهِ تُتْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴿٨﴾ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴿٩﴾﴾ [الجاثية]، ولا كمن ذكِّر بآيات الله فأعرض عنها وظلم، ولم يعلم عن الله منها ما علم، كما قال تبارك وتعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا﴿٥٧﴾﴾ [الكهف]، بل وهبه برحمته وَمنِّه وفضله قبولَ ما جاءت به آيات الله من النور والهدى، فسمعها عن الله بأذن منه واعية، وعلمها من الله بنفس في علمها ساعية، ثم لم يمنعها من أهلها فيأثم، ولم يضعها في غير موضعها فيظلم، كما قال

الله لرسوله صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴿٥٤﴾ وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ﴿٥٥﴾﴾ [الأنعام]، ففصل تبارك وتعالى آياته وبيَّنها لمن يستحق تفصيلها وبيانها من المؤمنين.

وقال له تبارك وتعالى فيمن أعرض عن ذكره بعد قيام حجته وطغى وتعدى: ﴿فَأَعْرِضْ عمن تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴿٢٩﴾ ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَى﴿٣٠﴾﴾ [النجم].

وكما قال عيسى بن مريم صلى الله عليه وسلم: (لا تمنعوا الحكمة أهلها فتظلموهم فتأثموا، ولا تبذلوها لمن لا يستأهلها فتظلموها، ولا تطرحوا كرائم الدُّر بين الخنازير فتقذروها).

وكما قيل: المتكلم بالحكمة عند من لا يعقلها ويؤثرها فيقبلها كالمغنِّي عند رؤوس الموتى، وكذلك من أمات الله قلبه عن آياته فلم يقبلها هلكةً وموتاً.

وكما ذكر عن يحيى بن زكريا صلى الله عليه وسلم أنه صارت طائفة من الزنادقة وأبنائها إليه، يريدون تطهرته ومسألته تعنتاً وتمرداً، فقال لهم إذ علم أنهم لا يريدون بمسألته الرشد والهدى، عندما طلبوا من ذلك إليه: يا أبناء الأفاعي، ائتوا بثمرةٍ تصلح للتَّطهرة والتَّزكِّي، وأبى صلى الله عليه وسلم أن يطهرهم؛ إذ عرف كفرهم وأَمْرهم، فكتاب الله أولى ما أُعز وأُكرم، إلا عَمَّن آمن بالله واستسلم، فأما من أعرض عنه وتمرد عليه فحقيق بأن لا يعلم بسرٍ من أسرار حكم الله فيه.

ومن قبل مصير كتب الله إلينا، ومَنٍّ الله بتنزيله علينا ما صار من الله إلى السماوات ودار بين أكنافها، وشهد بتنزيله من ملائكة الله جميع أصنافها، ومن قبل منّه علينا به مَنَّ على الملائكة بعلمه، وما وهبهم من سماع حكمه، وفي ذلك من شهادتها وبيانه، وما نزل الله منه في فرقانه ما يقول سبحانه: ﴿لَٰكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا۝١٦٦﴾ [النساء]، فكفى بهذا الحكم لكتاب الله -والحمد لله- تبييناً وتوكيداً، وفيه حجة وبياناً، وعليه دلالة وبرهاناً، فأين يُتاهُ بمن غفل عنه؟ وهل يجد واجدٌ أبداً خلفاً منه؟!

كلا لن يجده ولو جَهِده جُهدَه، نزل به من الله سبحانه روح القدس، شفاءاً من المؤمنين لكل نفس، فزادهم به إلى إيمانهم إيماناً، ووهبهم به بصيرة وإيقاناً، وجعله الله عمىً ورجساً لمن كان عمياً نجساً، كما قال سبحانه: ﴿وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ۝١٢٤ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ۝١٢٥﴾ [التوبة]، فجعله الله لأعدائه ولمن لم يقبله(١) وعَمِي عنه رجساً وتباراً، كما قال تبارك وتعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا۝٨٢﴾ [الإسراء]، ﴿[وَإِنَّهُ لَـ]كِتَابٌ عَزِيزٌ۝٤١ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ۝٤٢﴾ [فصلت].

(١) في (أ): لا يقبله.

فكتاب الله إمام لكل مهتدٍ من الخلق رشيد، أعزَّه الله عن الوهنِ والتداحض فلا يتصلان به أبداً، ومنعه من أن يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه؛ إذ حفَّه بالنور والهدى، فنوره وهداه مقيمان أبداً معه، مضيئان مشرقان لمن قَبِله عن الله وسمعه، ساطع فيه نور شمسهما، بيِّنٌ هداه ونوره لملتمسهما، لا يميلان بمتبع لهما عن قصده، ولا يمنعان من طلب رشدهما من رشده، بل يدلانه على المراشد المرشدة، ويقصدان به الأمور المسعدة، التي لا يشقى أبداً معها، ولا يضل أبداً من اتبعها، فرحم الله امرأً نظر فيه فرأى سعادته ورشده وهداه، فجانب شقوته وغيَّهُ ورداه، قبل أن يقول في يوم القيامة مع القائلين: ﴿رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ ١٠٦﴾ [المؤمنين]، فضلال من ترك كتاب الله لا يَغبَى إلا على من لم يهبه الله عقلاً ولا لُبّاً، كتابٌ نزله الله الرحيم الأعلى برحمته(١) من فوق السماوات العلى، فأقر في أرضه قراره، وبثَّ في عباده أنواره، فنوره ظاهر لا يخفى، وضياؤه زاهر لا يَطفا، مشرقٌ نوره بالهدى يتلألأ، كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ٣٢﴾ [التوبة]. فأبى الله سبحانه إلا إتمامه فتم، وخاصم به من هُدي لرشده من خلقه فخصم، برهانه منيرٌ مضيءٌ، وتبيانه مسفر جلي، فهو من إسفاره وتبيانه وهداه ونوره وبرهانه كما قال الله فيه سبحانه: ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا ١٧٤ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا

---

(١) برحمته ساقط من (أ).

مُسْتَقِيمًا﴿١٧٥﴾ [النساء].

فمن اعتصم بنور كتاب الله وبرهانه، واتبع ما فيه من أموره وتبيانه- أدخله الله كما قال سبحانه مدخلاً كريماً، وهداه به كما وعد صراطاً مستقيماً، ومن أبصر به واهتدى لم يعمَ بعده أبداً، ومن عمي عنه فلم يرَ هداه، وتورط من غيّه ورداه في بحورٍ ذات لجٍّ من الجهالات، وتخبط في غور لجج من الضلالات، لا يخرج مَن تورط فيها مِن ضيق غورها، ولا ينجو غريق بحورها من نار(١) تبوبها، وحيرات سهوبها، فلا صريخ له فيها ينقذه من تبٍّ، ولا هادي له يهديه منها في سهب، فهو من لج بحورها في تبوب، ومن ضلالات غورها في سهوب، متحيِّر بينَ هلكة وتبور، وضلال حيرة في ظلمة بحور، موصول ضلاله وعماه بما هو فيه من عاجلته ودنياه، بعمى من الآخرة لا يبيد، بل له فيها البقاء أبداً والتخليد، كما قال الله سبحانه: ﴿وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴿٧٢﴾ [الإسراء]، فمن لم يستدل على أمر دنياه وآخرته بكتاب الله فلن يصيب عليه أبداً دليلاً، ومن لم ينج به من خبوت الحيرة والجهالة ويحيى بروحه من موت العمى والضلالة لم يزل لسبيل الجهل سالكاً، وبموت العمى والضلال هالكاً؛ لأن الله جعله روحاً من موت الضلالة محيياً، وضياءاً من ظلم الجهالة منيراً مصحياً، فمن أحياه الله بروحه فهو الحي الرضي، وما كان فيه من حق فهو المصحي المضيء، لا تلتبس به الأغاليط، ولا تشوبه الأخاليط، فهو النقي المحض، والجديد أبداً الغضّ، لا يُخلِقُ جِدَّتَه تكرار، ولا يدخل محضه الأكدار،

---

(١) في (أ): تارات.

بل نقي من ذلك كله فصفى، فأغنى بمنٍّ الله وكفى، فليس معه إلى غيره حاجة ولا فاقة، ولا يغلب حجته من ملحد فيه لدد ولا مشاقَّة، بل حججه الحجج الغوالب، وشهبُ نوره فالشهب الثواقب التي لا يخبو أبداً ضوء نورها، ولا تخرب أبداً عمارة معمورها، فيخبو بخبوِّها نور ضوِّها، ويخرب لو خربت بخرابها نمعة الله وهَّابها، فيكون خرابها تغييراً لها ولنعمة الله فيها، ولما جعله من هداه مضموماً إليها.

ولن يغير الله نعمة كما قال عز وجل عن قوم: ﴿حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد:١١]، ولن يلتبس شيء من هدى الله عليهم أبداً إلا بتلبيسهم، كما قال سبحانه: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ۝٥٣﴾ [الأنفال]، وفي التلبيس عليهم بتلبيسهم وما وكلهم الله إليه في ذلك من أنفسهم ما يقول الرحمن الرحيم: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ۝٨ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ۝٩﴾ [الأنعام].

وفي كتاب الله وترافده وتشابهه في البيان وتشاهده ما يقول سبحانه فيه وفيما جعله من ذلك عليه: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ۝٢٣﴾ [الزمر].

فهل بعد هذه الآية وبيانها لِملحدٍ أنصف نفسه في كتاب الله من حيرة في شك أو إلحاد لو لم يسمع فيه غيرها، إذا هو فَهِمَ تفسيرها، فكيف بما ثنَّى الله في الحجة

لذلك من المثاني، وكرَّر على ذلك من شواهد البرهان، التي فيها من الحجة والتبيين والإتقان ما هو أحق من كل رؤية وعيان، فليسمع سامع لتقرير الله سبحانه لعباده على الشهادة له بتنزيله لكتابه؛ إذ يقول سبحانه فيهم لمن أنكر أنه تنزيل من رب العالمين: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ۝١٣﴾ [هود]، فأمرهم تبارك وتعالى في ذلك بالحشد لأوليائهم، ولكل من قدروا عليه في ذلك من أعدائهم، ممن أنكر من القرآن ما أنكروا، وكفر بالله كما كفروا، فلم يستجب في ذلك له مجيب أحمق منهم ولا لبيب، وانحسروا عن الجواب له قاصرين، وغُلبوا بمنِّ الله صاغرين، ولو وجدوا على ذلك قوة لأجابوا فيه مسرعين الدعوةَ، ولو كان من جاء به بشراً لكان بعضهم عليه قوياً؛ لتشابه البشر في القول والنظر، والهيئات والصور.

ولعلم الله بعجزهم عن أن يأتوا بسورة واحدة من سُوَره، أو بشيء مما جعله فيه من هداه ونوره- ما يقول أرحم الراحمين لرسوله وللمؤمنين: ﴿فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ۝١٤﴾ [هود]، فهل بعد هذا من تقرير أو برهان أو تبصير لقوم يعقلون؟

ومن ذلك ومثله ما يقول سبحانه لرسوله صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا۝٨٨﴾ [الإسراء]، فكفى بهذا ومثله وبأقل أضعافاً منه -والحمد لله- تعريفاً وتقريراً.

وفيما برَّأ الله كتابه من الاختلاف والتناقض، وما خصَّه به من الحكمة والبعد

من التداحض ما يقول سبحانه: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا۝٨٢﴾ [النساء]، فهو الذي برَّأه الله من كل تناقض واختلاف وطهره تطهيراً، فلم ينظره بعين قلبٍ مبصرة ولا تمييز نفس زكية مطهرة مَن خفي عنه أن تنزيل الكتاب لا يمكن أن يكون من غير رب الأرباب؛ لعجز كل مَن سوى الله عن أن يأتي من آياته بآية، ولو عني بذلك وفيه بكل جهدٍ وعناية، لامتناع ذلك وعَوَزه عن ذلك وارتفاعه وعزه عن أن ينال نائلٌ ذلك أبداً منه، وأن يصاب أبداً إلا بالله وعنه.

فوالله ما ينال ذلك في ظاهره وعليِّه وبيِّنِه الذي لا يخفى وجليِّه، فكيف بما فيه من الأسرار والخفايا وما خُبِّئ فيه لأولياء الله من الخبايا؟

كيف بما في حواميمه من غرائب حِكَمه، وما في طواسينه من عجائب مكنونه، وما في ﴿ق﴾ و﴿طه﴾ و﴿يس﴾ من علمٍ جمٍّ للمتعلمين، وفي ﴿كهيعص﴾ و﴿الم﴾ والراءات من أسرار العلوم الخافيات، وما في المرسلات والنازعات من جزمِ أنباءٍ جامعات، لا يحيط بعلمها المكنون إلا كل مخصوص به مأمون. فَسِرُّ ما نزل الله سبحانه من الكتاب فخفِيٌّ على كل مستهزئ لعَّاب، وأسراره برحمة الله لأوليائه فعلانية، وأموره لهم فظاهرة بادية، فهو الظاهر الجلي المجهور، والباطن الخفي المستور، وهو بمنِّ الله المصون المبذول، والجَزْمُ الذي لا يدخل شيئاً منه هذرٌ ولا فضول، بل قرنت فيه لأهله مجامع كَلِمِه، وسهِّلَت به لهم مسامع حكمه، فقرعت من قلوبهم مقارع، ووقعت من أسماعهم مواقع، لا يقعها من غيرها عندهم واقع، ولا يسمع بمثل تفسيرها منهم أبداً سامع، فمن

أبى ذلك وأنكره أن يكون كذلك فليأتِ بمثل سورة كبيرة من سوره كلها أو صغيرة، ولن يفعل ولو أجلب بالخلق كلهم معه أبداً، ولن يزداد بذلك لو كان كذلك من أن يأتي بمثلها إلا بعداً، كما قال الله سبحانه: ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ۝٢٣ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ۝٢٤﴾ [البقرة].

وفي الكتاب والقرآن وما جعل الله فيه من البيان ما يقول سبحانه لرسوله صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ۝١٦ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ۝١٧ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ۝١٨ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ۝١٩﴾ [القيامة]، فما على الله تبارك وتعالى بيانه فلن تضل عنه أبداً حجته ولا برهانه.

وفي تعجب مستمعة الجن به وما سمعوا عند استماعهم له من عجبه ما يقول سبحانه لرسوله صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا۝١﴾ [الجن]، فجعله تبارك وتعالى لهم عجباً معجباً.

وأيُّ عجبٍ أعظم أو حكمةٍ أحكم، أو كتاب أعلى وأعزّ، وأحفظ من كل ضلالٍ وأحرز، لمن كان من أهله، أو مُنَّ عليه بتقبله، عند من يفهم أو يعقل، أو يفرق بين الأمور فيفصل- من حكمة الله في تنزيله ووحيه، وما جعل فيه من ضلال عدوه وهدى وَلِيِّه؟ وهو أمر من أمور الله واحد، يضل به الضال ويرشد عنه الراشد، فهو ضلالٌ لمن ضل عنه، وهدى ورشدٌ لمن قبل منه، ونجاةٌ لمن اتقى ورحمة وبركة، وخزي على من تعدى ونقمة وهلكة، كما قال سبحانه: ﴿الم۝١ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ۝٢ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ

وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ۝٣﴾ [البقرة].

وفي بركة كتاب الله وما أمر به من تدبره، وما وهب لأولي الألباب من الذكر به ما يقول سبحانه: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا ءَايَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ۝٢٩﴾ [ص].

فنحمد الله رب الأرباب على ما وهب من الهدى بما نزَّل من الكتاب، ونسأله أن لا يزيغ قلوبنا بعد إذ هداها، وأن يمتعنا فيه بما وهب لها من هداها، وأن يجعلنا له إذا قُرئ من المستمعين بالإنصات، وأن ينفعنا بما نزل فيه من الآيات، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، عليه توكلنا وهو رب العرش الكريم.

تم المديح الكبير بمنٍّ اللطيف الخبير، وصلى الله على رسوله سيدنا محمد النبي وعلى آله الطيبين، وسلم تسليماً كثيراً

مديح القرآن الصغير

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الذي جعل الهدى فيما نزل من كتابه مكمَّلاً، ونزل برحمته للعباد منه بياناً كريماً مفصَّلاً، فيه لمن استغنى به أغنى الغِنى، ولمن اجتنى ثمرات هداه أكرم مجتنى، لا يجتَوي عن جنابه أبداً مجتوٍ، ولا يَدَّوِي[١] مع شفائه أبداً مُدَّوٍ[٢]، نور أعين القلوب المبصرة، وحياةُ ألباب النفوس[٣] المطهرة، إلف فكر كل حكيم، وسكن نفس كل كريم، وقصص الأنباء الصادقة، ونبأ الأمثال المتحققة، ويقين شكوك حيرة الارتياب، وخير من صوحب من الأصحاب، سر أسرار الحكمة، ومفتاح كل نجاةٍ ورحمة، قول أرحم الراحمين، وتنزيل من رب العالمين، نزل به الروح الأمين، فأيُّ مُنزِّلٍ سبحانه ونازل وتنزيل[٤]، لقد جل سبحانه وتنزيله عن كل تمثيل، وطهر وتقدس -إذ وَلِيَه بنفسه ونزل به روح قدسه- عن قذف الشياطين وأكاذيبها، وافتراء مردة الآدميين وألاعيبها، فأُحكم عن خطل الوهن والتداحض، وأُكرِم عن زلل الاختلاف[٥] والتناقض، فجُعل بآياته مترافداً، وبضياء بيناته متشاهداً، غير متكاذب الأخبار، ولا متضايق الأنوار، بل ضحيان النور، فيحان الأمور، سيحان الأنهار بالحياة المنجية، واسع الأعطان والأفنية، ساطع النور والبرهان، جامع الفصل والبيان، فأنواره بضيائه زاهرة، وأسراره

(١) في نخ: يدوى.

(٢) في نخ: دوي.

(٣) في نخ: وحياة الألباب والنفوس.

(٤) في نخ: فأي منزل سبحانه وتبارك وتنزيل.

(٥) في (أ): الخلاف. وفي نخ: خطل الاختلاف.

لأوليائه ظاهرة، فما إن يواري عن أهله الذين اسْتُودِعُوا علمه من سرَائره سريرة، ولا يدع ما وضح من نوره في قلوبهم من مشكله حيرة، بعزائم حكماته المنزلة، ودلائل آياته المفصّلة.

فسبحان من جاد به طولاً، وجعل سببه به موصولاً، لقد أجلّ سبحانه به المنة على العباد، ودلهم به تبارك وتعالى على كل رشاد، فجاد لهم منه بما لا تجود به نفسٌ وإن عظم جودها، وكبر في الجود بالعطايا(١) المحمودة محمودها، لقد جاد لهم منه بكنوز لا تبلى، وأعطاهم به عطيَّةً لا يجد لها واجدٌ وإن جهد مِثلاً، فبذل لهم منه كنز الكنوز، ودلهم به على كل نجاة وفوز، فتح لهم به أبواب الجنان، وهداهم به سبيل الرضوان، ونبأهم فيه عن نبأ السموات العلى، وما مهد تحتهن من الأرضين السفلى، وما فتق من الأجواء بين الأرض والسماء، وعن خلق الملائكة والجن والإنس فقد نبأهم، وعن كل علم كريم مكنون فقد به أتاهم، قصَّ به عليهم أخبار القرون الماضية، وخبرهم فيه بمن أُهلك بذنبه من الأمم العاتية، فكل عجيب من الأشياء أو قصة كريمة من قصص الأنبياء فقد أوصل فيه علمها إليكم، وأورد عجيب نبئها به عليكم.

فعلى كتاب ربكم هداكم الله فاقتصروا، وبه فهو ذو العبر فاعتبروا، ففيه نوافع العلم، وجوامع الكلم، التي يستدل بقليلها على كثير من ملتبس قال وقيل، ويشتفى من علمها(٢) بتفسير أدنى ما فيها من دليل.

---

(١) في (أ): وكبر بالجود في العطايا.

(٢) في نخ: من علتها.

فسبيل قصده فاسلكوا، وبه ما بقيتم فتمسكوا، فهو ذروة الذرى، وبصر من لا يرى، وعروة الله الوثقى، وروح من أرواح الهدى، سماويٌّ أحله الله برحمته أرضه، وأحكم به في العباد فرضه، فلا يُوصَلُ إلى الخيرات أبداً إلا به، ولا تُكشف الظلمات إلا بثواقب شهبه، مَن صحبه صحب سماوياً لا يجهل، وهادياً إلى كل خير لا يضل، ومؤنساً لقرنائه لا يُمَلُّ، وسليماً لمن صحبه لا يَغِلُّ، ونصيحاً لمن ناصحه لا يغشّ، وأنيساً لمن وانسه لا يوحش، وحبيباً لمن حابَّهُ لا يبغض، ومقبلاً على من أقبل عليه لا يعرض، يأمر بالبر والتقوى، وينهى عن المنكر والأسواء، لا يكذب أبداً حديثاً، ولا يخذل من أوليائه مستغيثاً، إن وعد وَعْداً أنجزه، أو تعزَّز به أحدٌ أعزه، لا تَهِنُ لأوليائه معه حجة، ولا تبلى له(١) ما بقي أبداً بهجة، لا يخلقه كرٌّ ولا ترداد، ولا يلّم به وهنٌ ولا فساد، ولا يعيا به وإن لَكُنَ لسان، ولا يشبه فرقانَه فرقان، ومن قبلُ ما صَحِبَ الروحَ الأمين، والملائكة المقربين، فكان لهم هادياً ومبيناً، وازدادوا به من الله يقيناً.

فاتخِذوه هادياً ودليلاً، واجعلوا سبيله لكم إلى الله سبيلاً، حافظوا عليه ولا ترفضوه، واتخذوه حبيباً ولا تبغضوه؛ فإنه لا يحب أبداً له مبغضاً، ولا يُقبل على من كان عنه معرضاً، ولا يُهدَى إليه من عاداه، ومن تعامى عنه أعماه. لا يبصر ضياءه إلا من تأملَّه، ولا يُعطِي هداه إلا أهله، من ضل عنه أضله، يُقلِّد جهله مَن جَهِلَه(٢)، إن أُدبر عنه أَدبر، أو أُقبِل إليه بصّر.

---

(١) في (أ): لهم.

(٢) في نخ: ويزيد من جهله جهالة.

جعله الله يتلوّن في ذلك بألوان، ويتفنن فيه على أفنان، فهو الهادي المضل، وهو المدبر المقبل، وهو المسمع المصم، وهو المهين المُكرِم، وهو المعطي المانع، وهو القريب الشاسع، وهو السر المكتوم، وهو العلانية المعلوم، فمرَّةً يهدي إليه من اصطفاه، ومرّةً يُضل من أبى قبول هداه، ومرةً يُقبل على من أقبل إليه، ومرة يدبر عمن التوى في الهدى عليه، ومرةً يُسمع من استمع منه، ومرةً يُصِم من أعرض عنه، ومرةً يهين الأعداء، ومرةً يكرم الأولياء، يعطي من قَبِل عطاه، ويمنع من أبى قبول هداه، يَقرُب لمن ارتضاه، ويَشْسع عمن سخط قضاه، يَعْلَنُ لأوليائه ويظهر، ويكتتم عن أعدائه ويستتر، نور هدىً على نور، وفرقان بين البرِّ والفجور، أرشدُ زاجرٍ وآمرٍ، وأعدل مقسط ومقدر، يوقظ بزجره النُّوَّما، ويعظ بأمره الحكماء، ويُحيي بروحه الموتى، ولا يزيد من مات عنه إلا موتاً، يعدل أبداً ولا يجور، وكل أمره فَقَدرٌ مقدور، ظاهره ضياء وبهجة، وباطنه غور ولجّة، لا يُملك حسنُ أنواره، ولا يدرك باطن أغواره، فمن ظهر لظاهر منَاظِره رأى أعاجيبه في موارده ومصادره، ومن بَطُنَ لمستَبطَنِه رأى مكنون محاسنه، من غرائب علمه، وأطايب حِكَمِه، لبابُ كل لباب، وفصل كل خطاب، وحكمة من حكم رب الأرباب، اكتفى به منه في هداه لأوليائه، واصطفى به من خصَّه الله سبحانه باصطفائه، فمصابيح الهدى به تُزهِر واهجة، وسُبُل التقوى به إلى الله تلوح ناهجة، يحتاج إليه ولا يَحتاج، سراجه أبداً بنوره وهَّاج، يُعلِّم ولا يُعلَّم، ويُقوِّم ولا يُقوَّم، فهو المهيمن الأمين، والفاصل المبين، والكتاب الكريم، والذكر الحكيم، والرضا المقنع، والمنادي المسمع، والضياء الأضوى، والحبل

الأقوى، والطود الأعلى الذي يعلو ولا يُعلى، ولا يؤتى لسورة مِن سوره أبداً بمثل ولا نظير، ولا يوجد فيه اختلاف في خبر ولا حكم ولا تقدير، فصل كل خطاب، وأصل كل صواب.

فجعلنا الله وإياكم من أهله، وعصمنا وإياكم بحبله، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على محمد النبي وآله وسلم تسليماً.

وبعد، فإنا لما رأينا فيه من جوامع الهدى واليقين، وكان الهدى واليقين به مقدَّمة مُعتَصَمِ كل دين- علمنا متيقنين[١] وأيقنّا مستبينين، أن لن نصيب رشداً ولن ننال مطلوبَ هدى إلا به وعن تفسيره، وبما نوّر الله القلوب به من تنويره، فنظرنا عند ذلك فيه، واستعنا بالله عليه، فوجدناه بمَنِّ الله لكل عِلمٍ من الهدى ينبوعاً، ورأينا به كل خير في الهدى مجموعاً، فلا خير في الحياة الدنيا كخيره، ولا يهتدى لأحكام الله بغيره، من طلب الهدى في غيره لم يجده أبداً، ومن طلبه به وجد فيه أفضل الهدى، فقصدنا قصده، والتمسنا رشده، فأيّ رشد فيه وجدنا؟! وإلى أيّ قصدٍ منه قصدنا؟ تالله ما غابت عنه من الهدى غائبة، ولا خابت لطالب فيه خائبة، لقد كشف ستور الأغطية، وأظهر مكنون[٢] سرّ الأخفية، فأوجدَ مطلوب ملتمسها، وأبان ملتبس مقتبسها.

على ما بُلي به قديماً من تلبيس ملوك الجبابرة وأتباعها من علماء العوّام المتحيرة، في توجيهها له على أهوائها وتصريفه، وتأويلها له بخطئها على تحريفه،

---

(١) في نخ: موقنين.

(٢) في نسختين: مكتوم.

حتى عُطِّل فيهم قضاؤه، وبُدِّلت لديهم أسماؤه، فسميت الإساءة فيه إحساناً، والكفر بالله إيماناً، والهدى فيه عندهم ضلالاً، وعلماء أهله جهالاً، ونور حكمه ظُلَماً، وبصر ضيائه عمى، بل حتى كادت أن تُجعل فَاؤُهُ أَلِفاً، وألفه للجهل بالله فاءاً؛ تلبيساً على الطالب المرتاد، وضلالة من العامة عن الرشاد، فنعوذ بالله من عماية العمين، والحمد لله رب العالمين.

فلولا ما أَبَّدَ الله من كتابه وحججه، وأذكى سبحانه من تنوير سرجه- لأبَادَ حُجَجَه بتظاهرهم المبطلون، ولأطفأ سُرُجَه الظلمةُ الذين لا يعقلون، ولكن الله سبحانه أبى له أن يطفى، وجعله سراجاً لأوليائه أبداً لا يخفى، ولذلك ما يقول سبحانه: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴿٣٢﴾﴾ [التوبة].

ولعلنا -ولا قوة إلا بالله العلي الكبير، وبالله نستعين على ما هممنا به لكتابه من التفسير- أن نضع مما علَّمنا الله فيه طرفاً، وأن نَصِفَ فيه من وصوف[1] الحق وصفاً، نُبين عنه بما يُحْضِرنا فيه الله من التبيين، ونعتمد فيه على ما نزّله الله به من هذا اللسان العربي المبين[2]، فإن الله جعله مفتاح علمه، ودليل من التمسه على حكمه، فلا يُفتح أبداً إلا بمفاتيحه، ولا تُكشف ظلمه إن عرضت في فهمه إلا بمصابيحه، فعنه فاستمعوا، وبه وفيه فانتفعوا، واعلموا أنا لن نضع من ذلك إلا قليلاً وإن أكثرنا، وأنا وإن بلغنا من تفسيره كل مبلغ فلن نمسك عنه إلا وقد

---

(١) في نخ: وصف.

(٢) في (أ): العربي العزيز المبين.

قصّرنا، وأن لكل تفسير منه تفسيراً، وأن أقلّ تفسيره كثير، ولكل باب منه أبواب، وكل سبب فقد تَصِلُه الأسباب(١)، إلا أنا سنقول في ذلك بما يُحضِرُنا الله فهمه، وما نسأل الله أن يهبنا في كتابه علمه.

ونبدأ من تفسير كتاب الله بما نرجوا أن يكون الله به بدأ، من تفسير السورة التي أمر نبيَّهُ أن يسأله فيها الهدى، وسماها عوامّ هذه الأمة فاتحة الكتاب والفرقان، وقال بعضهم: اسمها أمُّ القرآن، وذلك مما يدل من يستدل على أنها أول ما نزل، لا كما يقول بعض جهلة العوام بغير ما دليل ولا برهان: إن أول ما نزل من القرآن: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ۝١ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ۝٢﴾ [العلق].

ألا ترى كيف يقول: اقرأ ما نقرئك باسم ربك الذي نزل عليك، فأخبر جلّ ثناؤه أن قد نزّل عليه قبلها الاسم الذي أمره أن يقرأ به(٢) فيها ولها، وأن يقدمه في القراءة عليها، ثم يصير بعد القراءة به(٣) إليها.

ألا ترى أنه لو كان ما قد قرأ هو ما أُمِرَ عليه السلام أن يقرأ لكان إنما أُمر بفعل تامّ مفعول، وقول قد تقدم مقول(٤)، وإنما اسم ربه الذي أُمِرَ أن يقرأ به بسم الله الرحمن الرحيم، الذي قدّم له في صدر كل سورة عند أول كل تعليم، والحمد لله وحده، وصلواته على سيدنا محمد النبي وعلى آله.

تم المديح الصغير، بمَنِّ الله اللطيف الخبير.

---

(١) في نخ: أسباب.

(٢) في نخ: بقراءته في أولها.

(٣) في نخ: له.

(٤) في نخ: وقول مقدم مقول.

الناسخ والمنسوخ

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي أحسنُ الكلمِ كلامه، وأعدل الحكم في الأمور كلها أحكامه، فحكمه أفصل الفصول، وقوله فأنور القول، وعلى قدر بُعده من شبه الخلق في التعالي والجلال بَعُدَ منهم فيما حكم به وقاله من المقال، فكان قوله نوراً وهدى وروحاً، وحكمه كله مصلحاً مشروحاً، فلن يدخل قوله عوج ولا أَوَد، ولن يلم به جور ولا ظلم مفند، كله رشد ونور وحياة، وهدى وبر ومصلحة ونجاة، فمن حيَّ بروحه في الدنيا لم يمت فيها بضلالةٍ أبداً، ومن فاز به في دنياه فاز به في آخرته فوزاً مخلداً.

نزَّل الله برحمته(١) كتاباً وفرقاناً، وبيَّن بتنزيله فيه كل شيء تبياناً، كما قال سبحانه لرسوله صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴿٨٩﴾﴾ [النحل]، فليس بعد قوله: ﴿تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى﴾ فاقةٌ، ولا حاجةٌ في شيء [منهن للمؤمنين](٢) وكل ما نزَّل الله سبحانه من ذلك في القرآن، وفصَّل به وفيه من التبيان- فقولٌ منه لا إله إلا هو لا كالأقوال، ذو بهجة ونور وحياة وبهاء وجلال، وكلام بان عنه(٣) سبحانه بصوت لا كالأصوات، [صوت كريم لم يحكه مصنوع اللهوات](٤) ولم

---

(١) في نخ: نزل الله لرحمته به كتاباً.

(٢) ما بين المعقوفين ساقط من (أ).

(٣) قوله عليه السلام: «وكلام بان عنه بصوت لا كالأصوات»: المعنى: صدر عن الله بغير لسان ولهوات وشفتين. (من خط السيد العلامة المجتهد محمد بن عبدالله عوض المؤيدي حفظه الله).

(٤) ما بين المعقوفين ساقط من (أ).

تقطعه عواجز الأفواه، ولم يخرج من بين جوانح وشفاه، ولو أنه من تلك كان أو عنها من الله بان لكان لما كان من مثل ذلك مثلاً وكفياً، ولما كان كما جعله الله نوراً وروحاً، حتى يهدي بنوره مِن ظلم الضلالة، ويحيي بروحه مَن مات من أهل الجهالة، حتى يُرى بعد موته لإحيائه له به حياً، وحتى يمشي به مَن هَداه بنوره مبصراً بعد أن كان عمياً، كما قال سبحانه: ﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴿١٢٢﴾﴾ [الأنعام]، وقال سبحانه: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴿٥٢﴾ صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ﴿٥٣﴾﴾ [الشورى]، فنورُ كتاب الله زاهرٌ مضيء يتلألا، وما جعل الله به من الحياة فحياة لا تبيد أبداً ولا تبلى.

فتبارك الله الذي نزل الكتاب ولم يجعل له عوجاً، قيماً، بل جعله كما قال سبحانه كتاباً مضيئاً مفصلاً محكماً(١): ﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ﴿٤١﴾ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴿٤٢﴾﴾ [فصلت]، فكان في إحكامه لآياته وتكريمه له وإجادته فوق كل محكم ومجيد، كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَجِيدٌ﴿٢١﴾ فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ﴿٢٢﴾﴾ [البروج]، فهو خير ما وعظ به واعظ واتعظ به موعوظ.

---

(١) في نخ: حكيماً. وفي نخ: مكتملاً.

والحفظ في هذه الآية واللوح فهو الأمر المثبت البين المشروح، والمجيد فقد يكون المتقن المحكم، ويكون العزيز العظيم المكرم، كما قال الله سبحانه لرسوله صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْءَانَ الْعَظِيمَ۝٨٧﴾ [الحجر]، فهو كما قال الله جل ثناؤه العظيم.

وفي تكريم الله له ما يقول تبارك وتعالى: ﴿إِنَّهُ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ۝٧٧﴾ [الواقعة]، وفي حكمة كتاب الله ما يقول سبحانه: ﴿الر تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ۝١﴾ [يونس]، وفيه ما يقول جل جلاله: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْءَانَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ۝٦﴾ [النمل].

فكتاب الله بمنِّ الله بيِّن يلوح، منير زاهر مشروح، عند من وهبه الله علمه، وفهَّمه آياته وحكمه، لما وصل به من نوره، وفصَّل فيه من أموره، مقدَّماً ومؤَّخراً، وأمراً ومزدجراً، وناسخاً ومنسوخاً مبدلاً؛ نعمةً ورحمةً وفضلاً، تصريفاً[(١)] فيه كما قال سبحانه للآيات والأمثال، وزيادة منه به[(٢)] في المنِّ والنعمة والإفضال: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا۝٥٤﴾ [الكهف]، وقال سبحانه ضارباً ومصرفاً وممثلاً: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْءَانِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ۝٢٧ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ۝٢٨﴾ [الزمر]، وقال سبحانه: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ

---

(١) في (أ): يصرفها.

(٢) «به» ساقطة من (أ).

قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾﴾ [البقرة]، فتبديل الآيات ونسخها وإنساؤها[١] فهو تفهيم من الله للسامعين لها وتذكير، عن غير نقض ولا تبديل، ولا سخطٍ لحكم من أحكامه في التنزيل؛ لأنه لا معقب -كما قال- لحكمه وفصله، ولا مبدل لشيء من كلماته وقوله.

وفي ذلك ما يقول جل جلاله عن أن يتناقض في شيء من[٢] حكمه ومقاله[٣]: ﴿وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٤١﴾﴾ [الرعد]، ويقول تبارك وتعالى في أهل الكتاب: ﴿وَالَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾﴾ [الأنعام]، وبما بدل من الآيات في القول، والكلم لا في المعنى ولا في حكم الله المحكم، وفيما نسخ بالقول المبدل في كتاب الله المنزل[٤]، تبييناً[٥] من الله وتصريفاً، ورحمةً منه وتعريفاً- ما هلك عبد الله بن سعد بن أبي سرح؛ إذ لم يَبِنْ له ما قلنا به من ذلك ولم يتضح، أيام كان يكتب الوحي لرسول الله[٦] صلى الله عليه وآله وسلم، فاختلف عنده بعضه في القول والمعنى، فما[٧] اختلف منه عنده واحد لا يختلف، وإن كان القول به قد

---

(١) في (أ، د): وإنشاؤها.

(٢) «من» ساقطة من (أ).

(٣) في (د): أو مقاله.

(٤) في (أ): في كتاب الله ووحيه المنزل.

(٥) في (د): تثبيتاً.

(٦) في (أ): للرسول.

(٧) في (أ): فيما.

يتسع وينصرف، فلما عسف فيه النظر ارتد عن الإسلام وكفر.

فعلمُ الناسخ والمنسوخ والمبدل عصمةٌ لأهله فيه من الهلكة والجهل، ونسخ الآية -هداكم الله- وتبديلها فقد يكون تصريفها بالتبيين والإيضاح وتنقيلها(١)؛ لتبين في عينها، بإيضاحها وتبيينها، لا نسخ نقض ولا وَهْمٍ ولا اختلاف، ولا تبديل بَدَاء ولا تعقب ولا اعتساف، وكيف والله يقول سبحانه: ﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾(٢) [الكهف:٢٧]، ويقول تبارك وتعالى: ﴿لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ﴾ [الرعد:٤١]، ويقول: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴿٨٢﴾﴾ [النساء]، فكفى بهذا فيما قلنا به هدايةً ودلالةً وتعريفاً -والحمد لله- وتبصيراً.

ولو كان التبديل للآية والنسخ لها هو غيرها لكانت إذاً الآيات منسوخة مبدلة كلها، فالنسخ للآية والإبدال ليس هو الإفناء للآية والإبطال؛ لأن الآية لو أُفنيت وأُبطلت إذا نُسخت وبُدِّلت لما قيل: بدلت ونُسخت، ولقيل: أُبطلت الآية وأُفنيت، وأُبدلت(٣) آية أخرى غيرها وأُنشئت، ألا ترى أن الآية لا تكون مبدلة ولا منسوخة إلا وعينها قائمة بعدُ موجودة، [ألا ترى أن النطفة تبدل علقة، والعلقة تبدل مضغة، والمضغة تبدل عظاماً، وما بعد ذلك فما جعل للإنسان تماماً، والعين موجودة](٤) لم تفنَ وإن بُدلت ولم تبطل وإن بطل وفني

---

(١) في (أ): وبنقلها.

(٢) في (أ) ونخ: لا مبدل لقوله ولا يوجد في القرآن هذا اللفظ.

(٣) في (أ): وابتديت.

(٤) ما بين المعقوفين من (أ).

بعض صفات المبدل، أولا ترى أنك لو نسخت شياً لم يكن نسخك له مفنياً[١]، ولم تكن له ناسخاً أبداً، إلا بأن ترده بعينه رداً، فإن جئت بضده وغيره لم تكن ناسخاً له بعينه، فالآيات كلها أمثال وأخبار، وأمرٌ من الله جل ثناؤه وازدجار، وذلك كله من الله في أنه حق وصدق فواحد غير مختلف ولا متفاوت وإن نُسخ وبُدِّل وصُرِّف بالنسخ له والتبديل ونقل، كله أمرٌ من الله ونهي، وتنزيل من الله ووحي.

وقد ينسخ[٢] الله إلقاء الشيطان فيما ينزله الله من وحي وقرآن بذكره له عنه، وتبيين ما كان فيه منه، فإذا ذكر الله ذلك كله وعرَّفه -جل ثناؤه- مَنْ جَهِلَه نفاه من وحيه فأبطله، فنقي تنزيل الله من ذلك بإحكام الله له وَتَبرًّا، من كل وهن وتناقض عند من يبصر[٣] بعينِ فكرهِ ويرى، كقوله سبحانه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾﴾ [الحج]. وتأويل ألقى في أمنيته: إنما هو إلقاء في قرآءته وتلاوته، وليس ذلك كما يقول مَن جهلَه من العامة[٤]: إنه يلقيه على اللسان فينطق به من رسول أو نبي شفتان[٥]، ولم

(١) في (أ): لم تكن له بنسخك مفنياً.
(٢) في (أ): وقد نسخ.
(٣) في (أ): يبصره.
(٤) في (أ): كما تقول جهلة العامة. وفي (د): كما تقول من جهلة العامة.
(٥) في (د): شيطان.

يجعل الله سبحانه على رسول ولا نبي للشيطان مثلَ ذلك التمكين(١) والقدرة والسلطان، كيف والله تبارك وتعالى يقول: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْءَانَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ۝٩٨ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ۝٩٩ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ۝١٠٠﴾ [النحل].

وفي مثل ما قلنا ما يقول رب العالمين: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ۝٤٢﴾ [الحجر].

وجهلة العامة يزعمون أن الشيطان ألقى على لسان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو يتمنى ويقرأ ذكر آلهةَ قريش من اللات والعزى، فقرأ في ذكرها: (وإن تلك لهي الغرانيق العلى، وإن شفاعتها عند الله لترتجى(٢))، وهذا لا يجوز على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ظنه ولا توهمه، فضلاً عن أن يثبت عليه صلى الله عليه وآله وسلم قوله أو ظنه، وهذا ومثله وما كان نظيراً له فإذا ألقي في تنزيل الله ووحيه أو أمرِ الله ونهيه(٣) نسخه الله فنفاه، وأبطله ونحّاه، والله سبحانه لا يبطل ولا ينفي وحيه بنسخه وتبديله وإن صرفه فزاد أو نقص من الفرض في تنزيله، كقوله سبحانه: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا ءَايَةً مَكَانَ ءَايَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ۝١٠١ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ۝١٠٢﴾ [النحل]، فكل أمر الله ونهيه هدى ورحمة، ومَنٌّ مِن الله

---

(١) في (أ): من التمكين.

(٢) في (أ): لترجى.

(٣) في (أ): أو نهيه.

على خلقه ونعمة، فكذلك أمر النسخ والتبديل، وما ذكر منهما جميعاً[١] في التنزيل.

[ذكر بعض أنواع النسخ وبيان حسن ذلك]

ومن الناسخ والمنسوخ -فاعلموه- ما كان يزاد به في الفرض تكليفاً، أو ينقص[٢] به منه رحمة من الله فيه وتخفيفاً، وفي ذلك كله بمنِّ الله[٣] وفضله من البركة والرفق، ومن الرحمة بحسن السياسة والتدبير للخلق ما لا يستتر ولا يخفى إلا على من جهل وجفا، كالوصية التي أُمِرَ بها من ترك خيراً عند الموت للوالدين والأقربين بالمعروف، ثم زيد فيما أمر به من ذلك[٤] ما هو أكثر من التوارث بجزء مسمى[٥] موصوف، من سدس وثلث وربع، في مفترق من المواريث ومجتمع، كرجل ترك ابنه وأبويه، فلكل واحد من الأبوين السدس لا يزاد عليه، فإن تركهما وزوجة كان لها الربع فريضة، وللأم ثلث ما يبقى، وهو الربع من جميع المال، وكذلك ما سمى[٦] من مواريث الأقربين في مختلفات الأحوال.

وكما أمر به من صلاة ركعتين في الحضر والسفر، ثم زيد في فرضها فجعلت أربعاً في الحضر، وكقوله سبحانه في التخفيف والوضع لرحمته من التكليف[٧]:

---

(١) «جميعاً» ساقطة من (أ).

(٢) في (أ): وينتقص.

(٣) في (أ): من الله.

(٤) من ذلك ساقط من (أ).

(٥) في (د): ما هو أكثر التوارث بحد مسمى.

(٦) في (أ): سمي.

(٧) في (أ): وللتكليف.

﴿الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا﴾ [الأنفال:٦٦]، فنقص ووضع من ذلك عنهم فرضاً كان موظَّفاً، وأشياء كثيرة لما تسمع وترى، في أمور جمة لا يحصيها كتابنا أخرى.

فهذه وجوه من الزيادة والتخفيف في الفرض، لا يشك مَن يعقل في أن بعضها(١) من بعض، ليس في شيء منها اختلاف ولا تناقض ولا بداء كما قال من كان في كتاب الله وأحكامه ملحداً، بل كلها بمنِّ الله مؤتلف متفق، وجميعها فمصدِّق بعضه لبعض محقِّق، ليس فيها -والحمد لله- لأحد مقال يلحد به(٢) فيه إلا مفتر بطَّال.

ومن ذلك ما يذكر عن الإنجيل وفيه من قول عيسى صلى الله عليه: (إني لم آتكم بخلع التوراة ولا بخلافها، ولم أبعث إليكم لنقض شيء مما جاءت به الرسل من وظائفها، ولكني جئت لذلك كله مثبتاً، [ولما أماته ذلك كله مميتاً](٣)، وبحق أقول لكم: إنه لن يُبيد الله(٤) وصيته حتى تبيد وتنتقض السماوات والأرض، وقد قيل لكم في التوراة: لا تقتلوا النفس المحرمة، ومن قتلها فإن الله يدخله جهنم المحرقة، وأنا أقول لكم: إن من قال لأخيه شتماً: يا رغل -والأرغل: هو الذي لم يختتن- فإن له في الآخرة بشتم أخيه نارَ جهنم).

---

(١) في (أ): بعضهن.

(٢) «به» ساقطة من (أ).

(٣) ما بين المعقوفين ساقط من (أ).

(٤) في (أ): وبحق أقول لكم: إنه لم تبد من آيات الله آية ولم تبطل، ولم تنتقض من وصايا الله وصية حتى تبيد..إلخ.

وهذا فمن زيادة الفرض وتوكيده، ومن رحمة الله للعباد في حكمه وتسديده، وكل ذلك فهدى من الله للعباد ورشد، وكل ذلك(١) فقد يجب به لله على عباده الشكر والحمد.

ومن ذلك قول عيسى صلى الله عليه في التنزيل لمن بعثه الله إليه من بني إسرائيل: ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ [آل عمران:٥٠]، وقول الله سبحانه لأهل الكتاب: ﴿النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف:١٥٧].

ومن ذلك وبيانه قول الله سبحانه: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾ [النساء:١٦٠]، فجعل تحريمه عليهم بعض ما حرم(٢) بعد الإحلال من العقاب لهم بظلمهم وعداوتهم والنكال، فهذا ومثله وما كان مشبهاً(٣) له فمن زيادة فرضه تأكيداً وتثقيلاً، وعقاباً به لمن ظلم من عباده وتنكيلاً، وليس في شيء من هذا كله ولا من تخفيف الفرض فيه ولا من تثقيله(٤) تناقض بحمد الله في حكم من أحكام الله، ولا بداء ولا تعقيب ولا اختلاف عند من له بحكمه وفضله اعتراف(٥).

---

(١) «فكل ذلك» ساقط من (أ).

(٢) «بعض ما حرم» ساقط من (أ).

(٣) في (أ): مشابهاً.

(٤) في (أ): ولا من تخفيف الفرض فيه وتثقيله.

(٥) في (أ): عند من له بحكمة الله أو فضله اعتراف.

ومن لم يكن بالحكمة مقراً معترفاً لم يكن إلا عمياً معتسفاً، ومن كان معتسفاً عمياً لم يكن في حقائق الأمور مهتدياً، ومن عمي وفارق الهدى كان للبهائم مثلاً ونداً، كما قال الله سبحانه: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان]، وصدق الله لا شريك له فيما قال به فيهم تشبيهاً وتمثيلاً، لهم أضل من البهائم ضلالاً، وأقل في الهدى دركاً ومنالاً(١)؛ لأن الأنعام وإن ضلت عن الهدى في الدين، ولم تدرك شيئاً إلا بحاسة من عين أو غير عين- فهي مدركة لما ينفعها ويضرها من المرعى، وليس كذلك الضالون من أهل العمى؛ لأن من عمي في الدين كان أخذه لما يضره فيه أكثر من أخذه لما ينفعه، وكان ما رآه منه وسمعه كما لم(٢) يره ولم يسمعه، كما قال الله سبحانه لرسوله صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف]، فكفى بهذا فيهم دليلاً على(٣) ما مثلهم به سبحانه لقوم يفقهون.

ألا(٤) ترون أن البهيمة تجانب ضرها في معاشها وتأخذ نفعها، وتحسن لصالح مرتعها من المراتع الصالحة تتبعها، فمن ضل في الدين فهو أعظم ضلالاً منها، وهو فمقصر صاغر(٥) في العلم عنها، فكتاب الله بريء كله من الوَهَن والتداحض، نقيٌّ في الألباب من كل اختلاف وتناقض، واضح عند أهله مضيء

---

(١) في (ب): ومثالاً.

(٢) في (أ): كمن لم.

(٣) «على» ساقطة من (أ).

(٤) في (أ): أولا.

(٥) في (أ): صاغراً.

الإيضاح، بأضوأ في أنفسهم من وضح الإصباح(١).

ونسخ ما نسخ منه وإبداله فمن آيات الله فيه جل جلاله، لا يأبى ذلك فيه ولا يدفعه إلا مَن لا يفهم الكتاب ولا يسمعه إلا بإذنه لا بيقينه، فأما من سمعه بيقينِ قلبِه ولُبِّه فهو موقن بأنه من آيات ربه؛ لما بينا من ذلك وذكرنا، وأوضحنا فيه ونوَّرنا، والحمد لله على ما فصَّل من الآيات، وبيَّن برحمته من الرشد والهدايات.

فمن عرف يا بني وصل الكتاب من فصله، ومُنساه ومقرَّه من منسوخه ومبدَلِه- سَلِم بإذن الله من الهلكات، واعتصم بمعرفته من الشبه المضلات(٢)، ومن عمي وتحيَّر عن ذلك وقع في بحور من المهالك(٣)، لا ينجيه من أمواج لجج غورها إلا من وهبه الله فهم آياته ونورها، وعرف بإذن الله المتصل من المنفصل، والمقرَّ المنسأ من المنسوخ المبدل(٤)، وعلم أن النسخ والتبديل(٥) فيه من الله رحمة لخلقه، وحكمة منه سبحانه زاد بها في تبيين(٦) حقه؛ إذ صرَّف بالتبديل فيه(٧) لهم الأقوال، وضرب به لهم في التفصيل الأمثال، فقال سبحانه: ﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ۝٢٥﴾ [إبراهيم]، وقال سبحانه:

(١) في (أ): الإيضاح.

(٢) في (أ): من الشبه والمعضلات.

(٣) في (أ): من الهلكات.

(٤) في (د): والمبدل.

(٥) في (د): أن المنسخ المبدل.

(٦) في (د): مبين.

(٧) «فيه» ساقطة من (أ).

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۝٣﴾ [الرعد]، فمن لم يكن له نظر ولا فكرة لم تنفعه آية ولا تذكرة، وطبع على قلبه، ورِينَ عليه بكسبه، كما قال سبحانه: ﴿وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ۝٨٧﴾ [التوبة]، و﴿بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ۝١٤﴾ [المطففين].

وما ذكر الله من الران والطبع فهو بما كان لهم من الخطيئة في الصنع[١]، فليس -بحمد لله- علينا لمبطل في المنسوخ من كتاب الله والمبدل علة في توهين، ولا لبسة في دين.

[اعتراض الملحدين على القرآن بما فيه من التكرير والجواب عليهم]

ومن علل الملحدين وأهل الأضاليل ما يعارضون به في الكتاب والتنزيل بما فيه من ترديد الله[٢] للكلام في تبيينه، وما ذكر الله من البيان فيه رحمة منه لأهل دينه، وفي ذلك بمن الله وإحسانه من الرحمة والنعمة، ومن البيان المكرم عما[٣] جعل بذلك فيه من العلم والحكمة ما لم يزل يعرف أهل النهى والعلم أنه[٤] من أرحم الرحمة، وأحكم ما يعقلون من مفهوم الحكمة، ومما قلنا به من ذلك وفيه وما لم يزل أهل الحكمة والرحمة عليه ما يقول بعض حكماء الأولين وقدماء من يُعرف بالحكمة[٥] من الخالين، وهو يردد الكلام ويكرره ليفهمه خليل له عنه:

(١) في (أ): والصنع.

(٢) «الله» ساقط من (د).

(٣) في (أ): مما.

(٤) «أنه» ساقط من (أ).

(٥) في (أ): وقدماء من كان يعرف الحكمة.

أُكْثِرُ عليك من التكرير في قيلي، يا سنون صفوتي وخليلي، لما في الترديد والتكرير للكلام من العون والقوة على الإفهام.

وفي ذلك ما يقول آخرُ من الحكماء، وفي أوائل(١) من خلا من القدماء: ربما احتيج إلى القول الكثير الطويل في الإبانة عن المعنى اليسير القليل مع من(٢) لا نحصيه منهم في عدده، ممن كان يعرف فضل تكرير القول وتردده(٣)، في ملتمس(٤) الحكمة ومبتغى الرحمة.

ونحن بعدُ فنقول بما(٥) لا تنكره العقول: إنه إذا كان القليل من البيان بياناً وإحساناً في عينه فالإكثار منه والتكرير أوضح في إحسان المحسن وتبيينه، لا يأبى ذلك ولا ينكره مَن صح(٦) فيه فكره ونظره.

وفي تبيينه البيان وتكريره في القرآن، وما في(٧) ذلك من المن والإحسان والحجة لله والبرهان- ما يقول سبحانه لرسوله صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْءَانَ الْعَظِيمَ۝٨٧﴾ [الحجر]، وفي ذلك من البيان ما يقول سبحانه: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي

---

(١) في (أ): أول.

(٢) في (أ): مع ما.

(٣) في (أ): وترديده.

(٤) في (أ): ملتبس.

(٥) في (د): مما.

(٦) في (أ): من أوضح.

(٧) في (د): وما هو في ذلك.

بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴿٢٣﴾ [الزمر]، فكفى بما ذكرنا من(١) هذا كله على ما في التكرير والتثنية والترديد من الهدى والرشاد، فبالله نستعين على شكره في ترديده وتبيينه لبيانه، وما مَنَّ به علينا في ذلك(٢) من إحسانه، فلولا رحمته لخلقه وحكمته في تبيين حقه لما كرَّر فيه [من تنويره](٣) ولا ردد، ولا وكد في تبيينه بما وكد، ولاكتفى فيه بقليل القول من كثيره، وبجملة التنزيل من تنويره، ولكنه أبى سبحانه لرحمته ولما أراد من إبانة حكمته إلا ترديده وتكريره، وإبانته بذلك وتنويره، فنوَّر منه برحمته أنورَ النور، وأوضحَ أمرَه فيه بأوضح الأمور.

فتعلموه يا بَنِيَّ وعلِّموه -وفقكم الله لرشد- ما وهبكم الله ومنَّ به عليكم من أهلٍ أو ولدٍ ومن رأيتموه وإن كان في النسب بعيداً إلى الله قاصداً ولله مريداً، فإن في تعليمه وعلمه ودرك فهمه وحكمه النجاةُ(٤) المنجيةُ والفوز، وهو فكنز الله المكنوز، الذي كَنَزه وأخفاه(٥) لمن رضيه واصطفاه، وطواه فواراه عمن هجره وجفاه، فلن يفهمه عن الله إلا مجِدٌّ في علمه مجتهد، ولن يصيب علمه من أهله إلا طالب له مسترشد(٦).

---

(١) في (د): في هذا.

(٢) «في ذلك» ساقط من (أ).

(٣) ما بين المعقوفين ساقط من (د).

(٤) في (أ): المنجاة المنجية والكنز.

(٥) «وأخفاه» ساقط من (أ).

(٦) في (أ): ولن يصيب علمه أبداً إلا طالب مسترشد.

[العلم بقدر القرآن وقصده]

واعلموا يا بَنِيَّ -علَّمكم الله الكتاب والحكمة، ونفى عنكم بها يعلمكم منها العمى والظلمة- أنَّ أول علم الكتاب وتعلمه العلمُ بقَدْرِهِ عند الله وعِظَمِه، وأنَّ(١) من لم يعلم قدره وغرضه أعرض عنه وهجره ورفضه، فقلَّ به هداه وانتفاعه، ولم ينفعه مع الجهل(٢) استماعه، بل خسر به ورَجُسَ، كما قال مَن جلّ وتقدس: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴿٨٢﴾﴾ [الإسراء]، فجعله كما تسمعون للمؤمنين شفاء ورحمة، وللظالمين عمى وخساراً ونقمة، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ [فصلت:٤٤].

وفيما زِيدُوا به من الرجس مع ما فيه من الحكمة والقدس ما يقول الله سبحانه: ﴿وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا﴾ [التوبة:١٢٤]، قال الله سبحانه: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴿١٢٥﴾﴾.

فغرضُ كتاب الله يا بني وقصدُه فهو هداية الله به ورشده، والرشد من الله والهدى فهو الفوز بالخير والنجاة من الردى، ومن ظفر برشده وهُداه فقد أصلح الله دينه ودنياه.

---

(١) في (د): وأن كان من لم.

(٢) في (أ): من الجهل تعرضه واستماعه.

وليس يا بني بعد فوت الدين والدنيا حياةٌ لأحد من الخلق ولا بُقيا، فليكن أول ما تخطرون في الكتاب ببالكم وترمون إليه فيه -إن شاء الله- بأوهامكم ما ذكرت لكم(١) من غرضه ووصفت، ووقَّفت عليه من قصده وعرَّفت، فمن لم يعرف غرض ما يريد وقصده لم يبذل في الطلب له جهده، ولم يعلم منه أبداً هداية ولا رشداً، فخرج(٢) من علمه كله صفراً، ولم يصب بشيء منه ظفراً، وكان كمن سلك طريقاً لا يعرف وجهته ولا قصده، فتبع فيه ضلالته وحيرته وتلدده، فلم يزدد من الهدى إلا نقصاً وبُعداً، فهلك وأهلك، فَضَلَّ(٣) وأضل عن سواء السبيل، وجثم وأقام هالكاً متحيراً بين هلكات الأضاليل، لا يبصر رشده فيه ولا هداه، مهلكاً لمن أطاعه، مطيعاً لمن أرداه(٤)، لا يرى فيه للهدى علَمَاً، ولا يطأ به من رسومه رسماً.

فاعرفوا يا بَنِيَّ هديتم لرشدكم ما قد حددته لكم في كتاب الله من القصد والغرض، فإن بعض ذلك يدعو إلى بعض، فمتى تعرفوا يا بني غرض كتاب الله وقصده يبذل كل امرئ منكم في طلبه جهدَه، ويفز منه بالحظ الأوفر، ويظفر منه(٥) بالفوز الأكبر، فيستأنس(٦) به من الوحشات، ويكتفي بعلمه من

---

(١) «لكم» ساقطة من (د).

(٢) في (أ): وخرج.

(٣) في (أ): وضل.

(٤) «مطيعاً لمن أراده» ساقط من (أ).

(٥) في (أ): فيه.

(٦) في (أ): فيأنس.

القياسات التي قاسها(١) في الدين، وضل(٢) بها عن اليقين مَن رغب عنه إلى غيره، ولم يستنر منه بمنيره، فعَمِهَ في ضلالات المضلين غَرِفاً متسكعاً؛ إذ(٣) لم يكن بكتاب الله مكتفياً ولا عنه مستمعاً، يستفيد الباطل من المبطلين ويفيده، معرضاً عن حق المحقين لا يطلبه ولا يريده، راضياً لنفسه بالهلكة من النجاة، وبالموت الموصول بنكال الآخرة من الحياة، يَعدُّ غيَّه وعماه رشداً(٤)، وضلالته عن الرشد هدى، قد زاد غيَّه وعماه ما أسعده من دنياه، لَمَّا أسلمه الله لحيرته إليه بما أمده به من ماله وبنيه، فاستدرجه(٥) به من الآمال والعافية(٦) من نوازل البلاء، كما قال تبارك وتعالى فيهم [وفيما أمدهم به من مالهم وبنيهم](٧): ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ ۝٥٥ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لَا يَشْعُرُونَ ۝٥٦﴾ [التوبة]، ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ۝١٧٨﴾ [آل عمران]، فغرض كتاب الله المبين فإنما هو التبيان واليقين.

وقد تعلمون أن كل ذي صناعة أو تجارة ما(٨) كانت أو بيَاعة قد عَلِم قبل

---

(١) في (د): من القماشات التي قمشها.

(٢) في (د): فضل.

(٣) في (د): إذا.

(٤) في (د): وعماه بَعْدُ رشداً.

(٥) في (أ): واستدرجه.

(٦) في (د): بالعافية.

(٧) ما بين المعقوفين من (أ).

(٨) في (أ): ما كانت.

ملابسته لها ودخوله فيها ما قصدها وغرضها، وما دعا أهلها إليها، كما قد رأيتم وأيقنتم من حال البنَّاء الذي قد علم قبل دخوله فيما يريد أن غرض البناء رفع السقوف والحيطان، وعقد العقود والطيقان.

وكذلك النجار فيما يريد بعمله من النجارة، فقد علم قبل دخوله فيها أن غرضها عمل الكراسي والأبواب والأسرة(١)، وكذلك مثلهما في علم غرض ما يريد غيرهما من التجارة والبياع، فهم في علم غرض التجارة والبيع وما يريدون فيه كالصُّنّاع، قد علم كل تاجر من بر أو فاجر ما غرض بيعه وتجارته علم الصانع بصناعته، وعلى قدر علم كل صانع وتاجر منهم أو بائع يجدُّ ويجتهد، ويسعى ويحتفد، فيقل فتوره، ويجلُّ سروره.

فلا يكونن أحد منهم فيما يزول عنه(٢) ويفنى أجد منكم فيما يدوم لكم أبداً ويبقى، ولا يدخله خسارة ولا نقصان، ولا وضيعة ولا خيبة أبداً ولا حرمان، فإن تُقَصِّروا في ذلك تكونوا أخسر فيما تعدونه من التجارة والصناعة خسراناً منهم، بقدر ما فرق الله في ذلك بينكم وبينهم، فأعوذ بالله لي ولكم من الخسران المبين، فإنه عند الله هو الخسران في الدين، وذلك فهو الخسران والضلال البعيد، الذي لا يخسره -بمنِّ الله وإحسانه- رشيد.

فمنه يا بَنِيَّ أرشدكم الله فتحرَّزُوا، وعنه بالله ما بقيتم فتعززوا، فإنه هو العز(٣) الأعز، والحرز الحصين الأحرز، الذي لا يكون أبداً معه ضياع، ولا

---

(١) «والأسرة» ساقط من (د).

(٢) في (أ): عنهم.

(٣) في (أ): العزيز.

يخسر فيه تجار ولا صنَّاع.

وفي ذلك وأولئك ما يقول الله سبحانه: ﴿وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ [الرعد:٢٢]، فافهموا هداكم الله عن الله هذا البيان والنور، واعرفوا قوله جل جلاله: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ۝٣٦ رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [النور:٣٧].

واعلموا أن التجارة مشغلة وملهاة لكل من آثر على دينه دنياه(١)، وبَخِلَ عن الله من الدنيا بما أعطاه، واقتصر لنفسه مما ينجيها على رجاء المغفرة وتمنِّيها، مقيماً على المعاصي لا يزول عنها ولا يبرح، ظالماً في ذلك لنفسه لا يشفق عليها ولا ينصح(٢)، ولا يقبل من رشده وهداه إلا ما وافق محبته وهواه، عدوّاً لمن نصحه في الله، معرضاً عمن دعاه إلى الله، إن عرِّف ما جهل من حق لم يعرفه، أو نازع فيه ولياً من أولياء الله لم ينصفه، مفترٍ عليه فيه بهَّات، له جلبة بجهله وأصوات، يقول الباطل، ويتبع الجاهل، ليس له في نصح الناصحين حظ ولا نصيب، ولا له مع جهله من الصالحين ولي ولا حبيب، فهو كما قال صالح نبي الله ورسوله صلوات الله عليه ورضوانه، إذ تولى عن قومه عند نزول عذاب الله بهم ونقمته(٣): ﴿فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَاقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ۝٧٩﴾ [الأعراف]، وقوله: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ۝١٥٠ وَلَا تُطِيعُوا

---

(١) «دنياه» ساقط من (أ).

(٢) «ولا ينصح» ساقط من (أ).

(٣) في (أ): لهم. وسقط منه: ونقمته.

أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ۝١٥١ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ۝١٥٢﴾ [الشعراء]، فأسرفُ الإسراف[١] وأفسدُ الفساد كل ما صدّ[٢] بأهله عن الهدى والرشاد.

وأرشدُ الرشاد[٣] والهدى، وأقصده إلى كل خير قصداً تنزيلُ الله ووحيه، وأمره فيه ونهيه، وهو يا بَنِيّ الذكر الحكيم، وفيه ما يقول الخبير العليم: ﴿ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ۝٥٨﴾ [آل عمران].

[ذكر الله بالقرآن]

وفيما خص الله به ذكره من الكرامة والتعظيم ما يقول سبحانه: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا۝٤١ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا۝٤٢﴾ [الأحزاب]، فكفى بهذا الذكر لله سبحانه تعظيماً وتجليلاً، مع ما يكثر من هذا[٤] ومثله في كتاب الله وتنزيله، قال الله سبحانه: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ۝٣٦﴾ [النور]، والتسبيح وإن كان من ذكر الله والإجلال[٥]، فأكثرُ الذكر وأجمله وأكرم القول وأفضله ذكرُ الله تعالى بما نزل من الكتاب، فَبِهِ يا بَنِيّ فاذكروا رب الأرباب؛ فإن ذلك هو الذكر المقدم عند ذوي الألباب، ذكرني الله وإياكم منه بخير، ونفعني[٦] ونفعكم بكتابه المنير، فإنه

---

(١) في (أ): فأسرف السرف.

(٢) في (أ): كل من صد.

(٣) في (أ): الرشد.

(٤) في (أ): في هذا.

(٥) في (أ): والتسبيح إن كان من الذكر والإجلال.

(٦) «ونفعني» ساقط من (أ).

أفضل المنافع، وخيرها سلكاً في المسامع[١]؛ لما فيه من ذكر الله وعلمه، وما دلَّ عليه من أمره وحكمه.

فمن أعظم الذكر لله والتذكير به ذكرُه بما ذكر به نفسه من آياته وكتبه، فبتلاوة الكتاب فاذكروه تُجلُّوا الكتاب وتوقروه، ولا تكتفوا بتلاوة الكتاب مِن تدبُّره، ولا ترضوا من قراءته بهذِّه ونثره، فإنه ذكر أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ قال: ((لا تنثروا القرآن نثر الدقل[٢]))، فاقرأوه يا بني إذا قرأتموه بالترتل والترسل، وتفهموه بالإطالة والترتيل، وعندما ذكره الله سبحانه من ناشئة الليل، ففي ذلك ما يقول تعالىٰ لرسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: ﴿وَرَتِّلِ الْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ۝٤ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝٥ إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا ۝٦ إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ۝٧﴾ [المزمل]، يقول سبحانه: إن لك في النهار مهلاً وتمهيلاً، فكفىٰ فيما[٣] وصفت لكم بهذا بياناً ودليلاً، فالحمد[٤] لله وَلِيِّ المن به وبغيره من الإحسان، ونسأل الله العون علىٰ ما نزل في وحي كتابه من البيان.

واعلموا يا بني أن في كتاب الله جل جلاله حرامُ الله كله وحلاله، فليس لأحد تحليل ولا تحريم إلا به، فمن أبىٰ ذلك فهو من الجاهلين بربه، لقول الله تبارك وتعالىٰ فيه: ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾

---

(١) في (أ): وأفضل ما سلك من المسامع.

(٢) الدقل: رديء التمر ويابسه وما ليس له اسم خاص، فتراه ليبسه ورداءته لا يجتمع ويكون منثوراً. (نهاية).

(٣) في (د): بما.

(٤) في (أ): والحمد.

[الأنعام:١٩٩]، ولقوله سبحانه في تنزيله بعد ما ذكر فيه من تحريمه وتحليله: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة]، وكفى بهذا على ما قلنا به فيه علماً وتبييناً.

[متشابه القرآن وما يظن متشابهاً وهو محكم]

وفيما نزل الله يا بَنَيَّ من وحيه بعد الذي بيَّن فيه من أمره ونهيه متشابهٌ باطنٌ خفي، لا يبين منه أبداً شيء، جعله الله متشابهاً كذلك(١) ليس يعلمه أحدٌ غير الله لذلك، وكيف [يعلم أحد منه ما طواه بتشابهه عنه، وكيف](٢) وإن اجتهد(٣) أبداً، وأهدى ما في ذلك من الهدى فهو العلم بأنه لا يعلم، وهو القول فيه وعند النظر إليه(٤) بما ذكر الله سبحانه أنه قال [الراسخون في علم متشابه الكتاب](٥): ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ۝٧﴾ [آل عمران]، فليس يعلم منه متشابه الآيات إلا من علمه إياه رب السماوات.

ومن كتاب رب الأرباب ما يُظن ويُتوهم متشابهاً وهو محكم، إلا أنه قد دخل(٦) فيه بعض الوهم على بعض من سمعه من أهل العلم، فإذا ثُبِّتَ فيه(٧)

---

(١) في (أ): وكذلك.

(٢) ما بين المعقوفين من (أ).

(٣) في (أ): جهد.

(٤) في (د): للقول فيه عند النظر.

(٥) ما بين المعقوفين من (أ).

(٦) في (أ): يدخل.

(٧) في (أ): أثبت فيه. وفي (د): تثبت فيه.

ودل عليه أسفر له وأنار، ووضح له وبان.

ومن ذلك ما ذكر عن الكلبي عن أبي صالح عن عمر بن الخطاب أنه قال لابن عباس يوماً من الأيام: (يا أبا العباس، ضربتني البارحة أمواج القرآن في آيتين قرأتهما لم أعرف ما تأويلهما؟

فقال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: ما هما يا أمير المؤمنين؟

قال: قوله: ﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ [الأنبياء:٨٧]، فقلت: سبحان الله! أيظن نبي من أنبياء الله أن الله لا يقدر عليه، وأنه يفوته إن أراده، [ما ظَنَّ هذا مؤمن؟!](١).

وقوله: ﴿حَتَّى إِذَا اسْتَيْئَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا﴾ [يوسف:١١٠]، فقلت: سبحان الله كيف هذا؟ أيئسَ الرسل من نصر الله، أو تظن أن قد كذب وعد الله، إن لهاتين الآيتين خبراً من التأويل(٢) ما فهمته؟!

فقال ابن عباس: أما ظن يونس فإنه ظن أن لن تبلغ به خطيئته أن يُقَدِّر الله بها عليه العذاب، ولم يشك أن الله إن أراده قدر عليه، فهذا قوله: ﴿فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ﴾، وأما قوله: ﴿حَتَّى إِذَا اسْتَيْئَسَ الرُّسُلُ﴾ فهو استيئاسهم من إيمان قومهم، وظنهم فهو: ظنهم لمن أعطاهم الرضا في العلانية أنه قد كذَّبهم في السر، وذلك(٣) لطول البلاء عليهم، ولم تستيئس الرسل من نصر الله، ولم يظنوا

---

(١) ما بين المعقوفين ساقط من (أ).

(٢) في (أ): لخبراً كامن التأويل.

(٣) «وذلك» ساقط من (أ).

أن الله قد أخلفهم ما وعدهم.

فقال عمر: فرجت عني فرَّج الله عنك.

قال ابن عباس: فإن رجلاً لقيني آنفاً فقرأ عليَّ قول الله: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ﴾ [البقرة:٢٢٢]، فإذا هو يقول: حتى يطهرن بالماء، ﴿فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾، يعني[1] قبلاً ودبراً، فقلت: كفى مَن ذَهَبَ إلى هذا التأويل بهذا التأويل كفراً، إنما عنى الله تبارك وتعالى: حتى يطهرن من الدم، فإذا تطهَّرن منه[2] بالماء ﴿فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾، يعني: طاهرات غير حُيَّض.

فقال عمر: إن قريشاً لتُغْبَط بك يا ابن عباس، بل جميع العرب، بل جميع أمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

وقال في ذلك خريم بن فاتك الأسدي:

ما كان يعلم هذا العلمَ من أحدٍ ... بعد النبي سوى الحبر ابن عباس

من ذا يفرج عنكم كل معضلةٍ ... إن صار رمساً مقيماً بين أرماس[3]

مستنبط العلم غضاً من معادنه ... هذا اليقين وما بالحق من باس

وصدق لَعَمْري عمر بن الخطاب، إن الأمة لتغبط بأن يكون فيها ومنها مَن

(١) «يعني» ساقط من (د).

(٢) «منه» ساقطة من (أ).

(٣) ذكر القصة ابن عساكر في تاريخ دمشق وذكر مع هذه الأبيات بيتين آخرين، وروى عجز البيت الثاني هكذا: إن صار رهناً مقيماً بين أرماس، ونسب الأبيات إلى أيمن بن خريم.

يجادل أهل الإلحاد في تنزيل الله والكفر بآيات الله سبحانه عنها.

ولفي مجادلة من ألحد وأبطل، أو جَهِلَ[١] بيان الكتاب فعطَّل، ما يقول الله سبحانه لرسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴿١٢٥﴾﴾ [النحل]، وفي مثل ذلك ما يقول رب العالمين بعد رسوله عليه السلام للمؤمنين: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ [العنكبوت:٤٦]، ذلك لما جعل الله في المجادلة لمن ظُلِمَ بالحجة من الدفاع[٢] عنهم.

ولفي[٣] ذلك والحمد لله قديماً، وإذا كانت الحجةُ في الله صراطاً[٤] مستقيماً ما يقول سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ﴾ [البقرة:٢٥٨]، يريد الملك بقوله: أميت وأحيي أني أقتل من أردت وأحسن[٥] وأخلي، فلما حاجَّ إبراهيم الملك بحجته في ربه، ودعاه بدليل الحياة والموت إلى ما دعاه الله إليه من المعرفة به، فلم يقر الملك بما عرف، وأنكر وكابر وعسف- احتج إبراهيم صلوات الله عليه من الحجة بما لا دعوى له فيه، من إتيان الله بالشمس من مشرقها، فقطعه إبراهيم بحجة الله [وحقها، ثم زاد الحجة عليه تأكيداً، وقول إبراهيم بحجة الله][٦] تثبيتاً[٧] وتسديداً، قولُه: ﴿فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ﴾. فلما جاءه[٨]

(١) في (أ): وجهل بيان الكتاب ففصل.

(٢) في (أ): الدفع.

(٣) في (أ): ونفى.

(٤) في (أ): شرطاً مستقيماً.

(٥) في (د): وأحبس.

(٦) ما بين المعقوفين ساقط من (أ).

(٧) في (أ): تبييناً.

(٨) في (د): حاجه.

من الحجة بما يغلب كل مغالب، كما قال سبحانه: ﴿فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ﴾، وقطعت عليه بحجة الله حجته فيما أنكر فلم يجد عندها مقالاً، وكذلك يفعل الله بمن كان عن الهدى ضالاً، كما قال في أمثاله رب العالمين: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ۝٢٥٨﴾، ولقد كان[(١)] في قول إبراهيم صلى الله عليه: ﴿رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾، ويقين الملك أنه سيموت- ما أغنى كثيراً وكفى[(٢)] لو كان الملك بما يعرف مقراً معترفاً؛ لأن الحياة والموت فعلان موجودان، وصنعان لا شك في أنهما[(٣)] من الصانع معدودان، لا ينكر ما قلنا به فيهما من ذلك سامع، ولا يدعي صنعهما إلا بمكابرة من مدعيهما صانع، وإذا صحَّا وثبتا صنعاً وفعلاً، وكان الملكُ وغيرُه عليهما مجبوراً مجتبلاً، ليس لأحد فيهما صنعٌ، ولا يمتنع منهما ممتنعٌ- فلا بد باضطرارٍ مِنْ صانعِهما وفاعلهما ومتولي صنعهما واجتبالهما، إذا ثبتا صنعاً وفعلاً وكان كل واحد منهما بدعاً مجتبلاً. ولكفى بحجة إبراهيم صلى الله عليه بالموت -إذ لا يقدر أحدٌ منه على فوت- حجةً وبرهاناً ودليلاً، وللمعرفة بالله منهجاً وسبيلاً، فكيف بما مع ذلك من دلائل الله وشواهده؟ وبرهان معرفة الله الذي لا يقدر أحد على معدوده؟!

وفي محاجَّة إبراهيم عليه السلام لقومه ما سمعتموه في كتاب الله عز وجل من قوله عندما رآه من ملكوت السماوات والأرض، وما دلَّه الله به من بعض ذلك على بعض، إذ يقول سبحانه: ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ۝٧٥ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي﴾ [البقرة]، فقال ذلك مفهماً لقومه وموقِّفاً، ومحتجاً عليهم في الله ومعرِّفاً، لا معتقداً لآلهتهم ولا ممترياً، ولا شاكّاً فيها ولا عمِياً، قال الله تبارك وتعالى: ﴿فَلَمَّا أَفَلَ

---

(١) في (أ): ولقد بان.

(٢) «ما أغنى كثيراً وكفى» ساقط من (أ).

(٣) في (أ): وطبعان لا شك فيهما.

﴿قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ ۝٧٦﴾، وكذلك قوله عليه السلام في القمر لما رآه بازغاً: ﴿هَذَا رَبِّي﴾ يقول صلى الله عليه وسلم لهم: لئن لم يهدني ربي ويرفعني عنكم[1] لأكونن ضالًّا مثلكم ومنكم، فلما وقَّفهم على الحجة مفاوهة، وأثبتها لهم فوقَّفهم مواجهة قال لهم: ﴿قَالَ يَاقَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ۝٧٨ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ۝٧٩﴾.

وفيه وفيهم ما يقول الله سبحانه: ﴿وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ﴾، يقول صلى الله عليه وسلم: وقد أراني من آياته ودلائل معرفته ما أراني من أرضه وسمائه، وفطرته لهما وإنشائه، فنجاني بذلك من هلكتكم بجهله والإشراك به وخلصني، وخصَّني مع النجاة من هداه لي إلى معرفته بما خصني، فلولا هداه لي لكنت من الضالين، ولعبدتُّ كما عبدتم الآفلين، وكيف يكون من أفَلَ وزال وتبدل عن معهود حاله واستحال كمن لم يزل ولم يحل ولم يتغير عن حال ولم يتبدل؟! وفي تبدل الذات في الصفات والأحوال[2] ما لا يدفع عن المتبدل من الإفناء والإبطال، وما بطل وفني فخلاف ما دام وبقي، وما اختلف وتفاوت من الأشياء فليس يحكم له -إلا من ظلم- بالاستواء، فكيف سويتم في معنى بين ما يدوم وبين ما يفنى؟ إلا أن تسووا في مقال واحد بين كاذب وصادق، وكما سويتم فيما تحبون من العبادة وغيرها بين مخلوق وخالق.

وفي ذلك من جور الحكم في الفعل[3] والمقال ما لا يجهل جورَه أجهلُ الجهال، بل فيه بمن الله أَحْوَلُ المحَال، وما لا يمكن اجتماعه في حال، فلما قطعهم صلى الله عليه وسلم بحجته في مقالته خسئوا صاغرين عن منازعته[4]

---

(١) في (أ): عليكم.

(٢) في (أ): وفي تبدل الصفات والأحوال.

(٣) في (د): في العقل والمقال.

(٤) في (أ): عن نزاعه.

ومجادلته، فلما صموا عن إجابته بعد الهدى هاجر إلى الله سبحانه عنهم مجاهداً، وقال: ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ۝٩٩﴾ [الصافات]، سيهدين يريد: يزيدني بمهاجرتي إليه من هداه فيوفقني[١]، فهَدَاه في هجرته سبيله، وجعله بهداه له خليله، فلم يزل صلى الله عليه وسلم مهتدياً، حتى قبضه الله إليه على هداه ورشده رضياً، فأجزل له في الهدى والهجرة الثواب والرحمة، وجعل في ذريته من بعده النبوةَ والكتاب والحكمة، وأعطاه برحمته وفضله اللهُ ربُّ العالمين ما سأله أن يجعل له من[٢] لسانِ صدقٍ في الآخرين، فبقي في الغابرين بالصالحات[٣] ذِكرُه، وآتاه بذلك في الدنيا أجره، كما قال أرحم الراحمين: ﴿وَءَاتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ۝٢٧﴾ [العنكبوت]. فنسأل الله الذي أجزل له في الدنيا والآخرة من الخير[٤] أن يجعلنا له برحمته من صالح الأبناء، وأن يهبنا بطاعتنا له وعبادته شكرَ ما أنعم به علينا من ولادته.

تم الكتاب بحمد الله العزيز الوهاب، فله الحمد كثيراً، وله الشكر بكرة وأصيلاً، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

---

(١) في (د): فيقويني.

(٢) «من» ساقطة من (أ).

(٣) في (أ): فبقي في الآخرين بالصالحين.

(٤) في (أ): من الأجر.

تفسير القرآن

تفسير سورة الحمد

قال الإمام القاسم بن إبراهيم عليه السلام:

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، تأويل: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ فهو: الشكر لله على نعمه وإحسانه، والتحميد لله والثناء عليه، ومن الحمد قيل: محمود وحميد، كما يقال من الجود: جواد ومجيد.

والله لا شريك له فهو الذي تأله إليه القلوب، ويستغيث به في كل كرباته المكروب، وإليه يجأر الخلق كلهم جميعاً ويألهون، وإياه سبحانه يعبد البررة الأزكياء ويتألهون، دون كل إليه وربٍّ ومعبود، وإياه يحمدون في كل نعمة قبل كل محمود.

وتأويل: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ فهو: السيد المليك، الذي ليس معه فيما ملك مالك ولا شريك.

وتأويل قوله سبحانه: ﴿الْعَالَمِينَ﴾ فيراد به الخلق أجمعون، الباقون منهم والفانون، والأولون منهم والآخرون.

وتأويل: ﴿الرَّحْمَنِ﴾ فهو: ذو الغفران والمَنِّ والإحسان.

وتأويل: ﴿الرَّحِيمِ﴾ فهو: العفوُّ عن الذنب العظيم، والناهي عن الظلم والفساد؛ لما في ذلك من رحمته للعباد، ضعيفهم وقويهم، وفاجرهم وبرِّهم.

وتأويل ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ فهو: مالك أمر يوم الدين، الذي لا ينفذ أمر في ذلك اليوم غير أمره، ولا يمضي فيه حكمٌ غير حكمه، والمَلِكُ: من المُلْكِ، والمالك: من المِلْكِ، وهما يقرءآن جميعاً، وكلاهما معاً فلله، فهو يوم الجزاء

والثواب والعقاب، وإنما سمي الدين لما يدان أي: يجازى، قال: معنى يوم الدين فهو: يوم يدان العاملون أعمالهم، ويجزون يومئذٍ بهداهم وضلالهم.

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ فهو: نوحد ونفرد.

﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ نسأل العون على أمرنا، وتوفيقنا لما يرضيك عنا.

﴿اهْدِنَا﴾، وفقنا وأرشدنا.

﴿الصِّرَاطَ﴾، والصراط: هو السبيل الذي ليس فيه زيغ ولا ميل، قال جرير:

أمير المؤمنين على صراطٍ إذا اعوج الموارِدُ مستقيمِ

و﴿الْمُسْتَقِيمَ﴾ فهو: الطريق الواضح الذي افترضه الله إلى الطاعة، المعتدل الذي ليس فيه عوج ولا ميل، فهو لا يجور بأهله عن قصده، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ﴾ [الأعراف:٨٦].

﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ يقول: طريق الذين أنعمت عليهم من عبادك الصالحين، الذين وفقتهم وهديتهم لرشدهم.

﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ تأويل ذلك غير المغضوب عليهم منك.

﴿وَلَا الضَّالِّينَ﴾ يقول: ولا صراط الضالين بالهوى والعمى عنك؛ لأنه قد ينعم جل ثناؤه في هذه الدنيا على مَن يَضِلُّ عنه، ومن لا يقبل ما جاء من الهدى والأمر والنهي، ولمن يغضب جل ثناؤه عليه من الكافرين، يقول: اهدنا صراطاً غير صراط الذين غضبت عليهم، والمغضوب عليهم في هذا الموضع فهم: اليهود، ﴿وَلَا الضَّالِّينَ﴾ يقول: ولا صراط الضالين، والضالون فهم في هذا الموضع: النصارى.

تفسير سورة الناس

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله عز وجل: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾، هذا أمر من الله لنبيه أن يتعوذ وأن يقول هذا القول، ومعناه: أستجير وألوذ برب الناس، فالرب: هو السيد المليك، مالكهم وفاطرهم، والقادر عليهم والرازق لهم.

﴿مَلِكِ النَّاسِ﴾، والملك: فهو الذي ليس له في ملكه شريك معارض.

﴿إِلَهِ النَّاسِ﴾، والإله: فهو الذي تأله إليه ضمائر القلوب، وهو الرب الذي ليس بصنع ولا مربوب.

وتأويل ﴿مِنْ شَرِّ﴾، فهو: من كل مفسد مضر. وتأويل ﴿الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ۝٤ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ﴾، فهو: ما وسوس في الصدور، ﴿مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾، والموسوس فقد يوسوس بحضوره في الصدرو ويخنس، وقد تكون الوسوسة من الموسوس في الصدر ما يكون فيه من الذكر والخَطْرِ.

وخنوس الوسواس: مفارقته وغيبته عن الصدور، ووسوسته فما ذكرنا من الخطر والحضور، وما ذكر الله عز وجل في ذلك من الوسواس فقد يكون كما قال الله سبحانه: ﴿مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾، والناس فهم: الآدميون، فأمر الله نبيه أن يتعوذ من شر شياطين الجن والإنس، وشياطينُ الجن والإنس فهم: المغوون المردة الملاعين من جني أو إنسي.

وفي ذلك ما يقول الله سبحانه: ﴿شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ﴾ [الأنعام:١١٢]، وشياطين الإنس أقوى على الإنسان وأشد عليه من شياطين الجن.

وتأويل ﴿الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ﴾ فهو: الشيطان الخانس، فهو يخنس عن أعين الناس فلا يرونه، ومعنى يخنس: فهو يغبى فلا يرى، فهو الشيطان عليه لعنة الله، يوسوس بحضوره في الصدور من الذكر والخطرة بالوسوسة والإغواء والفسق والردى، حتى يدخل بحب المعاصي في الصدور، وقد تكون الوسوسة من الفريقين بالمشاهدة والمحاضرة، وقد تكون منهما الوسوسة بالذكر والخطرات الخاطرة، وأي ذلك كان في الصدور بخاطرة تخطر أو حضور فهي وسوسة من شيطان أو إنسان، بما يجول منهما في الصدور والجنان.

تفسير سورة الفلق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وسألته عن قول الله سبحانه: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ فقال:

تأويل أعوذ: هو أستجير، وتأويل الرب فهو: السيد المليك الكبير، وتأويل ﴿الْفَلَقِ﴾، فهو: الفجر إذا انفلق، وكذلك يقول الناس: انفلق الفجر وبدا، إذا تبين وظهر وأضاء، وفي ذلك وبيانه أشعار كثيرة لا تحصى لشعراء الجاهلية الأولى.

﴿مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ۝٢ وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ۝٣ وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ۝٤ وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ۝٥﴾، فأمر اللهُ رسولَه صلى الله عليه وآله وسلم أن يستعيذ به من شر خلقه في النهار كله، وأن يستعيذ به من شر جميع خلقه في ليله، ولا يكون شرٌّ إلا في ليلٍ أو نهارٍ، وإلا بعد غسق أو انفجار.

والفلق: فأول الفجر وفلوقه، قال لبيد:

الفـــارج الهَـــمَّ مسـوداً عســاكره كــما يفــرج جـنح الظلمـة الفلـق(١)

والغسق: فأول الليل، وغسوقه: ظلمته، كما قال ابن عباس: غسق الليل أول الليل وظهوره وظلمته، فقد أتى على ذلك كله استجارة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم واستعاذته، وغسق الليل ووقوبه: فهو وجوبه.

وأمر الله سبحانه رسوله صلى الله عليه وآله وسلم مع استعاذته به من شر الليل والنهار أن يستعيذ به -لا شريك له- من شر السواحر والسحار، والسواحر: هن النفاثات في العقد، وأمره أن يستعيذ به من شر الحاسد عند الحسد إذا حسد. والنفث فهو: التفل على العقدة إذا عقدت، والعُقَدُ: فهي عُقدٌ يعقدها السواحر في خيط أو سَير، وسواء كان العقد كبيراً أو غير كبير، وأمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالاستعاذة من شر الحاسد عند حسده، من مباينته بجسده.

تأويل ﴿إِذَا﴾ هاهنا: عند، وسواء قيل: عند أو إذا، معنى هذا هو معناه.

وشرُّ الحاسد ما يكون من ضره ومكره وعداوته وكيده وغير ذلك.

ولْيَعْلَم -إن شاء الله- مَنْ قرأ تفسير هذه السور الثلاث وما بعدها من التفسير- أن كل ما فسرنا من ذلك كله فقليل من كثير، وأن كل سبب من كلمات الله فيه فموصول بأسباب، عند من خصه الله بعلمها من أولي النهى والألباب، لا ينتهى فيه إلى استقصائه، ولا يوقف منه على إحصائه، كما قال سبحانه: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ

---

(١) يروى البيت هكذا:

الفـــارج الهـــم مســـدولاً عســـاكره كـــما يفـــرج غـــم الظلمـــة الفلـــق

كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴿١٠٩﴾ [الكهف]، فكلام الله جلَّ ثناؤه في الحكمة والتبيين والهدى فما لا يدرك له أحدٌ غير الله منتهى ولا مدى، وكلام غير الله في الحكمة وإن كثر وطال، وتكلم منه قائلُه بما شاء من الحكمة فأقصر أو أطال- فقد يدرك غيره من الخلق غايته ومنتهاه، وكل وجه من وجوه كلامه فلا يفتح وجهاً سواه؛ لأن علمه ينفد، وكلمه فيحصى ويُعَدُّ، وكلمات الله كما قال سبحانه لا تنفد بإحصاء، ولا يؤتى على ما فيها من خفايا العلم باستقصاء، وقليلُ علمها فكافٍ -بمنِّ الله- كثير، وكلها فضياء ونور وهدى وتبصير.

وبعد، فإنا وبالله نستعين نعلم بأن غيرنا ممن لعله سيقرأ كتابنا هذا وتفسيرنا- أن لولا ما رأينا في الناس من الغفلة والحيرة والالتباس، في معرفة ما جعل الله عز وجل لكتابه من سعة من المخارج، وأبان به وفيه من جوادّ المناهج، التي قَرَّب لرحمته سبلَها، وخصَّ بعلم قصدها أهلها، لما تكلفنا إن شاء الله من ذلك ما تكلفنا، ولا عنينا فيه بوصف ما وصفنا، لما ينبغي أن يكون عليه اليوم مَن اهتدى، فوهبه الله عصمةً ورشداً، من الشغل بخاصة نفسه، والوحشة من ثقته وأُنسه، ولكنا أحببنا أن يعلم مَن جَهِل ما قلنا من سعة فنون الكتاب المكنون، لما جعل فيه من العلم لأولي الألباب، فيوقن أن للكتاب ظهوراً وبطوناً، وأن فيه بإذن الله لأولي الألباب علماً مكنوناً، لا يظفر أبداً به إلا من كان مريداً فيه لربه، والحمد لله رب العالمين لا شريك له.

تفسير سورة الإخلاص

بسم الله الرحمن الرحيم

سألت أبي رحمه الله عن قول الله سبحانه: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾؟

فقال: الأحد: هو الواحد.

وعن قوله سبحانه: ﴿الصَّمَدُ﴾؟

فقال: ﴿الصَّمَدُ﴾: هو النهاية والمعتمد، الذي ليس وراءه مصمود، ولا سواه إله معمود(١)، ﴿لَمْ يَلِدْ﴾ تبارك وتعالى ولداً؛ فيكون لولده أصلاً ومحتداً، ﴿وَلَمْ يُولَدْ﴾ فيكون حدثاً مولوداً، ويكون والده قبله شيئاً موجوداً، ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾، والكفؤ: فهو المثل والنظير، والأحد: فهو ما قد تقدم به منَّا البيان والتفسير، فهو الله الأحد الواحد الذي ليس كالآحاد فيكون له ندٌّ في وحدانيته من الأنداد، وأنه هو الأحد الصمد، والنهاية في الخيرات والمعتمد، الذي ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ⑪﴾ [الشورى]، يعلم ما في السموات والأرض وهو العليم الخبير.

---

(١) في المطبوع: معبود.

تفسير سورة المسد

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وسألته رحمة الله عليه عن قوله: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ①﴾ فقال:

أبو لهب: هو عبد العزى بن عبد المطلب، وتأويل ﴿تَبَّتْ﴾ فهو: خابت وخسرت فيما رَجَتْ وقدَّرت. واليدان: فهما اليدان المعروفتان، وهما مَثَلٌ قد كان يضرب به لمن خاب وخسر فيما يطلب، ﴿وَتَبَّ﴾ يعني: أبا لهب كله، فيما عليه من أمره وماله.

﴿مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ②﴾ تأويله: ما أجزأ عنه ماله وكسبه إذ هلك عند الله سبحانه، وعطب بضلاله وسيء أعماله.

﴿سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ③﴾ وذات اللهب من النيران: فهي ذات التوقد الشديد والإستعار، ﴿وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ④﴾، تأويله: فقد تبَّتِ امرأته معه تبَابه في الهلكة والعطب، وتأويل حملها الحطب فقد يكون: حملها للنمائم والكذب الذي كانت تكذبه على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وتأتي به زوجها وتنقله إليه، وتنقله إلى غيره ممن كان من الكفر في مثل ما هي وما هو فيه؛ لتفسد بكذبها وتغري، وتكثر بنمائمها وتسري على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، كما يكثر ويسري الكذوب النمام، ﴿فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ⑤﴾ وجيدها: فهو عنقها، والجيداء من النساء: فهي التي قد تم في طول العنق خلقها.

وتأويل ﴿حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ﴾، فهو: الحبل الوثيق المحصد، وقد يكون حبلٌ من قِدّ، والقدُّ: فقد يكون من جلود الإبل، وهو أوثق ما يكون من الأحبال،

وهو مَثَلٌ يضرب لمن يحمل كذباً أو زوراً؛ ليلقي به بين الناس عداوة وشروراً.

وقد قال بعض مَن فسر فيما ذكرنا من امرأة أبي لهب وأمرِها: إن تفسير حملها للحطب إنما كانت تحمل الشوك فتطرحه لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في ممره ومسلكه، وقالوا: إن ﴿حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ﴾ هو حبل من ليف.

تفسير سورة النصر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وسألته أيضاً رحمه الله عن قول الله سبحانه: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢﴾؟

فقال: تأويل ﴿جَاءَ﴾: هو أتى، وتأويل النصر: هو ما يفعل من الظهور والقهر. والفتح من الله فهو: حكم الله بالإمضاء فيما حكم به وأوجبه من الجزاء، لمن أحسن بإحسانه، ومن عصى بعصيانه، وهو الذي طلب شعيب عليه السلام ومن آمن معه من الله، فقالوا: ﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ۝٨٩﴾ [الأعراف]، يريدون: احكم بيننا وبينهم بالحق يا خير الحاكمين، فاجزهم جزاءهم، وعجل إخزاءهم.

وتأويل ﴿وَرَأَيْتَ النَّاسَ﴾ فهو: رؤيتهم يدخلون فيما جئت به من الملة والدين. والأفواج من الناس: فهو ما يرى من الجماعات التي تأتي من القبائل والنواحي المختلفات، شبيه بما كان يفد على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من وفود القبائل والبلدان، من عقيل وتميم وأهل البحرين وعمان، ومن كل الأمم، فقد كان وفد على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقدم، فآمن بالله جل ثناؤه وبرسوله وأسلم.

﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾، تأويل فسبح: فاخشع واشكر لله حامداً له فيما يرى بعينه من إظهار الله له ولدينه، وصدق وعده في إظهاره على من ناواه، وما أراه من ذلك بنصره له كل من والاه في أيام حياته، وقبل حِمَامِ وفاته.

وتأويل ﴿وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا۝٣﴾ فأَمْرُه بالاستغفار إذ تَمَّ ما وعده الله من الإظهار، وتأويل التَّواب: فهو العوَّاد بالرحمة، وبالنعمة منه بعد النعمة، وقد ذكر أن رسول الله ﷺ لما أنزلت ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ إليه، وأُمر فيها بالاستغفار، ورأى ما رأى من الإظهار قال عليه السلام: ((نُعِيتْ إليَّ نفسي، وأُخْبِرتُ(١) بعلامات موتي))، فَصَدَّق في ذلك كلِّه نصرُ الله من الله الخبرَ، حين أتاه من الله الفتح والنصر، فتوفي ﷺ ظاهراً منصوراً، وقبضه إليه بعد أن جعل ذنبه كله له عنده مغفوراً، وفي ذلك ما يقول الله سبحانه فيه ﷺ: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا۝١ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا۝٢ وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا۝٣﴾ [الفتح].

فنحمد الله على ما خصَّه في ذلك من نعمائه، ونسأل الله أن يزيده في الدنيا والآخرة من كراماته.

---

(١) في المخطوط: وأخبرني.

تفسير سورة الكافرون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وسألته أيضاً رحمة الله عليه عن تفسير: ﴿قُلْ يَاأَيُّهَا الْكَافِرُونَ۝١ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ۝٢ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ۝٣ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ۝٤ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ۝٦﴾؟

فقال: أمرٌ من الله جلَّ ثناؤه لرسوله صلى الله عليه وآله وسلم أن يقول لمن كفر بربه، ولم يوقن بما أيقن من توحيد الله به: لستُ أيها الكافرون بعابد لما تعبدون مع الله، ولستم عابدين من التوحيد بما أنا به عابد لله، وما أنا على حال بعابد لما تعبدون من الأصنام، ولا أنتم بعابدين لله بالتوحيد والإسلام، وكذلك من الله الأمر فيمن أشرك بالله ما كانت الدنيا وإلى يوم التناد، فليس رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بعابد لغير الله، ولا هم بالتوحيد لله بعابدين، والصدق بحمد لله ذي المَنِّ والطول فيما أمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن يقول به من القول، لا مريةَ في ذلك ولا شبهة، ولا يختلف فيه بمَنِّ الله وجهه، ولذلك وَكَّد فيه من القول ما أكَّد، وردد فيه من التنزيل ما ردد.

تفسير سورة الكوثر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وسألته عن تأويل: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ۝١﴾ فقال: تأويله: آتيناك، وآتيناك: هي وهبناك الكوثر، والكوثر: فهو العطاء الأكبر. وإنما قيل: كوثر من الكثرة، كما يقال: غفران من المغفرة، فعرَّف الله رسوله صلى الله عليه وآله وسلم وغيره من عباده بما مَنَّ الله عليه من نعمته ومنِّه وإرشاده، التي أقلُّها برحمة الله كثير، وأصغرها

بِمَنِّ الله فكبير، لا يُظْفَر به إلا بِمَنِّ الله، ولا يُصَابُ أبداً إلا بالله.

وتأويل ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ﴾: فأمرٌ منه سبحانه لرسوله ﷺ بأن يصلي صلاته كلها لربه، وربه: فهو الله تبارك وتعالى الذي أنعم عليه من النعم والكرامة بما أنعم به؛ لأنه قد يصلي كثير من المصلين لغير الله مما يعبدون، ويصلي أيضاً بعض أهل الملة بالرياء وإن كانوا يقرون ويوحدون.

وأمره سبحانه إذا نحر شيئاً من النحائر قرباناً لربه ألا ينحره عند نحره له إلا لله وحده ربه؛ لأنه قد كان ينحر أهل الجاهلية للأصنام والأوثان، ويشركون في نحائرهم بينها وبين الرحمن، ويذكرون أسماء آلهتهم عند نحرها، ويذكرون الله جلَّ ثناؤه عند ذكرها، وفي ذلك ما يقول الله سبحانه: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ [الأنعام:١٢١]، يعني: اسمه خالصاً، وما لم يكن له جلَّ ثناؤُهُ من النحائر والذبائح خالصاً.

وأخبر سبحانه رسوله ﷺ أنَّ مَن شنأه فأبغضه من البشر فهو مخذول ذليل أبتر، ليس له عِزٌّ مع بغضه له وشنئانه ولا مُنْتَصر؛ إكراماً من الله جل ثناؤه لرسوله ﷺ، وإخزاءً لمن شنأه وأبغضه، ولم يؤدِ إلى الله في محبته فرضه، فنحمد الله على ما خص به رسوله من كراماته، وأوجب على العباد من محبته وولايته.

وقد قيل: إن الكوثر نهرٌ في الجنة خصَّ اللهُ رسولَه به، وجعله جلَّ ثناؤه في الجنة له، وقالوا: إن شانئه الأبتر المذكور في هذه الآية قصره هو عمرو بن العاص السهمي خاصةً، وتأويل ذلك إن شاء الله وتفسيره هو كل من شنأه، عمرو كان أو غيره.

تفسير سورة الماعون

بسم الله الرحمن الرحيم

وسألته صلوات الله عليه عن تأويل: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِى يُكَذِّبُ بِالدِّينِ۝١ فَذَلِكَ الَّذِى يَدُعُّ الْيَتِيمَ۝٢ وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ۝٣ فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ۝٤ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ۝٥ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ۝٦ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ۝٧﴾؟

فقال: تأويل ﴿أَرَأَيْتَ﴾: هو تعريف وتبيين من الله وتوقيف لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ولمن آمن بما أنزل من الوحي والكتاب إليه، لا رؤية مشاهدة وعيان، ولكن رؤية علم وإيقان، كما يقول القائل لمن يريد أن يعرفه شيئاً إذا لم يكن ذلك الشيء له ظاهراً جلياً: أرأيت كذا وكذا يعلم علمه، يريد بأرأيت توقيفه على أن يعرفه ويعلمه على حدود ما فهمه منه وأعلمه، فأعلم الله سبحانه رسوله صلى الله عليه وآله وسلم ومن نزل عليه معه وبعده هذا البيان أن الذي يكذب بيوم الدين من الناس أجمعين.

ويوم الدين: فهو يوم يجزي الله جلَّ ثَنَاؤُهُ العاملين بما كان من أعمالهم وهداهم(١) وضلالهم، وهو يوم البعث، حين يدان كل امرء بدينه، ويرى المحسن والمسيء جزاءَ العامل منهما يومئذٍ بعينه.

وتكذيب المكذب بيوم الدين: فهو ارتيابه وإنكاره فيه لليقين، وذلك ومن كان كذلك فهو الذي يدع اليتيم، ولا يحض على طعام المسكين، ولارتيابه فيه وتكذيبه ولقلة يقينه به دعَّ اليتيم، ودَعُّه له: هو دفعه عن حقه ومنعُه، وتكذيب

---

(١) في المطبوع والمصابيح: في هداهم.

المكذب بالدين، ولم يحض غيره على إطعام المسكين، وفيه وفي أمثاله ما يقول الرحمن الرحيم: ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ﴾، يعني: من غير أبرار المتقين، وهم الفجرة الظلمة المنافقون، الذين هم كما قال الله سبحانه: ﴿عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾. والساهون: فهم الذي هم عن صلاتهم ووقتها لاهون، ليس لهم عليها إقبال، ولا لهم بحدود تأديتها اشتغال، فنفوسهم عن ذكر الله بها ساهية، وقلوبهم بغير ذكر الله فيها لاهية، ﴿الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ﴾، وهم: المراؤن الذي ترى منهم عياناً الصلاة وقلوبهم بالسهو والغفلة عن ذكر الله مُملاة.

﴿وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾، هو: ما جعل الله فيه العون من المرافق كلها التي يجب العون فيها لأهلها من غير مفروض واجب الزكوات، وما ليس فيه كثير مؤنة من المعونات، مثل نار تقتبس، أو رحى أو دلو يلتمس، وليس في بذله إضرارٌ بأهله، وكل ذلك وما أشبهه فماعون، يتعاون به ويتباذله بينهم المؤمنون، ومانعوه بمنعه له مِنْ طالبه فمانعون، وهم كلهم بمنعه لغيرهم فذامون.

وما ذكر الله سبحانه من قوله: ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ﴾ فقولٌ لمن كان قبله من ذكره بمنع الماعون موصول في الذم والتقبيح، وما يعرف في التقبيح فصغيره صغيرة، وكبيره كبيرة، وكله عند الله فمسخوط غير رضي، وخلق دني من أهله غير علي(١)، تجب مجانبته(٢)، ولا تحل مقاربته(٣)، إلا لعذر فيه بيِّن، وأمر فيه نيِّر،

---

(١) في المطبوع والمصابيح: زكي.

(٢) في المطبوع والمصابيح: مباينته.

(٣) في المطبوع والمصابيح: مقارنته.

والحمد لله مقبح القبائح، والمنان على جميع خلقه بالنصائح، الذي أمر بالتباذل(١) والإحسان، ونهى عن التظالم والعدوان.

تفسير سورة قريش

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ۝١ إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ۝٢﴾، المعنى: هو إِلْفُهُم وإيلافُهُم، فقريش من أنفسهم وحليفهم، ومن جاورهم في الحرم ولفيفهم، فكل من كان يسكن في الحرم في مسكنهم، ويأمن بمكانه معهم في الحرم بأمنهم، ويرحل معهم إذا أراد أمْناً الرحلتين، وتنقل معهم الطعام والإدام في السنة نقلتين، لا يعرض لهم أحد من العرب بقطع في الطريق، وليسوا في شيء مما فيه غيرهم من الخوف والضيق، والعرب كلهم خائفون جياع، وهم كلهم آمنون شباع؛ لحرمة البيت عند العرب وتعظيمه وإجلاله، ولإكْبَارِهم القطع على سكان الحرم ونُزَّاله، فذكَّرهم في ذلك تبارك وتعالى بنعمته، وبما مَنَّ به تعالى من بركة الحرم وحرمته.

وفي ذلك وذكره وما ذكرنا من أمره ما يقول الله سبحانه: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝٥٧﴾ [القصص]، وفيه ما يقول الله سبحانه: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ ۝٦٧﴾ [العنكبوت].

(١) في المخطوط: بالثبات. وفي المطبوع والمصابيح: بالبيان. ولعل ما أثبتناه الصواب.

وتأويل ﴿فَلْيَعْبُدُوا﴾ هو: فليوحدوا، ومعنى ليوحدوا: فهو ليخلصوا، ومعنى ليخلصوا: فهو ليفردوا بعبادتهم وليخصوا ﴿رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ۝٣﴾، الذي بمكانهم منه وبما كان من مجاورتهم له أُطعِمُوا من جوع، وأُومنوا من خوف، فلم يجوعوا جوع الجائعين، ولم يخافوا خوف الخائفين، فكلهم يعلم ويقول: إن البيت بيت الله ذي الجلال والإكرام، لا بيت ما عبدوا دونه من الملائكة والأصنام، وأن الله سبحانه هو الذي حرَّم الحرم، وجعل له تبارك وتعالى الجلالة والكرم، لا الملائكة المقربون، ولا الأصنام التي يعبدون، فأمرهم جلَّ ثناؤه أن يعبدوه وحده، وأن يوجبوا شكره وحمده على ما صنع لهم وأولاهم، ووهب لهم بحرمة بيته وأعطاهم.

تفسير سورة الفيل

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وسألته عن قوله الله سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ۝١ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ۝٢ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ۝٣ تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ۝٤ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ۝٥﴾؟

معنى ﴿تَرَ﴾ في مخرج التأويل: ليس هو برؤية العين، ولكنه علم اليقين؛ لأن رسوله الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ لم يرَ ذلك بعينه، ولكنه رآه بعلمه ويقينه، وبما ذكر الله جل ثناؤه عنه، وبما وصفه الله به منه، وسواء قيل: «ألم ترَ» أو قيل: «ألم تعلم» معناهما واحد في اليقين والعلم.

وتأويل ﴿كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ﴾: هو كيف صنع. وأصحاب الفيل: فهم من جاء معه، أو بعث به وإن تخلف عنه، فكل من كان للفيل صاحباً مَنْ بعَثَ وإن لم

يصحبه ومن كان له مصاحباً.

وتأويل ﴿كَيْدَهُمْ﴾ فهو: إرادة مريدهم، والإكادة: فهي الإرادة، كما قال الشاعر:

كادت وكدت وتلك خير إرادة ... لولا الوشاة بأن نكون جميعاً[١]

وذلك أن أصحاب الفيل كادوا، ومعنى ذلك: هو أرادوا أن يخربوا الكعبة وأن يجعلوها[٢] متهدمة خربة؛ لأن العرب كانت خربت كنيسة كانت يومئذٍ للحبشة، وكان يومئذٍ فيهم وملك عليهم رجلٌ من العرب من أهل اليمن يقال له: أبرهة بن الصباح، وكان يدين دينهم، فهو الذي بعثهم، فأرسل الله سبحانه على أصحاب الفيل كما قال تبارك وتعالى: ﴿طَيْرًا أَبَابِيلَ۝٣ تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ۝٤ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ۝٥﴾، لا يصيب حجرٌ منها[٣] أحداً إلا قتله وأهلكه، ولم يكن له بقاء معه ولا بعده. والطير الأبابيل فهي: الطير الكثير[٤] الأراعيل، التي تأتي من كل وجه ولا تأتي من ناحية واحدة. والسجيل: فهو فيما يقال: الطين المستحجر الصلب الذي ليس فيه لين، فهو لا يقع على شيء إلا حطمه وفَتَّهُ وهشمه، وجعله كما قال الله سبحانه كالعصف المأكول. والعصف: فهو عاصفة قصب الزرع البالي المدخول، الذي قد دُخل

---

(١) عجز البيت في معاني القرآن للأخفش ولسان العرب والصحاح وشمس العلوم وغيرها هكذا:
لو عاد من لهو الصبابة ما مضى.

(٢) في المطبوع والمصابيح: ويجعلوها.

(٣) في المطبوع والمصابيح: منهم.

(٤) في المطبوع والمصابيح: الكبير.

وأُكل وتناثر وتهلهل. والمأكول منه: فهو الذي لا جوف له، والذي قد أنهت جوفه كله.

تفسير سورة الهمزة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وسألته عن قول الله سبحانه: ﴿وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ ۝١ الَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ ۝٢ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ ۝٣ كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِى الْحُطَمَةِ ۝٤ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ ۝٥ نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ ۝٦ الَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ ۝٧ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ۝٨ فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ ۝٩﴾؟

فتأويل ما ذكر الله من الويل: ما يعرف من الحرقة والعويل، والخزي الكبير العظيم الجليل. والهُمَزَةُ من الناس: فهو من يغتاب صاحبه ويغمزه، والهُمَزَةُ: فهو الذي يعيب حقاً أو محقاً ويهمزه. والهمزة: فهو الباخس المغتاب، واللمزة: هو الهامز العياب. وجمعه للمال: فهو اكتنازه له واجتهاده، وتعديده له: فهو إرصاده له وإعداده بما(١) في يده من ماله لما يخشى من نوائب حاله.

وتأويل ﴿يَحْسَبُ﴾ هو: أيحسب استفهاماً وتوقيفاً وتبييناً(٢) له وتعريفاً على أن ما جمع وأعد من مال لنوائب مكروهه من حال(٣) لن يخلده فينقذه، ولن يدفع عنه ويقيه ما يخشى ويتقي من مكروه النوائب، كيف وهو لا يدفع عنه من الموت أكبر المصائب؟ لا ينتفع عند الموت به، ولا بكده فيه وكسبه، وكذلك كل

---

(١) لعلها: لما.

(٢) في المطبوع والمصابيح: وتبياناً.

(٣) في المطبوع والمصابيح: بحال.

ما أراده الله به من ضر سوى الموت فليس يقدر له بجمع ماله وإعداده على خلاص ولا فوت في عاجل دنياه، وكذلك هو في مثواه يوم القيامة إذا نبذ في الحطمة، ونبذه فيها: إلقاؤه إليها. والحطمة: فهي الأكول لأهلها باستعارها وحرها، وهي النار التي جعل الله وقودها كما قال سبحانه بما يجعل[١] من حجارتها وأهلها في قرارها، وفي ذلك ما يقول تبارك وتعالى للمنذرين: ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ۝٢٤﴾ [البقرة].

فنارُ الآخرة جعلت ناراً فطرها الله يومئذٍ افتطاراً من غير حديد ولا حجر ولا شجر، ولا أصل لها قبلها مفتطر، كما نراه من هذه النار التي جعل أصلها من الحجر والأشجار، كما قال سبحانه: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ۝٧١ ءَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ۝٧٢﴾ [الواقعة].

ولو كانت نار الآخرة كهذه النار لكان وقودها بما توقد هذه النار من أشجار، ولكن الله عز وجل جعل أصلها حجارتها التي فيها وأهلها، فتوقدت واستعرت لذلك بهم كما يوقد أهل هذه النار نارهم بحطبهم، فأهلها حطبها، كما هم حصبها، كما قال الله سبحانه: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ۝٩٨﴾ [الأنبياء]، فأهلُ جهنمَ بخلودها ودوام وقودها فيها خالدون، لا يفنون أبداً ولا يبيدون، وكما يعود الحطب رماداً ورفاتاً جامداً[٢]

---

(١) في المطبوع والمصابيح: جعل.

(٢) في المطبوع والمصابيح: كما يعود الحطب رماداً خامداً ورفاتاً جامداً.

كذلك تعود جلود أهل نار الآخرة[١] رفاتاً، وشيئاً هامداً بالياً مايتاً، فيجدد الله ذلك بعد بلائه وتهافته تجديداً؛ ليخلد الله بالتجديد له أهل النار فيها تخليداً، كما قال سبحانه: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا۝٥٦﴾[النساء]، فنار الآخرة أبداً بحجارتها وأهلها موقدة، وحجارتها وجلود أهلها كلما بليت فمعادة، تقديرٌ من عزيز حكيم، لبقاء عذاب الجحيم.

وتأويل قوله: ﴿تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ﴾ فهو ما يصل إلى قلوب أهلها من الكرب والشدة. وتأويل: ﴿إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُؤْصَدَةٌ﴾ فهو مطبقة مغلقة، وإغلاق جهنم فهو ما ذكر الله عز وجل من أبوابها، والإيصاد للأبواب الذي هو التغليق عليهم فهو من شدة عذابها، وما ذكر الله من الإطباق والغلق فهو أكبر للغم[٢] والألم والحرق، كما قال سبحانه: ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ۝٢٠﴾ [السجدة].

وتأويل: ﴿فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ﴾ بعد ذكره تبارك وتعالى المؤصدة فهو: ما تغلق به أبواب جهنم المؤصدة المطبقة من[٣] عَمَد معروضة على أبوابها ممددة، كالمهاج والأوصاد التي تجعل على الأبواب المغلقة، وذلك من الإغلاق.

والغلق: فأوثق ما يغلق به كل مُغلِق أراد إغلاقَ الباب، وذلك أنه يأخذ ما في

(١) في المطبوع والمصابيح: أهل النار نار الآخرة.

(٢) في المطبوع والمصابيح: الغم.

(٣) في المطبوع والمصابيح: في.

طرفي المغلق كله، وليس يأخذ ذلك من الأغلاق كلها غلق، وإنما يغلق كل غلق من الأبواب ما يغلق، إن كان قفلاً فإنما يغلق واسطة الأبواب، وإن كان غير ذلك فإنما يغلق جانبه من كل باب.

فأما المهج والرصد فيغلق الباب كله، ويستقصى بالغلق[١] آخره وأوله، ولاسيما إذا كان ممتداً ثابتاً، مهجاً كان أو رصداً[٢]، فأبواب جهنم وأغلاقها كلها كالمقامع التي ذكر الله من الحديد لا تبيد، كما مقامع أهلها فيها إذا أرادوا أن يخرجوا منها حديد، كما قال سبحانه: ﴿وَلَهُمْ مَقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ﴾ [الحج].

ألا فسبحان مَن جمع في جهنم ما جمع من أنواع الخزي والضيق للظلمة الملحدين!!

فقيل في يوم البعث لهم جميعاً: ﴿ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ﴾ [غافر:٧٦].

تفسير سورة العصر

بسم الله الرحمن الرحيم

وسألته عن قول الله سبحانه: ﴿وَالْعَصْرِ ۝ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝﴾؟

فالعصر: قد يكون من آخر النهار، ويكون الدهر، فأشبَهُ ذلك -والله أعلم- بالتأويل وما يصح فيه من الأقاويل أن يكون العصر الذي بعد الظهر، لا العصر الذي من الدهر، وإن كان كلُّ ذلك وقتاً، وكان ذلك للوقتين[٣] نعتاً- كان أفضل الأوقات ما كان لصلاةٍ من الصلوات، وكان تأويل القسم به أشبه

---

(١) في المطبوع والمصابيح: في الغلق.

(٢) في المخطوط: وصد (ظن).

(٣) في المطبوع والمصابيح: لكلا الوقتين.

وأفضل وأوجه، والله أعلم وأحكم.

وكان تأويله[١] أنه قسم كما أقسم بالفجر والليالي العشر؛ لفضلهما وقدرهما، وما ذكره الله من أمرهما.

والعصر والأعصار من النهار فهو بعد الظهر والإظهار، وإذا كان الدهر وقتاً كله كان ما كان منه للصلوات هو أفضله، والأفضل أولى[٢] بالتقدم في القسم وغير القسم.

وأما تأويل الخسر فهو: النقص في الخير والبر، ومن لم يكن[٣] من الناس في خير ولا بر فهو كما قال الله عز وجل: ﴿لَفِى خُسْرٍ﴾، وكل الناس فغير مفلح ولا رابح إلا من عمل لله بعمل صالح، كما قال سبحانه: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ۝٣﴾. وتأويل الإيمان فترك كبائر العصيان.

وتأويل ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ فهو: عملهم لله صالحات، وهي أولى الأعمال بهم؛ لما فيها من رضا ربهم، وصلاحهم وصلاح غيرهم.

وتواصيهم بالحق: تآمرهم[٤] بطاعة الحق. وتواصيهم بما ذكر من الصبر:

---

(١) في المطبوع والمصابيح: تأويل.

(٢) في المطبوع والمصابيح: هو الأولى.

(٣) في المطبوع والمصابيح: ولم يكن.

(٤) في المطبوع والمصابيح: فهو تآمرهم.

فهو(١) تآمرهم بالمقام على البر، وعلى ما يعارضهم في المقام عليه من اليسر والعسر، وما يقاسون فيه من منابذة المبطلين، ومن ليس بمراقب ولا متقٍ لرب العالمين، من الفجرة المستهزئين، والجورة المتغلبين(٢).

تفسير سورة التكاثر

بسم الله الرحمن الرحيم

وسألته عن قوله سبحانه: ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ۝١ حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ۝٢﴾ فتأويل ﴿أَلْهَاكُمُ﴾: هو أغفلكم عما عليكم في المعاد، ولكم بما أنتم فيه من تكاثركم بالولد والمال والعشائر، وتفاخركم بما في ذلك عندكم من الخيلاء والمفاخر، ولذلك وبه شغلوا وألهوا، فغفلوا بكدهم فيه، وكدحهم وتكالبهم عليه، وشحهم عن رشادهم وتيقن معادهم، ولما في التكاثر بالأموال وما في التشاغل بالتكاثر من الاشتغال طهر الله منه خيرته من الرسل والأبرار، فلم يكونوا بأهل مكاثرةٍ ولا بتُجَّار.

وتأويل ﴿زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾ هو: مصيرهم إليها، واتصالهم بالآخرة وإشرافهم عليها.

وتأويل ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ۝٤ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ۝٥﴾ هو: تكرير من الله تبارك وتعالى في ذلك كله عليهم للتعريف والتبيين، ألا ترى كيف يقول سبحانه: ﴿لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ۝٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ

---

(١) في المطبوع والمصابيح: هو.

(٢) في المطبوع والمصابيح: المتغلبين المتمردين.

﴿الْيَقِينِ۝٧﴾؟ يقول جل ثناؤه: لترون ما وعدتم منها رأي العين عين يقين.

وتأويل ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ هو: لتوقفن حينئذٍ على ما كنتم فيه قبل متوفاكم وفي حياتكم ودنياكم من النعيم والمَنِّ العظيم، الذي كانوا يتنعمون به في الحياة الدنيا وبقائها، وقبل ما صاروا إليه من الآخرة وشقائها.

وليس مما نزل الله عز وجل من آياته في هذه السورة ولا غيرها طويلة ولا قصيرة إلا وفيها من الله[1] دلالات خفية باطنة وظاهرة منيرة، ففي أقل ظاهرها ما كفى وأغنى، وفي خَفِيِّها من الحكمة والبركة ما لا يفنى.

تفسير القارعة

بسم الله الرحمن الرحيم

وسألته عن قول الله سبحانه: ﴿الْقَارِعَةُ۝١ مَا الْقَارِعَةُ۝٢ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ۝٣﴾

فالقارعة: ما هال من الأمور وقرع، وهجم على أهله بغتة بأهواله فأفزع.

وأما تأويل ما أدراه فهو: تعظيم منها لمرآه، وما سيعانيه فيها ويراه من الأهوال والأمور الفادحة، وجزاء الأعمال الصالحة والطالحة، حين تقوم القيامة، وتدوم الحسرة والندامة على كل خائب وخاسر، وظالم معتدٍ فاجر، ألا تسمع كيف يقول سبحانه عند بعثه فيها لخلقه المبعوث: ﴿يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ۝٤﴾، وتأويل ﴿يَكُونُ﴾ فهو: يصير، والفراش: فطَيرٌ صغير خفيف عند من يراه حقير، من همجِ الأرض والطير، تُمثِّل به العرب في الكثير؛

---

(١) في المطبوع والمصابيح: بمن الله.

لأنه كثير ضعيف، وطير محتقر خفيف، فتقول إذا استكثرت شيئاً أو استضعفته، واستقلت وزنه فاستخفته: ما هذا إلا كالفراش في الخفة والقلة، وللقوم إذا استكثروهم: كالفراش في الكثرة والجمَّة.

وانبثاثه: فهو انبعاثه متحيراً وطائراً في كل وجهة من الجهات، يموج ويصدم بعضه بعضاً في تلك الوجوه المختلفات، فمثَّل الله سبحانه الناس في يوم البعث بما وصفنا من الفراش المنبث الذي يموج بعضه في بعض، ويسقط تهافتاً على الأرض، لما ذكرنا من كثرته، وموجه وحيرته، واختلاف جهاته، ويومئذٍ يدعوهم من تلك النواحي المختلفات الداع، فيستجيبون لدعوته كلهم جميعاً باستماع، كما قال سبحانه: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ﴾ [طه:١٠٨]، تأويلها: لا اختلاف لهم بعدُ معه كما كانوا يختلفون في المذاهب قبل دعائه، وما سمعوا وهم في حيرتهم من ندائه، كما قال سبحانه: ﴿وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ۝٤١﴾ [ق]، وهو يوم الإصاخة بالأسماع؛ لتسمع صوت المنادي الداعي.

وفيما ذكرنا من هذه الإصاخة ما قيل في يوم الصاخة: ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ۝٣٣ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ۝٣٤ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ۝٣٥ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ۝٣٦ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ۝٣٧﴾ [عبس].

وتأويل ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ۝٥﴾، فالعهن: هو الصوف الناعم اللين الذي ليس يُقرد، وذلك من الصوف فما يلين للنفش في اليد، وينتفش ويتجافى، ويعود خفيفاً أجوفاً، وقد تفرقت أجزاؤه وبان جفاؤه، فعاد

قليله كثيراً، وصغيره كبيراً؛ لتحلله وتمزقه، وتزايله وتفرقه، كذلك تبلى الجبال إذا بليت، وتفنى يوم القيامة إذا فَنِيَت، فتكون كالسراب الرقراق، في الفناء والتهيء والامتحاق، وفي جزاء الأعمال بعد تلك الأهوال يقول الله سبحانه: ﴿فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ۝٦﴾، تأويلها: من ثقل في الوزن بره وإحسانه فيسعد بثقله وثقل بعمله.

وتأويل ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ۝٧﴾ فهو: في عيشة مرضية زاكية، وإنما يعرف أمر الخفة يومئذٍ واليوم والثقل بما يعرف منها اليوم في الحال والقدر والعمل، وليس نعلم الخفة والثقل يومئذٍ في المقادير والأوزان بمثاقيل يوزن بها من خف وثقل وجِربان(١)، ولكنه يعرف -واللهُ محمودٌ- بما ذكرنا من العبرة والبيان، وما تعرفه العرب العاربة في اللغة واللسان.

﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ۝٨﴾ فتأويله: من خف به فسقه وعدوانه.

﴿فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ۝٩﴾ تأويل «أمّه»: فهو من مصيره ومهواه وما أمه، ألا تسمع كيف يقول سبحانه: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ۝١٠ نَارٌ حَامِيَةٌ۝١١﴾، فكانت النار(٢) التي صار إليها أمه التي نسبه الله إليها؛ إذ كانت له مقراً ومأوى، وقَرَّ بِهِ فيها المصيرُ والمثوى. والنار الحامية: فهي التي لا يطفيها مطفية ما كانت باقية أبداً، والتي من دخلها كان فيها مخلداً.

(١) الجربان: جمع جريب، والجريب مكيال قدر أربعة أقفزة. (قاموس معنى).

(٢) في المطبوع والمصابيح: النار الحامية.

تفسير سورة العاديات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وسألت أبي رحمه الله عن قول الله سبحانه: ﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا۝١ فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا۝٢ فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا۝٣﴾ فالعاديت من كل ذات ظلف، أو حافر صلب أو خف، من كل بهيمة جِنِّية وحشيةً أو إنسيةً.

وتأويل قوله: ﴿ضَبْحًا﴾ فهو: عدواً ومرحاً، و﴿الْمُورِيَاتِ قَدْحًا﴾ فهو: ما يورين ويقدحن إذا عَدَون وضبحن بصلابة الأظلاف والحوافر والأخفاف من نار الحجارة والحصى، والأرض الصلبة الخشنى، فيورين النار من ذلك كله بإيقاد، كما تُورَى وتوقد[1] النارُ بالزناد.

و﴿الْمُغِيرَاتِ صُبْحًا﴾ فيما أرى -والله أعلم- خاصة الخيل، بينهن وبين غيرهن من ذوات الحافر في العَدْو والقدر واليُمن من الفرق النَّيِّر الجليل. ولخاص ما فيهن من النعمة والبركة والخير قُدِّمن -إن شاء الله- في الذكر على البغال والحمير، فقال الله سبحانه: ﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ۝٨﴾ [النحل].

وتأويل ﴿فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا﴾، والنقع هو: الغبار المثار، ﴿فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا﴾، هو: توسطهن بغبارهن للجمع الذي عليه كان المغار.

وتأويل ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ۝٦﴾ فهو الكافر لنعم الله بكبائر عصيانه الفاجر العنود.

---

(١) في المطبوع والمصابيح: وتقدح.

وتأويل: ﴿وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ﴾ من حاله وعدوانه ﴿لَشَهِيدٌ﴾: لربه بنعمته وإحسانه، بما يرى عليه من النعمة والإحسان، وما بيَّن فيه من حسن الصنع والإتقان.

وتأويل ﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ۝٨﴾، فهو: أنه لمحب للخير مريد، لا يضعف فيه ضعفه في غيره من طاعة الله ودينه وأمره، وكفى بذلك فيه شراً، ومنه لربه فيه كفراً، ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ ۝٩﴾ من عظام الموتى، ﴿وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ ۝١٠﴾ مما يبطن اليوم من غير الله ويخفى، وما سيظهر حين يحاسب كل امرئ ويجزى، ﴿إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَخَبِيرٌ ۝١١﴾ يومئذٍ يوم البعثرة والتحصيل، ﴿لَخَبِيرٌ﴾، لا يخفى عليه منهم يومئذٍ خيِّرٌ ولا شرِّير، وكما لا يخفى عليه اليوم من أعمالهم صغير ولا كبير.

تفسير سورة الزلزلة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وسألت أبي صلوات الله عليه عن قول الله سبحانه: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝١ وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۝٢﴾: فتأويل زلزالها هو ما ينزل بها وبأهلها من أمر الساعة وأهوالها، وفي ذلك ما قلنا به من بيانه ما يقول الله سبحانه في يوم الساعة وأهواله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ۝١﴾ [الحج]، ومن بيان ما قلنا به في الزلزلة من القول وأنه من الشدائد والهول قولُ رب العالمين عند نزول الشدة والهول في يوم الأحزاب بالمؤمنين: ﴿إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ

وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا۝١٠ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا۝١١﴾ [الأحزاب].

تأويل إخراج الأرض لأثقالها فهو: طرحها لما كان عليها من أحمالها، والأثقال هي: الأحمال، وأحمال الأرض: فما جعل الله عليها وكان من الثقل الذي هو الإنس ساكناً فيها، من ميتٍ وحي، وفاجر وتقي، وكيف لا تكون مُخرِجة لهم منها وكلهم فمنتقل إلى دار القرار عنها؟ وأرض الحياة الدنيا فأرض بائدة فانية، وأرض دار القرار خالدة باقية، ومن أثقال الأرض من في قبورها، ومن كان من الموتى على ظهورها، فمن كل ذلك طائعةً تتخلى، من قبل أن تبيد وتبلى.

وفي تخليها من ذلك كله وإخراجها عنها له ما يقول الله جل جلاله من أن يحويه قول أو يناله: ﴿وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ۝٣ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ۝٤﴾ [الانشقاق]، تأويل ذلك: أوحشت الأرض من أهلها وأخلت، فنُشر موتاها نشراً، وحُشر الموتى إلى الموقف حشراً، وعند ذلك من حالها وما يخرج من أثقالها يقول الإنسان -والإنسان: فهو الناس كلُّهم- عندما يرون من زلزالها، وإخراجها لما كان فيها من أثقالها: ما للأرض وما شأنها؟! فتحدث الأرض حينئذٍ بخبرها أعيانها، بأن الله سبحانه قد أوحى لها، فقطع مدتها وأجلها، فحان فناؤها، وانقطع بقاؤها، فـ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ﴾ كما قال الله سبحانه: ﴿أَشْتَاتًا﴾، وتأويل ﴿أَشْتَاتًا﴾: هو يصدرون عن موردهم في حشرهم صدراً أشتاتاً متفاوتاً، فريقٌ في الجنة وفريق في السعير، خالداً كلُّ فريق منهم فيما صار إليه من مصير،

فيرى كل من عمل مثقال ذرة من خير وشر ما قدم لنفسه من عمل في فجور أو برّ، كما قال سبحانه: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ۝٧ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ۝٨﴾، فتأويل يراه: فهو يجزاه.

تفسير سورة البينة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وسألته صلى الله عليه وآله عن قول الله سبحانه: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ﴾؟

فـ﴿أَهْلِ الْكِتَابِ﴾: هم أهل التوراة، والتوراة: فهي الكتاب الذي نزل على موسى عليه السلام، وأهله وحملته اليهود والنصارى، وهم أهل ملل كثيرة شتى، فاليهود منهم فرق كثيرة مختلفة، والنصارى أيضاً فأصناف كثيرة متصنفة.

فمن اليهود: اليهودية، ومنهم فرقة يقال لها: السامرية، ومنهم فرق أخرى تعرف وتسمى.

ومن النصارى: الملكية، ومنهم: اليعقوبية، ومنهم: النسطورية، في فرق أخرى تعرف أيضاً وتسمى، ولسنا نحتاج في هذا التفسير إلى ذكرها، ولا تفصيل ما هي عليه من أمرها، غير أنهم كلهم وإن افترقوا في مذاهبهم أهل الكتاب.

والمشركون فهم: أهل الإثبات مع الله للآلهة والأرباب، وهم مشركوا العرب، ومن كان يُقِرُّ برب، ومن الناس من ينكر ويجحد أن يكون للأشياء رب يعبد، ويزعم أن الأشياء لم تزل كما ترى، ولا يُثْبِتُ في الأشياء تدبيراً ولا أثراً، فيكابر في ذلك عماية وجهلاً ما يدركه بعينه عياناً وقِبَلاً من الصنع النير والتأثير، والبدع المتقن ومحكم التدبير، الذي لا يخفى على عمي ولا بصير وإن لم يقر

بمعاد ولا مصير.

وليس أولئك ولا من هو كذلك من أهل التوراة ولا من أهل الكتاب، ولا ممن يقر بإله ولا برب كالعرب، ومن كان مشبهاً للعرب ممن يقر بالله وإن أشرك مع الله، فإنما أولئك عند من يعقل كالبهائم السائمة، وإن لزمتهم الحجة بما جعل الله لهم من الجوارح السالمة، التي قطع الله بها عذرهم، وألزمهم بها كفرهم، وأولئك فليسوا ممن ذكر في سورة لم يكن، وإنما ذكر فيها مَن يقرُّ برَبٍّ وإن لم يؤمن مِن كفرة أهل الكتاب والمشركين، فقال سبحانه: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ﴾، والانفكاكُ والفكُّ هو: المجانبة لما هم عليه والترك، وتركهم فهو لإشراكهم، وانفكاكهم من عقد شركهم، وفريتهم فيه على الله وإفكهم.

وتأويل ﴿كَفَرُوا﴾ فهو: لم يشكروا؛ لأن من لم يشكر الله تبارك اسمُه بترك عصيانه فكافر وإن كان مقراً ومعتقداً لمعرفة الله وإيقانه، كإبليس الذي ذكر الله سبحانه معرفته به، وذكر كفره لما ارتكب من الكبائر بربه، وكذلك كل من ارتكب كبائر تسخط مَن أحسن إليه فقد كفره، ومن أتى ما يرضاه وتولى أولياءه وعادى أعداءه فقد شكره.

ولما جمع أهل الكتاب والمشركين من كبائر عصيان رب العالمين دُعُوا جميعاً كفرةً وإن كانت قلوبهم كلهم وألسنتهم بالله مقرة، فقال: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ﴾، تأويل ذلك: أنهم لم يكونوا مُقْصِرين ولا تاركين لما هم عليه وعاصين لله فيه ﴿حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ۝١﴾

المنيرة الظاهرة، فقال: ﴿رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً۝٢﴾، ويتلو: يقرأ ويتبع بعد القراءة ما اقترأ، والصُّحُف: ما صُحِّفَ ليقرأ. والمطهرة: ما جُعِل منها بركةٌ وتطهرة، وبينات منيرة مسفرة، وكل مطهَّر فمبارَك، وكل مبارك فمطهر، له وفيه بالله البركة والتطهرة، وكذلك يقال في الرسول عليه السلام إذا ذكر بما جعل الله من البركة فيه: رسول الله الطيب الطاهر، وهو قول الكثير عند ذكره الطاهر، عندما يذكره بذلك صلى الله عليه وآله وسلم من الصادقين كل ذاكر، وإنما يراد بذلك المبارك المُزكَّى، وليس يراد بذلك طهارته بالماء إذا توضأ.

وكذلك يقال في ابنته فاطمة صلوات الله عليها إذا قيل: الطاهرة، إنما يراد بذلك ما جعل من البركة فيها، ومن ذلك ما وهب لها وجعل لبركتها من بقية رسول الله ونسله صلى الله عليه وآله وسلم.

فهذا -واللهُ محمودٌ- من تأويل الطهارة ومطهرة، ومن وجوهه المعروفة غير المستنكرة، لا يجهل ذلك -إن شاء الله- ولا ينكره مَن يعرف لسان العرب ويبصره.

وتأويل ﴿فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ۝٣﴾ هو: كتب منيرة بيِّنةٌ محكمة، لها نورٌ وبرهان واحتجاج، ليس فيها اختلاف ولا اعوجاج.

ثم ذكر الله سبحانه ما ذكرنا من افتراق أهل الكتاب واختلافهم، وما هم عليه اليوم وقبل اليوم بتشتيت أصنافهم، فقال تبارك وتعالى: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ۝٤﴾، والبينة: فهي الرسل، والأمور التي جاءتهم النيرة المبينة، وهي التي ليس فيها دُلسةٌ ولا عماية جليلة

ولا لُبسة، ولكنها بينة نيِّرة مُضيَّة، ظاهرة لمن تعقلها جلية، ألا تسمع كيف يقول سبحانه: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ﴾، فأمروا ليعبدوه جل ثناؤه وحده، فعبدت النصارى معه المسيح رسوله وعبده، وأُمروا ليخلصوا له الدين ولا يجعلوا له ولداً، فجعلوا له ولداً، وجعلوه كلهم ثالث ثلاثة عدداً، وفيهم ما يقول سبحانه: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ [المائدة:٧٣]، فهو الله الأحد الصمد الذي ليس له ولدٌ ولا والد.

وقالت اليهود كما قال الله جل جلاله عن أن يساويه شيءٌ أو يماثله: ﴿عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ﴾ [التوبة:٣٠]، فلحقوا بالنصارى في الكفر بالله، وشبهوا الله ببعض حالات خلقه في الهيئة والقوى، وزعموا أنه جالس على عرش هو سرير وأنه لا يتوهم له قرار في جو ولا هواء(١)، وأن له مقعداً من العرش والكرسي ومستوى. وتأوَّل مَن شبَّهه من هذه الأمة في ذلك ما يقول الله سبحانه: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى۝﴾ [طه].

وأمروا أن يكونوا حنفاء فكانوا جورة حُيَّفاً(٢)، والحنيف: هو الطائع المستقيم الخاشع. وأُمروا أن يصلوا له فصلوا لغيره معه، فمنهم من صلى لأثرة صنم، ومنهم من صلى لعيسى بن مريم صلى الله عليه، ومنهم من صلى لمن شبهه بآدم

---

(١) قوله عليه السلام: «وأنه لا يتوهم له قرار في جو ولا هواء»: هذا من قول اليهود، وهو مثل قول من يقول من أهل هذه الملة: بلا كيف. والإمام منكر لقولهم: إنه جالس على عرش بلا كيف. (من خط السيد العلامة المجتهد محمد بن عبدالله عوض المؤيدي حفظه الله).

(٢) حيف: جمع حائف، والحيف: الميل في الحكم والجور والظلم.

صلى الله عليه في الصورة واللحم والدم، ومنهم من صلى لمن هو عنده نور من الأنوار، وجسم مسدس المقدار، له -زَعَمَ- جهات ست: خلف وأمام ويمين ويسار وفوق وتحت، فتعالى الله عما قالوا كلهم علواً كبيراً، وجل وتقدس عن أن يكون لنفسه من خلقه مثلاً أو نظيراً، وكيف يكون عابدٌ ذليلٌ كعزيز معبود؟ ومن لم يزل دائماً مُشْبِهاً لما كان طوال الدهر غير موجود؟

ثم قال سبحانه في دينه وصفته: ﴿وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ۝٥﴾، تأويل ذلك: أن كل ما أمر به فمن الأمور المرشدة الهادية المستقيمة.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ۝٦﴾، فالذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين بالله مع إقرار الفريقين بالربوبية لله، فهم كما قال الله: ﴿شَرُّ الْبَرِيَّةِ﴾؛ بما كان منهم على الله من الدعوى المبطلة المفترية. والبرية: فما ذرأ الله وبرأ مما يُرَى من الخلق كله أو لا يُرَى. ونار جهنم: فهي النار التي لا يعرف في النيران مثلها، ولا يعلم منها كلها مشبهاً لها فيما عظم الله من نارها وحر استعارها.

وتأويل ﴿خَالِدِينَ﴾ فهو: غير فانين ولا بائدين، كما قال سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ۝٣٦﴾ [فاطر]، فنارُ جهنم: هي النار المستعرة التي ليس لاستعارها أبداً من انكسار ولا فتور، ولو فترت من استعارها والتهابها لكان في ذلك تخفيف عن أهلها من عذابها.

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ۝٧ جَزَاؤُهُمْ

عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ۝٨﴾، فمن آمن: فهم المؤمنون من كبائر العصيان، والذين لا يُخافون على ارتكاب زور ولا بهتان ما ثبت لهم أبداً اسم الإيمان، وحُكمُ أهل الهدى والبر والإحسان.

والصالحات من الأعمال: فهي كل صالح عند الله من قول أو أفعال، وجزاؤهم: هو ثوابهم من الله وعطاؤهم.

وتأويل ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾ هو: جنات مستقر وأمن. وتأويل ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ هو: رضا الله سبحانه لهم، ﴿وَرَضُوا عَنْهُ﴾ فتأويل رضاهم: فهو بما أعطاهم وجزاهم، بأنهم لم يزالوا راضين عنه -جل ثناؤه- في دنياهم قبل مصيرهم إلى ما صاروا.

ثم أخبر سبحانه لمن جعل جزاءه فقال: ﴿ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾، يعني: لمن خافه واتقاه، فأخبر جل جلاله أنه جعل لأهل التقوى الكرامة والرضا، والارتضاء في المعاد والمثوى.

وتأويل ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ فهو: بقاؤهم أبداً بعد المصير إليها.

تفسير سورة القدر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وسألته رحمة الله عليه عن قوله سبحانه: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ۝١﴾- فقد يكون أنزلنا: جعلنا، كما قال سبحانه: ﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ [الحديد:٢٥]، ﴿وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾ [الزمر:٦].

وتأويل أنزل في ذلك: جعل، فيمكن أن يكون جعل القرآن كله وأحدثه وأتمه وأكمله فيما ذكر تبارك وتعالى من ليلة القدر المذكور، والقدر: فهو وقت وَقَّته الله جل ثناؤه من أوقات الدهور. وقد يكون القدر هو الجلالة والكبر، كما يقال: إن لفلان أو لكذا وكذا قدراً، يراد بذلك أن له جلالةً وكبراً. فإن يكن[١] وقتاً فهو وقت ذكره الله وكرَّمه بما قدَّر فيه من أموره المحكمة. ومن الأدلة على أن الله جعل القرآن في ليلة القدر كله، وأحدثه فيها فأتمه وأكمله، وأنه لم يرد بتنزيله ووحيه إنزاله له جملة على رسوله ونبيه- أن الله سبحانه إنما أنزله على رسوله صلى الله عليه وآله وسلم وأوحى تبارك وتعالى به إليه مفرقاً لا جملة واحدة، وعلمه إياه جبريل صلى الله عليه سورة سورة، وآيات آيات معدودة؛ ليقرأه كما قال سبحانه على مكثٍ وترتيل، ولترتيله وَصَفَه تبارك وتعالى في الوحي له بالتنزيل؛ لأن المفرق المنزل هو المرتل المفصل، وفي ذلك ما يقول الله تبارك وتعالى فيه: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا۝١٠٦﴾ [الإسراء]، ويقول سبحانه لرسوله صلى الله عليه وآله وسلم في قراءته: ﴿وَرَتِّلِ الْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا۝٤﴾ [المزمل]. والتفصيل: هو التقطيع والتنزيل.

و في إجماله وجمع إنزاله ما يقول المشركون لرسوله صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾، فقال الله سبحانه: ﴿كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا۝٣٢﴾ [الفرقان]، يقول سبحانه: نزلناه عليك قليلاً قليلاً، ثم قال سبحانه لرسوله صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ

(١) في المطبوع والمصابيح: كان.

﴿تَفْسِيرًا ۝٣٣﴾، فنحمد الله على ما نوَّر بذلك من حجته بمَنِّه ورحمته تنويراً.

ثم أخبر سبحانه أن قد أنزله، وتأويل ذلك: أن قد جعله الله كله في ليلة واحدة، فقال تبارك وتعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ۝١﴾ و﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ﴾ [الدخان:٣]، فأبطل بذلك كل حجة لمن كفر مظلمة مهلكة، وكان ذلك من قدرته ما لا ينكره من أهل الجاهلية من أقرّ بمعرفته.

وقد يمكن أن يكون تأويل: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ﴾ هو: تنزيله سبحانه من السماء السابعة العليا إلى من كان من الملائكة في السماء الدنيا، وقد ذكر عن أمير المؤمنين علي صلوات الله عليه أن ذلك هو تأويل: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ﴾ وبيانه، فأي التأويلين جميعاً تُؤُوِّلَ فيه وقع بإنزاله كله عليه(١).

ولو كان إنما أراد بذلك إنزاله على محمد صلى الله عليه وآله وسلم لكان إنما نزل إليه مفرقاً ومقطعاً غير مجمل من الله، وإنما قال الله: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ﴾، فأوقع التنزيل على كله لا على بعضه، وقال لرسوله صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿إِنَّ الَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْءَانَ﴾ [القصص:٨٥]، فأخبر سبحانه بفرضه، والفرض: هو التقطيع والتفصيل، كما يقول القائل للشيء إذا أمر بقطعه: افْرِضْه وفَصِّلْه ليقطعه.

وتأويل ﴿إِنَّ الَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْءَانَ﴾ هو: الذي(٢) قطَّع تفريقاً ما نزل

(١) قوله عليه السلام: «فأي التأويلين جميعاً تُؤُوِّلَ فيه وقع بإنزاله كله عليه»: ذكر عليه السلام تنزيل القرآن مفرقاً على النبي صلى الله عليه وآله وسلم، ثم ذكر إنزاله جملة إلى سماء الدنيا؛ فهذان تأويلان لتنزيل القرآن وإنزاله كلاهما صحيحان فأيهما وقع فهو صحيح. (من خط السيد العلامة المجتهد محمد بن عبدالله عوض المؤيدي حفظه الله).

(٢) في المطبوع والمصابيح: هو أن الذي.

من القرآن إليك، وذلك فهو الله الرحمن الرحيم، وما فرض: فهو كتابه المنزل الحكيم، وأي القولين اللذين ذكرنا وبينا في ذلك وفسرنا قيل به فتأويل، وأمر كبير جليل، كريمٌ ذكرُه، واجبٌ شكرُه.

وليلة القدر التي نزل فيها القرآن فليلة من الليالي مباركة، تتنزل فيها[١] كما قال الله تبارك وتعالى الروح والملائكة؛ لبركتها وقدرها، وما عظم الله من أمرها، ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ﴾ من أمور الله بنازلة، وبركة لأهل الأرض كلهم شاملة، فليلة ذلك الوقت والخير والقدر خير، كما قال الله سبحانه: ﴿خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾؛ لما جعل الله جلَّ ثناؤُهُ فيها من اليُمن والبركات، وما يمسك الله فيها عمن أجرم من النقم والهلكات، ولما نسب الله إليها من الخير تنزلت الملائكة والروح فيها من أعلى العلا إلى الأرض السفلى.

يقول الله سبحانه: ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾، تأويل ذلك بإذن الله فيها لهم، وقد قال غيرنا في تأويل ﴿مِنْ كُلِّ أَمْرٍ﴾: إنه من كل وجهة، وما قلنا به -والله أعلم- في نزولهم من أمر الله ورحمته بكل نازلة أشبه وأوجه، فهم ينزلون فيها من أمر الله وتقديره وما جعل الله فيها من بركاته وخيره إحداناً وزمراً وإرسالاً، ببركتها وإعظاماً لها وإجلالاً، وإذ جعلها الله سبحانه لتنزيله ووحيه وقتاً ومقداراً، وذكرها بما ذكرها به من القدر تشريفاً لها وإكباراً، وليلة القدر جعلها الله من ليالي رمضان، ألا ترى كيف يقول سبحانه: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ﴾ [البقرة:١٨٥]، ويقول

---

(١) في المطبوع والمصابيح: تتنزل الملائكة فيها.

سبحانه بعد ذكره لشهرها وما جعل الله فيها من بركتها ويمنها: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ۝٣ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ۝٤ أَمْرًا مِنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ۝٥ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ۝٦﴾ [الدخان]، فهي ليلة بركة ورحمة، وسلامة وعصمة، وفيها ما يقول أرحم الراحمين، ورب السماوات والأرضين: ﴿سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ۝٥﴾.

وتأويل ﴿سَلَامٌ﴾ فهي: سلامة هي حتى طلوع الفجر، فليلة القدر ليلة سالمة مسلمة، ليس فيها عذاب من الله تبارك وتعالى ولا نقمة، جعلها الله بفضله بركة وسلامة، ورحمة للعباد إلى الفجر دائمة، ولحقِّ الليلة نزَّل الله فيها وحيه وقرآنه، وفرَّق برحمته فيها فضله وفرقانه، بالبركة والتفضيل، والإعظام والتجليل.

وتأويل ﴿وَمَا أَدْرَاكَ﴾، فهو: ما يدريك لولا ما نزلنا من البيان فيها عليك، ﴿مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ۝٢﴾ في القدر والكبر، وما يضاعف فيها لعامله من البر والأجر، فهي ليلة ﴿خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ۝٣﴾ جعلت لبركتها ويمنها في التضعيف لها والأضعاف كعشرة آلاف ليلة وعشرة آلاف ليلة وعشرة آلاف ليلة، فذلك ثلاثون ألف ليلة، ونحوها تامة، جعلت مقداراً مضاعفاً لليلة القدر؛ تشريفاً لها وكرامة، وهي ليلة مقدسة يضاعف فيها كل بر وعمل صالح لمن عمل به فيها من أهلها، فيزاد على تضعيفه من قبل ثلاثين ألف ضعف لقدرها وفضلها، ونحمد الله في ذلك وغيره رب العالمين، على ما أنعم به من ذلك الله خير المنعمين.

تفسير سورة العلق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سألت أبي رحمة الله عليه عن تفسير: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢﴾.

فتأويل ﴿اقْرَأْ﴾ فهو أن يقرأ، وتأويل اسم ربه الذي أمر أن يقرأ به فهو: بسم الله الرحمن الرحيم، الذي قدم له في تعليمه كل سورة عند الإقراء له والتعليم.

وربه: فهو الله الذي خلق خلقه، فخلق الإنسان من علق إذا ما خلقه، والعلق: فهو الدم الأحمر المؤتلق، الذي يتلألأ لشدة حمرته ويبرق، فيما ذكره الله سبحانه من علق الدم، وخلق الناس كلهم غير آدم وحواء، فإن حواء خلقت من آدم، وخلق آدم من تراب، فلم يخرج آدم وحواء من بين ترائب وأصلاب كما خرج من بين الصلب والترائب غيرهما، ولكنه كان من الله سبحانه ابتداؤهما وتدبيرهما من غير أصل مقدم من أب ولا أم، وكان ما بين ذلك من التباين والفرق في الصنع والفطرة والخلق؛ إذ خلق آدم من تراب، وخلق نسله من علق من أعجب العجائب، وأدل الدلائل على قدرة الخالق على ما خلق مما يشاء أن يخلقه جلَّ ثناؤُهُ من الخلائق، وعلى أن قدرته سبحانه فيما يخلق من خليقته واحدةٌ غير متشتتة ولا متفرقة، على أقدار ما يرى من افتراق البدائع، والخِلَقِ المفطورة والصنائع، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ۝٤٠﴾ [النحل]، فأخبر سبحانه أنه لا يختلف عليه في قدرته البدائع والكون، وأن قدرته في ذلك كله لا تتفاوت وإن تفاوت الخلق المبتدع المتفاوت.

ثم أمر تبارك وتعالى رسوله بالقراءة باسمه أمراً مثنى، وكل ذلك فواحد في

الإرادة والمعنى، إلا أن التكرير غير التفريد في زيادة الأمر والتوكيد، والتكثير فأكثر في الرحمة، وفي زيادة المن والنعمة بالعلم والتعليم والأمر والتفهيم، وفي كل كلمة من كلمات الله تقل أو تكثر بصائرُ جمة –بمَنِّ الله– لمن يعقل ويبصر، فليس في شيء في كلام الله جل ثناؤه نقصٌ ولا فضول، ولا يُشبه قولَ الله في الحكمة والبيان من أقوال القائلين قولٌ، فقال سبحانه: ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ۝٣ الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ۝٤ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ۝٥﴾، من كل ما علمه ببصر أو سمع أو فؤاد، وما كان مرضياً أو مسخطاً لله من غي أو رشاد، كما قال سبحانه: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ۝٧٨﴾ [النحل]، فبما جعل الله لهم من الأفئدة يعقلون ويتفكرون، وبما سلم من السمع والبصر يسمعون ويبصرون، فتبارك الله أحسن الخالقين خلقاً، وأوسع الرازقين في العلم وغيره رزقاً.

فهو المعلم سبحانه بالقلم وبغيره من وجوه العلم التي ليست بخط ولا كتاب، من كل ما يعلمه أولو الألباب، ما يعلمه أيضاً سواهم ممن لم يبلغ في العلم مداهم، وإن لم يكتب وكان جاهلاً بالكتب، مما يعلمه من صناعة أو بِحَرفٍ أو بياعة، فالله معلمه ومفهمه، من ذلك أو يعلمه، فلولا الله سبحانه لم يظفر أبداً من علمه بما علم، ولم يفهم منه وفيه من العلم ما فهم، وكذلك كل ملهم من طفل صغير وكل ما سوى ذلك من البهائم والطير، من ألهم علماً في تَغَذٍّ أو محاذرة لضرٍّ أو توَقِّي فالله عز وجل ملهمُه معرفتَه وتوقيه ومحاذرته.

وتأويل قوله سبحانه: ﴿وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾ فهو: ما بان به الله من الجود

والكرم فيما وصل به إليه من النعم من مواهبه في العلم وغير العلم، وقد علّم الله رسوله عليه‌السلام من شرائعه ودينه وإن لم يكتب بقلم أو يخط كتاباً بيمينه ما جعله الله به -فله الحمد- إماماً لكل إمام كان معه في حياته وبعد وفاته من الكتبة والعلام، فكان بمَنِّ الله لكلهم إماماً ومعلماً، وعلى جميعهم في العلم والحكمة مقدماً، وفي ذلك وبيانه ما يقول الله سبحانه في قرآنه(١): ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ۝٤٨﴾ [العنكبوت]، فكفى بهذا والحمد لله بياناً وبرهاناً لقوم يعقلون.

وتأويل: ﴿كَلَّا﴾ فهو: نعم وبلى، ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى۝٦ أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى۝٧﴾، فتأويل يطغى فهو العتاء والطغاء، وتأويل ﴿أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى۝٧﴾ فهو: تكَثُّره بالجدة والغنى في كل ما رآه فيه من علم ومال، وما يراه مستغنياً به أو مستطيلاً به من كل حال.

وتأويل ﴿إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى۝٨﴾ فهو: إلى الله المعاد في قيامة الموتى، ثم قال سبحانه لرسوله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم: ﴿أَرَأَيْتَ...﴾ تثبيتاً له عليه‌السلام وتعريفاً، وتبييناً أيضاً لمن كفر به وتوقيفاً على ما يعرفون ولا ينكرون، وما هم به جميعاً كلهم مُقرّون، من أنه ليس لأحد أن ينهى عبداً من عباد الله عن الصلاة والأمر بالتقوى لله.

فتأويل ﴿أَرَأَيْتَ﴾ هو: أرأيت أنت ومن معك ممن يرى، كما يرون كلهم جميعاً وترى(٢) أن كل من صلى من خلق الله وأمر بما يحب الله ويرضى؛ مبتغياً

---

(١) في المطبوع والمصابيح: فرقانه.

(٢) في المطبوع والمصابيح: كما ترون وكلهم جميعاً يرى.

بذلك رضوان الله، وطالباً بذلك لما عند الله، مصيباً في ذلك لرشده[١] وهداه- قد أصاب بذلك من الله طاعته ورضاه، أليس مَن نهاه عندهم عن ذلك وآذاه فقد استوجب لعنة الله وإخزاه؟ وكذلك كل عبد لله أمر بالتقوى والإجلال لله، كما كان يصلي محمد صلى الله عليه وآله وسلم لله ولمرضاته، ويأمر باتقاء الله جل ثناؤه ومخافته، وكل ما كان فيه من ذلك كله عندهم فحميد، ومن يعمل لله بذلك فيهم فرشيد.

ثم قال سبحانه لرسوله صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى۝١٣﴾ تأويل ما يقرأ من ذلك ويتلى: أفرأيت من كذب به بعد إقراره بما يصف، وتولى في ذلك عما يعرف، من أنه ليس له أن ينهى عبداً عن أن يصلي لله، ولكن أن يأمر بما هو الهدى عنده من تقوى الله.

﴿أَلَمْ يَعْلَمْ﴾ من فعل ذلك ﴿بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى۝١٤﴾ فيخاف أن يؤاخذه الله بفعله ويجزى.

وتأويل رؤية الله فهو علم الله بنهي من ينهى عبداً إذا صلى، فما بالهم ينهون محمداً صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه عن الصلاة، وعما لم يزل يأمر به من التقوى أهل البر والرشد من الهداة[٢]؟ مع علم مَن ينهى عن ذلك ويقينه بأن الله عالم[٣] بنهيه عن ذلك وغيره، فلما أصر الناهي عن ذلك على ظلمه فيه وكفره مع ما أيقن به من علم الله بأمره فيه كله وأقر قال سبحانه: ﴿كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ﴾ عما هو فيه،

---

(١) في المطبوع والمصابيح: مصيباً لذلك في رشده.

(٢) في المطبوع والمصابيح: الهدى.

(٣) في المطبوع والمصابيح: علم.

وعما أصر من ظلمه عليه ﴿لَنَسْفَعَنْ بِالنَّاصِيَةِ۝١٥﴾، وتأويل ﴿لَنَسْفَعَنْ﴾ فهو: لنأخذن ﴿بِالنَّاصِيَةِ﴾، والناصية فهي: مقدمة(١) الرأس العالية.

ثم قال سبحانه: ﴿نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ۝١٦﴾، إذ كانت عما لا يجوز النهي عنه عندها من الصلاة والتقوى لله ناهية، فكذبت قولها في ذلك بفعلها، وأخطأت بنهيها عنه فيه بجهلها، فهي كما قال الله سبحانه: ﴿كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ۝١٦﴾، وهي لله مخالفة في ذلك عاصية، يقول الله سبحانه: فإذا أخذنا من بالناصية ﴿فَلْيَدْعُ﴾ إن استجيب له حينئذٍ ﴿نَادِيَهُ۝١٧﴾، وناديه فهم عشيرته وأولياؤه، وأنصاره وجلساؤه، الذين كانوا يجلسون في مقامه إليه، ويجتمعون لمجالسته ونصرته لديه، ﴿سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ۝١٨﴾، والزبانية فهم الملائكة المطهرة الزاكية، التي يأمرها الله سبحانه بأمره فتنفذ كل ما أمرها الله به مطيعة لله غير عاصية، وآخذة لمن(٢) أمرها بأخذه غير وانية، تأخذ بالغلظة والشدة كلَّ نفسٍ عاتيةٍ متمردة، كما قال سبحانه: ﴿عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ۝٦﴾ [التحريم].

ثم قال سبحانه لرسوله: ﴿كَلَّا لَا تُطِعْهُ﴾، يقول سبحانه لرسوله صلى الله عليه وآله وسلم: لا تطع من نهى عن الصلاة والهدى، وعن الأمر لله بالتقوى، وكَذَب فعمل بالكذب، ولكن اسجد واقترب بكل عمل صالح مقرِّب، من صلاة أو هدى أو برٍّ وتقوى، فكلهم يقرُّ بأن الهدى والصلاة لله والأمر باتقاء الله مقرِّب لمن فعله

---

(١) في المطبوع والمصابيح: مقدم.

(٢) في المطبوع والمصابيح: لما.

إلى الله، فليس لهم أن ينهوا عن شيء من ذلك إذا كان عندهم كذلك، ومن يفعل ذلك أو عمل به فقد كذب فيه قوله بفعله، وصار إلى ما لا مرية فيه عنده من جهله، وتولى عما كان من الإقرار لله عليه بتركه لما كان مقراً لله بالحق فيه، فشهد على نفسه[(١)] لله بكفره، وثبتت[(٢)] عليه فيه الحجة باعترافه وإقراره، فبان منه الكفر، وانقطع عنه العذر، فلا عذر له عند نفسه ولا اعتذار، ولا خفاء لكفره ولا استتار.

وكذلك كل من أسلمه الله إلى الباطل وحيرته ولبسه وحجة الله قائمة عليه في الحق بنفسه، وفي إقراره من ذلك بما يقر حجةٌ لله عليه فيما ينكر.

وسواء قيل: اقترب أو تقرَّب، معناهما واحد في التقرب. والسجود فهو السجود الذي يكون بعد الركوع، وليس بسجود التذلل والخضوع، وكلا الوجهين فقد يدعى سجوداً وبراً إذا كان ممن هو فيه بيِّنا موجوداً.

وتأويل ﴿وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ ۝١٩﴾: فمن السجود والصلاة، وتأويل ﴿وَاقْتَرِبْ﴾: فمن التقرب مما تقرَّب به من الحسنات، وسواء قيل: اقترب أو تقرَّب، معناهما جميعاً اقترب، وأحد ذلك كله فيما يقال به فيه فصواب.

---

(١) في المطبوع والمصابيح: فتشهد عليه نفسه.

(٢) في المطبوع والمصابيح: وتثبت.

تفسير سورة التين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وسألته صلوات الله عليه عن تفسير: ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ۝١ وَطُورِ سِينِينَ۝٢ وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ۝٣﴾؟ فقال:

فالتين: فهو هذا التين المأكول، والزيتون: فهو هذا الزيتون المعلوم، وقد ذكر عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب صلوات الله عليه: أن التين والزيتون هو: التين الشامي خاصة وزيتونه، وذلك لما جعل الله للشام من التقديس والبركة، وفي الشام ما يقول موسى عليه السلام لبني إسرائيل: ﴿يَاقَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ﴾ [المائدة:٢١]، وما ذكر الله من طور سينين فهو: الجبل الذي كلم موسى منه رب العالمين.

و﴿الْبَلَدِ الْأَمِينِ۝٣﴾ فهو: الحرم الذي على كل حد من حدوده رضم من الحجارة، وعلم فُصِلَ به بين غيره وبينه؛ ليعرف بذلك ما هو منه.

وإنما أقسم الله سبحانه من الأشياء بما أقسم من القسم لما جعل فيها من الآيات والبركات والكرم، وإنما يقسم أبداً المقسِم بما يُجُلّ من الأشياء ويكرم، وكرمُ ما ذكر الله من هذه الأشياء فما ليس به عند من يعقل من خفاء، فمن كرم التين والزيتون ما جعل الله فيهما من المنافع والطعوم، وكرم طور سينين وبركته ما كان من مناجاة الله تبارك وتعالى لموسى عليه السلام في بقعته، وفي ذلك ما يقول سبحانه: ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ﴾ [القصص:٣٠]، فذكرها سبحانه بما جعل فيها من التقديس والبركة، وفي ذلك ما

يقول تبارك وتعالى: ﴿وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ﴾ [مريم:٥٢]، والطور فهو: طور سينين المذكور.

ومن كرم الحرم وفضله فما جعل الله فيه من الأمن لأهله، وما فرض من حج بيته، وألزم الناس في ذلك من فريضته.

وتأويل ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤﴾ فهو: خلقه للإنسان في أحسن تعديل، من كل توصيل فيه وتفصيل، أُصِّل به أو فُصِّل، أو هُيِّءَ بهيئة(١) فعُدِّل، من هيئة أو صورة مُصوَّرة مقدرة، أو فؤاد أو سمع أو عين مبصرة، وكل ذلك كان مفصلاً أو موصلاً فقد جعله سبحانه مستوياً معتدلاً، كما قال تبارك وتعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ۝٦ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ ۝٨﴾ [الانفطار].

وتأويل ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ۝٥﴾ فهو: ردُّه إن بقي وعُمِّر إلى آخر أعمار الآدميين، التي إن صار إليها وبقي حياً فيها تغيرت حاله وعقله، وبان نكسه وسفاله، كما قال الله سبحانه: ﴿وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ۝٦٨﴾ [يس]، وتأويل ﴿نُنَكِّسْهُ﴾، فهو: نردُّه في الهرم والذهاب بعد القوة والجدة والشباب، أو يموت قبل ذلك على كفر وإنكار، فينكس بعد الكرامة في الهوان وعذاب النار، ومن الذي هو أسفل درجة من كفره إن لم يهرم إن هو نُكِّس ورُدَّ في الآخرة إلى نار جهنم؟ فنعوذ بالله من السفال بعد التِّمة والكمال،

(١) في المطبوع والمصابيح: بهيأته.

أو كل إنسان فَرَذْلٌ[١] ليس له كمال [ولا فضل][٢] كما قال الله سبحانه ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝٦﴾.

فكل ما لم يدخله مَنٌّ [من] العطايا والجود، وذلك فما لا يوجد أبداً إلا في عطايا الله الجواد الكريم، وكل عطاء أعطاه معطٍ سوى الله من حميد أو ذميم فليس يخلو من أن تدخله مِنَّةٌ وامتِنَانٌ وإن لم ينطق بالمنة فيه لسان؛ لأن من وهبه وأعطاه لم يعطه إلا بعد أن تكَلَّفه وعاناه، والله يعطي من يعطيه بغير معاناة من الله ولا تكلف فيه، وكل معطٍ سوى الله فإنما يعطي ما أعطى من رزق الله، وإنما يعطي مما قد جعله الله له وما هو لله تبارك وتعالى، فنحمد الله الذي لا شريك له الذي يعطي فلا يُعطى، والذي لا يعطي معطٍ سواه إلا ما أعطاه[٣].

تفسير سورة الشرح

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وسألته عليه السلام عن تفسير: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝٢ الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ ۝٣ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝٤﴾؟

فقال: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١﴾، فشَرحُه هو: توسيعه لصدره صلى الله عليه وآله وسلم، وفسحه لما كان يضيق عنه كثير من الصدور فيما حمل من التبليغ والأمور، ومِنْ شرح الله أيضاً لصدره تيسيرُه في الدين لأمره، وما أعطاه فيه من معونته ونصره.

---

(١) الرَّذل والرَّذيل والأرذل: الدون من الناس، وقيل: الدون في منظره وحالاته، وقيل: هو الدون الخسيس، وقيل: هو الرديء من كل شيء. (قاموس).

(٢) ما بين المعقوفين من المصابيح.

(٣) في المطبوع والمصابيح: أعطى.

﴿وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ۝٢﴾، فوزره هو: ثقله ووقره، والوقر من كل شيء فهو الحمل، والحمل من كل شيء فهو الثقل. وإذا قيل لشيء: أَوزَرَه وِزرَه فإنما يراد بذلك حَمَّله وِقْرَه، وما حمل من الأثقال كلها والأمور فإنما يحمل منه الحاملون على الظهور، وكل ما يعمله المرء من خيره وشره فإنما يحمله على ظهره، كما قال سبحانه: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَاحَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ۝٣١﴾ [الأنعام]، وقال سبحانه: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ [العنكبوت:١٣]، يريد سبحانه: ما حملوه من كفرهم وفجورهم، وليس يراد(١) بذلك حمل أحمال، ولا ما يحمل على الظهور من الأثقال، وإنما هو مَثَلٌ يضرب من الأمثال، مما كانت تضربه وتمثله العربُ، وكذلك ما ذكره الله من الشرح لصدر نبيه، وما نزل في ذلك من وحيه، فذكره سبحانه لما ذكر من إنقاض الوزر لظهره، وما وضع سبحانه لما ذكر من وزره- فإنما هو تمثيل وبيان ودليل، فليس يريد بشرح الصدر ولا ما ذكر من الحمل على الظهر شرحَ شيء يقطعه، ولا حملَ ثقل(٢) يضعه، وما حمل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من وزر على ظهره فلا(٣) يكون إلا من زلل أو خطيئة(٤) في أمره، ووَضعُ الله لذلك عنه فهو حطه لما أثقله منه، وحط الذنب فعفوه ومغفرته، وقد غفر الله لرسوله ذنبه كله وخطيئته، كما

---

(١) في المطبوع والمصابيح: يريد.

(٢) في المطبوع والمصابيح: ثقيل.

(٣) في المطبوع والمصابيح: وذلك فلا.

(٤) في المطبوع والمصابيح: وخطيئة.

قال سبحانه له ﷺ: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ① لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ② وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ③﴾ [الفتح].

وتأويل ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ④﴾ فهو: رفعه لذكره بما أبقى في الغابرين إلى فناء الدنيا من أمره وقدره، ومن ذلك النداء في كل صلاة باسمه، وما جعل من [الشرف به لقومه، فضلاً عما مَنَّ به على ذريته وولده، ومن يشركه في الأقرب من](١) نسبه ومحتده، فنحمد الله الذي رفع ذكره وشرَّف أمره.

ثم أخبر سبحانه في السورة نفسها من أخبار غيوبه خبراً مكرراً، فقال تبارك وتعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ⑤ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ⑥﴾، فبشَّرَهُ بأن له مع عسره يسراً في دنياه، وأن له مع ذلك يسراً لا يفنى في آخرته.

ثم أمره سبحانه إذا هو فرغ من أشغاله، ومما يقاسي في هذه الدنيا من عسر أحواله، فقال عز وجل: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ ⑦ وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ ⑧﴾، والنَّصَبُ: فهو الاجتهاد، والجد والاحتفاد، كما يقال: اللهم لك نصلي ونسجد، وإليك نسعى ونحفد.

فذُكِر أنه لما أنزل الله على رسوله ما أنزل في هذه السورة من آياته فعَبَدَ رسولُ الله حتى عاد كالشن البالي في عبادته؛ شكراً لله وحمداً، وتذللاً وتعبداً.

(١) ما بين المعقوفين من المصابيح.

تفسير سورة الضحى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وسألت أبي صلوات الله عليه عن تفسير: ﴿وَالضُّحَى۝١ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى۝٢﴾؟

فقال: والضحى: إضحاء النهار وشدة ضوئه وظهوره، وسجوُّ الليل: فتراكب ظلمته وتكوُّرِه، كما قال سبحانه: ﴿يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ﴾ [الزمر:٥].

وتأويل: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى۝٣ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى۝٤ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى۝٥﴾، فخبر من الله لرسوله صلى الله عليه وآله وسلم عن أنه وإن لم يعطه ما يعطيه ويكثره أهلَ الدنيا في دنياه، فما تركه فمِنْ حسنِ النظر في ذلك له، لا لبغضه وقلاه. والقالي: فهو الشاني، والشانئ: فهو المبغض، وكل ذلك فهو بغض، ولكنه آثره بكرامته له في آخرته على أولاه.

وأخبره سبحانه أن سوف يعطيه من عطايا الآخرة ما يسره ويرضيه، ثم ذكَّره سبحانه بفضله ونعمته، وبما مَنَّ به عليه من رحمته، فقال تبارك وتعالى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى۝٦ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى۝٧ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى۝٨ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ۝٩ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ۝١٠﴾، وقد علم الناس أنه قليل من الأيتام من يُؤْوَى، ﴿وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى۝٨﴾ فأغناه، بما لم يستغن به غيرُهُ في دنياه، ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى۝٧﴾، فهَدَاهُ بما مَنَّ به عليه من الهدى.

ثم نهاه تعالى عن اليتيم أن يقهره، وعن السائل أن ينهره، وأمره من الحديث بنعمة ربه بما به أمره، أن ذكَّره من اليتم والفاقة بما ذكَّره، وقرر بمعرفة ذلك بما

قرره، فقال تبارك وتعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾﴾، تأويل ﴿فَحَدِّثْ﴾ فهو: فخَبِّر، وانشر ذلك واذكره وكثِّر، فكان بمَنِّ الله لما ذُكِّرَ به من ذلك ذاكراً، ولنعم الله فيها كلها شاكراً.

تفسير سورة الليل

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وسألته رحمة الله عليه عن تفسير: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ﴿١﴾ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴿٢﴾ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَىٰ ﴿٣﴾﴾؟

فقال: ﴿وَاللَّيْلِ﴾ وغشيانه فهو: ظهوره وإتيانه، وتجلي النهار فظهور شمسه(١) على وحشه وإنسه، وبظهوره وتجليه يعيش أهل الأرض فيه، ويتحركون وينتشرون، ويقبلون ويدبرون، كما قال الله سبحانه: ﴿وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾﴾ [الفرقان]، فجعله برحمته لخلقه ضياء ونوراً؛ ليبتغوا فيه كما قال سبحانه من فضله وبمنته(٢) على أهله: ﴿وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾ [القصص]، فكفى بما في الليل والنهار من الدلالة على الله دليلاً لقوم يتفكرون.

وتأويل ﴿وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَىٰ ﴿٣﴾﴾ فهو: وما خلق به كل ذكر وأنثى من الأزواج المختلفة الشَّتَّى، أزواج الإنس والبهائم والأشجار، وكل ما خلقه زوجاً من الأصول والثمار، فأقسم بما خلق به جميع خليقته من قدرته وحكمته

---

(١) في المطبوع والمصابيح: فهو ظهور.

(٢) في المطبوع والمصابيح: ولمنته.

ومَنِّه ورحمته.

وقد قال غيرنا: إن تأويل ﴿وَمَا خَلَقَ﴾ هو: ومن خلق، يريدون أن القسم كان بالله جل ثناء الله، وليس -والله أعلم- ذلك في القسم كذلك؛ لأن الله تبارك وتعالى أقسم بالليل والنهار فقدمهما في قسمه، ولو كان تأويل ما خلق هو: ومن خلق لبدأ الله في القسم باسمه لجلاله وذكره، وعظم اسمه وكبره، ولكنه إن شاء الله كما قلنا.

ثم قال سبحانه: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى۝٤﴾، فجعل عملهم متفرقاً متشتتاً؛ لأن عمل المتفرقين من المبطلين والمحقين برٌّ وفجور، وصدقٌ وزور، فهو كله شتى متفرق، هذا باطل في نفسه وهذا حق، أما تسمع كيف يقول الله سبحانه في تشتته وتباينه في الدنيا والآخرة وتفاوته: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى۝٧﴾، فإعطاؤه هو لما يجب من الحقوق عليه، واتقاؤه فهو فيما أمر بالتقوى لله فيه، ﴿وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى۝٦﴾ فهو: تصديقه بأن سيجزى.

وتأويل ﴿فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى۝٧﴾ فهو: سنصيره من الكرامة والثواب إلى ما سيراه عند موته وفي حشره، وما سيعاينه في الموت والحشر من أمره.

وتأويل ﴿وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى۝٨﴾ بما يراه عند نفسه غنما(١) من ماله وكسبه، وبخل منه به عن ربه، ﴿وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى۝٩﴾، فتكذيبه بالحسنى هو: تكذيبه بما وعد الله أهل التقوى.

---

(١) في المطبوع والمصابيح: غنى.

وتأويل ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ۝١٠﴾ هو سنصيره من الإهانة والعقاب إلى ما سوف يرى.

وتأويل ﴿وَمَا يُغْنِى عَنْهُ مَالُهُۥٓ﴾ فهو: وما ينفعه في الغنى ماله ﴿إِذَا تَرَدَّىٰٓ ۝١١﴾ تأويله: إذا هلك وردي بعد أن كان قد أرشد وهدي، وما أغناه من دنياه وملكه الله إياه، فجعله الله له فهو لله قبله، ألا تسمع كيف يقول في ذلك تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ۝١٢ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ ۝١٣ فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ۝١٤﴾، وما كان من النيران يتلظى فهو أشدها لهباً وسعيراً، وأنكرُها في الحَرِّ والتحريق مصيراً.

ثم أخبر تبارك وتعالى من يصلاها، والإصلاء فهو: التحريق فيها، فقال: ﴿لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ۝١٥ ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ۝١٦﴾، كذب بالجزاء والمثوى، وتولى عن البر والتقوى، ثم أخبر سبحانه أن سيجنب هذه النار المتلظية مَن اتقى، فقال جلَّ ثناؤه: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ۝١٧ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ﴾، يؤتي: يعطي ماله، ﴿يَتَزَكَّىٰ ۝١٨﴾ تأويلها: ليطيب بها عند الله ويزكى، ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ۝١٩﴾، تأويله يريد: يكافأ، ﴿إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٢٠ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ۝٢١﴾ بما يُعطى ويُجزى، إذ أعطى ما أعطى لابتغاء وجه ربه، وما أراد من رضاه به.

تفسير سورة الشمس

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وسألته صلوات الله عليه عن تفسير: ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا۝١ وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا۝٢﴾؟

والشمس: هي الشمس في عينها ونفسها واستدارتها، وضحاها: فهو ما يُرى من علوها في السماء وظهورها واستنارتها.

وتأويل ﴿وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا۝٢﴾ فهو اتصاله بها، وجيئته وراءها متصلاً نوره بنورها، وظهوره في الضوء بظهورها، وما أبين ذلك وأنوره وأعرف ذلك وأظهره في الليالي الغر من ليالي كل شهر، فنوره حينئذٍ بنورها متصل، ليس بين نورهما فرقة ولا فصل، وهي ليالٍ بيضٌ مسفرة، مضيئة ساعاتها منيرة، عظمت في النعمة والقدر، فقيل عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: ((إن صيامها كصيام الدهر))، وهي ليلة ثلاث عشرة وأربع عشرة وخمس عشرة، وهي ليالٍ جعلها الله كلها مضيئة مقمرة، وصَلَ اللهُ ضوءَ نهارها بضوء ليلها، فكان ذلك من عظيم النعمة فيها وجليلها، فسبحان مَن وصل وفصل بين الأمور، فوصل منها بين نور عظيم ونور.

﴿وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا۝٣﴾ فهو إذا أظهرها النهار وأضحاها؛ لأنها لا تضحى أبداً بإظهار إلا فيما جعلها الله تضحي فيه من النهار، وكذلك سبحانه دبَّرها في مقدارها، وبذلك قدرها في مسيرها ومدارها، وفيها ما يقول سبحانه: ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ۝٤٠﴾ [يس]، فكلُّهم جميعاً في فلكٍ -وهو: المدار- يطلعون ويغربون، فليلُ الشمس والقمر عند كل أحد فغير نهارهما، وأنهما يدوران جميعاً بالليل والنهار في مدارهما، والليل كما قال سبحانه فلا يمكن أن يسبق النهار، وإن كان

الفلك في ذلك كله هو المسلك والمدار؛ لأن الليل لو سبق نهاره لسبقت الظُّلم أنواره، فبطل العدد والزمان وتقديرهما، وفسد البشر والحيوان وتدبيرهما، ولكان في ذلك أيضاً فساد الأشجار والثمار؛ لأن قوام ذلك كله ونشأته بما فصل من الليل(١) والنهار.

فسبحان مفصل الأمور والأشياء لبقاء ما أراد بقاءه من النبات والأحياء، وليعلم العالمون عدد السنين والحساب، الذي عنه وبه يكون كل جيئة وذهاب، أو بقاء لشيء من الأشياء جعله يبقى أو يفنى مما فطره سبحانه خلقاً، كما قال جلَّ ثناؤه، وتقدست بكل بركة أسماؤه: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَا ءَايَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا ءَايَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا﴿١٢﴾﴾ [الإسراء].

وتأويل ﴿وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا﴿٣﴾﴾ فهو: والنهار إذا أضحاها، فبانت وظهرت وتجلَّت بتجلِّيه، وبما يظهر من الضوء والنور فيه.

وتأويل ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا﴿٤﴾﴾ فهو إذا غشي الليل الشمس وأتاها، فوارى بظلمته نورها، وأخفى بظهوره ظهورها، ولم تُـرَ الشمسُ، ولم تنتشر الإنس(٢)، ويسكن في الليل الإنسُ والوحشُ وكلُّ طير، فهدأ من ذلك كله فيه كل صغير أو كبير؛ رحمةً من الله به لذلك كله، ومنّةً من الله مَنَّ عليهم بفضله، كما قال سبحانه: ﴿وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ

(١) في المطبوع والمصابيح: بين الليل.

(٢) في المطبوع والمصابيح: الأنفس.

﴿فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝٧٣﴾ [القصص].

وتأويل ﴿وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا ۝٥﴾ فالسماء: هي السماء التي نراها، ﴿وَمَا بَنَاهَا ۝٥﴾ فهو: وما هيأها من حكمة الله وتدبيره، ورحمة الله وتقديره.

وتأويل ﴿وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا ۝٦﴾ فهو: والأرض وما دحاها، ودحو الشيء: هو بسطه وتمهيده، ونشره وتوسيعه وتمديده، [كما قال سبحانه: ﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا﴾ [ق:٧]، وتأويله: بسطناها ومهدناها](١)، كما قال سبحانه: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا ۝٦ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ۝٧﴾ [النبأ]، والممدود إذا أُرِيد مدُّهُ وامتهاده ضُرِبت فيه وفي نواحيه ليمتد أوتاده(٢).

وتأويل ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۝٧﴾ فهي: الأنفس التي قد علمناها لكل ذي نفس من البهائم والإنس، وهي التي إذا فارقت وزالت ماتت أجسادها وخفت، فعادت أجسادها أمواتاً هُلاكاً، ولم ير لها أحدٌ بعد ذهاب أنفسها منها حراكاً، ﴿وَمَا سَوَّاهَا﴾ فهو: وما هيأها فجعلها حية كما جعلها، وعدَّلها سوية كما عدَّلها، من قدرة الله وإحكامه، ومِنَّتِهِ عليها وإنعامه.

وتأويل ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۝٨﴾ هو: فعرَّفها تدبيرُ الله لها وإحكامه هيئتَها واجتراءها، فجعلها تبارك وتعالى عارفةً بكل ما كانت عليه مجترية أوْ له خائفة.

ثم أخبر سبحانه أن نفسَ الإنسان من بين ما ذكرنا من الحيوان نفسٌ بين

---

(١) ما بين المعقوفين من المصابيح.

(٢) في المخطوط: والممدود يريد مده ومهاده إذا ضربت فيه وفي نواحيه ليمتدد أوتاده.

الزكاء والفلاح، والفجور والتدسية والصلاح، فإن تزَكَّت بالتقوى أفلحَتْ وزكَتْ، وإن تدَسَّتْ بالفجور عند الله طلحت وهلكت، فقال سبحانه: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا۝٩ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا۝١٠﴾، وتأويل تزكيتها: هو تطهرتها، وتأويل تدسيتها: فهو تطغيتها.

ثم ذكر تبارك وتعالى مَنْ دساها من سالف الأمم في الفجور فأطغاها، فقال سبحانه: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا۝١١﴾، تأويله: بعتاها وغواها، ﴿إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا۝١٢﴾، وتأويله: إذ قام أخزاها، لشقوته وشؤمه، وبرضا عشيرته وقومه، والأشقى فقد يكون إنساناً واحداً أو يكون جماعةً عدةً، وأي ذلك قيل به كانت المقالة في الصدق والمعنى واحداً، كما يقال: أشقى هذه قبيلة فلان، وأشقى هذه قبيلة بني فلان، فيكون ذلك كله واحداً في الدلالة والبيان.

ويدل على أن أشقاهم ليس بواحد منهم قولُه سبحانه: ﴿فَقَالَ لَهُمْ﴾، ولو كان واحداً منهم لقال: فقال له. وقوله: ﴿فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ﴾، فلو كان الأشقى واحداً منهم لقال: فدمدم عليه ربه، ولقال أيضاً: بذنبه ولم يقل: ﴿بِذَنْبِهِمْ﴾ وإنما هو[1] واحد منهم، ولقال أيضاً: عقرها ولم يقل: عقروها، إذا لم يكن إلا من واحد عَقرُها.

وقد قال غيرنا: إن عاقر الناقة كان إنساناً واحداً ليس بجماعة، وذكروا فيما في أيديهم من الأخبار أن عاقرها يسمى بـ«قُدَار».

وتكذيب ثمود فإنما كان بما وعدها صالح به صلى الله عليه إن عقرت الناقة من عذاب قريب أليم، لا تكذيبها بما لم تزل به مكذبة قديماً قبل عقر الناقة من عذاب الجحيم، إذ يزجرها صالح صلى الله عليه وينهاها عما أتت في أمر[2] الناقة

(١) في المطبوع والمصابيح: إذ هو.

(٢) في المطبوع والمصابيح: عقر.

بطغواها، إذ يقول لهم: ﴿فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا۝١٣ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاهَا۝١٤ فَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا۝١٥﴾، فتأويل ما ذكر الله من السقيا هو ما أعطى الله من لبن الناقة وسقى.

ومما يدل على ذلك قولُ الله سبحانه في الأنعام، وهي الآبال: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ۝٢١﴾ [المؤمنون]، وقوله سبحانه: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ۝٧٣﴾ [يس]، والمشارب والسقيا هي: الموارد والسقايا، والدمدمة: هي التسوية، والهلكة لجميعهم المفنية.

وتأويل قوله تبارك وتعالى: ﴿فَسَوَّاهَا﴾ إنما يراد به أدنى ثمود كلها وأعلاها، ومن أضعف ثمود كلها وأقواها(١).

وتأويل ﴿فَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا۝١٥﴾: فقد يمكن أن وجهها ومعناها هو: فلا يخاف أحداً على الضمير أن يراها بعد تدمير الله لها وما أنزل من الهلكة بها تعقب(٢) عقباً ولا تنسل عقباً من ولد ولا ذرية(٣)، ولا يرجع بعاقبة مؤذية. وصلى الله على محمد وآله وسلم تسليماً.

---

(١) في المخطوط: وحما أضعف من ثمود كلها وأقوى.

(٢) في المطبوع والمصابيح: لا تعقب.

(٣) نريد توضيح تفسير الإمام عليه السلام لـ(عقباها) بالعقب والذرية؟ المعنى: أنه لا يبقى بعد تدمير الله لها عقب وذرية تفسد وتتمرد وتنتقم لسلفها، أي: أن الله تعالى يدمر القرى وأهلها ولا يخاف من ردة الفعل، سواء أكان هناك عقب وذرية أم لم يكن. (من خط السيد العلامة المجتهد محمد بن عبدالله عوض المؤيدي حفظه الله).

تفسير سورة عبس

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قال أبو عبد الله محمد بن القاسم: سألت أبي القاسم بن إبراهيم عليهما السلام عن معنى قوله تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى۝١ أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى۝٢﴾.

هذا تأديب من الله تبارك وتعالى لرسوله أن لا يعبس في وجه الأعمى، الذي يأتيه بطلب منه الإسترشاد والهدى، والأعمى هاهنا: أعمى القلب، وقيل في ذلك: إن الأعمى أعمى البصر، قالوا: هو ابن أم مكتوم، أتى النبي يطلب منه الهدى فأعرض عنه، وليس ذلك كذلك.

ومعنى ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى۝١﴾ هو: عبس وتولى بكليته، ﴿أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى۝٢﴾ في معنى حين، ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى۝٣﴾ هو: تعريف من الله أنه يعلم الغيب وأن الرسول لا يعمله، ومعنى ﴿يَزَّكَّى﴾ هو: يتزكى.

﴿أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى۝٤﴾، معنى ﴿أَوْ يَذَّكَّرُ﴾: يعرف فتنفعه المعرفة.

﴿أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى۝٥ فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى۝٦﴾: هذا تأديب للنبي صلى الله عليه وآله وسلم أن لا يُجِلَّ مَنْ سمع بغناه ولو كان كافراً، ولا يستحقر مَن سمع بفقره إن كان مهتدياً.

وقد يكون هو النبي صلى الله عليه وآله وسلم نظراً لصلاح الأمة في الإقبال إلى مَن كان معه غنى، ثقة بديانة الفقير، واتكالاً على صحته في الدين.

ومعنى ﴿تَصَدَّى﴾: تقبل عليه.

﴿وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى۝٧﴾ من جهة النظر، وهذا -والله أعلم- ليس للرسول، ولكنه مثَلٌ للتعريف والتأديب.

ومعنى ﴿وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى⁽٨⁾﴾: يبادر، ﴿وَهُوَ يَخْشَى⁽٩⁾﴾: يتخشع، ﴿فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى⁽١٠⁾﴾: تتشاغل.

﴿كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ⁽١١⁾﴾ معناه: نعم إنها تذكرة، وكلا هاهنا بمعنى نعم، وليست بمعنى «لا» كغيرها، ﴿فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ⁽١٢⁾﴾ معناه: فمن شاء تَعَرُّفَه تفقَّهَ في معرفته على الاستطاعة التي ركبت، وقد خص في ذلك خواص، وشرح فيه شرح كثير يستغنى عنه.

﴿فِي صُحُفٍ﴾: في كتب مبيّنة، ﴿مُكَرَّمَةٍ⁽١٣⁾﴾: معظمة، ﴿مَرْفُوعَةٍ﴾: مصونة، ﴿مُطَهَّرَةٍ⁽١٤⁾﴾: مُنقَّاة من الدنس الذميم، ومخصوصة بكل فضل كريم، ﴿بِأَيْدِي سَفَرَةٍ⁽١٥⁾﴾: الملائكة عليهم السلام، ﴿كِرَامٍ﴾: مكرمين، ﴿بَرَرَةٍ⁽١٦⁾﴾: صادقة القول.

﴿قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ⁽١٧⁾﴾: معناه: لُعن الإنسان ما أشرَّه! والإنسان معناه: الناس، يخص بذلك كل كافر، كما قال: ﴿يَاأَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ⁽٦⁾﴾ [الانفطار].

﴿مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ⁽١٨⁾﴾ معناه: على تقليل النطفة، في معنى أنها لا شيء فصار منها شيء.

وقوله: ﴿مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ﴾: تذكرة له وتوقيفاً فيما مَنَّ به من الحياة عليه، ﴿فَقَدَّرَهُ⁽١٩⁾﴾ معناه: فسوَّاه وعدلَّه، ﴿ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ⁽٢٠⁾﴾ معناه: الطريق الواضح سيَّره وعرَّفه، ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُ﴾: حكم عليه بالموت غصباً، ﴿فَأَقْبَرَهُ⁽٢١⁾﴾: دل على قبرانه في التراب، ﴿ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ⁽٢٢⁾﴾ معناه: حتى إذا شاء بعثه ليوم

نشوره، ﴿كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُۥ ۝٢٣﴾: كلا في موضع نعم، حتى يقضي ما أمره، أراد يحاسب على ما أُمر به من الطاعة، فيحاسب على ما فرط فيه، ويجازى بالحسنة فيه على ما فعله. وقد يخرج ذلك على معنى: لا ما قضى، معناه: ما فعل ما أمره، ولكن قصَّرَ فيه، وهل يكون أحدٌ إلا وهو مقصر.

رجع إلى التعريف والتذكرة ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ۝٢٤﴾: إلى مأكله، ﴿أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ۝٢٥ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ۝٢٦﴾، معناه: أنزل الماء من السحاب، وشق الأرض به، وبالاغتصاص بشربه، ﴿فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ۝٢٧﴾، حباً من الحبوب، ﴿وَعِنَبًا﴾: من ألوان صنوف العنوب، ﴿وَقَضْبًا ۝٢٨﴾: من القضوب.

﴿وَزَيْتُونًا﴾ خاص بزيتون الشام؛ لما فيه من البركة، يروى عن رسول الله ﷺ. ﴿وَنَخْلًا ۝٢٩﴾: المثمر للتمر، وهو هذا النخل، ﴿وَحَدَآئِقَ﴾: حوائط من كل الفواكه، ﴿غُلْبًا ۝٣٠﴾ معناه: قوية تخرج من التراب على ثقله وتضعف نباته حتى تصير قوية، ﴿وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ۝٣١﴾ الأب: الشجر هذا الثمام، الذي ينبت في الأسناد والآكام، ألا ترى أنه يقول: ﴿مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ۝٣٢﴾: الفاكهة لكم، والمتاع والأب لكم لأنعامكم.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ۝٣٣﴾: المسمعة المصخَّةُ للأنفس من هولها، وما يُرى فيها من عظمها، فتصيخ(١) لها النفوس، ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ﴾: هو الإنسان، ﴿مِنْ أَخِيهِ ۝٣٤﴾، ﴿وَ﴾من ﴿أُمِّهِۦ﴾ معناه: والدته، ﴿وَأَبِيهِ ۝٣٥﴾: الذي أولده، ﴿وَصَٰحِبَتِهِۦ﴾: زوجته، ﴿وَبَنِيهِ ۝٣٦﴾: أولاده، ﴿لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ

---

(١) في المصابيح: فتصخ.

﴿شَأْنٌ يُغْنِيهِ ۝٣٧﴾ يعني: لكلٍّ على قدر ما قدَّم وأسلف فيما غبر من الدهر، ألا ترى ما فسره حين قال: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ﴾ معناه: وجوهٌ ذلك اليوم، وهو يوم القيامة ﴿مُسْفِرَةٌ ۝٣٨﴾ معناه: ناضرة مشرقة حسنة، وهي وجوه المؤمنين، ﴿ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ ۝٣٩﴾: يبين لك في وجه المسفر الضحك ولعله لا يضحك، ويبين لك في وجه الكافر البكاء ولعله لا يبكي، وبلى كم من باكٍ ندامةً! وكم من ضاحكٍ استبشاراً بما بُشِّر به مِن نعم الله التامة! ومعنى ﴿مُسْتَبْشِرَةٌ ۝٣٩﴾: متباشرة بما قد رأت من علامات الخير.

﴿وَوُجُوهٌ﴾ معناه: وجوه الكفرة، ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ تقدم تفسيره، ﴿عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ۝٤٠﴾ يعني: القتام يلحق وجوه الكفرة والإظلام، ﴿تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ۝٤١﴾: تلحقها وتعلوها قترة، والقترة فهي: الغبرة المقترة المهلكة الكريهة، وهذا جرم ما يكون من الكسوف على الوجوه من الظلمة(١).

ثم بيَّن فقال: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ ۝٤٢﴾ الكفرة: فهم الكافرون لأنعم الله، والجاحدون لربوبيته أيضاً؛ لأن الكفر كفران: كفر نعمة وكفر جحدان، وكل أولئك صائر إلى سخط في عذاب أليم، ﴿الْفَجَرَةُ﴾ معناه: الفجرة في الدين، وأهل الاطراح لحقوق رب العالمين، والافتتان فيما لا يحل لهم من محارم خالق الخلق أجمعين، وقد يكون الفجور الارتكاب لأكبر الشرور من الفسق وأخبث الأخباث، من الإتيان للذكران والإناث، مما لم يأمر الله به، ولم يسوغه في قرآنه ولم يثبته.

---

(١) في المصابيح: الوجوه والظلمة.

تفسير سورة النازعات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قال الله سبحانه: ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا ۝١ وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا ۝٢ وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا ۝٣ فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا ۝٤ فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا ۝٥﴾.

﴿النَّازِعَاتِ﴾ فيما أرى -والله أعلم-: فهن السحائب المنتزعات لماء الأمطار من البحار والأنهار، ومما في الأرض من الندوة والبخار، وكذلك صح في الروايات والأخبار.

معنى ﴿غَرْقًا﴾: مغرقات لما أمطرن، وكذلك المغرق من كل شيء أيضاً: الناهي فيه، تقول: أغرق في النزع، وهن ﴿وَالنَّاشِطَاتِ﴾ في نزعهن ﴿نَشْطًا﴾، والنشط والإغراق: هو القوة في النزع والصب، ومما ينتزع من المنتزع صكاً.

ومعنى تنشط الماء: فهو تحيده وتطلعه، ونشطاً: مصدر كمصادر الكلام، ﴿وَالسَّابِحَاتِ﴾، هن: السحائب يسبحن في الهواء سَبْحاً، كما يسبح في الماء من كان سابحاً يميناً ويساراً، وإقبالاً وإدباراً، كما أراد الله عزَّ وجلَّ وشاء.

﴿سَبْحًا﴾: مصدرٌ أيضاً، وهن أيضاً السابقات بالمطر والغيث برحمة الله وفضله، غير مسبوقات بإمساك الله للمطر لو أمسكه عن الأرض وأهلها بعدله.

وقد يكون السابقات هو: البرق؛ لأن البرق أسرع شيء خفقاً، وأحثه اختطافاً وسبقاً، والسحائب أيضاً فهي: المدبِّراتُ بما جعل الله من الغيث فيهن للشجر والثمار والنبات، وفيما ذكرنا من هذا أعجب عجيب، لكل ذي حكمة ونظر مصيب.

قيل: والمعنى في ﴿الْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا۝٥﴾: الملائكة.

﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ۝٦ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ۝٧﴾ الراجفة: القيامة، سميت راجفةً لهولها، يقال: نزل ببني فلان رجفة، والرادفة: مردفة بهول يتبع هَوْلاً.

﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ﴾: ذلك اليوم، ﴿وَاجِفَةٌ﴾ أراد: مضطربة، ﴿أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ۝٩﴾: منكسة، ﴿يَقُولُونَ أَئِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ۝١٠﴾: أولئك الذين كانوا يقولون، أراد يكذبون بالرد لهم في الحافرة، هم الذين تخشع أبصارهم وتذل، و﴿الْحَافِرَةِ﴾: التي تحفر على السرائر وتظهرها، ﴿إِذَا كُنَّا عِظَامًا نَخِرَةً۝١١﴾: تعجبٌ منهم أنهم لا يرجعون إذا صاروا عظاماً نخرة، والنخرة: البالية الدامرة.

ثم قالوا: ﴿تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ۝١٢﴾ أرادوا: نطفة خاسرة، رد الله تكذيب قولهم بقوله عز وجل: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ۝١٣﴾ تحقيقاً أنها كانت مثَلُ للزجرة، الزجرة -والله أعلم-: مثل مضروب للحياة بعد الموت، كما يفزع النائم بالزجرة من الصوت.

﴿فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ۝١٤﴾: المتعبة لمن هو فيها، تقول: فلان ألحق بالساهرة، أي: لم يخبر به.

قوله عز وجل: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى۝١٥ إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى۝١٦ اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى۝١٧ فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى۝١٨ وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى۝١٩ فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى۝٢٠﴾، قال: ﴿هَلْ﴾: خبرٌ من الله عز وجل، ولفظه لفظ الاستفهام، ومعناه: التوقيف على الخبر والإفهام، كأنه قال:

قد أتاك خبر موسى.

ومعنى ﴿إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ﴾ فكذلك يقول الله ناداه، وأنه أوجد كلاماً به خاطبه وناجاه، والواد المقدس: هو المكرم المنزَّه المعظَّم، وهو طوى.

ثم قال: ﴿اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى﴿١٧﴾﴾، أي: جاوز قدره وعلا وطمى، وخرج إلى الظلم والجهل والعمى، فقال: ﴿هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى﴿١٨﴾﴾ هل لك هو: ترغيب في الخير والهدى.

ومعنى قوله: ﴿إِلَى أَنْ تَزَكَّى﴿١٨﴾﴾ هو: الترغيب في التزكي والطهارة من قذر الدنيا وقبائح ما كان عليه من الكفر والردى.

ومعنى قوله: ﴿وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ﴾ أي: أدلك إلى ربك، فيدخل في قلبك الخوف لسيدك.

﴿فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى﴿٢٠﴾﴾ أي: الدلالة العظمى، ومعنى قوله: ﴿فَحَشَرَ فَنَادَى﴿٢٣﴾﴾ أي: جمع أصحابه ثم نادى ﴿فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴿٢٤﴾﴾، والفاء بمنزلة ثم؛ لأنهما من حروف النسق والعطف.

ومعنى قول فرعون اللعين: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴿٢٤﴾﴾ يريد: أنا سيدكم الشريف المرتفع في القدر والعلا، والرب عند العرب: السيد، قال الشاعر:

أم غاب ربُّك فاعترتك خصاصة   فلعل ربَّك أن يؤوب مؤيدا

ومعنى قوله: ﴿فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى﴿٢٥﴾﴾ فالأخذ هو العذاب من الله عز وجل، عذب عدوه عذاب الآخرة والدنيا.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى﴿٢٦﴾﴾ هي: الموعظة والتذكرة، قال الشاعر:

في آل برمك عبرةٌ وعجائبُ ومواعظُ للعاقل المتزهد

ومعنى قوله عز وجل: ﴿ءَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا۝٢٧ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا۝٢٨﴾ أي: رفع محلها وموضعها، والسمك: هو المحل المرتفع العالي، قال الشاعر:

إن الذي سمَكَ السماءَ بنى لنا بيتاً دعائِمُهُ أعزُّ وأطولُ

معنى سمك السماء أي: رفعها، وقال آخر:

وما إن بيتهم إن عُدَّ بيتٌ وطال السمك وارتفع البناء

ومعنى ﴿فَسَوَّاهَا۝٢٨﴾ أي: عدل صورتها وهيأها.

ومعنى ﴿وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا۝٢٩﴾ فالإغطاش: هو الظلام.

ومعنى قوله: ﴿وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا۝٣٢ مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ۝٣٣﴾ هو أسكنها وأثبتها وأهدأها، قال الشاعر:

ألقى مراسيه بتهلكةٍ ثبتت رواسيها فما تجري

وفي هذا الكلام تقديم وتأخير، والتنزيل قول الله عز وجل: ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا۝٣١ وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا۝٣٢ مَتَاعًا لَكُمْ﴾ فعل تمتيعاً لكم، والتأويل والمعنى: هو أخرج منها ماءها ومرعاها متاعاً لكم والجبال أرساها، ولكن لا يجوز أن يقرأ كتاب الله إلا على ما أنزل الله سبحانه، وعز عن كل شأنٍ شأنُه؛ لأنه لم يفعل ذلك إلا لأسباب من الصواب، ولولا ذلك لبين جميع الكتاب.

ومعنى قوله عز وجل: ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى۝٣٤﴾ يعني: القيامة، وإنما سميت طامة لعلوها ورفعتها، وهولها عند وقعها، ووثوبها بغتة وسرعتها،

وأصل الطم في الارتفاع في الهواء سريعاً معاً، قال الشاعر:

أتـــاك طـــمٌّ فـــوق كـــلِّ طـــم   إذا العكـــاظي كآثـــافي الـــيم

﴿يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَى﴿٣٥﴾﴾ يريد أنه يتذكر ما عمل في الدنيا، وأصل السعي هو: الجد والاجتهاد، والإقبال والإدبار والتحدر والإصعاد، قال سيد العابدين علي بن الحسين صلوات الله عليه وعلى آبائه الطاهرين:

فـإنَّ امـرأ يسـعى لـدنياه جاهـداً   ويذهل عـن أخـراه لا شـك خـاسر

ومعنى ﴿وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرَى﴿٣٦﴾﴾ هو: أخرجت وأُظهرت، ومعنى ﴿لِمَنْ يَرَى﴿٣٦﴾﴾ هو: لمن يرى عز وجل ويعلم أنه يستحق العذاب.

ومعنى قوله: ﴿فَأَمَّا مَنْ طَغَى﴿٣٧﴾﴾ هو: جاوز الحد في ظلم نفسه بكفر أو فسق، ﴿وَءَاثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴿٣٨﴾﴾ قدمها على الآخرة، ﴿فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى﴿٣٩﴾﴾ أي: المَنْزل والمحل والمثوى.

﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ﴾ أي: موقفه الذي يقوم فيه العباد للحساب.

﴿وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى﴿٤٠﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴿٤١﴾﴾ أي: نهى نفسه عن اتباع الهوى، فأما الهوى في نفسه فلا يقدر أحدٌ على تركه؛ لأن الهوى في ذاته إنما هو الشهوة، والشهوة لا يقدر أحد على تركها، وإنما يقدر على خلافها، ويمكنه الامتناع من طاعتها، وهذا من الاختصار، وهو كثير موجود في القرآن، وهو عند أهله بيِّنٌ غايةَ البيان، فالحمد لله على ما علمنا من الفرقان، ونسأله أن يزيدنا برحمته من البرهان.

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا﴿٤٢﴾﴾ أي: متى حلولها وهجومها على

البرية ونزولها؟ وأيان في اللغة بمنزلة متى، قال الشاعر:

أيـــان تـــدفع بالرمـــاح علـــيهم ... يـــا مـــال قبـــل منيتـــي وذهـــابي

ومعنى قوله: ﴿فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا۝٤٣﴾ يريد بذلك: التوقيف للناس على خوف رسوله صلى الله عليه وآله وسلم وما هو فيه من الفزع والحزن عند ذكره لها، وعندما يخطر على باله من هولها.

ومعنى ﴿إِلَى رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا۝٤٤﴾ أي: عند ربك نهايتها ووقت هجومها، وغاية ما يكون في آخر تلك الساعة، ومصير الأبرار إلى سعادتها، ومصير الفجار إلى إشقائها ونكدها، والساعة في تلك الواقعة التي يحكم الله فيها بين العباد، ويصير كلٌّ إلى داره التي يستحقها بعمله من الضلال والرشاد.

ومعنى قوله: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا۝٤٥ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا۝٤٦﴾ يريد: كأنهم في ذلك اليوم لم يقيموا في الدنيا إلا عشيةً من عشاياها أو ضحوةً من ضحاها؛ لقصر ما فات من الدنيا، وكذلك الإنسان عند الموت والفناء كأنه لم يعمر ولم يخلق إلا في تلك الساعة التي يقبض فيها ويوثق، ولكن هذه البرية أبت إلا العمى والتقصير عما أراد الله بها من اتباع الحكماء، ومالوا إلى اللعب والجهل والردى، وزهدوا في الحق والدين والهدى، فزادهم الله تباباً وبعداً، ولا وُفِّقوا للخير أبداً.

إلى هنا انتهى تفسير شيخ آل الرسول القاسم بن إبراهيم عليه السلام، وعاقه عن التمام شواغلُ منعته إلى أن نزل به الحمام، صلوات الله عليه.

وكل ما تقدم من رواية ابنه محمد بن القاسم عليهما السلام.

كتاب المكنون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أستعصمُ الله بعصمته التي لا تُهتك، وأسترشده إلى السبيل التي ينجو بها من الردى مَن هلك، وأستوهبه التوفيق لهدايته، والحظ الوافر من طاعته، وأرغب إليه في إلهام حكمته واجتناب معصيته.

إن الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذي لا كفؤ له موجود، ولا والد ولا مولود، تعالى من أن يتخَوَّنه أبد، أو يقع عليه عدد، فطر الأرض والسماء، وابتدع الأشياء، وأنشأ المخلوقين إنشاءً، بلا معين يشاركه في التدبير، ولا ظهير يؤازره على ما أبرم من الأمور، ولم يمسسه في ذلك كلال، ولم يتخرمه نصبٌ ولا زوال، ولم تتوَهَّقه(١) عن محكم الصنعة العوائق، ولم يشتبه عليه ما أتقنه علمه السابق، بل نفذ بمشيئته ما أبرم، ومضى في خليقته ما علم، بلا اختلاج اشتبهت عليه فيه الآراء، ولا توَهُّم تفاوتت عليه فيه الأشياء، فتعالى عما يقول الظالمون، وعز وتقدس مما يتفوَّه به العادلون، جعل الأنام شعوباً وقبائل متعارفين، وفيما تنازعهم إليه الأنفس غير مؤتلفين، مختلفة هممهم، لا يشتبه تصرفهم، وكل يعمل على شاكلته، ويسلك سبيل طبقته.

والعقول حظوظ متقسمة، والأخلاق غرائز مستحكمة، فالحازم مغتبط بما أُلهِم، جَذِلٌ بما قُسِم، والمفرِّط متأسٍّ على ما حُرِم، يقرع سنَّه من الندم، فإن قهر نفسه على تَعَوُّضِ ما فرط أورده صغرُ الهمم في أعظم الورط، وإن تمادى في التقصير دحض دحضة الحسير.

---

(١) وهقه عنه كوعده: حبسه. (قاموس).

وإني لما زايلت قلة الآثام، وخضت في أفانين الكلام، وناسمت كثيراً من علَّام الأنام، أطللت على مكنون من العلم جسيم، واستدللت على نبأٍ من ضمائر القلوب عظيم؛ لأن صحيح الجهر يدل على كثير من مكنون السر.

واطلعت على ذلك بخصال أُوتيتها، وأُخر تجنبتها، فأما اللواتي أوتيت فذكاة الفطنة، وقلة المشاحة في المحنة، والاصغاء لأهل الافتنان والقبول من ذوي الأسنان، وكثرة الاقتباس من أُولي الحِكم والأذهان، والزهادة في الزائل الفان، وصحة الناحية وتكافؤ السريرة والعلانية، وسلامة القلب، وحضور اللب، فافهموا يا بني.

وأما اللواتي اجتنبتها فمهازلة الحمقاء، ومشاحنة الأدباء، وترك ما تَشْرَهُ إليه النفس من عرض الدنيا، والمكاثرة والحقد والظغن والحسد، والاستزراء للحُّر والعبد، والمماكسة فيما يكسب الحمد.

يا بني، فبعض هذه الخصال طُبِعتُ عليه بالتركيب، وبعضها استعنت عليه بقبول تأديب الأديب، والتمثل بالأريب اللبيب، مع رغبةٍ حداني عليها طلب الازدياد، مما أرجو به النجاة في المعاد، والزلفة يوم التَّناد.

فلم أرَ مما آتاه الله العبد شيئاً أفضل من التقوى، ولا أنجع في العقبى من السُّلوّ عن الدنيا، وبيع ما يزول بما يبقى، ورأيت خير ما ينشأ مع المرء العقلَ المولود، والمذهب المحمود، والفهم العتيد، وكمح[١] النفس عن الشهوات، وقصرها عما تدعو إليه من المهلكات.

---

(١) كمح الدابة وأكمحها: كبحها. (قاموس).

يا بَنِيّ، فمن ظفر بهذه الخصال ثم عرف فضلها وسلك بنفسه سبيلها، فاز بالظفر، وأَمِنَ مِن الغير، ولم يكثر على الفائت تأسُّفه، وقلَّ عند النوازل تأفُّفه، وأبصر ما بين يديه، ولم تُنكِصه الشبهات على عقبيه، ومن لم يَقُده الفهم إلى العقل زلَّ في شبهات الجهل، ومَن لم يُلطِف النظر في غوامض الأفطان كاد أن يدهمه الجديدان، ومَن كثرت حيرته ملكته شهوته، وأَرْدَته غِرته، ونظره عدوه بعين الاستقلال، واستزراه في جميع الأحوال.

يا بني، ولَخيرُ خصال المرء أن يكون على خلاله مستشرفاً، ولأَوَدِه مُثَقِّفاً، بما يكون له من غيره متعرفاً، من جميل يُومَئُ به إليه، أو مذمومِ خليقةٍ يطعن من أجلها عليه.

يا بني، فكل من لم يفصل بالتمييز ما يعنيه من زمنه، ويحذر مضلات فِتَنِه، ويدخر لنفسه من جِدَتِه ما يحمد غِبَّه في عاقبته، ويختر الزيادة على النقصان، والربح على الخسران- فهو كالماصِّ لثدي أمه، المخدج قبل تمِّه.

يا بني، الزمان أنصح المستنصَحِين، وأرشد المسترشَدِين، وبحسب مَن صحبه أن يعرف تقَلُّبه، ويقفو آثاره، ويتصفح أخباره، ويسير لكل حقبة بسيرتها، ويلبس لها أحصف[1] لبستها، حتى تستوري نار زنده، وتستحكم قوى معتقده، وتتحصحص له طبقات دهره ما مُدَّ له المهل في عمره، ثم لا يغتر بساعات الليل والنهار، ولا يسهو سهوَ مَن صحبَ الدهر بغير الاختبار، ولا يلهو عن مصلحته كأهل الاغترار، فإذا داوم على ذلك فقد كملت خصاله،

---

(١) ثوب حصيف إذا كان محكم النسج صفيقه. (لسان العرب).

وأحاطت بالجميل أفعاله.

يا بني، ولو أن العاقل ساير الأيام طول حياته بغير الاستحكام والنقض والإبرام لم يكن إلا كالصبي في مهده، المدخول في خَلَدِه؛ لأن العاقل الذاهل هو الخائضُ في بحار الظُّلم، والمرتطمُ في الخزاية مع المرتطم، والمعرفة أسطع نوراً من المقباس، وأجلى للقلوب من الهندوان للنحاس.

يا بني، ومن أعجب العجائب ذو شيبة مرتدٍ بالنوائب، متسربل بالمصائب، يستنكر ريبَ التصاريف، ويفجر أمامه بالتسويف، وذلك لضعف نحيرته، ونسيانه لما يتصرف من أزمنته، وكثرة سهوه وغفلته عما قد أفهمته خبرته وانتظمته تجربته. ولو غُيِّب عن العاقل اللبيب كل أمر عجيب مما فُطِر عليه المفطورون، وقصر عن الإحاطة بخبره العالمون- لكان فيما طبع عليه في ذات نفسه، وما يمر به في يومه وأمسه، من الفقر والغنى، والسراء والضراء، والشدة والرخاء، والأخذ والإعطاء، والبذل والإكداء، وكثرة السكوت، وطول الصموت، والإكثار في المنطق، والهدوء وسرعة القلق، والجد والهزل، وغلبة الجهل على العقل- له أشغلُ شاغل عن الفكرة في خلائق الإنسان، وتضاد ما يختلف فيه من الجهل والعرفان، فالموموق منها معروف، والمقلي منها مشفوف.

فمَن جنح إلى الأقل كبح واستوحل، وذم غِبَّ المصدر، وكان من أمره على خطر، وأندمته آخريته لما قد دلته على علمه أوَّلِيَّته، وليس بحكيم مَن مال إلى الأمر المذموم، والخيلاء بالفضل مجانبٌ لسبيل العقل. ومَن جعل غيره لعينه نصباً، وأظهر على من سواه في شيء من أفعاله عتباً، وكان الذي فيه لطالب عثرته

أعيب- كان الواجب عليه أن يكون على نفسه أعتب؛ لأن من استنكر أمراً من غيره، يرضى في نفسه بمثله فقد دل على جهله، ومن سها عما يعنيه كان ما لا يعنيه أجدر أن لا يواتيه.

فافهموا يا بني ما عبرته لكم، وأوضحته من شأن زمانكم.

وإن من المنكرات فيمن يسم نفسه بميسم الخيرات أن يضرب بطرفه صاعداً، ويكون على غيره واجداً، ولزناده زانداً، كأنه قد تهذب من الأدناس، وأَمِن مِن معيبة الناس، واستقام على سوق الزيادة للمستزيد، أَوْ ما عرف المعدوم من الموجود، والحاضر من المفقود، والخير من الشر، والنفع من الضر، والحَرَّ من القُرّ، حيث سلك في أحشائه، واتصل بحواسه وأجزائه، ثم أدته الأركان إلى الأركان، والروح إلى الجثمان، ثم صرفته تلك العوارض الخاطرة والنوازل السائرة، فاستفزته إلى السخط مرة وإلى الرضا أخرى، فأسرف في الخلتين، ومال عن النجدين، فأين مستقر القديم منه، لم يدرأ به عنه النوازل المُمِضَّة، والآفات العارضة، ويستدعِ لنفسه بدرئه لذلك عاجل السلوة، ويَنْفِ عنها بوادر الشقوة، ويعاود ما يديم له السرور ويدفع عنه المحذور، ولو ألهم نفسه أحسن ما يُلْهَم لزاح عنه خواطر الهمم، ولم يعدم محمودَ العاقبة وعلوَّ الذِّكر في الفئام، والصوتَ الرفيع في محافل الأقوام، ولأقصر عن شقشقته، وشهد بالفضل لمزايل طريقته، ولكنه لم يحم أنفه، وقل عن مزايلة ما تهواه نفسه أَنَفُه، فامتشجت الأدواء في آرابه، واستلبته رصين آدابه، فابتغى السلامة من غير جهتها، والراحة بعد فوتها.

كلا، لن يكون فرع من غير أصل، ولا جود إلا ببذل، ولا زكاء مخلوق إلا

بفضل، يُجَشِّم فيه نفسه المجهود، ويستدعى به لها الثناء المحمود، ويجنبها الموبقات والشهوات المُردِيات، وليس من نفس إلا وهي تراود صاحبها على الهوى، وتدعوه إلى موارد الردى، فمن أعطاها زمامه أركبته ردعه، ومن منعها ما تهوى فاز بالرغبى. ففي هذا لكم يا بني بيانٌ ومعتبرٌ، ومن لم يستظهر بالحزم على مذاق الأخلاق ودنآءتها، ويزجر النفس عن شهواتها، قصر دون رميته، ولم يدرك الثناء الذي سما إليه بأمنيته.

ومن أحب أن تخضع له غُلبُ الرقاب، ويقل في طاعته الارتياب، ويُنتَهى عند أمره ونهيه، ويقتدى برأيه- فليأصر نفسه من ذلك على ما يريده من غيره، فإن انقادت لأمره وازدجرت عند زجره فليضمم كفه من غيره على إنفاذ أمره؛ لأن تهذيب المرء لطريقته يدعو إلى طاعته، والمقصر عن طلب منفعته تزل موعظته من القلوب زلول القطر من الصفوان الصليب، فأَوقِعوا يا بني الموعظة بقلوبكم.

فيا أيها المبتغي الدرك في العاجل والفوز في الآجل اجعل لك من نفسك موعداً، تحظى به اليوم وتفوز به غداً، بصدقٍ لا يشاب بالتفنيد، ورجاء الموعود وخوف الوعيد، واسمُ إلى ما أحببت من ذلك بالعقل العتيد والرأي السديد(١)، وأنا سفيرك فيه بالدرك لما تريد. وإنما أعجز الطلاب ما إليه يسمون تعسُّفُهم السبيل التي فيها عن القصد يجورون، فلم يدركوا ما طلبوا، ولم ينالوا ما أحبوا، فعن مواردهم يا بني فازدجروا، وآثار آبائكم فاتبعوا.

---

(١) في (أ): بالعقل السديد والرأي الرشيد.

إياك أن تستشهد على نفسك غير معرفتك بها، ولا تقبل من غيرك تزكيتها بما يكذبه فعلك، ويحيط بضد تزكية المزكي علمك. فإذا توسطت علانيتك وصحت سريرتك فتيقن بصدقِ مَن أطراك بما فيك، ولا يبهجنَّك الثناء من المضطر إليك، ولا يُسفِّه بحلمك مُملِقٌ مَذِق، ولا من يستنيل[١] معروفك بالتَّملُّق.

يا بني: فإن أقل الناس عقلاً وأبينهم جهلاً مَن صدَّق من سواه بما تكذبه عيناه، والعقل آمَنُ أمين، وأفضل قرين، فاستأْمِنْه على أحوالك وجميع خلالك، واعرف ما عرَّفك. وإذا حمدْتَ من أحد مذهباً فكن لمثله متسبباً، ولكل ما تستنكره من غيرك متجنباً، ولتكثر من مستتر عيوبك وحشتك، وليقلَّ بخفياتها أُنسك، فإن اكتتامها كالمحرض على أمثالها، وإذا امتلأ الإناء انكفأ، وإذا تُنوسخ السِّرُ فشا.

فكن يا بني لجميع خلالك متفقداً، وداوم على جميل ما به تُعرف، ولا ترضَ من نفسك بما تستقبح من غيرك إذا انكشف، وأردف جميل غدك بجميل يومك، ولا تغتر بستر الله عليك فتتعرض لما يُندِمك عُجْباً بما يُومَى به إليك، وتظن أن سالف الحسنات يمحو مؤتنف السيئات.

ومن استصغر سيئته فيوشك أن تحبط حسنته، ولكلِّ نعمةٍ حاسدٌ يدير بها الدوائر، وبحسبك أن يبصرك بالجميل أهل البصائر، فيشغب حاسدك فيما يرجو أن يهدم به ركنك، ويمعن في الطعن عليك في كل ندي مشهود؛ ليقبض المتفوِّه

---

(١) في أربع مخطوطات: يستبيه.

فيك بكل أمر محمود، فينقبض انقباض المحسور، ولا يجد السبيل إلى التغيير.

وأحذرك يا بني البغي، والتهمة والظن، فإنهما ملصَقان بكل إنسان، فلا تجعل لمتهمك إلى تهمتك سبيلاً، ولا تكن في غيرك بما تكره أن يُقال فيك قؤولاً، وانظر ما كنت له مما يوجد به السبيل إلى الطعن عليك فعولاً فكن له قالياً وعنه رحولاً، مع نظرك لنفسك. وإن أردت أن تظفر من الدنيا بزينتها وزخرفها وعزها وشرفها، وبالبهاء الذي يُستنار به في كل مكان، والثناء الذي تسير به الركبان إلى جميع البلدان- فعليك يا بني بالطاعة التي لا تدفع بالعصيان، والمحبة المنتشرة بكل لسان، فاجعل المروءة لك شعاراً، والصيانة لنفسك دثاراً، فإن مَن صابرهما وألزم نفسه الصبر عليهما تَغَرنَقَ في الغرانيق العُلى، وتمكَّن في قُلَل الشرف القصا وإن لم يكن ذا غرض من الدنيا.

يا بني، والمروءة غير مبيعة بثمن ربيز[١]، ولا حرز حريز، ولا مطلب عزيز، ولو لم يدركها الرائمون إلا بجزيل ما يطلبها به الطالبون لكان ما تعيد وما تبدي أجزلَ منه وأوفرَ في العواقب والبَدِي، ولو كانت لا توجد إلا في أبعد الأمصار، أو في لجج البحار، بالقناطير المقنطرة من الأموال الكبار، لكان الواجبُ على ذوي العلم بخطرها والمعرفة بقدرها التعلُّقَ بأغصانها، والبذلَ للنفيس من أثمانها، لكنما اشتملت عليها دأياتك، وحُنِيَت عليها مُستكنَّاتك حتى تبثها عنك إذاعتها، وتشيع لك فضيلتها، بأن تمسك عن الأمر المردي، وتعرض عن القبيح الذي لا يغني، وتملك نفسك فيما ملكت من كبار الأمور وصغارها.

تم ربع كتاب المكنون بمَنِّ الله وعونه وحسن توفيقه

(١) الربيز: الكبير في فئة. (قاموس).

يا بني: ولا تَجُر عن قصد السداد فيما أنت فاعله وتاركه إلى يوم التناد، وكل ما أوجَبْتُه عليك الحقوق تأدَّيتَ منه إلى كل عدو وصديق، فافهم يا بني ما أصَّلتُ لك من فروع الأدب والحكمة.

ومن زعم أن المروءة لا تصلح إلا بالمال فقد أضلَّ في المقال؛ لأن المروءة قد تنقاد لذوي الإقلال، وتصَّاعب على ذوي الأموال.

وللمال موقع من بعض القلوب يكاد يخرج صاحبه إلى الأمر المعيب، حتى تذهب مروءته، وتغلب عليه حلاوته، فتنَهَدَّ ذروته، وينطمس كرمه وحريته.

وللمروءة في المال أنصباء تتشعب فيه شعباً، وليست المروءة بمعدومة في أحد إذا جَدَّ في طلبها وأتاها من بابها، وليست لها أثمان تبتاع بها، إنما هو جميلٌ تقولُه، أو خيرٌ تفعله، أو معروف تبذله، أو إقصار عن الإكثار إذا لم يكن للكلام موقع، فهذه خلال يكون لك بها في المروءة قدرٌ وموضع تستوجبه بها إذا لم يمكنك الاستكثار من غيرها، وكلما ازددت أدركت ما طلبت، وقد أوضحت لك ما تَطْلبُ به المروءةَ بأحسن الإيضاح، وكنتُ لك أنصح النُّصاح، فإن أخذتها باللِّين يا بني سَلِسَ لك مقودها، وإن غلَّظت شسع عنك عتيدها، وصار نحساً عليك سعودها، فأَسعِد الأدب يا بني بالحكمة.

وإياك والحسد، فإن للحسد نفرةً على صاحبه مضرة، فأبرده عند اضطرام تسعُّره بكثرة التبكيت، وتعريفه صغر صاحبه الممقوت.

يا بني، فإن الحاسد لا يدرك في حسده نقيراً، ولو أزيح عن المحسود ما حسده عليه لم يظفر منه قطميراً، وليس من أحد من المخلوقين إلا وعليه من الله

نعمة ظاهرة أو مكتتمة، أصناف مقتسمة، صغير ما يولي الله العبد منها ويبليه، ويهب له ويعطيه، من صحته وطول عافيته، وما يصرف عنه من البلوى- خيرٌ له مما بين الأرض والسماء. يا بني، وكم مِن ذي نعمةٍ متجددة يحسد مَن دونه على نعمة متنكدة، ولو أشعر نفسه ما يجب عليه من شكر المنعم كان ذلك أزيد للنعم وأصرف للمُلِمّ.

وفي الحسد ست خصال:

*طول الاغتمام بما لا يجدي.

*وكثرة الاهتمام بما لا يعني.

*وتكدير المعاش.

*والخساسة عند الأخيار والأوباش.

*وحرقة القلب.

*ومضادة الرب.

واعلم يا بني أن البغي داءٌ لا دواء له، فمن كثر في المحظوظة تشكُّكه طال في البغي محكُّه، والبغي فرع الحسد الأعظم، وبه تحل النقم، وتزلزل القدم، والباغي مخذول مفلول، والمبغي عليه بالخَبَرِ عن الله مؤيد بتعجيل النصرة في الدنيا والآخرة، فإياك والبغي أن تلهج به فتكون صريعه الذي لا ينتعش، وقتيله الذي لا يمتنع.

وأحذرك يا بني العجلة، وإياك أن تكون عجولاً فيما تجد إلى التثبت فيه سبيلاً، وتَبَيَّن في صدور أمورك من قبل أن تبدو لك عواقبها وتنكشف لك معائبها.

واعلم يا بني أنك المشار إليه عند عجلتك بما تسمعه أذنك فيمن قلَّ تثبُّتُه وذُمَّ على ما تكسبه عجلته، فأكثِر من العجلة التقيَّة، وعلى نفسك من قبح القالة البقيَّة، وإياك أن يوردك الغضب موارد العطب، ويُشعلك إشعال النار للحطب، فادفعه بالاحتمال قبل أن يضطرم فيهريق الدم ويَصِم العظم، ويشلَّ اللحم، فأخمِدْه قبل أن يتلظى، فإنه إن استعر بهظك بهظاً، ثم دفن ما كنت تُذكر به من المحاسن، وأعلن ما كنت تكتمه من المقارن.

واعلم يا بني أن آفة السلطان الجورُ والتجبر على الإنسان، إياك إن كنت سلطاناً أن تستظهر ذنوب المذنبين، أو تعاقبهم عقوبة المغضَبين، وإن كنت سوقة فماذا يضرك مما يلمزك به الناس من المنطِق فيما ترجو به الرفعة والعلو بعد الضعة، وإياك أن تغضب على مَن دونك أو تستصغر مَن فوقك، وجُدْ بالفضل على من ناواك، وبالصفح عمن عاداك.

واعلم أنه لا بد للمكارم أن تعلو، وللمحاسن أن تفشو مِن ناشرٍ لها يُلبسك هيبتها وجلالها، ونبلها وجمالها، حتى يَنسُم عليك روحُها، ويشيع لك حمدها، ويتجلى بها عنك الغماليل(١)، ويبرد بها من قلبك الغليل.

يا بني، عليك بالحلم، فإنه ليس الرجل حليماً حتى يملك نفسه عند الغضب، ولا جواداً حتى يفيد إذا ازلأمَّ(٢) الأزب(٣). وإنما يوصف بالنجدة من باشر أهل البأس والشدة، وللمحاسن والمحامد بَوَادٍ معتمدة تطَلَّع إليها الأفئدة، ثم يُبذل

---

(١) الغملول: كل مجتمع أظلم وتراكم من شجر أو غمام أو ظلمة. (قاموس).

(٢) ازلأم الضحى: انبسطت. (قاموس).

(٣) جدب ومحل.

فيها الغالي من الأثمان، وتُنضى بها العِيْس إلى جميع البلدان، فمَن سرَّه أن يشهر بالجميل والإحسان فليشهد التي منها يتناقلان، ثم ليظهر منهما ما يسير به في الآفاق خبَرُهُ، ويَعظُم به في الناس خطَرُه، ثم ليقوِّم من نفسه بحسن التعاهد أوَدَها، وليأخذ منها لها ما يزين به غدها، فإن الأخلاق إذا سمحت، والعلانية والسريرة إذا صحَّت- كانت غنائم يرتحل إليها المرتحلون، وأحاديث حسنة ينقلها الناقلون، وتبجيلاً لصاحبها في العالمين، وغبطةً يغتبط بها يوم الدين.

والواجب في الأخلاق أكثر من الواجب في الأموال، وأفضل في جميع الأحوال، وإنما يُعَظَّم ذو المال ما كان موئلاً، فإذا تُخرِّم ماله عاد دحيراً قليلاً، والأخلاق لا يبلى جديدها، ولا يطيش سديدها، وفضل صاحبها باقٍ في حياته وبعد وفاته، والمال ثوبٌ تخلق جِدّتُه، وتسمل سداه ولُحمته.

وأحق الأشياء بالصون العرضُ الصحيح والحسب الصريح، ومن آتاه الله قلباً ذكيّاً، وزناداً وريّاً، وخلقاً مرضياً، وسخاء مذكوراً، وعقلاً زكياً، وفهماً مرضياً، وعلماً بتقلب الأحوال، وتصرف الأيام والليالي، ولساناً يؤدي إليه معرفة خلف الأزمان، ويمتهنه فيما يعود عليه نفعه كل الامتهان، ثم زمَّ نفسه عن الكُبرة، واعتاض من التجبر حسن العشرة، وقلَّ افتخاره عند مناظرته، ولم يستدع نظيره إلى مباحثته، ولم يجار المجاري له من طبقاته في طريق مساواته، ولم يخرج من القول إلى ما لا يعلم، ولا من الفعل إلى ما يُستعظم- فقد شرى لنفسه محمدة الحاضر والباد، واجتهد في مصلحته أشد الاجتهاد، واستحق التعظيم مِن جميع مَن ضمته أقطار البلاد، واجتمعت له الطرائق السمحة، وزاحت عنه

المذاهب المستقبحة، وجرى عليه اسم الخيرة، ونظرته بالنواظر المجلة كلُّ عين مبصرة، وجاز حد الأكفاء، واعترف له بالفضل النظراء.

ولا بد أن في كل منفوس آلةً تطلع إليها النفوس، ويفتقر إليها حاجةً المفتقرون، ويتشوف إليها المتشوفون، فمن قصَّر عن علمها عظم في نفسه صاحبها، وجل في عينه بحسب ما يدلُّه عليه عقله، وحاول أن يكون له على أمره ظهيراً، وارتفعت عنده درجته من أن يكون له نظيراً، ومن اتسع بَدَدُه لضده ونده كان على قدر ذلك عِظَمُ شأنه وارتفاعُ مكانه.

وكم من جامع لمالٍ يجود به لينال هذا المنال، ويستدعي من الجميع محبتهم، وينفي به حسايفهم، فلا يدرك من ذلك ما يريد، ولا يؤديه إلى ما يأمل من العوام ماله الممدود.

وذو المال -يا بني- مذموم ومحمود، وذو العلم مموقٌ مودود، وفي العظماء معدود، وعند التباس الخطوب معمود مشهود، وبعد الوفاة مفقود. ومن أُتِيَ إليه ما يُستنكر في الملأ فتغمد ذلك بصبر وعزاء فقد نال من الشرف منالاً محموداً في الآخرة والأولى.

ومن اعتذر إليه مَن أساء في المقال والفعال عليه فأسرع في القبول، والعطف عليه بالجميل فقد أبدى جهل متناوله بصفحه، وخسرانه بزيادته، وركاكته بركانته(١)، وطيشه بحلمه، وسخافته بتكرُّمه، وجوره بعدله، واستطارته بعقله، وعجلته بمهلته، وباء المعتذر إليه بسوء الصنيع لديه، وأفاده خير الفوائد،

ــــــــــ

(١) الركانة: الوقار.

وألبسه عند من كان به جاهلاً ثوب المحامد، وأعلن من نبله ما كان مستتراً عن الغائب والشاهد، وأظهر إعزازَه وتطوُّلَه بما كان من تذلُّلهُ له وجثوِّه بين يديه متنصلاً إليه ملحاً في مسألته، كالعبد المعترف بزلته، يبذل له من نفسه الصبر، ويعطيه التوبة إلى آخر الدهر.

فيا ويح معتذر أسلكته في مضايق الذل عجلته! وألبسته ثوب الخضوع والاستكانة هفوته، وأعلت لصاحبه عليه يداً أكسبته حمداً ما كان الأبد أبداً، ولَرُبَّ مغتبطٍ بمنال شريف الثناء، لولا ما لا يأمنه من قلة الاغتفار للأذى لرَغِب إلى الله فيه في كل صباح ومساء، لِتَعظُمَ باحتماله عند الناس حظوتُه، وتكبر عندهم منزلتُه. ومن نزغت به النزغات فيما بينه وبين صنوٍ له كان بمودته ضنيناً، وله على ملمات دهره معيناً، فعزم على مقاطعته، وباينه مباينة أهل عداوته، وحاول به الغدر والمكر ليقطع من أسبابه أسبابَه، ويفجع به أحبابه، ثم لم يدفع غضبه بالرضا، وصدوده بالوفاء، ونزغة الشيطان بالحياء، ويرجع إلى ما هو به أولى من محض الصفاء وخالص الإخاء، ويميز ما مُنِي به منه[١] من الأمور المؤلمات، وما كان قد أضحك به سنه وأطال به سروره في الليالي الخاليات، فإذا أوضح له التمييز تطاولَ الحسنات على السيئات فأداسها بقدمه، ولم يصفح عن صنوه وعن جرمه، فليس من أهل الحِكَم، ولا السامين إلى مراتب الهمم، وعما قليل سيئُول إلى الندم إذا تحاماه الإخوان، وطرقَه الزمان بما ليس له عليه أعوان.

وإن سلَّ من قلبه السخائم، وجرى في ميدان المكارم، ولم يأتِ أمراً يكره أن

(١) «منه» زيادة من (أ).

يؤتى إليه مثله- سكن غليله، وصفت له عيشته، وطالت سلوته، وكثرت راحته، ورسخت في القلوب محبته، ونقيت من صدره ضغينته، وأشرقت بالفضل صفحته، وعادت له من صنوه مودته، وتأكدت في رقبته منته. ولعله إن طال تمعزه[1]، أن يَكْثُر عما يروم به عجزُه، فيريه الغيظ والحَرَد، ويغلغله الحزن والكمد.

تم نصف كتاب المكنون والحمد لله رب العالمين

ألا وإن أحمد الناس مذاهب، وأكملهم ضرائب، وأحسنهم فعلاً، وأرسخهم في اللب أصلاً- من تجافى عن هفوات إخوانه، ووادع أيام زمانه، وصحب بالمسألة خدينه، وبالمناصفة قرينه، ورضي من دهره بالموجود في غيره، وسَايَر الناس كُلًّا على ما طبع عليه في عصره، فإن أعظم النوائب وأفدح النواكب أن تسكن قلبَك البغضةُ لمن كنت له وامقاً، وتقل ثقتك بمن كنت به واثقاً، وتستوحش ممن كان لك نصيحاً، وكنت إليه حين تحزبك الأمور مستريحاً.

واعلم يا بني أن الحقد والحسد والغضب إذا اعتلجت في قلبٍ أوقدته، وأعمدته وأقلقته، فربما تهيَّجَ من ذلك الداء المستكن فاستوحش له البدن، وأظهر من غوامض الأوجاع ما بطن، فتغيرت لذلك الطبيعة، واستُدعِيت القطيعة.

فالواجب على الأريب العاقل أن يسلو فيما نزل به سلوَّ الذاهل، وأن يتسبب

---

(١) تمعز الوجه: تقبّض. (قاموس).

لدفع ما ألظَّ[١] به من محاورة الأوداد بالملاينة وترك البعاد، وإخماد ما يتشبب بالأحقاد، ويتلطف للمسألة والراحة وما فيه عائدة المصلحة، حتى يعود إلى ما تعوَّدَ من السرور في قديم العهد، ويُبعِد عنه خواطر البال أشد البعد، ويَدفع عنه طَول الحمية وبُعد أهل الجاهلية، فإن الضمائر المذمومة أشر ذخيرة ادَّخرها أهل المكرمة والبصيرة، وليس تنجع المواعظ إلا في ذوي العقول وأهل الرأي الأصيل.

يا بني، فأما ذوو الأذهان المستلَبة، الممنوعون حسن النظر في العاقبة، فغير سادِّين ببصيرة ولا فكرة في أمر دنيا ولا آخرة.

فصاحِبِ الناسَ بحسن المعاشرة، وألبس كلاً بالمساترة، ولا تَثِقَنَّ بكل أحد فتعجز، وكن هيناً ليناً كثيرَ التحرز.

وآخِ من آخيت بالستر لعورته، والإقالة لعثرته، ولا تُطِل معاتبته إذا هفا، ولا جفوته إذا جفا، ولا تأخذه بالغاية القصوى، فإن زل فأَقِلْ، وإن قصَّر فاحتمل. وإن كملت عندك بصدق المعرفة خلالُك، وتيقنت أنك لا تجد كفؤاً لك في مثل أخلاقك- فلا تمحض مودتك لمن يكون بمعزِل عما ليست عنه فيه بذاهل، واطَّرِح عنك ثقل مؤنته، وادرج له في مثل مودته، فإن للناس مذاهب مختلفة، وأخلاقاً غير مؤتلفة.

يا بني، فإن الكامل في جميع الحالات، المعدود في أهل المروءات، لا يكلف الأخلاء ما يُعدَم في الطبع الذي رُكِّبت عليه الأجسام، ولا يُحمِّلهم ما تقصر عن

(١) ألظ به: لزمه. (مختار).

بلوغه الأفهام، فلا تراود أحداً على ما لا يوجد في خليقته، فتكون قد ظلمته بمراودتك له على معنى لا تناله مقدرته.

يا بني، وخالقِ الناسَ بالبشر والبشاشة، واللين والطلاقة، وسلامة الضمائر، واستدعاء ما إليه يشخصون في الظاهر.

يا بني، وكن سهلَ الجناب تحمد، وأكثر التَّبذُّل ترشد وتسعد، ومن عاشرته من الناس يا بني فعاشره على قدر عقله، ثم سايره على حسب ساعات نهاره وليله، واجرِ مع كل يوم كما يجري، فإن الأيام تُقَلِّب المرء أطواراً وإن كان لا يدري، فلا يذهب بك القياس إلى ما كان عليه في أمسِكَ الذاهبِ الناس، فإن لكل يوم وليلة ممراً يحول فيه عن سالف خلائقه المرء، فإن مَن سعى مع يومه بغير ما يوافقه، وخالقه بغير خُلُقه، طالت معتبته على الصديق، وكان كالسائر في غير الطريق، فلا تذهب نفسك بالحسرات في طلب الوفاء ممن ليس لك بالمُوات، ولا تشغل قلبك بالتفكر فيمن يخيس بعهدك، فإنك إن عثَرَتْ لك قدم أو نزل بك مُلِمّ صرف وجهك عما كنت تشخص إليه منه باليأس، وأخلفك حسن الظن فيه كما أخلف من كان قبلك من الناس، فاقطع عنك هذا الطمع الكاذب، ولا تُسْلِك بين جوانحك الرجاء الخائب، واقبل ما به حُبِيت وإليه دُعِيت بالرأي الجازم، والعزم اللازم، فإنك خليقٌ عند القبول والعمل بما أقول أن لا تنقطع مروءتك حين يصد عنك الخليل إذا أسلمك عند النازل بك، وأفردك بما يسكن جوى الأحزان في قلبك.

فتأدب يا بني بأدب آبائك، واطرح عنك صفحاً من يمزج لك من لسانه

العسل؛ ليوهمك بغروره أنك تحل منه في أرفع المحل.

يا بني، إياك والطمأنينة إلى من قد حنيت على النكث جوانحه، ورُكِّبت على الغدر جوارحه، فكن لأوليائك متهماً، ومنهم متسلماً، وباليأس مِن وفائهم عالماً، فإذا صار ذلك في صدرك مستحكماً فانظر ما كنت تطمع به منهم، فكن أنت على مثله لغيرهم، تُضرب إلى بابك القلائص، وتشخص إليك عند النوائب العيون الشواخص، وتصير كهفاً للاجئين، ومعتمداً للقاصين، وزيناً للأقربين.

إياك يا بني أن تستن بسنن أهل الاختيال، أو تعمل بعملٍ يُستقبح من الأعمال، وإن كان ذلك في الناس كثيراً، وفي غيرك مشهوراً، فإنما يستحق اسم السؤدد عند كل أحد مَن قلَّ اختياله، واستُحسِنت أعماله، وجاد بالمعروف، وعطف بالفضل على الضعيف، وطبع نفسه بطابع المروءة، وصانها عن الأخلاق المذمومة، ومن صح عنده كرمه، وظهرت على غيره نعمه، وطال لمزايلة ما تهواه نفسه ذمُّه برَّز في السبق، وصار محموداً عند الخلق، وبان عن سواه، وتكاملت أسبابه، وليس كل عاقل مفضل بعقله حتى يحتمل مِن عاذله كثرة عذله، فلا تؤدب العاقل بما يستثقل، ولا تُحمِّله ما لا يحتمل، فإن مداوي الجرحى قد يحميهم ما لا يحمي منه الأصحاء، وليس بطبيب ولا برفيق مَن أمَرَ من الدواء بما ليس له المأمور بالمطيق. ومَن ادعى المعرفة بالتفرُّس قبل الامتحان فقد سبح في الغَمر الذي ليس له به يدان.

يا بني، الناس رجلان: فرجل ذو عين باكية على ممر أيامه الخالية، متأسٍّ على أخدان له سلفوا، وَأُلَّافٍ له انقرضوا، يَشرَق بغصته، ويأخذه الشجا في

حنجرته، فلا يتهنأ بطعم، ولا يتلذذ بنوم؛ فُقداً لسالف معاشريه، وتوجعاً على ما فاته من قديم عهده بمؤالفيه، حتى كأن لم يفارق مصافياً ولم يعدم مؤاخياً إلا في ذلك الحين الذي هو به، فحُرقه لا تنجلي عن قلبه، فذلك المواسي عند حلول النوازل، الجواد بمهجته في الخطوب الجلائل، الذي لا يلهيه [شيء] عن الاحتيال فيما يحل بأخدانه من نوائب أزمانه حتى تنجلي بُهمَتُها وتنكشف كربتها، فذلك الرقيق قلبه، المداوم على الحفيظة أربه، فاشدد به يدك تقرّ عينك من غير أن تترك الاحتراس؛ لتقلُّب الأيام يا بني بالكثير من الناس.

وآخر ساهٍ عن ذكر مَن تولى، كثير السلوِّ عند نزول القضاء، طويل الغفلة عما يُلِظُّ بالأخلاء والأقرباء، دائم الجفوة والقسوة، إذا انقضت ساعته انجلت غمته، وبردت حرقته، فذلك الذي لا يَرِنِّق صفوَه كدرٌ، ولا يثق بوفائه بَشرٌ.

يا بني، ومَن أحب أن يصلح خُلقه، وتسدد إلى الخيرات طرقه، فليصحب الكرام، وليَقِلّ فيما يعود وبالاً عليه الكلامَ، وليصن لسانه عن مفاكهة اللئام، ونفسَه عن مخالطة الكَهَام(١). وليس من مخلوق إلا وله دليل يستدل به عليه، وسائسٌ يشرع بالأبصار إليه، فصن نفسك يا بني عن موضع الرِّيب ومهازلة الحمقاء.

واعلم يا بني أن مخآلة الرعاع والأوباش والأوغاد ربما آلَ بالطبع الحسن إلى الفساد، غير أن المغرس إذا كان كريماً والفرع محضاً صميماً أيقظ المرء عن سنته، ورده إلى أوليته، ومحَّصَ من العلل درَنَ غريزته. ومَن رِيضَ ولا غريزة له بأدب

---

(١) رجل كهام كسحاب: كليل عي بطيء مسن، لا غناء عنده. (قاموس).

سَلِسَ ثم رجع إلى الحران، ودحض به عن الاستقامة القدمان، وقلَّما انفردت غريزة من عقل ولا عقل من غريزة، فمن طُبع على واحد منهما كان الآخر له لاحقاً، ومن خلا من واحد منهما كان الآخر له مفارقاً. ومن ألانَ جناحه للمخاشن، وجعل وجهه بسَطاً للملاين، وألقى مِقْوَدَه إلى المحاسن- ارتقى في ذروة المكارم، واستُعين به على العظائم، واقتَرَف الحمد من المباعد والملائم.

يا بني، فتَعَوَّد القولَ الجميل واصبِر على ذلك نفسك صبرَ الحازم البهلول، وآسِ من رآك لحاجته أهلاً بالكثير والقليل، ولا تَشخص بطرفك إلى مكافأة الممتاح لعرفك فيذهب صنيعك ضياعاً، وتكون بمنزلة من أعطى صاعاً ليأخذ صاعاً، وإياك ومداقة(١) الأخلاء، والاستطالة بالغنى، والاستقصاء في شيء من الأشياء.

وألزم نفسك يا بني الكرمَ والتذمم وقلة التعظم، وأعظم شأنك بالتصامم عن اللغو المنكر، وبالتغافل عن الأمر المصغِّر.

يا بني، وكن للراغب إليك وصولاً، وللضعيف الطارئ عليك مُنِيلاً، بذات يدك إن أمكنك، أو بجاهك إن أعجزك ما أمَّل منك، ولا تتبع عورات الجيران والجارات، ولا تبحث عما استتر عنك من العثرات، وتغطَّ بستر الله عليك قبل أن يهتك بحثك عن أستارك، فينكشف ما استتر من عوارك.

وتهذَّب من الكذب، فإنه مسخطة للرب، مفسدة للقلب، ضعة للنبيل، نقصٌ لذوي العقول، وهو ضرب من الفحشاء، وشيمة من شيم الحمقاء،

---

(١) المداقة: أن تداق صاحبك الحساب. (قاموس).

ورأس مال أصحاب المُنى، وربما استحلت به الدماء، ورُكبت به الدهماء، واستبيحت به القرى، وعظمت به البلوى.

فكن يا بني لعرضك منه صووناً؛ فإنه إذا تضمنته الأحشاء جاشت به إلى الصدور الحوباء، ثم تَلَقْلَقَ به اللسان، وفشى منه الكتمان، وفارت به الشفتان فوران المرجل بوقود النيران.

يا بني، وإذا تمكن من قلب خرب، وغلب عليه كل الغلب، وكاد لا يفارقه آخر الحقب. وكم من صاحب له يريد انتزاحه منه فلا ينتزح، وإصلاح لسانه منه فلا يصلح؛ لكثرة غلبته، وشدة ضراوته. والكذب مجانبٌ للحق، مكذَّبٌ مَن عُرف به في الصدق.

فتأدب يا بني بأحسن أدب المتأدبين، واقتدِ بهدى الصالحين، واستغشِ ثوب السلامة، ولا تدَرَّع سرابيل الملامة، وتودد للخاصة والعامة، وأجمِل البشرَ في اللقاء للعدو ولذي الصفاء، وابذل له الإنصاف في كثرة الإصغاء لكلامه والاستماع لحديثه، ولطف الإجابة له على مقالته، والمكافأة بما يرضيه في عشرته، واستبرز حديثه، ولا تستطل ريثه، فإن لكل أحد في نفسه قدراً، كبيراً كان أو صغيراً، فأكثر بسطه إليك، وقاربه ليألف ما لديك، واستعمل عقلك في كل زمان بما يصلح له من الأدب، واسعَ مع أهله في كل عَدْوٍ وخَبَب، يَفِر لك عرضك، وتستوطئ بك أرضك، ويستحكم لذلك إبرامك ونقضك، ويستتر عنك مُدَّعِي بغضك.

ولا تحمل الحقد على أترابك، ولا تحملنك المماحكة في الأحكام على ملادَّة

ذوي الأرحام، فربما أورث المحكُ الشحنا، وأبان لك من خليلك ما كان عنك مستكناً.

واقبل نصيحة من حباك بنصيحته، واتَّعِظ بموعظته، ولا تجانب السداد، واحتمل قوارع الفؤاد، واسْلُ عما كنت له آلفاً حتى تظفر بما صرت له مستأنفاً، وتَصَرَّفَ لك نفسُك تصرُّفَ الذلول في زمامك، وتكون عيوبك أمامك ترمقها بعين العِيافة، حتى تعود إلى ما به أُمِرت من المؤالفة، وإياك أن تكون على ما لا تمقه(١) من غيرك مقيماً فتكون عند الناس مذموماً، ولا تدع إصلاح ما يذمه منك غيرك، باجتنابك له ما مُدَّ لك عمرك.

يا بني، فإن عجزت عن استئصاله فحُل به بالتخلق عن محالِّه.

يا بني، واجتنب الكبر فإنه رداء الجبار، والمعطل للديار، والمحل لصاحبه دار البوار، والمغير للإنعام، والمعجل للانتقام، وعليك بتحصيل الأشياء وفحصها، وقرع أبواب زيادتها ونقصها، وتصريفها على جهتها، وقلة العجلة في التبصر بها، حتى تتضح لك آثارها، وتُسفِر لك أوجهها، ثم استقبلها في أوان العنفوان، ولا تَنقَدْ بالهوى إلى الوَخَم من الأعطان فتجرحك الأوهام، ويصرعك ما ليس لك عليه قوام، فقد عاينت جرحى الأيام، وقلة رأفتها بالكرام، وكثرة رجوع صرعاها على أنفسهم بالملام.

واعلم يا بني أن الليل والنهار ينقرضان ثم لا يعودان، وبالحسن والقبيح

---

(١) وَمِقَ: ومِقَهُ يَمِقُه، نَادِرٌ، مِقةً ووَمْقاً: أَحبه. أَبو عَمْرٍو فِي بَابِ فَعِل يَفعِلُ: ومِقَ يَمِقُ ووَثِقَ يَثِقُ. والتَّوَمُّق: التَّوَدُّدُ، والمِقة: الْمَحَبَّةُ، وَالْهَاءُ عِوَضٌ مِنَ الْوَاوِ، وَقَدْ وَمِقه يَمِقه بِالْكَسْرِ فِيهِمَا، أَي أَحَبَّهُ، فَهُوَ وامِق. (لسان العرب). [أي: إياك أن تكون على ما لا تحبه من غيرك مقيماً].

يمران، وعلى كل صغير وكبير أفعالَه يُثبتان.

يا بني، فإن قدرت أن تدفع في كل ساعة تمر بك مُوبِق السيئات بصالح الحسنات، وتبني مكرمة تحظى بها يوم القيامة، وتنجو بها من الندامة، ويثلج بها في الدنيا صدرك، ويُفسح لك بها قبرك- فافعل وعجِّل ثم عجِّل وأنت في حين المهَل، ولا تكثر التسويف فيطول عتبك، ويتقضى بحظك يومك، فإن في ساعات الليل والنهار سجلات مطوية، تؤدي ما استُودِعت بصدق الرَّوِيَّة، فَضَمِّنها الجميل تؤدِّ عنك باقياً كنت أو فانياً، كحسب ما أدت من الودائع في الليالي الخوالع من مكارم الكرام ومثالب اللئام، ثم لم ينطمس ذلك مع الرسوم الطوامس، باقياً ما بقيت الدهارير، حتى تحيط بالعالمين ملمات المقادير.

وكل من لم يسمُك على ما بَنَتْ له الجدود بناء يعلو له في التشييد فالمحامد منه بعيد، وركن الشرف الذي اعتمد عليه مهدود؛ لأن الساكن في غير ما يحوي فهو منه خارج. يا بني، ومَن لم يشرِّفه فعالُه فليس في شرف سلفه بوالِج، إذا لم يُزَيِّن الشرف التليد بالفعد الحميد؛ لأن السلف الماضين إنما شرفوا في الخلف الباقين بالمكارم المعدودة والخلائق المحمودة.

يا بني، ومن أسَّس له أَوَّلُوه أركاناً ثم لم يُعلِ عليها بنياناً فهو بمعزل مما أسسوا، خِلوٌ عن رباب(١) ما اغترسوا، ومن أحيا بعز أيامه أيامَ الآباء والأجداد فَاشَ ذكرهُ كما فاش ذكرهم في العباد والبلاد، فلا تُكذب نفسك الخبر؛ فإنه

---

(١) والرِّبابةُ، بِالْكَسْرِ: القِيامُ عَلَى الشيءِ بِإِصْلاحِه وتَربِيتِه؛ وَمِنْهُ مَا يُقَالُ: رَبَّ فُلَانٌ النِّعْمةَ يَرُبُّها رَبّاً ورِبابةً... وَرَبَّ المعروفَ والصَّنيعةَ والنِّعْمةَ يَرُبُّها رَبّاً -ورِباباً ورِبابةً حَكَاهُمَا اللِّحْيَانِيُّ- ورَبَّبها: نَمَّاها، وزادَها، وأَتَمَّها، وأَصْلَحَها. (لسان العرب بتصرف).

سيمحض منك المختبر عيونٌ جساسون، عيَّانون بحاثون، ولخطأك مُحصون، ولما يكون منك حافظون، فجنب قدمك مواضع الدَّحضات، ولا تسعَ بها في مهايع المنكرات، فإن الناس حفظة على الناس ما يأتون وما يذرون، فربما ذكَّروا المرء في الأحيان بسالف ما ذهل عنه بالنسيان، وأتاه عنهم ما قد غيب عن فِكَرِ الأذهان، فليطل منهم حذرك، وليكثر لهم قهرك بتنزيه نفسك عما يتطلعون إليه من سقطتك، ويبتغون هدَّه من ذروتك، وليكن التَّرقِّي في ذرى الشرف من همتك، ولا تَشُبِ الشك باليقين، ولا المعرفة بسوء الظنون، فينتقض ما أبرمت، ويتغير ما عليه عزمت، ويلحقك اسم الضعف، فتقف عن العمل وقوف المغلول من الكف.

يا بني، وإياك وكثرة الحرص؛ فإن التخلق به يرجع بك إلى النقص، ويُذهب عن صاحبه الهيبة، وتكثر له من الناس الغيبة.

يا بني، أَلْزِم نفسك التجمل بترك السؤال ما وجدت البلغة بما قل من المال؛ فإن رزقك في كل يوم يمر بك مقسوم، والإلحاف في السؤال أمرٌ مذموم، وبهجة البهاء معه لا تستقيم، ولا مروءة لمن لم يكن الصبر له غالباً، والاحتساب له صاحباً، فادخر لنفسك القنوع بما يُبَلِّغُك المحل وإن قل؛ فإن ذلك من شمائل أهل الفضل، حتى تنغلق عنك أبواب العسرة، وتنفتح لك بما تحب أبواب الميسرة؛ فإن ذا القناعة قد يمنح من الله النصرة في الدنيا والآخرة.

وأَخْلِق بذي التأني أن يظفر بحاجته، وأن يعطيه الله أفضل أمنيته، مع ما يتطول به عليه من عونه وكفايته! ولَرُبَّ ملهوفٍ عُجِّل له غواثه، وقل عليه

ارتياثه. ولربما أدَّب الله عبدَه بالفقر وابتلاه بالعسر اختباراً؛ ليجعل له في عاقبة ذلك خياراً، يعلي له به ذكراً في الحظ من لدنه، وهو في ذلك راضٍ عنه، فلا تقطف ثمرة لم يَبدُ لك صلاحها، ولا تطلب حاجة لم يَأْنِ لك نجاحها، فإنك تذوق معسول الثمرة في إبانها، وتظفر بحاجتك عند بلوغ أوانها، والمنفردُ لخليقته بالتدبير أعلمُ بالمدة التي يصلح فيه التقدير، فاستَخِرِ اللطيف الخبير يَخِر لك في جميع الأمور.

يا بني، ولا تجعل الدهر يوماً واحداً، فإن مع اليوم غداً، واطلب حوائجك بَدَداً، ولا تطلب جميع حوائج عمرك في يومك فيكثر قنطك ويتغلغل صدرك.

يا بني، خَاشِ الجديدين في كلتا الحالتين تظفر بإحدى الحسنيين، واصحبهما بأجمل ما به يُصحبان، وامرر معهما كما يمران، ولا تصاعبهما فيصاعباك، ولا تكاشفهما فيكاشفاك بمكروههما، وأقلل معاتبتهما، وأكثر موادعتهما، وأَطِل بالرضا مسالمتهما يثلج من الهموم صدرك، ويَصْفُ لك بلذيذ العيش عصرك، واحذر عسفهما، فإنهما إن عَسَفَاك عجزت ولم تنتصر، ولم يدافعهما عنك أحد من البشر.

يا بني، ومَن كثرت مراقبته طالت نعمته، والنعم أسرع شيء زوالاً عن البَطِر، وليس لها عنده مستقر، وليس يدركها ذو الفظاظة والغلظة إلا بالمحتوم من المقادير.

يا بني، وربما حُبِيَ القاسي الذي ليست من شكله منها بالسرور، وقد يكون استدارجاً للنحرير، وسبباً للحسرة والوبال على المهذب من الرجال، فاحجب بينك وبين المحبوب بستر لا تَنْهَتِكُ أطنابه، ولا تَنْبَتِكُ أسبابه، وعليك بالصبر عند نفاره؛ لكيلا تفجعك فرقته عند إدباره لحادث يصرفه عنك، ويستنزعه

منك، فإنَّ مَن لم تحسُن بديهته عند نائبته، ويغلب جميلُ عزائه جميلَ مصيبته، قبل أنت تدور الدوائر بفجيعته- عِيلَ صبره، وامتلأ بالرزايا صدره إذا هجم عليه غائبها، وبرك بكلاكله على كاهله نائبها.

يا بني، رَبِّ النعم بالشكر، فإن النعم أقسام تقسمها الأيام ثم تضرب لها أجلاً، وتجعلها بين الخلائق دُولاً، تُـمَـتِّع بها قوماً وتُعدِمها آخرين، ثم تسلبها بالكلية من الناس أجمعين، وليس عليها شرائط للمستفيدين يستوجبونها بها دون الآخرين ما كانوا في الأحياء المرزوقين، ويستحيل أن يكون ذلك في أمل الآملين، وإنما هي بلاغ وعارية إلى حين.

يا بني، وما كان لأوله ابتداء فلآخره انقضاء، ولا بد أن يجري عليه عند نهايته الفناء. وإذا أوجبتَ العطية فأسرع بها البدار، وأنجز موعدك لأهل الاضطرار، قبل أن يذهب نشاطك وينقبض انبساطك، وعجِّل بالمعروف، كي يتجدد لك شكر الملهوف، وإذا أردت إنعاماً وإتحافاً فلا تُرد بذلك مطلاً، وكن عند نفسك لما دعتك إليه من ذلك أهلاً، ولا تُكَدِّره بالتأخير، ولا تستدع الذم فيه بضرب المعاذير؛ فإن ذلك منقصة لك عند الصغير والكبير.

يا بني، ارعَ سالف الحرمة وأدِّ حقها، وسدد طرقها، ولا تنس ذمتها، ولا تملّ طول صحبتها، فيعود ذو الثقة بك من وفائك يائساً، ويظهِر لك بعد الإسفار وجهاً عابساً، وأرفد مَن أتاك مسترفداً، وكن له بما يمكنك مسعداً، فإن عجزت عن رفده فاردد عليه ماء وجهه بما يحسُن مِن ردِّه، مع بشرٍ تبسطه، وتُحِلّ من ورطه(١)، فإن ضربت له عذراً عذَرَ، وإن أوليتَه وأنلتَه معروفاً شكَرَ، وعد

(١) في (أ): وتنحل به عنه ورطه.

القليل مع الانبساط كثيراً، والكثير مع الجبروت حقيراً.

يا بني، وإذا وجدت للرخاء موضعاً منفسحاً لم تكثر به إلى الطماح مرحاً، وإن كنت ممن يصحب الملوك فاصحبهم بالجلال والتعظيم يكرموك، ولا تحملك كثرة الأنس بهم على الحرص فيما ينقصك من مودتهم، وأكثر الهيبة لهم؛ فإنهم إنما أطالوا الحجاب وصفدوا دون العوام الأبواب لتملأ القلوبَ هيبتُهم، وتُرعِد الفرائصَ سلطنتُهم، فعلى حسب هذا فاصحبهم، وإلا فأقصر عن الاتصال بهم.

يا بني، ولا يكثر من دهرك[1] يأسك، ولا عند تثبطه بأملك إبلاسك، فإن جميع من يحسد على ما أفضى إليه لم يدركه إلا بعد تأبِّيه وتعذُّره عليه.

يا بني، وأكثر التأمل فيما يشخص إليه طرفك وتمنَّاه نفسك مما أوتيه من هو أجلُّ منك قدراً، وأكثر منك يسراً، إلى ما تؤول به العواقب، وماذا تُدِيره عليه النوائب، فربما كان ذو الإقلال أنعم بالاً وأحسن حالاً من صاحب الأموال، ومن سَقَتْه الدنيا من صفو لذاتها كأساً مَلْأَى جرَّعته من كريه مرارتها ما يعود عليه وبالاً؛ لأن صفوها ممزوج بالكدر، وأملها متنكدٌ بالغِيَر، وعلى كلِّ رائق منها للناظرين رقباءُ غير غافلين، يستلبون المهج، ويدرسون بهجة المنهج، مع كثرة الإعراض، وسرعة الإنغاض[2]، وتضييق الغلاصم[3] بخفي العظائم،

---

(١) في (أ): في دهرك.

(٢) نغض: نَغَضَ الشيءُ يَنْغُضُ نَغْضاً ونُغُوضا ونَغضَاناً وتَنَغَّض وأَنْغَض: تحرَّك واضطَرَبَ، وأَنْغَضه هُوَ أَي حرَّكه كالمتعجِّب مِنَ الشَّيْءِ. وَيُقَالُ: نَغَض فُلَانٌ أَيضاً رأْسَه، يَتَعدَّى وَلَا يتعدَّى. والنَّغَضانُ: تَنَغُّضُ الرأْسِ والأَسنانِ فِي ارْتِجافٍ إِذا رَجَفَتْ تَقُولُ نَغَضَتْ... والنَّغْضُ: الَّذِي يُحرِّك رأْسَه ويَرْجُف فِي مِشْيَتِه، وَصَفَ بِالْمَصْدَرِ. وكلُّ حَرَكَةٍ فِي ارْتِجافٍ نَغْضٌ. (لسان العرب باختصار).

(٣) الغَلْصَمَةُ: رأْس الحُلْقوم بِشَوَارِبِهِ وحَرْقدته، وَهُوَ الْمَوْضِعُ النَّاتِئُ فِي الحَلق، وَالْجَمْعُ الغَلاصِمُ، =

والحفظ بعيد عمن غَلُظ طبعه، وضاق خلقه.

واعلم يا بني أن العافية نعمةٌ كاملة وإن أعطي الإنسان من دهره المنى، وأُتحف منه بالرضا. ومن كثرت دَعَتُه وحسُن خلقه ومروءته فقد استكمل الفضل، وحاز بفوزه الخصْل(١).

يا بني، ولو شُرِي الخلق الحسن بجميع الدنيا لكان رخيصاً، وكان شاريه وإن بقي فقيراً بالظفر مخصوصاً.

واعلم يا بني أن الأيام نبلٌ مسمومة، والخَلْقَ أهداف مرمية، والزمان لهم مُرْشِق يرميهم في كل يوم بنافرة، ويدور على الكواهل بأدمعٍ دائرة، حتى يدع اللحم عريضاً، والعظم مهيضاً، ويستغرق كل يوم من أجزاء الإنسان جزءاً، يُصَيِّره به نضوا، فماذا يُبقِي من الأجسام ممرُ الليالي والأيام، وكم ذا يكون صبرها على نوافر السهام. فيا أيهذا الذي دلاه الغرور بالغرور، وزيَّن له ما يُستقبح في عواقب الأمور، لو هُتِكت لك مسدَلاتُ الأستار عما يخترم منك الليل والنهار،

وَقِيلَ: الغَلْصَمةُ اللَّحم الَّذِي بَيْنَ الرأس والعُنُق، وَقِيلَ: مُتَّصَلُ الْحُلْقُوم بِالْحَلْقِ إِذَا ازْدَرَدَ الآكلُ لُقْمَته فزَلَّتْ عَنِ الْحُلْقُوم، وَقِيلَ: هِيَ العُجرةُ الَّتِي عَلَى مُلْتَقَى اللَّهاةِ والمَرِيءِ. (لسان العرب).

(١) والخَصْلة والخَصْل فِي النِّضال: أَن يَقَعَ السَّهم بِلزْق القِرْطاس، وإِذا تَنَاضَلُوا عَلَى سَبْق حَسَبوا خَصْلتين بمُقَرْطَسَة. وَيُقَالُ: رَمى فأَخْصَل، قَالَ: وَمَنْ قَالَ الخَصْل الإِصابة فَقَدْ أَخطأَ... وَقَدْ أَخْصَلَ الرَّامي. وتَخَاصَل القومُ: تَراهنوا عَلَى النِّضال، ويُجْمَع عَلَى خِصَال. وأَصاب خَصْلَه وأَحْرز خَصْلَه: غَلَب عَلَى الرِّهان. والخَصِيل: المَقْمور. والخَصل فِي النِّضَالِ: الخَطَر الَّذِي يُخَاطِرُ عَلَيْهِ... الخَصْلة الإِصابة فِي الرَّمْي وَهِيَ المَرَّة مِنَ الخَصْل، وَهِيَ الْغَلَبَةُ فِي النِّضال والقَرْطسة فِي الرَّمْي، قَالَ: وأَصل الخَصْل القَطْع لأَن الْمُتَرَاهِنِينَ يُقَطِّعُونَ أَمرهم عَلَى شَيْءٍ مَعْلُومٍ. وخَصَل القومَ خَصْلًا وخِصَالًا: نَضَلَهم. (لسان العرب بتصرف).

وما يَكُرُّ به لينجز ما بقي منك العشيُّ والإبكار- لأَمَضَّك الجزع وقل منك الاصطبار، ولأوحشك من الساعات(١) التكرار، ولكنَّ تدبيرَ من بيده الأقدار، يعزب عن أن يعلم كنهه بالاعتبار.

يا بني، فاسلُ بكثير غوائل الدنيا عنها، وخذ ما صفا منها، فإن ضجيعها مغبون، والراكن إليها مفتون، والوافر الحظ منها فيها محزون، وهي أقل من كل قليل سماه المسمُّون، وقد عجز عن وصف عيوبها الواصفون، وقَصُرَ عن علم عجائبها العالمون.

تم كتاب المكنون بحمد الله ومَنِّه وتوفيقه، وحسن إعانته
والحمد لله كثيراً بكرةً وأصيلا

---

(١) في (أ): ساعاتك.

سياسة النفس

بسم الله الرحمن الرحيم

حدثنا أبو محمد عبدالله بن أحمد، قال: أخبرني أبي رحمه الله أحمد بن محمد بن الحسين بن سلام قال: أنفذ إلينا أبو محمد القاسم بن إبراهيم بن إسماعيل بن إبراهيم بن الحسن بن الحسن بن علي أمير المؤمنين صلوات الله عليه وعلى أهله الأئمة الأكرمين، أول ما أنفذ إلينا من كتبه كتاباً يقال له: (سياسة النفس).

قال أبي رحمه الله: فلما قرأنا الكتاب وكنا لا نرحل إليه ونرحل إلى غيره من أهل البيت عليهم السلام فأسفنا على ما فاتنا منه، وقلنا: ليس من حق علوي يحسن أن يقول مثل هذا إلا أن نكون جواب كتابه، فرحلنا إليه، فأقمنا عنده في أول رحلتنا إليه سنة، ثم بعد ذلك كنا نرحل إليه في الأوقات، ثم سمعنا منه هذا الكتاب، وأوله:

بسم الله الرحمن الرحيم بالله أستعين

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على محمد النبي وآله وسلم تسليماً، ونسأل الله ولي نعمة الابتداء، ومسهل سبيل قصد الاهتداء، أن يمن علينا وعليكم بشكر نعمه في ابتدائه، ويحسن إلينا وإليكم بعونه على سلوك سبيل أوليائه، التي أرجو أن تكون أنفسكم لها وفيها ولما أنتم عليه لله من التمسك بها والقصد إليها من الأنفس التي أذن الله بعمارتها، ورمى إليها بأسباب حياتها، فقد عقد الله لكم لذلك لدينا عقد الخلة والإخاء، ووكد بذلك لكم علينا أخوة الخاصة والأولياء، فأيقنوا أنه لم يوصل سبب من الأسباب بين المتواصلين، ولم تعقد خلة من الخلل بين المتخالين، من الأولين من خلق الله لا ولا من الآخرين، بغير ما يرضي الله سبحانه من التقوى، ويستحقه جل ثناؤه من الطاعة له والرضا، إلا كانت وصلة

حسرة وانقطاع، وخلة ندم غداً واسترجاع، يدعو أهلها فيها بالويل والعويل، ويصيرون بها في الآخرة إلى خزي طويل، ذلك قوله جل ثناؤه: ﴿الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ۝٦٧﴾ [الزخرف]، وقوله تعالى عن القائل غدا: ﴿يَاوَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ۝٢٨ لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا ۝٢٩﴾ [الفرقان].

ونحن نرجوا -وليكم الله- أن يكون وصلة ما بيننا وما عقد الله -فله الحمد- عليه خلتنا سبباً عقده الله بالإيمان، وأسسه منه على رضوان، فمن أحق بالتعظيم منا لما كانت الأبرار تعظمه، ومن خير ما قدمناه فيه ما كانت الأتقياء تقدمه، من كل ما كان لهم على بغيتهم من النجاة دليلاً، وإلى ما يلتمسون من فوز حياة الخلد عند الله سبيلا، من التذكير(١) من بقاء الآخرة وفناء الدنيا بما ذكر، والأمر في عاجل هذه الدنيا من التقوى له بما به أمر.

فافهموا ذلك فَهَّمنا الله وإياكم سبيل الخير، ونفعنا ونفعكم فيها بمنافع التذكير، فإنه يقول سبحانه: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ۝٥٥﴾ [الذاريات]، والدنيا وإن كان أمرها قصيراً، وبقاء أهلها فيها قليلاً يسيراً، فاعلموا رحمكم الله أنها وإن كانت كذلك في البلوى فإنها متجر لأرباح فوائد التقوى، ومكسب غنم لمن كسبها فيها، ومحل مخصب لمن تزود إليها منها، [ومعبر لمن تبلغ بها عند ظفره بكسبها، إلى دار مقام، ومحل دوام، ليس عنها لمن نزلها انتقال، ولا منها بعد

---

(١) في (أ): التذكر.

طولها زوال، والدنيا فإنها][(١)] خلقها الله سبحانه لعبادته، وأمر خلقه فيها بطاعته، ونعاها إليهم قبل فنائها، وأخبرهم جل ثناؤه بقصر مدتها وبقائها، فقلل بأحق الحقائق في أعينهم ما يستكثرونه من كثيرها، وقصر في كتابه الناطق عندهم[(٢)] ما يستطيلونه من تعميرها، فقال سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾﴾ [النساء]، وقال سبحانه: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا ﴿٤٥﴾ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا ﴿٤٦﴾﴾ [النازعات]، وقال تبارك وتعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَنْ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [يونس]، وقال سبحانه لرسوله صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الأحقاف].

فالدنيا أحق منزل بأن لا تمل مكاسب غُنمه، ولا يغفل في حث ولا جد ولا

---

(١) ما بين المعقوفين غير موجود في (أ، ب): وفيهما: وذلك لأنه خلقها سبحانه لعبادته..إلخ.

(٢) «عندهم» ساقطة من (أ).

اجتهاد عن تغنمه، ولا يذم سعي من عمل له، واغتنم فيه مدته وأجله، بل المستحق للذم فيها من أوطنها على يقين العلم بالنقلة منها عنها، وسعى للنيل فيها مع يقينه بفنائها، فأصبح مشغولاً بالفراغ مما شغله، فارغاً من الشغل الذي فرغ له، مصيخاً إلى الغرة، موطناً لدار النقلة، لا جاهلاً فيعذر، ولا ناسياً فيذكر، فكأن الموصوف المفتون بما يسمع ويرى ليس بموقن بزوال الدنيا، بل كأنه لم يوقن بمواعيد ربه غداً إذ تأخر ذلك عنه، ولم يصدق بما حذر إذ قصر به دنوه منه، بل كأنه نسي أن الدنيا جعلت دار بلوى ولم تجعل لأحد من ساكنيها دار مثوى، وجعلت إلى غيرها معبراً ولم تجعل لساكنيها مستقراً، وأنها لأهلها ممر سبيل ومنزل نقلة وترحيل، وأن كل من فيها إلى دار قراره من الآخرة حثيث في المسير، فلو كان يصير من فيها بعد موته إلى غير معاد ولا مصير، لما وسعه إن نظر أو عقل ففكر أن يركن إلى ما يزول وينصب لما يفنى فلا يدوم، وكيف وهو مبعوث ومحاسب، وموقوف غداً للحساب فمعاتب فيما أفنى من عمره، بل في كل أمره من صغير محصوله وجميع فعله وقوله، يحضر له كله يوم البعث في الحساب، ويجد ما كان فيه من خطأ أو صواب.

فيا ويله أما سمع قول الله تبارك وتعالى فيه، وما حكم الله به من عدل حكمه عليه، إذ يقول سبحانه: ﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴿٤٩﴾﴾ [الكهف].

فبادروا رحمكم الله لعظيم المغنم، وأجدوا في الهرب من أسف الندم، واتقوا صفقة الخسار فإنها بين الجنة والنار، ولا تبغو من الراحة ما يفضي بأهله إلى

النصب الدائم، ولا من النيل إلى ما يؤدي إلى حرمان الغنائم، وأكثروا ذكر السقم والوفاة، وما رأيتم فيهما وبهما من البغتات والفجآت، فكم قد رأيتم بهما من مبتغت وصريع، وكم سمعتم عنهما من خبر هائل فضيع، ولا تؤثروا ما لم تخلقوا له على ماله خلقتم، ولا تكثروا تشاغلكم بطلب الرزق فقد رزقتم قديماً في ظلم الأرحام، ثم بعد إلى حين الفطام، ثم منذ كنتم في الناس شيئاً مذكوراً، فكفى بذلكم على كفاية الله دليلاً ونوراً.

فاعرفوا كفايته لكم بما عُرِّفتم، وقوموا من ذلك كله بما كلفتم، وأضربوا عن طلب الدنيا عنكم بفادح الأثقال، وتكلف ما أنتم فيه لطلبها من الأشغال.

أفلستم بموقنين ببت يقين لستم بمرتابين أن الحظ من الدنيا إلى نفاد، وأنكم من الموت على ميعاد، فما بالكم لا تنظرون إلى عاقبة الدنيا، ولا تتأهبون إن كنتم صادقين لدار المثوى، أترون ذلك بزلفى عند ربكم وليست لكم، أم بوسيلة وليست معكم، أم بحسن عمل ولم تقدموه، أم بعظيم الرجاء ولم تحققوه.

فيا أيها الراكن إلى الدنيا وزخرفها، والآمن لنوائب تصرفها، والمغبر(١) في معاشها ومكالبتها في طلبها، والمؤثر لها على ربها، والمشتغل بما كفي منها، والجاهل بخبر الله عنها- هبك لم توقن بما دعا الله إليه من ثوابه، ولم تخف سطواته فيما حذرك من عقابه، ألم تك ذا عقل فتفهم عن الدنيا خبرها؟ وتسمع منها موعظتها؟ فلعمرها ما قصرت في موعظة، ولا تركت لذي عقل فيها من علة، لقد أخبرتك عن القرون بما أحلت بهم من المنون، فخربت الديار، وعفت

---

(١) في (ج): والمغتر.

الآثار، بل هبك أصم في هذا كله عن سماع موعظتها، وما كشفت لك بذلك عنه من سوآتها، ألم تُرِكَ عياناً فيما معك من نوازل مناياها؟ وما أوصلت إليك من فقد الأحبة من رزاياها؟ أو لم تكن في طول ما جربت من أسقامها؟وما حل بك خاصة في نفسك من آلامها؟ وما علمت من استدعاء القليل من موجودها للكثير الجم من مفقودها، حتى في كل أمرها، بل في كل(١) خطرات ذكرها، فهي فقر لا غناء معه، وشره لا قناعة له، وحرص لا توكل فيه، وطلب لا انقضاء للميعاد منه، وغدر وختر وكذب وخيانة، ليس فيها صدق ولا وفاء ولا أمانة.

أفما كان في ذلك ما يدعوك إلى الزهد فيها، والتنزه بعده من الميل إليها، وإدخال الراحة على نفسك من الشغل بها، وما حملك الشره من أحمال ثقلها؟ فكيف وأنت زعمت أنك موقن بمواعيد ربك، وذلك فما لا يتم إيمانك إلا به، فكيف وقد فهمت عن الدنيا خبرها، وعلمت يقيناً موعظتها، وأيقنت أنه لا يدوم لك فيها خلود محبة، ولا يتم لك فيها سرور بمعجبه، ولا يتبعك منها تراث تركته، والموت فسبيل كأن قد سلكته، فكل هذا منها فأنت منه في منهج وسبيل، مع الذي هو فيها(٢) وأدل عليها من كل دليل، خبر الله سبحانه عنها، وما وصفه من صدق الخبر منها.

فاسمعوا لذلك من الله فيها، وتفهموا عن الله دلالته سبحانه عليها، بفهم من قلوبكم مضي، وعقل من ألبابكم حيي، فإنه يقول سبحانه: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا

(١) «كل» ساقطة من (ب).

(٢) في (أ): مع التي هي فيها.

إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴿٣٢﴾ [الأنعام]، ويقول سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴿٥﴾﴾ [فاطر].

ثم قال سبحانه: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴿١٥﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴿١٦﴾﴾ [هود].

ثم قال سبحانه: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا﴿١٩﴾﴾ [الإسراء].

وقال سبحانه: ﴿أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴿١٩﴾ الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ﴿٢٠﴾ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ﴿٢١﴾ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ﴿٢٢﴾ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ ءَابَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ﴿٢٣﴾ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴿٢٤﴾ وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴿٢٥﴾ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ﴿٢٦﴾﴾ [الرعد]، فحياة الدنيا وعمرانها عند من يعقل عن الله خراب وبور،

وكل ما في الدنيا من غير طاعة الله فلا يغتر به إلا هالك مغرور.

وفي فروع هذا كله وأصوله، وما نزل الله فيه من بيانه وقوله، فقد رأيتم ما قال الله سبحانه عياناً، وسمعتم نداءه إعلاناً، وكلا لو رأيتم لعمركم لأبصرتم، ولو أبصرتم إذاً لاغتنمتم، ولكنكم نظرتم إليه بأعين عمية، وسمعتم القول فيه بآذان دوية، ودبرتم الأمر منه بقلوب سقيمة، غير برية من أدواء الأهواء ولا سليمة، فآثرتم ذميم ما حضركم على كريم ما غاب عنكم، وما عجل إليكم ولكم على ما قصر علمه دونكم، كما[١] قال الله تبارك وتعالى: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ۝٧﴾ [الروم]، وكذلك فلم يزل العماة الجاهلون، أما لو نظرتم إليه بأعين جلية، وسمعتم القول فيه بآذان سوية، ودبرتم الأمر فيه بقلوب حيية- لعلمتم أنكم من الدنيا في إدبار حثيث، ومن الآخرة في إقبال غير مكيث، فكأن ليلكم ونهاركم في مرورهما بكم وكرورهما عليكم قد وقفا بكم على آجالكم، وأفرادكم من غرور آمالكم، وكشفا عنكم أغطية أبصاركم، فخسر رأيكم إن لم يرحمكم ربكم.

فيا ويل المغرور من نفسه، المخطئ لسبيل حظه، من أي يوميه يشغل؟ بل من أي حالتيه يغفل؟ أيوم رجوعه إن عمِّر إلى أرذل عمره؟! وحاله حين يصير عَيال عِياله وأسير منزله وداره، أم عن يوم وروده داراً لم يتخذ بها منزلاً، ولم يقدم إليها من صالح عملاً؟ أم لأي يوميه يفزع، أليوم حيرة تتبعها عبرة؟! وفرحة يعقبها ترحة، وزخرف يعود حطاماً، وفخر يحول بواراً؟ أم ليوم شغل لما فرغ منه؟!

---

(١) «كما» ساقطة من (أ، ب).

وتفرغ لما أمر بالإعراض عنه، واحتقار لما نعي إليه فراقه، وحرص على لزوم ما هو مفارقه، كأنه لا يستحيي من حمده لمذموم، وركونه من الدنيا إلى ما لا يدوم، واستيطانه لغير دار خلوده، وتكذيبه بفعله لما يزعم من محموده.

فيا عجباً كل العجب كيف ركن إلى ما ذم مختبره؟! وكيف استفرغه الفرح بجمع ما هو شاخص عنه؟! وكيف تعقبه الأسف على فوات ما لا يدوم له؟! وكيف اتثق بما ينفد على ما يبقى؟! وكيف يغفل ما هو فيه من النصب بمواتاة دنياه وما[1] يلقى؟! مع علمه ويقينه بأنه لا يبلغ منها غاية إلا دعته إلى غايات، فمتى إن لم يرفض الدنيا يستريح من حاجة فيها تدعو إلى حاجات؟! ومتى يقضي شغلاً إذا هو فرغ منه فقضاه عرض له أكبر منه فطلبه وابتغاه.

ففكروا رحمكم الله وانظروا تعلموا إن شاء الله وتبصروا أنه ليس لكم من سراء دنياكم وإن طالت صحبتها إياكم إلا كطرف العيون، فهي للجاهل المغبون من ذي دناءة أو لوم، أو فاجر عمي[2] ملعون، قد صارت الدنيا كلها له، فليس يأخذ أحد منها إلا فضله، فقدرته – وإن لؤم ودنا، وكان فاجراً معلناً- على كثير من كرائم النساء ونفيس المراكب والكساء قدرة الأبرار وأبناء الأحرار.

والدنيا أعانكم الله فيما خلا، وإذ كانت تضرب لفساد أهلها مثلاً، فإنما كان يمسخ أهلها وأنسها، فمسخت الدنيا اليوم نفسها، فلم يترك -والله المستعان- من ذكرنا لها زينة ولا بهجة، وعادت الدنيا كلها غرقاً ولجة، فأمورها اليوم كلها

---

(١) في (ب): يوم يلقى.

(٢) في (أ، ب): قوي.

عجائب، وكل أهلها في مكالبتها فمغتر دائب.

وقد بلغني أن عيسى بن مريم صلى الله عليه كان يقول لمن يحضره ولحوارييه: (بحق أقول لكم: إنه لا يصلح حب ربين، وما جعل الله لرجل في جوفه من قلبين، لا يصلح حب الله وحب الدنيا في قلب، كما لا تصلح العبادة إلا لرب)، وكان يقول ﷺ: (بحق أقول لكم: إن حب الدنيا رأس كل خطيئة، وكذلك فحب الله ولا قوة إلا بالله فعاصم لأهله من كل سيئة).

أفيرجو من آثر الدنيا على الله سبحانه أن يكون مع ذلك لله ولياً؟ هيهات هيهات، أطال من آثر الدنيا عنان عماية الغي والهوى، فجمحت به نوازع الغي المردي، وعنت به مطايا الهوى المضل المغوي، حتى أحلته دار الندامة ولات حين مندم، ثم أسلمته من الحيرة إلى شر مسلم، فما ينكشف عنه قناع غرة، ولا يتيقظ من نوم سكرة، رانت على قلبه بوادرُ أعمال السيئة، وفِتَنُ دهره المضلة المعمية، فقاده أهل الدنيا، وأعنق به قائد الهوى، ومنته نفسه بالاغترار طول البقاء، وأسرعت الغفلة في أيامه بالفناء، فكذبته نفسه أي حين وأوان، وفي أي حال – رحمكم الله – ومكان، حين لا رجعة ينالها، ولا إقالة يقالها، وعند معاينته الأهوال، وما لم يخطر له ببال، من هتك أستار السوءات، وهو في حال أحوج الحاجات إلى ما كان تركه فقراً وبلاء، وغيره هو الخفض والغَنَاء: ﴿يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ۝١٨﴾ [غافر]، ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ۝٢٤ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ۝٢٥﴾ [النور]،

يومٌ خافته رجال فمدحهم الله وزكاهم، وأحسن على مخافتهم له ثوابهم وجزاهم، فقال سبحانه فيهم وفي حسن ثنائه – بمخافتهم له – عليهم: ﴿رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ۝٣٧ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ۝٣٨﴾ [النور]، وقال سبحانه: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا قُلِ انْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ۝١٥٨﴾ [الأنعام]، وقال سبحانه: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ۝٨٨ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ۝٨٩ وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ۝٩٠ وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ۝٩١﴾ [الشعراء]، ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ۝٦﴾ [المطففين]، ﴿إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِقَوْمٍ عَابِدِينَ۝١٠٦﴾ [الأنبياء].

فرحم الله امرأ أحسن لنفسه نظراً فرفع عن الوناء ذيله، واغتنم من الله سبحانه تمهيله، فحسر عن ذراع، وشمر بإجماع، وانتبه عن وسن غفلة الغافلين وإن لم يشعروا، وتيقظ من نوم جهل الجاهلين وإن لم يسهروا، فعلم أن من رحمة الله بنا وحسن معونته لنا على أنفسنا أن جعلنا نسقم ونتغير ونبتلى بمثل ما يرى من تغير أحوال الدنيا في فناء ليلها ونهارها، وما يغتذى به في برها وبحارها من كل مأكول، أو لباس نسج معمول، أو غير ذلك من ألوان فنونها، وما سخره الله من ضروب ماعونها، فنبهنا بذلك كله، وبما أرانا من تغيره وتبدله على قصر مدة آجالنا، وعلى أنه لا بقاء ولا دوام لنا، ولو جعلنا ندوم أبداً أو نبقى لما جعل بين الدنيا والآخرة فرقاً، ولكان من عتا الخليق ببقائه بادعاء أخبث الدعوى، ولما امتنع من العاتين ممتنع من شهوة ولا هوى.

ولكنه سبحانه عرفنا أنفسنا وفناها، وألهم كل نفس منها فجورها وتقواها، فجعل فجورها غياً وتقواها هدى، وجعلنا تبارك وتعالى نموت ونفنى، لنستدل بالموت وتصاريف طباع الخلق على حكمة تدبيره لنا في الفطرة والصنع، وليدعونا خوف الفناء إلى طلب حياة البقاء، وخلقنا تبارك وتعالى من جزأين اثنين نفس وجسد، ثم ألف بينهما بلطيف تدبيره، وأحكم تركيبهما بأحسن تصويره، فجعلهما بعد تباينهما شخصاً واحداً مكملاً، وجعل لبقائه ومدة حياته مدة وأجلاً، ثم أمره بعد كموله فيه برشده وحضه عليه.

فإن نفسه سمعت له وأطاعت، وأجابت إلى ما دعيت إليه فسارعت- رشد عند الله واهتدى، وفاز من الله بثوابه غداً. وإن نفسه عصته والتوت عليه، وأبت ما دعي إليه من الرشد فغوت، ولم تعتصم بالله، ولم تُذَكِّره رحمة من الله- ضل عند الله فعطب، وهلك في القيامة وعذب، فنفس المرء إذا لم ترشد له فشر صاحب، ودعَّاءة له إلى كل هلكة ومعائب، لأنها لولا عصمة الله لها في خطاياها أبداً كرارة، وبالسوء لصاحبها إلا ما رحم[1] الله أمارة، كما قال يوسف صلى الله عليه: ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴿٥٣﴾﴾ [يوسف]، وكما قال شعيب صلى الله عليه في توفيق الله ومعونته له على عبادته، وحسن نظره وعصمته، لما كان عليه من رعاية حق الله وأمره من إرادته: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴿٨٨﴾﴾ [هود].

(١) في (ب): إلى ما حرم الله.

فمن خالف نفسه في خطاياها، ومال مع الحق عليها لم يضرره لها هوى ولا أمر، ولم يدخل عليه منها خطأ ولا ضرر، ومن قبل عن نفسه ما تأمره به من سوء كانت نفسه له أعدى من كل عدو.

وقد بلغني أن بعض الصالحين كان يقول: محاربة المرء نفسه بمخالفته يُثْبِتُ فيها طلب ثواب الله وطاعته.

واعلم أنه ليس يسلك سبيل مرضات الله إلا من أيده الله بروح الهدى، وأن ليس يوصل إلى سبيل مرضاته جل ثناؤه بالمنى، دون أن يحمل النفس عليها، ويصبر لأمر الله وحكمه فيها، كما قال الله سبحانه: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ۝١٢٣﴾ [النساء]، وقال سبحانه: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ۝٢١٤﴾ [البقرة]، ويقول سبحانه: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ۝١٤٢﴾ [آل عمران]، وفي مثل ذلك من ابتلاء القائلين ما يقول رب العالمين: ﴿الم ۝١ أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ۝٣﴾ [العنكبوت].

فتأهبوا رحمكم للبلوى، وانتهوا إلى ما أمرتم به من التقوى، ونقوا قلوبكم من دنس الدنيا وإيثارها على الله كيما تنقى، وطيبوها بالبر والتقوى، وكونوا مع

من بر واتقى، فمتى ما تكونوا مع أولئك تنجوا بإذن الله من المهالك، ويكن الله جل ثناؤه معكم، كما قال لقوم يسمعون: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾ [النحل].

واعلموا -وليكم الله- أن من أبواب التقوى ومفاتحها، وأقوى ما تقوى به من رشد بإذن الله على قبول نصائحها- حسن الفكر في الدنيا وفنائها، وتقلب سرَّائها وضرائها، وفي حال جميع من فيها من ملوك الأمم خاصة ومن دونهم من الخلق جميعاً عامة، فإنكم رحمكم الله إن تفكرتم فتروا بعين الفكر وتبصروا تعلموا أنهم جميعاً منها وإن اختلفت أحوالهم في السراء والضراء في مضامير بأقدار أحوالهم فيها من السعادة والشقاء.

وقد ينبغي لمن سلك سبيل مرضات الله وآثرها، وعظمها بما عظمها الله به من رضوانه فوقرها، أن يتحفظ من نفسه فيها، ويجمع كل أشغاله ولا قوة إلا بالله إليها، فإنه لو تفرغ لخدمة بعض ملوك الدنيا لحق عليه الاجتهاد في بلوغ الغاية القصوى، فكيف بمالك الملوك إذا برز لعبادته، ونابذ في الله عدوه من الجن والإنس بمحاربته، فليتحترز -من سلك سبيل ولاية الله ومرضاته، ومن يريد القيام بما أوجب الله عليه من فرض حقه وطاعته - من السقط والخلل، وليستيقظ من الغفلة والزلل، وليتيقظ وليعرف قدر ما يعرض لأهل ذلك من البلوى والفتنة والبلوى، وما ينصب له وفيه(١) من المباينة، وعلم بلواها وفتنها، فيحور في مواطن العزم والشدة، ولا يصبر عند نزول البلوى المؤكدة، فإن ذلك

---

(١) في (أ): لهم فيه.

إذا كان منه كذلك فليس له بدخول، ولا لمن صار إليه إلى الله به وصول، وإنما وصفت لكم هذا فيها لكيلا يقدم مقدم عليها إلا بعد علمه بهذا منها، وفهمه لهذا من الخبر عنها، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

واعلموا أن القلوب كالآنية المصدوعة فيما تنازع إليه من غرائزها المطبوعة، فإن لم ترهم صدوعها لم يصح مطبوعها على بنية اعتداله فيما فطرها الله عليه من كماله، فزموها بالعلم بكتاب الله وتنزيله، والوقوف على محكم تأويله، ففي ذلك لها تقويم وتعديل، وهداية ونور، ودليل على منهاج خالص الطريق المساير لها في حب الله وطاعته، وما أوجب الله على العباد من أثرته وعبادته، وبكتاب الله تنجلي عن القلوب ظلم الحيرة، وبلطف النظر فيه تدرك حقائق العلم والبصيرة، وبسبل الله فيه المطرقة تكون هدايات اليقين والثقة في نيل الغايات القصوى، وبلوغ الدرجات العلى.

وقد زعم بعض أهل الحيرة والنقص، ومن لا يعرف عين النجاة والتخلص، أن الإلطاف في النظر يدعو صاحبه إلى الخيلاء والبطر، وإنما يكون ذلك كذلك عند من يريده للترؤس، لا لما فيه وما جعله الله عليه من حياة الأنفس، فانفوا مثل هذا عن ضمائركم، وسدوا ثلمة عيبه في سرائركم.

واعلموا أن البحر لا يجاز يقيناً بتاً إلا بمعبر، وأنه قد يحتاج الشجاع المحارب السلاح في الحرب فكيف بالعي المغتر، فلا يتعاط أحد سبيل التقوى وما قرن الله بها من التمحيص والبلوى إلا وقد تحصن بالعلم والبصر الذي ميز الله به بين أهل الخير والشر، فلا تدعوا -رحمكم الله- حسن النظر في الأمور، والاستضاءة

في ظلمها بما جعل الله في العلم من النور.

واعلموا أن من أبواب ذلك ومفاتيحه وأضوأ ضياء نوره ومصابيحه إخلاص العمل لله، وصدق التوكل على الله، وسبب الطريق إليها، وعون من أرادها فيها- حسن الفكر في الدنيا وفنائها، وتقلب سرائها وضرائها، وفي حال جميع من فيها من ملوك الأمم خاصة، ومن دونهم من الخلق جميعاً عامة، فإنكم إن تفكرتم فتروا بعين الفكرة وتبصروا أنهم جميعاً منها وإن اختلفت حالهم فيها من السعادة والشقاء قد غشيهم من همومها كأمثال الجبال، ورمت بهم من غمومها في مثل لجج البحار، فالملك في شغل من ملكه، والمملوك في سطوة مالكه، والمكثر من إكثاره، والمقل من إقلاله.

ولن يحاط بوصف أحزانها، وأوجاع عموم سكانها، ولحق بذلك منزل سريع زواله، قليل ما تمتع بالراحة فيه نزاله، بأساؤه أبداً فيه متداركة، ونجاة أهله فيه مهلكة، وغمومهم فيه متراكبة، وهمومهم به مكتسبة، فلا الغني يخلو من غم الجمع وكدة، ولا الفقير ينجو من الكد فيه بجهده، يسعى الغني فيه خوفاً من العدم، ويكد الفقير طلباً للمغنم، فجدة الغني فيه فقر، ومغنم الفقير فيه خسر، يخاطرون لذلك في أهوال البحور، ويركبون لطلبه كل باب من أبواب الفجور، فأقرب ما يكونون من السرور به أقرب ما يكونون من الغم بسلبه.

فكم في الدنيا من غريق في لجج البحار، وكم فيها ولها من مبتلى بقتل أو أسار، وكم لطالبها وإفراطه في حبها من ميت غريب ناء عن الولد والأوطان، بين غتم لا يعرفونه، وطماطم من السودان ينكرونه، لم يبكه هنالك ولده ولا

أقرباؤه، ولم تأسف عليه كما أسف عليها دنياه، بل تخلوا جميعاً منه، وأعرضوا سريعاً عنه، فورثوه غير حامدين له فيما جمع، وأسلموه إذ مات لما عمل وصنع، ولعل قائلاً منهم أن يقول: ما كان أفحش حرصه وإيعاثه(١)، أو قائلاً منهم يقول: ما أقل أو ما أكثر تراثه، تلعباً بذكره، وتفكهاً في أمره.

فاعرضوا هذا – رحمكم الله – على قلوبكم لأن ينجلي لكم إن شاء الله ما فيها عن الدنيا من العمى، وانظروا إلى من زالت عنه القدرة من أبناء الملوك والعظماء، كيف صاروا إلى الضعة بعد الرفعة، والضيق بعد مضطربهم من السعة، بل انظروا بعد هذا كله إلى من كان هذا أكثر شغله، ألم تروا غلطهم في مسالكهم، ومرتطمهم في مهالكهم، فاعتبروا بهم قبل أن تغرقوا في بحرهم، وتقعوا في مهالك أمرهم، وآثروا سبيل أحباء الله على كل سبيل، واستدلوا بما كان لهم على سبيلهم من دليل، فإن دليلهم فيه وعونهم كان عليه ما خالط فكرهم وأحيوا به في الفكر ذكرهم من نعيم الآخرة الدائم المقيم، وما أعد الله لمن حاده في الآخرة من العذاب الأليم.

ففكروا – رحمكم الله – كما فكروا تبصروا إن شاء الله من فضل سبيلهم ما أبصروا، وفوضوا أموركم في ذلك كلها إلى الله، واعتصموا في ذلك كله بالله، فلا تدعوا فيه يقظة الجد والاجتهاد، بعد التوكل على الله ربكم فيه والاعتماد، وابذلوا لله فيه كل جهد، وأخلصوا له منكم في كل قصد، فإنكم إن تفعلوا –

---

(١) قال في شمس العلوم: الإِيعاث: أوعث القومُ: إِذا وقعوا في الوَعث. وأوعث في ماله: أي أفسد وأسرف.

ذلك له، وتقصدوا فيه ما يجب فعله – تولاكم فيه فعصمكم، وكفاكم به مهمكم، ولا تحدثوا أنفسكم بعد أن يمن الله عليكم بهذه النعمة وبعد الدخول منكم في هذه السبيل المكرمة بالخروج ما بقيتم منها، ولا بالإعراض أبداً ما حييتم عنها، ولكن وطنوا أنفسكم على احتمال صعاب الأمور فيها، ولا تخافوا – ولا قوة إلا بالله – تخويف من خوفكم عليها.

واعلموا أنه لن يكون أحد في فعله خلصانياً، ولا فيما تتوق إليه نفسه من ولاية الله ولياً إلا بعزمه على طاعة الله وإقدامه، ومحافظته على ما حكم الله به عليه من أحكامه، فاعزموا على التقوى عزم من يوقن بفضلها تكونوا بإذن الله من أوليائها وأهلها، واصرفوا قلوبكم إلى تقوى الله تكونوا من السابقين بالتقوى إلى الله، فقد نبهكم الله لها وأيقظكم، وأمركم بما تعملون[١] منها فوعظكم.

والموت رحمكم الله قد أبان النداء، وداعيه فغير مُفَتِّرٍ في الدعاء، يختطف ملحاً دائباً النفوس، ويميت الكبير والصغير المنفوس، لا يغفل غافلاً وإن غفل ولا يؤخر مؤملاً لما أمل، بل يكذب الآمال، ويقطع الآجال، ويفرق بين الأجساد والأرواح، وفي أي مساء يأتي أو صباح، بل في كل حالة وساعة، فكم من بلية أو منية فجاعة تمنع من روح الأنفاس، وتقطع إلف الإناس، قد رأيناها عياناً، وعلمناها إيقاناً.

وإذا وطنتم أنفسكم إن شاء الله على سلوك هذه السبيل، وهداكم الله إليها بما

(١) في (أ): تعلمون.

جعل الله في فضلها لأهلها من الدليل- فارضوا بالله فيها بدلاً من الدنيا، واقصدوا قصد وجوه البر والتقوى، واعملوا عمل من يوقن بحصاد مزدرعه وزكائه، وثقوا من الله فيما عملتم من ذلك بحسن جزائه، إذ تحملتم له ولأمره طلب الرضا، وفارقتم لوجهه أهل الدنيا، وحرمتم على أنفسكم عارض شهواتها عند اشتهائه، وآثرتم ما أعد الله من الخيرات الباقيات لأوليائه.

واعلموا أنكم إذا أَمَتُّم عارض شهواتكم لله فقد طبتم وزكيتم وأشبهتم المصطفين من عباد الله، وفي غد ما يقول لكم ملائكة رب العالمين: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ۝٧٣﴾ [الزمر].

واعلموا أنكم إذا رفضتم غرور زينة الدنيا فكأنكم بقلوبكم في السماوات العلى، فاجعلوا القيامة لكم غرضاً ترمونه بصالح الأعمال، ولا تقتدوا في ذلك بمنتهى سبيل الأبرار فتكونوا بعرض ملال يحط من كبار الأعمال إلى صغارها، ومن تفضيلها إلى احتقارها، ولكن تناولوا طرفاً من الصيام، وطرفاً في الليل من القيام، وتفهموا ما تتلون فيه من أجزاء القرآن، وسبحوا الله واذكروه في آناء الليل وأطراف النهار، فإنه يقول سبحانه: ﴿اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا۝٤١ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا۝٤٢﴾ [الأحزاب]، ويقول سبحانه: ﴿يَاأَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ۝١ قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا۝٢ نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا۝٣ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا۝٤﴾ [المزمل]، ويقول سبحانه: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا۝٧٩﴾ [الإسراء].

واعلموا أن شهوة الشراب والطعام والنوم عن التهجد والقيام أوقع سروراً

للنفس، وأدعا لما في طبائع الأنفس من الظمأ والصيام، ومن التهجد والقيام، ولن يملك امرؤ ضبط نفسه وفكرته ويقوى على ما يفوز به في آخرته حتى يقوى على ترك شهوته، ويؤثر محبة الله على محبته، وكما لا تضبط صعاب الخيل إلا بثقيل اللجم فكذلك لا يقوى على النفس إلا بمنعها من كثير من شهواتها في المشرب والمطعم.

وإذا صمتم فليكن مع صيامكم من المطعم والمشرب صيام عن التكبر والعجب، فإنهما ينتجان الفتنة ويوقدان نار الغضب، واجعلوا أفكاركم وصفاء أذهانكم في الله ومحل أوليائه، وفي التماس منازل أحبائه(١)، ولا ينال ذلك إلا بكلفة متكلفة، يتقدمها متقدم معرفة.

واعلموا أنه لن يعرفها أحد حق معرفتها إلا خف عليه ما يستثقله الجاهلون من كلفتها، فلا تطلبوا التقوى طلب الجاهل بطلبته، المغتر بسوء التقدير(٢) عن نيل بغيته، جهلاً بما بينه وبينها، وما جعل له من العلاج دونها، فيقل عليها صبركم، ويعسر عليكم فيها أمركم. ولكن اعرفوا منها ما قصدتم له، وسلكتم إلى الله عز وجل فيها سبيله، فإن غلبت عليكم الغفلة فيها، أو فترتم بخطيئة عن النهوض إليها، فهيجوا قلوبكم عليها وادعوا أنفسكم إليها بأصوات الأحزان والبكاء، إما بأنفسكم وإما بغيركم من القراء، فإن القرآن نور وعبرة لمن اعتبر، والبكاء والأحزان تذكرة لمن تذكر.

---

(١) في (أ، ب): وفي الناس من منازل أحبائه.

(٢) في (أ): التدبير.

فإن تعسر عليكم في مطالبكم من التقوى مطلب، أو ضاق عليكم من مذاهبكم مذهب- فخذوا في غيره مما يقربكم ويتسع لكم به مذهبكم، ولا تطلبوا الله في كثرة الركوع والسجود دون تحقيق الإخلاص لله من قلوبكم باعتماد قصد من ضمائرها معمود، فإنما يراد بذلك كله وفيه الوصول بتعظيم الله إليه.

وألطفوا نفي الهم عنكم، وقطع أسباب الغم دونكم، فإنهما يفسدان الأعمال، ويورثان الملال، ويفلان[١] عزائم الجد، ويشغلان عن سلوك القصد، وإن عرض في نفوسكم وخطر بقلوبكم بعض خواطر الفتن[٢] الدواعي إلى غير البر والتقوى فاحذروا أن يغلب عليكم فيه ما يوعر عليكم سبيل ما قصدتم إليه، وانفوا ما عرض من ذلك كله من أمر الله بما ينفيه، ففي ذلك ولا قوة إلا بالله ما تقوون به عليه، وانفوا الهم عنكم فيه برجاء الفرج وتأميله، وبما رأيتم من تغير أمر الدنيا وتبديله.

واعلموا أن الفرج والسهل بعد الهم والوعر، والراحة واليسر بعد النصب والعسر، كما قال تبارك وتعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا۝ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا۝﴾ [الشرح]، وقال الرسول عليه السلام فيما قد نقلته العوام: ((اشتدي [أزمة] تنفرجي))، واستعدوا الصمت عما[٣] لا يعنيكم، فإن ذلك إذا غلب عليكم

---

(١) في (أ): ويقلان.

(٢) في المطبوع: النفس.

(٣) في (أ): فيما.

جلا عنكم بإذن الله ما في قلوبكم من العمى، وإن عين القلب لا تبصر إلا في الضياء وبعد الجلى، وجلاء القلب صمته عما لا يعنيه، ونظره فيما له من الله وعليه، والمرآة ذات الصدى لا تري إلا بعد أن تجلى، وكذلك فلن يصل أحد إلى أن يخلص لله وارتضائه، والسرور بما أعد في دار البقاء لأوليائه، والعجب بما أراه الله من عظمته- إلا بعد الجلاء للقلب من درن خطيئته، ولا يقتصر أحد في سلوك هذه السبيل على ترك الطعام وإدمان قراءة القرآن دون أن يخلط ذلك بالنظر إلى ما عند الله بقلبه، ويتفهم فيما يقرأ كل أمر الله به، فإنه لا غنم لمن جعل ما هو فيه من صيامه ليس إلا تركه لما ترك له من طعامه، ولا من جعل قراءته بالتلاوة شغلاً، ومن فهمه لما فيه عن الله بدلاً.

واصحبوا الراسخين في العلم، فإن فيهم عصمة لمعصتم، واقتفوا وفقكم الله صالح آثارهم، وانفوا الوحشة عنكم بصبتهم واختيارهم.

ومن سلك هذه السبيل المكرمة الخالصة فعارضه فيها من الوساوس المغوية ما يوعر عليه سبيلاً، أو يدخل قلبه من فترة دخيلاً- فليذكر أنه في مسلك سبيل أولياء الله الذين اصطفى، وأنهم باحتمال ما هم فيه من المؤنة استحقوا عند الله(١) المنزلة والزلفى، وبها وصلوا إلى ثواب الله الأكرم، ومحل أوليائه الأعظم.

ثم ليقس نفسه فيه وفيما يرجو من جزاء الله عليه بمن يغوص في لج البحر لابتغاء الدر، ويوغل في حفر المعادن لابتغاء الذهب، ويسير له في آفاق الأرض بجهد الطلب، وينصب نفسه لمقاساة الملك الزائل، ويقاتل عليه وفيه كل بطل

(١) في (أ): من الله.

منازل، ومن يطلب ما لا يفنى ولا يزول، ولا يغيره مغير من البلاء فيحول، من الملك الباقي السرمدي، والنيل الدائم الأبدي، أيهما أولى بالصبر على التعب، والاجتهاد بصدق الطلب؟ فقد يعلم أنه لا أحد أخسر في صفقته ولا أفحش في الحمق من حمقته ممن اعتاض زائلاً بمقيم، وبؤساً إن كان عاجلاً بنعيم، فأشعروا أنفسكم هذا وذكره يسهل عليكم ما وعرت الوساوس أمره.

وإن عرض لكم سوء تفكير فشنع عليكم حالاً من حال الخير، فشغل بوسواسه ضمائر قلوبكم- فميزوا بين ذلك وبين ما عرض بصحيح عقولكم، ولا ترضوا من أنفسكم فيه بغير صحيح أموركم، فإن أخون الناس لنفسه، وأجهلهم بيومه وأمسه- من رضي بتشبيه العلانية، وأنكر صدق السريرة الباطنة.

واعلموا أنكم إن رضيتم أو خضعتم في ذلك وأغضيتم فتنكم فيه عدوكم، وسبى بغروره فيه عقولكم، فاعتصموا بالله من سيئاته، واستدفعوه لا شريك له لبلياته، فإنه عز وجل غاية الاعتصام، واقصدوا قصد ما برزتم له بالتمام، فإن كل من نكل عن بغيته بعد أن أنصب نفسه في طلبته أسوأ في ذلك حالاً ممن لم ينصب فيها اشتغالاً.

واذكروا ما وعدتم من النعيم الدائم المقيم، وما أوجبه الله لمن لم يجب دعاءه من العذاب الهائل الأليم، سلوا[1] الله فيما اعتصمتم به نفي غمكم، واكتفوا بمعونة الله فيه يقل همكم.

---

(١) في المطبوع: ثم اسألوا.

ومن عثر في هذه السبيل بعد سلوكه لها فلا يقطع من الله رجاه، ولا ييأس مما أعد الله لكل من أخطأ خطاه، من رحمته التي وهب منها أفضل الموهبة، وجعلها للخاطئين عند الخطيئة في قبول التوبة، فإن الله تبارك وتعالى لم يقم للتائبين منهاجاً، ولم يجعل لكل نفس تائبة إليه به من العقوبة إخراجاً، إلا لما أحب من بسط العفو والمغفرة، وتعريف مكان حلمه بالعفو بعد المقدرة، فإن أنتم زللتم عن طاعته، فلا تزولوا عن طلب عفوه ومغفرته، فإنه يبلغكم سعيكم في طلب عفوه منازل الساعين في طلب ثوابه، وكما أن الله تفضل من ثوابه بأكثر من عمل العاملين فكذلك تفضل بالعفو على من أناب إليه من الخاطئين، وكما أن طالب الضالة محب لوجودها وأدائها، والطبيب محب لإبراء المرضى إذا عالجها من أدوائها، فكذلك الله تبارك وتعالى يحب توبة من دعاه إلى الإنابة من المذنبين؛ ولذلك مدح الله سبحانه إنابة من أناب إليه من المنيبين.

واعلموا أنه من سقط في البحر، وألقى بيده[١] في لجج الغمر، ولم يتحرك في طلب الحياة- لم يطمع له يقيناً بتاً بنجاة. ومن وطن نفسه على الهلكة يئس من أن يدركه الله بنجاته المدركة، ومن يئس من الأسباب المنجية لم يتب من قبيح سيئة، ومن يحسن ظنه بربه لا يعدم حسن الجزاء في ظنه به، ومن يسوء ظنه بالله وفيه فلا يعرف إحسانه إليه لا يستوجب منه ثواباً، ولا يأمن له إن غفل عقاباً،

(١) في (أ): فألقى بيديه.

وثواب الله على حسن ظن من عبده به عوض من جزائه له على حسن عمله.

فالحذر الحذر، فإن المنفعة في الحذر عظيمة، والاستعانة بمعرفتها حصن وغنيمة، فاستعينوا بالحذر والتيقظ عن الغفلة وما ليس بمأمون أن يعارضكم من الملالة.

واعلموا أن الأنفس تؤثر حب الخفض والراحات، وكل ما كان لها فيه من عاجل سرور وفرحات، بغلبة غالبة لها عليها، وصغوٍّ مصغٍ شديد إليها، فإن أهملتم أنفسكم أغارت غارة السبع في شهواتها، وملكتها الغفلة فخالفتكم في أكثر حالاتها، وإن انتبهتم وحذرتم قويتم على بلوغ ما طلبتم، وإن ونيتم وقصرتم وعميتم عما بصرتم غلبت عليكم غوالب الحيرة والهوى، وأسلمكم الله إلى ما آثرتم عليه من غير التقوى، ألم تسمعوا لقول الله تعالى فيمن غلب عليه العمى وجانب سبيل الهدى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴿٢٣﴾﴾ [الجاثية]، فلما اتبعوا أهواءهم أعماهم، ولما آثروا أمر تقواهم هداهم، ألم تسمعوا قول الله تبارك وتعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴿١٦﴾ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴿١٧﴾﴾ [محمد].

فليكن حذر الهوى من شأنكم الأكبر، والهرب عنه بالجد من حظكم الأوفر، فإنه بلغني أن بعض الصالحين كان يقول: النار تلحق ذا الخطو البطيء، وحديقة

العاجز لا تعرى من الشوك والحلافي(١)، فكذلك قلوب أهل التقوى إن غلب عليها الوناء والعجز والغفلة غلب عليها الخطأ والفساد وهي عنه ذاهلة.

فلا تتكلوا على ما سلف من أعمالكم فتضيعوا فيما تستأنفون من بقية آجالكم، واجعلوا على فكركم من عقولكم رقيباً كيلا تجول بكم فيما جعله الله ذنباً، وكذلك فاجعلوا على ألسنتكم لكيلا تنطق بما يسخطه، وعلى أسماعكم وأبصاركم لكي تفرغ لما يحبه، وزنوا فيما بينكم وبين الله جميع أموركم، وارفضوا الفضول فيها من فعلكم وقولكم، واقتصروا على بغيتكم تستريحوا، وتَفَرَّغُوا لها تنجحوا به وتفلحوا.

واعلموا أن الزراع الحكيم لا يثق في نفسه بسلامة ما بذر من زرعه فيه حتى يستودعه الخزائن فتؤيه، فلا تثقوا بعملكم قبل الورود عليه.

واعلموا أن ما يعرض من الآفات، ويدخل به على أهله من الغفلات في طلب الآخرة أكثر منها في طلب الدنيا، وذلك لفتن الشيطان بحب المدح والرياء، واستشعار الكبر والخيلاء، وغير ذلك من معاريض مكره وكيده، وما يقاسى فيه من الإخلاص وشدائده، فإن لم تحترسوا منها وتحتجبوا بالله عنها عارضكم فيها الهلكة والتلف، ثم لم يكن في أيديكم إلا الحسرة والأسف.

فعليكم بقراءة الكتب الدالة على حكم الله وعجائب قدرته، ولا تقرأوا ما

---

(١) الحلافي جمع حلفاء، وهو نبت أطرافه محددة كأطراف سعف النخل.

قرأتموه منها للتزين في أعين الناس بقراءته، وانفوا عنكم تثاقل التلهية بذكاء الفكر والنية، وإذا أعطيتم فاشكروا، وإن فرحتم فاذكروا، وإن ابتليتم فاصبروا.

واعلموا أن الصلوات ليست بطرب الأصوات، ولكنها بالباطن الظاهر والفكر المنير الزاهر، والنية الصادقة، والضمائر المتحققة، فاستعملوا ضمائركم بصحيح الاستعمال، ولا تميلوا إلى ظاهر المرآءاة باللسان، تكن أعمالكم مطيبة زاكية، وضمائركم لله خالصة نقية، ولن يكون الإنسان في فعله خلصانياً، ولا فيما تتوق إليه نفسه من ولاية الله ولياً، إلا بإخلاصه لصلاته وصيامه، ومحافظته على ما حكم الله به عليه من أحكامه، فأطيعوا الله ما استطعتم، وأخلصوا له الطاعة إذا أطعتم، واصرفوا قلوبكم إلى تقوى الله تكونوا من السابقين دون غيركم إلى تعظيم الله، فقد نبهكم الله لها فأيقظكم، وأمركم بما تعملون منها فوعظكم. فالعجل العجل، والحذر الحذر، والنجا النجا، والوحاء الوحاء، فقد حدانا الرسول على رفض الدنيا وأجهر، وحرك إلى قبول أمر الله فيها فاستنفر كل نفس سوية مفكرة، ذات عين صحيحة جلية مبصرة، فما لأحد من عذر ولا علة في وناء ولا تقصير ولا غفلة.

فهل من مستجيب في ذلك لله أو مدَّكر؟ وهل من رائح إلى الله أو مبتكر، منيب إلى الله مستسلم، ومتعلق بحبل الله معتصم؟ فقد أرانا الله من معائب الدنيا ومساويها ما أراه، ففاز من بادر إلى الله في الإجابة برفضها إذ دعاه، فوجل

من الله وأشفق، وسارع إلى الله فسبق، ولم يأخذ منها إلا ما طاب لله وزكا، ولم يختر على ما جعل الله من الحياة فيها سخطاً من الله وهلكاً، ولم يَغترِر بما أمده الله به من ماله وبنيه، ولا بما ظاهره الله من آلائه ونعمه عليه، فإنه يقول سبحانه: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ۝٥٥ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لَا يَشْعُرُونَ۝٥٦ إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ۝٥٧ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ۝٥٨ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ۝٥٩ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا ءَاتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ۝٦٠ أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ۝٦١ وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ۝٦٢﴾ [المؤمنون]، ويقول سبحانه: ﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ۝٧٣ وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ۝٧٤﴾ [المؤمنون]، ويقول سبحانه: ﴿وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ۝٥٤ وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ۝٥٥ أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَاحَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ۝٥٦ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ۝٥٧ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ۝٥٨ بَلَى قَدْ جَاءَتْكَ ءَايَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ۝٥٩﴾ [الزمر]، ويقول سبحانه: ﴿اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ

لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ مَا لَكُمْ مِنْ مَلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ﴿٤٧﴾﴾ [الشورى]، فكفى بتذكير الله عز وجل وأمره فيما ذكرنا به وأمرنا من كل أمر وتذكير، فأسعدكم الله بقبول تذكيره، وأيدكم في ذلك بتوفيقه وتبصيره، وبلغكم الله برحمته صالح أعمالكم، ونستودع الله لكم ولجميع أحوالكم.

تم كتاب سياسة النفس والحمد لله كثيراً.

وصلى الله على محمد النبي وعلى آله وسلم تسليماً، وحسبنا الله ونعم الوكيل، ونعم المولى ونعم النصير.

***

العالم والوافد

بسم الله الرحمن الرحيم

روي بالإسناد الصحيح أن وافداً وفد على عالم من علماء آل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فلما نظر إليه الوافد رأى(١) رجلاً جسمه لا يشبه اسمه، فسلم عليه، فرد العالم السلام، فأطال الوافد الوقوف، وأطال العالم السكوت.

فقال الوافد: إن لكل طالب(٢) حاجة.

فقال العالم: ولكل حديث جواب.

فقال الوافد: صدقت، إن الله تعالى يقول: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۝٤٣﴾ [النحل]. فعلم العالم أن الوافد يريد منه علماً(٣) فقال: إن العلم بحر عميق.

فقال: ولكل بحر سفينة ينجو بها راكبها.

قال العالم: وما سفينة بحر العلوم(٤)؟

قال الوافد: المعرفة.

فقال العالم: المعرفة اسم أم رسم؟

فقال الوافد: اسم ورسوم.

فقال العالم: كم رسوم المعرفة؟

قال الوافد: يكفيك منها خمسة.

---

(١) في المخطوط: نظر.

(٢) في المخطوط: كلام.

(٣) في المخطوط: فعلم العالم أنه يريد منه علماً.

(٤) في المخطوط: العلم.

قال العالم: وما هي؟

قال الوافد: تعرف نفسك، وتعرف ربك، وتعرف دينك، وتعرف دنياك، وتعرف آخرتك، فإذا عرفت ذلك كله فلا حاجة لك إلى غيره.

قال العالم: كيف تعرف نفسك؟

فقال الوافد: أعرف حدثها، وأعرف صنعها، وأعرف عجزها، فأجهدها في طاعة ربها، وأحملها على الخوف لخالقها(١) واحتمال الأذى، وأروضها وأحثها على الطلب لما فيها نجاتها، وأصرفها من الكذب إلى الصدق، ومن الطمع إلى الورع، ومن الشك إلى اليقين، ومن الشرك إلى الإخلاص، وأخرجها من محبوبها في الدنيا، وأريضها في السفر حتى تنال كرامة الله تعالى في الآخرة.

قال العالم: وكيف تعرف ربك؟

قال الوافد: أعرفه بما عرف به نفسه من الوحدانية، ولا أشبهه بشيء من البرية، لا يحد بالحدود، ولا يوصف بالصفات، إذ هو سبحانه وتعالى خالق كل صفة وموصوف.

قال العالم: وكيف تعرف دينك؟

قال الوافد: أعرفه بالشريعة التي سنها الرسول ﷺ وصدقها المحكم من التنزيل، وشهدت لها غرائز العقول. وهي على ثلاثة وجوه: قول وعمل واعتقاد، وسبيلها واضح، وطالبها رابح، فقد بهر(٢) دليلها، وشهد لها بالصدق

---

(١) في المخطوط: بحالها.

(٢) في المخطوط: قد تميز دليلها.

من ذوي العلم عقولها، فقد كفونا مؤنة الطلب بباهر الاحتجاج، وقطعوا عنا علائق الاعوجاج، حتى ما بقي في ذلك شك ولا اختلاج. فقصدت عند ذلك بينة صحيحة(١) حتى عرفت الأصل والفرع، وبحثت بغائص(٢) عقلي فوجدت ذلك واضحاً مبيناً، وفي كتبهم مشروحاً معيناً، كلاماً مبرهنا، قد حملوا صلوات الله عليهم عبء ذلك وثقله، وأوضحوا فرع ذلك وأصله، حافظين في الأمانة، مجتنبين الغش والخيانة، قد شيدوا بنيانه، وعظموا سلطانه، وأثبتوا في العقول برهانه، فليس لأحد من بعدهم مطلب، ولا لمسترشد من دونهم مذهب، ولا عاقل في غير مذهبهم يرغب.

قال العالم: فكيف عرفت دنياك؟

قال الوافد: عرفت فناءها وتقلبها، وغدرها وخداعها فحذرتها، ونظرت وميزت فإذا الدنيا تغر طالبها، وتقتل صاحبها، تفرق ما جمع، وتغير ما صنع، فعرفت أنها تفعل بي كما فعلت بالأولين.

قال العالم: فكيف عرفت آخرتك؟

قال الوافد: عرفت أنها منقلة باقية فيها الحساب والعقاب، والمجازاة والثواب يبلغ أمدها ويطول أبدها، فريق في الجنة وفريق في السعير، فمن كان في أصحاب الجنة فشاب لا يكبر، وغني لا يفتقر، وقادر لا يعجز، وعزيز لا يذل، وحي لا يموت، في دار قرار ونعيم مقيم، وسرور وقصور، وأبكار راضية،

---

(١) في المخطوط: فقصدت رغبة بذلك بنية صحيحة.

(٢) في المخطوط: بغامض.

وقطوف دانية، وأنهار جارية، وملك لا تحد سعته، ونعيم لا تحصى صفته. ومن كان من أهل النار فحمل ثقيل، ومقام طويل، وبكاء وعويل، وخشوع ضعيف، وقلب حفيف، في دار جهد وبلية، وغم ورزية، وضيق لا يتسع، وعذاب لا ينقطع، حيث السلاسل والأغلال، والقيود والأكبال والضرب والنكال، والصياح والأعوال، وأكل الزقوم، وشراب الحميم، ولفحات السموم، وظهور المكتوم، ولباس القطران، وزفرات النيران، والخزي والهوان، داخلها محسور، وواردها مضرور، وساكنها مدحور، وصاحبها مقهور، واللابث فيها مهجور.

قال العالم: كيف يصنع من وعد بهذين الدارين؟

قال الوافد: ينبغي لمن وعد بهذين الدارين أن ينظر إليهما ويتصور ما وعد الله فيهما لأهلهما، ثم ينظر إلى الجنة وقصورها، وما وصف الله فيها من النعيم المقيم، والفواكه والأزواج من الحور الحسان، والأكاليل والتيجان، والأنهار الجارية، والأثمار الدانية، والسرر المصفوفة، والزرابي المبثوثة، وأسبابها ولباسها، وفراشها وحجراتها، وطعامها وشرابها، ونعيمها ودوام ذلك فيها، فيخاف أن لا يكون من أهلها، فهنالك تتتابع زفراته، وتكثر حسراته، وتفيض عبراته، ويطيع ربه ويعصي هواه، ويترك دنياه، ويطلب آخرته ويعلم يقيناً أن إلى الله مصيره.

قال: فلما انتهى الكلام منهما إلى هذا الحد، وعلم العالم أنه ذو فطنة ونباهة ونبالة، ونظر وتمييز، ورغبة في طلب العلم سأله لينظر معرفته.

قال العالم: من أين؟

قال الوافد: من فوق الأرض ومن تحت السماء.

قال العالم كم لك؟

قال: كذا وكذا سنة.

قال له العالم: ما ترى؟

قال: أرى أرضاً وسماء، وما بينهما.

قال: فما ترى في السماء؟

قال: أرى شمساً تحرق، وقمراً يشرق، ونجوماً تزهر، وماء يمطر ورياحاً تذري، وسحاباً يجري، وطيراً يهوي، وليلاً ونهاراً، وأياماً مختلفة.

قال العالم: فما ترى في الأرض؟

قال الوافد: أرى براً وبحاراً، وسهولاً وأوعاراً، وتراباً، وأحجاراً، وأثماراً، وأشجاراً، وأنهاراً، وقراراً.

قال العالم: فكم الدنيا؟

قال الوافد: ليل ونهار.

قال العالم: فكم الخلق؟

قال: ذكر وأنثى.

قال العالم: فكم الناس؟

قال الوافد: الناس أربعة: واحد فيه خير وشر، والثاني شر بلا خير، والثالث خير بلا شر، والرابع لا خير فيه ولا شر.

قال العالم: فكم الناس، وما هم بعد ذلك.

قال الوافد: نبل وسفل، فلا النبل لهم قدر عند السفل، ولا السفل لهم قدر

عند النبل.

قال العالم: فكم الكلام؟

قال الوافد: أربعة: خطاب وجواب، وخطأ وصواب.

قال العالم: ففيم العجب؟

قال الوافد: في سبعة.

قال العالم: من هم؟

قال الوافد: عبد عرف الله وعصاه، وعرف الشيطان وأطاعه، وعرف الدنيا فجمع لها، وذكر الموت فطابت نفسه، وعرف الآخرة فبغضها، وعرف الجنة فلم يرغب إليه، وعرف النار فلم يرهبها.

قال العالم: فما خير الأشياء؟

قال الوافد: خير الأشياء الإيمان بالله والملائكة والكتاب والنبيين.

قال العالم: كم شهود الإيمان؟

قال الوافد: أربعة شهود: محكم الكتاب، ومحكم السنة، وحجة العقول، وإجماع الأمة.

قال العالم: وما هو؟

قال الوافد: عمل، وقول، واعتقاد.

قال العالم: وكيف ذلك؟

فقال الوافد: قول باللسان، واعتقاد بالجنان، وعمل بالأركان.

قال العالم: فما ضد الصدق؟

قال: ضده الكذب.

قال: فما ضد العمل؟

قال: ضده النفاق.

قال: فما ضد الاعتقاد؟

قال: ضده التشبيه.

قال العالم: فما أعظم الأشياء؟

قال الوافد: معرفة الله على الحقيقة، وهي توحيد، وتعديل، وتصديق، وذكر على كل حال في الليل والنهار.

قال العالم: فما أفضل الأشياء؟

قال الوافد: أفضل الأشياء: طلب العلم من العلماء، حتى يعرف الطالب الحق فيعمل به، فمن[1] زهر مصباح الهدى في قلبه أخلص العمل والنية الصادقة لربه، وأنطقه الله بالحكمة.

قال العالم: فما أخبث الأشياء؟

قال الوافد: الجهل؛ لأن بالجهل الهلاك والعطب، والجاهل إذا أراد أن يصلح شيئاً أفسده بجهله وقلة علمه، وهو يجلب جميع الآفات، ويتولد منه الكبر والطمع والحسد والحرص والشهوة والبخل والسخرية.

قال العالم: فما أقبح الأشياء؟

قال الوافد: اللهو، والغيبة، والنميمة، والخيانة، والكذب، والزنا، والرياء،

---

(١) في المخطوط: فمتى.

وحب المدح، وحب الفاسق، وصحبة المنافق، وسوء الظن.

قال العالم: فما أدنس الأشياء؟

قال الوافد: السؤال للناس، ومقاربة الأنجاس، والثقة بخمل الناس، ومفارقة الأكياس.

قال العالم: فما أنفع الأشياء؟

قال الوافد: حسنة تكون بعشر أمثالها.

قال العالم: وما هي هذه الحسنة؟

قال الوافد: في أن تطعم أخاك المؤمن من جوع، أو تكسوه من عري، أو تقضي عنه ديناً، أو تفرج عنه غماً، أو تكشف عنه هماً، فمن فعل هذا لأخيه المؤمن جاء يوم القيامة ولوجهه نور يضيء كنور القمر، وتلقته الملائكة بالبشارة، ودخل الجنة آمناً، وأعطاه الله من الثواب ما لا يصفه واصف، ولا يحيط بمعرفته عارف.

قال العالم: فما أضر الأشياء؟

قال الوافد: سيئة تتبعها سيئة، ولا يكون عليها ندامة، ولا يرجع عنها صاحبها إلى توبة.

قال العالم: فما أطيب الأشياء؟

قال الوافد: العافية مع المعرفة، ووضع الأشياء في مواضعها، ومجالسة العلماء، ومدارسة الحكماء، وحضور مجالس الذكر، والتفكر في الصنع، والمبادرة في أعمال البر، وصلاح ذات البين، والتجهيز للرحلة، والاستعداد للموت.

قال العالم: فما أهول الأشياء وأعظمها فزعا؟

قال الوافد: إذا نفخ في الصور، وبعثر ما في القبور، واجتمعت الخلائق إلى الموقف المتضايق، فهنالك الفزع العظيم، والخطب الجسيم، كل واحد منهم يقول: نفسي نفسي، لا يسأل في ذلك اليوم والد عن ولده، ولا ولد عن والده ولا أخ عن أخيه، كل نفس بما كسبت رهينة.

قال: فلما انتهى الكلام بالعالم والوافد إلى هذا الحد عرف العالم أن الوافد حسن المعرفة، جيد الفطنة، رصين الدين، صحيح اليقين، متين الورع، كثير الفزع، أقبل عليه العالم بوجهه، وقال: أيها الوافد الصالح، والتاجر الرابح، والخليل الصالح الناصح: اسأل عما تحب يرحمك الله.

فقال الوافد: أيها العالم الحكيم الناطق، والبر الشفيق الصادق، انشر علي من مكنون حكمتك علماً، وزدني من نوادر معرفتك ما أزداد به فهما، لعل الرين الذي على قلبي أن يخلص ببركتك، وينجلي عني بجود صحبتك.

قال العالم: جرى لك الفلاح، ووفق لك الصلاح، ويسر لك النجاح، عليك بسبعة أشياء فالزمها واعمل بها واحرص فيها وحافظ عليها.

قال الوافد: وما هي؟ بينها لي يرحمك الله.

قال العالم: أولها المعرفة بالمعروف، وهو الله عز وجل، والإيمان به، والإسلام والطاعة، والعلم والعمل. ثم تعرف المعرفة ما هي، حتى إذا صرت عارفاً رددت المعرفة إلى المعروف فلحقت من المعرفة ما قدرت عليه. ثم تعرف الإيمان ما هو وكيف هو؟ حتى إذا صرت مؤمناً أسلمت للذي آمنت به، حتى إذا

صرت مسلماً احتجت أن تطيع للذي أسلمت له، حتى إذا صرت مطيعاً احتجت إلى علم تطيع به، وتعرف العلم ما هو وكحيف هو، حتى إذا صرت عالماً احتجت أن تعمل بما علمت، ثم تعرف العمل ما هو وكيف هو وما ثمرته، وإلى ما يوصلك، وما عائدة نفعه.

قال الوافد: أيها العالم بين لي المعرفة ما هي وكيف هي؟

قال العالم: أما ما هي فإصابة الأشياء بأعيانها، ووضعها في مواضعها، ومعرفتها على حقيقتها. وأما كيف هي فإصابة المعاني، فما من شيء إلا له معنى يرجع إليه، فإصابة الأشياء بالنظر والتفكر والتمييز والسمع والبصر، وإصابة المعاني بالتفكر والاعتبار والعقل.

قال الوافد: فما معرفة الله تعالى؟

قال العالم: هي أن تعلم أن الله سبحانه وتعالى واحد أحد فر صمد لا تدركه الأبصار ولا يحويه مكان، ولا يحيط به علم، ولا يتوهمه جنان، ولا يحويه الفوق ولا التحت، ولا الخلف ولا الأمام، ولا اليمين ولا اليسار، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، لا يعلم كيف هو إلا هو. فتعرفه بهذه المعرفة، فما توهمه قلبك فربك بخلافه عز وجل، وذلك قوله في محكم كتابه العزيز لنبيه صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ① اللَّهُ الصَّمَدُ② لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ③ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ④﴾ [الصمد]، فتقول كما أمرت، وتعمل كما قلت، وتشهد بما علمت، وتعلم كما شهدت، أن الله الواحد القهار، الملك الجبار، المحيي المميت، الحي الذي لا يموت، خالق كل شيء، ومالك كل شيء، الكائن قبل كل شيء، الباقي بعد فناء كل شيء: ﴿لَيْسَ

كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴿١١﴾ [الشورى]، وهو على كل شيء قدير، فهذه معرفة الله تعالى بالتفكر.

وأما المعرفة بالفكر والنظر بالقلوب والتمييز بالألباب فهي في عظيم قدرة الله تعالى وارتفاعه، وعلوه وبقائه، ونفاذ أمره، وبيان حكمته، وإحاطة علمه، وكثرة خلقه، وسعة رزقه، وقرب رحمته، وجود كرمه، وكرم تطوله، وبيان حكمه، وحسن رأفته، وجميل ستره، وطيب عافيته، فلله الحمد على ذلك كثيرا.

قال الوافد: فما وراء ذلك يرحمك الله؟

قال العالم: الإيمان بالله والإقرار به، وبما جاءت به الرسل من عند الله تعالى، وتؤمن جوارحك حتى لا تستعملها في شيء مما يكرهه منك ربك، فتكون قد أمنتها من عذاب الله. ومن الإيمان أن يأمن الناس من يدك ولسانك وظنون قلبك، فإذا فعلت ذلك فأنت مؤمن. ومن الإيمان الرضا بالقضاء، والشكر على العطاء، والصبر على البلاء. ومن الإيمان المحافظة على الفرائض والسنن، والقيام بالنوافل والفضائل.

ومن الإيمان أن تعلم أن الله حق، وقوله حق، وأن الجنة حق، وأن النار حق، وأن البعث حق، وأن الثواب حق، والحشر حق، والقيامة حق، والعرض حق، والحساب حق، وأن الله على كل شيء قدير.

وأنك منقول من هذه الدار الفانية، إلى الدار الآخرة الباقية، مسئول عن أعمالك، موقوف على أفعالك وأقوالك، وإقلالك وإكثارك، وإعلانك وإسرارك، فتَجِدُ كلما عملت قد أحصي عليك، وأنت اليوم في دار المهلة، ومكان

الفسحة، فلا تذهب أيامك سُدى، فاعمل فيها بطاعة الله، وعلق قلبك في ملكوت إلهك، واجعل دليلك القرآن، وقرينك الأحزان، وفعلك الإحسان، وطعامك الفكر، وحديثك الذكر، وحليتك الصبر، وقرينك الفكر، وهمك الحساب، وسعيك الثواب، وجليسك الكتاب، وأملك الرجاء، وسريرتك الوفاء، وسيرتك الحياء، وفاقتك الرحمة، وعملك الطاعة، وطلبتك النجاة، وسؤالك المغفرة، وسبيلك الرضا، وخوفك العقاب، ورقيبك الثواب، وعن يمينك الكتاب، فمن سلك هذه الطريق سبق، ومن تكلم بهذا صدق، وهي عروةٌ من تعلق بها استوثق، والحمد لله رب العالمين.

قال الوافد: فما وراء ذلك يرحمك الله؟

قال العالم: الإسلام، وهو أن تسلم للذي آمنت به. ومن الإسلام أن تسلم كليتك إلى أعمال الطاعات، فإذا بلغت ذلك سلمت من العقاب، وسلم الخلق منك، ويكون إسلامك بالظاهر والباطن حتى لا يخالف قولك فعلك، ولا فعلك قولك، فيكون ظاهرك هو باطنك، وباطنك هو ظاهرك، وتكون موقناً بالوحدانية، مقراً بالربوبية، معترفاً بالعبودية، مجللا للعظمة، هائباً للجلالة، فرحاً بالملكة، محباً للطاعة، طالباً للرضا، خائفاً للبعث، راغباً للجزاء، راهباً للعذاب، مؤدياً للشكر، مداوماً على الذكر، معتصماً بالصبر، عاملاً بالفكر، فهذا عمل الباطن.

وأما عمل الظاهر: فالاجتهاد في أداء الفرائض والسنن والفضائل والنوافل، منها الصلاة، والزكاة، والصيام، والحج، والجهاد، والأمر بالمعروف، والنهي عن

المنكر، وقراءة القرآن.

ومن السنن الختان، وصلاة العيدين، وحلق العانة، وتقليم الأظفار، ونتف الإبط، وقص الشارب، والسواك.

ومن الفضائل صيام رجب وشعبان، والأيام البيض، ويوم عاشوراء، ويوم عرفة، والاثنين والخميس.

قال الوافد: فما وراء ذلك يرحمك الله؟

قال العالم: وراء ذلك المواصلة والمعاونة والمؤاساة والمؤاخاة في الله، والحب لأولياء الله تعالى، والبغض لأعداء الله، وصلة الرحم، وبر الوالدين، ورحمة اليتيم، ومعاونة الضعيف، وتعليم الأولاد، وتأديبهم، وإنصاف الزوجة فيما تسألك عنه وهي ناظرة إليك، والعناية في تعليمها، والأمر لها فيما لا بد لها منه، والنهي لها عما لا حاجة لها إليه، ولزومها لمنزلها، وطول الحجاب، وتصفيد الأبواب، وتعليم الحكمة والصواب، مع لزوم العفاف، والرضا بالكفاف، والصيانة لها عن التبرج من اللهوج والأبواب، والتشرف إلى أهل الفحش والارتياب، ومنع الدخالات إلى دار المسلمات ممن لا يشاركهن في الدين والإحسان، فأولئك هاتكات الستور، ومبيحات كل محظور، والناقلات الكلام الزور، والجالبات للفحشاء والفجور، والمبغضات للنعمة، والمدخلات على المؤمنات التهمة، والمفرقات للألفة، والداعيات للكشفة.

ولقد روي عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام قال: أحب إلي أن أحد في منزلي مائة لص يسرقونه أهون علي من أن أجد فيه عجوزاً لا أعرفها. ومن

ذلك إنصاف الخادم فيما لا يقدر عليه، والنهي له عما لا حاجة له فيه، والرفق به فيما لا يقدر عليه، والنظر له فيما لا يدري، فهذا الأمر بالمعروف.

وأما النهي عن المنكر: فمن المنكر فعل الشرور والقول السيء، والقول بالفواحش، والكذب.

ومن الفعل: القتل، والربا، والزنا.

ومن النية: الرياء، والكبر، والحسد، والبغضاء، والشحناء.

ومن الفعل: أخذ أموال الناس سراً وجهراً، ومن القول الغيبة والنميمة وشهادة الزور. فهذا من النهي عن المنكر.

قال الوافد: فما وراء ذلك يرحمك الله؟

قال العالم: تطيع الله الذي أسلمت له.

قال الوافد: وما هي الطاعة بيِّنها لي -يرحمك الله تعالى- حتى أعرفها وأعمل بها؟

قال العالم: الطاعة اتباعك لما أمرك الله به، واجتنابك لما نهاك الله عنه، [وذلك على وجهين: شيء قد علمتهن وشيء لم تعلمه.

قال الوافد: فما وراء ذلك يرحمك الله؟

قال العالم: اجتناب ما نهاك الله عنه، وهو على وجهين: شيء قد عرفته، وشيء لم تعرفه، فتعرف مالك وما عليك، فيما نهاك الله عنه][(١)] فعليك بما قد علمت به التوبة والرجوع والإنابة والتضرع، ولك في ذلك المغفرة. فإنك إذا خفت ربك

---

(١) غير موجود في المخطوط.

تبت إليه، وتعرف الخوف ما هو وكيف هو.

قال الوافد: ما هو يرحمك الله؟

قال العالم: أما ما هو فمعرفة الذنب وشهادة الرب وأما كيف هو: فوجل القلب، ودموع العين، فإن لم تكن كذلك فلست بخائف فيما قد علمت. وأما الذي لم تعلمه فعليك منه الرهبة والتقوى، فإذا اتقيت الله لم يجدك حيث نهاك، وإذا خفته لم يفقدك حيث أمرك، فإن الله يراك ويعلم سرك ونجواك، ويسمع كلامك، فهنالك ترهبه وتخافه حتى كأنك تراه.

قال الوافد: فما وراء ذلك يرحمك الله؟

قال العالم: وراء ذلك التقوى.

قال الوافد: وما التقوى؟

قال العالم: تحفظ لسانك وعينك ويدك ورجلك وفرجك وظنون قلبك، فلا تنظر بعينك إلى ما لا يحل لك، فإن النظرة الواحدة تزرع في القلب الشهوة، وهي سهم من سهام إبليس، وتحفظ لسانك عن الكلام فيما لا يعنيك، فإن اللسان سبع إذا اطلقته أكلك، وهلاكك في طرف لسانك، فلا تقل ما لا يحل لك، ولا تمدد يدك إلى ما لا يحل لك، فإن لم تفعل فما اتقيت الله تعالى، وإن فعلت فقد اتقيت، ولك في ذلك المغفرة والرحمة، وذلك قوله سبحانه: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى﴿٨٢﴾﴾ [طه].

قال الوافد: فما وراء ذلك يرحمك الله؟

قال العالم: القيام بما أمرك الله به، حتى تعرف عملك، وتضع كل شيء منه في

موضعه، وتعرف خطأه وصوابه، ويكون ذلك العمل تابعاً للعلم مطابقاً له، ويكون فيه الرغبة واليقين والإخلاص والمحبة والحياء والاستقامة. وتعرف الرجاء ما هو، وكيف هو، ومن ترجو.

قال الوافد: بين لي ذلك يرحمك الله؟

قال العالم: هو أن يكون رجاؤك الله في كل أمورك، لدنياك وآخرتك، ولا يكون رجاؤك للخلق أكثر من رجائك للخالق فتحبط عملك، وتبطل أجرك، فإن الله تعالى يقول وقوله الحق: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴿١١٠﴾﴾ [الكهف]، فتعمل بما أمرك الله به ظاهراً وباطناً، فتصلح ظاهرك وتصلح باطنك، فإن الظاهر الجلي يدل على الباطن الخفي. ويكون قلبك متعلقاً بذكر من ناصيتك بيده، ورزقك عليه، ورجاؤك له، وشدتك وعافيتك وبلواك ومحياك ومماتك ودنياك وآخرتك، وترجوه للشدة كما ترجوه للرخاء، وترجوه للآخرة كما ترجوه للدنيا، وتخافه كما تخاف الفقر.

قال الوافد: فما وراء ذلك يرحمك الله؟

قال العالم: الرغبة، تعرفها ما هي وكيف هي؟

قال الوافد: بينها لي يرحمك الله تعالى؟

قال العالم: إن الرغبة في التطوع بعد الوفاء بما أمرك الله به، فإنك إذا رغبت ازددت إلى الخير خيراً، وإن لم ترغب لم تزدد وأنت متطوع ولست براغب.

وأما كيف هي: فالتضرع عند الدعاء، فإنك إذا رغبت تضرعت، وإذا لم ترغب كان دعاؤك بلا رغبة، وذلك قوله عز وجل: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا

﴿وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [الأعراف]، فمن خاف وتضرع رحمه الله وأجابه.

قال الوافد: فما وراء ذلك يرحمك الله؟

قال العالم: وراء ذلك اليقين بالله.

قال الوافد: وما هو اليقين.

قال العالم: صاحب اليقين ذنبه لا يكتب، وتوبته لا تحجب.

قال الوافد: بين لي ذلك؟

قال العالم: صاحب اليقين يعلم أن العلم متصل بالنية، فكلما خطر خاطر في قلبه علم أن الله قد علمه، فيلحقه الخوف ويبادر بالتوبة قبل أن يعمل الذنب، فتوبته مقبولة، وذنبه غير مكتوب، وإنما يكتب ذنبه لو أصر عليه ولم يتب منه.

قال الوافد: فما وراء ذلك يرحمك الله؟

قال العالم: وراء ذلك الإخلاص في الدين، وهو في القول والعمل والاعتقاد، قول خير، وعمل خير، واعتقاد خير، أما سمعت ما قال الله تعالى في كتابه: ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ [الزمر:٣].

قال الوافد: بين لي ذلك يرحمك الله؟

قال العالم: هو أن يعلم العبد أنه بين يدي سيده، يراه ويسمع كلامه، ويعلم ما في نفسه، فيجعلَه أمله، وتكون الطاعة عمله، ولا يغيب عن مشاهدته، ولا يزول إلى معاندته بإزالة، قَلَّت الدنيا في عينه، وتعلقت الآخرة في قلبه، فقيامه طاعة، وقوله نفاعة، وكلامه ذكر، وسكوته فكر، قد قطع قوله بعمله، وقطع

أمله بأجله، وخرج من الشك إلى اليقين، فقلبه متعلق بحب الآخرة وجسده في الدنيا، أحب الأشياء إليه الخروج من الدنيا إلى الآخرة، فقلبه وجل، ودمعه عجل، وصوته ضعيف، وكلامه لطيف، وثقله خفيف، وحركته إحسان، وتقلبه إيمان، وسكوته إيمان.

قال الوافد: فما وراء ذلك يرحمك الله؟

قال العالم: حب الحق وبغض الباطل، وحب من أطاع الله قريباً كان أو بعيداً، وبغض من عصى الله قريباً كان أو بعيداً.

قال الوافد: كيف أحب من أطاع الله قريباً أو كان بعيداً؟

قال العالم: يسرك ما يسره ويسوؤك ما يسوؤه،، وتدخل السرور عليه، وإن كان أعلم منك تعلمت منه، وإن كنت أعلم منه علمته، وحفظته في محضره ومغيبه، وواسيته وأعنته ورعيت صحبته، وجعلت ذلك لله وفي الله، ولا يكون في ذلك مَنٌّ ولا أذى.

قال الوافد: فما وراء ذلك يرحمك الله؟

قال العالم: وراء ذلك الحياء من الله.

قال الوافد: بين لي ذلك.

قال العالم: ذلك على ثلاث: أولهن: أن يعلم العبد أن طاعة الله عليه، وأن رزقه على الله، أفلا يستحي العبد من الله أن يراه حريصاً على رزقه كسلاناً عن طاعة ربه؟ يمن على قوم، أجسادهم معافاةٌ وعقولهم ثابتة، وقلوبهم آمنة، ونفوسهم طيبة، قد أحسن إليهم فلا ينظرون إلى شيء من قدرة الله فيتفكرون،

وإلى نعمه عليهم فيشكرون، ولا إلى من كان قبلهم فيعتبرون، ولا إلى ذنوبهم فيستغفرون، ولا إلى ما وعدهم الله في الآخرة فيحذرون، أفلا يستحي من آمن بالله أن يراه مع أولئك مقيماً لابثاً، ومساكناً مواسياً، وحاضراً مجالساً؟

وأما الثانية: فإن الله أعطى وقضى، يعطي وهو راضٍ، أفلا يستحيي العبد من الله أن يرضى برضا ربه عند العطاء ولا يرضى برضاه عند القضاء كما يرضى برضاه عند العطاء؟

وأما الثالثة: فإن الله يرضى لعباده الجنة، ويأمر بالعمل لما يصلح لها، فيعملُ العبدُ ما لا يرضي الله، ويكره ما يرضى الله له من الخير، ويرتكب المعاصي والشرور، ولا يرضى برضا الله له.

ويكون له ولد يحبه ويريده للدنيا، وربما قبضه الله إليه وهو له ولي، أفلا يرضى العبد بقضاء الله كما يرضى أولاً بعطائه؟ وهو يعلم أن موت ولي الله خير له من حياته في هذه الدنيا الفانية، المحشوة هموماً وغموماً، ونغصاً وغصصاً، وآفاتاً وشروراً.

قال الوافد: فما وراء ذلك يرحمك الله؟

قال العالم: وراء ذلك الاستقامة، أما سمعت الله تعالى يقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُم اسْتَقَاموا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِم الْملَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت:٣٠].

قال الوافد: بين لي ذلك؟

قال العالم: الاستقامة هي أن الدنيا قيامة، فلا يلتفت فيها إلى كرامة، ولا يبالي

فيها بالملامة، الاستقامة تؤدي صاحبها إلى السلامة، والمستقيم صادق، وبالحق ناطق، عمله في خضوع، وقلبه في خشوع، وروحه في رجوع، وسره يروع، وجسمه سقيم، وقلبه سليم. مقيم بلا التفات، مداوم على المراقبات، ملازم للأمر، ومدمن على الزجر، وطالب للأجر، تارك للهوى، مقيم على الوفاء، حريص على التقاء، مجتهد على الصفاء. ليله قائم، ونهاره صائم، إِلْف من آلَفْ، صابر عاكف، تام الصحبة، دائم المحبة، مجيب غير مريب، مفوض غير متعرض، مطيع غير مريع، طالب راهب، مسلم مستسلم، مقر لا منكر، محْتَقَر لا مُحْتَقِر، متواضع غير مستكبر، مقبل غير مدبر.

وعلامة المستقيم أن يستقيم له كل معوج، ويسلك به خير منهج، عالماً يقتدى به، ولياً يهتدى به، ولا يكون ممن يعبد الله على حرف، ﴿فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴿١١﴾﴾ [الحج:].

قال الوافد: فما وراء ذلك يرحمك الله؟

قال العالم: أما علمت أن الدنيا شدة ورخاء؟

قال: بلى.

قال: فليكن حالك في الشدة كحالك في الرخاء.

قال: بين لي ذلك يرحمك الله؟

قال: أليس الرخاء حساب، والشدة ثواب؟

قال: بلى.

قال: فأيهما أحب إليك الثواب أم الحساب؟

قال: بل الثواب أحب إلي من الحساب.

قال: أما علمت أنك في وقت الشدة ترجو الرخاء، وفي وقت الرخاء تخاف الشدة؟ وذلك قوله عز وجل: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا۝٥إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا۝٦﴾ [الشرح] فتعرف حد الشدة فتكون راجياً للرخاء، وتعرف حد الرخاء فتكون خائفاً للشدة؛ لأن الرخاء والشدة يعتقبان، فاستعد للحالتين جميعاً، ولست أعني لك شدة الدنيا ولا رخاءها؛ لأن الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر، ولكني أخاف عليك شدة الآخرة إذا رضيت برخاء الدنيا.

قال الوافد: فما وراء ذلك يرحمك الله؟

قال العالم: الرضا بالعطاء، والصبر على القضاء.

قال الوافد: وكيف يكون الشكر؟

قال العالم: الشكر على سبعة أشياء.

قال: وما هي حتى أعرفها؟

قال العالم: الخلق، والْمَلَكَة، والرزق، والعافية، والعلم، والقدم، والقدرة.

فتنظر إلى ثبات عقلك، وتمام خلقك- فتحمد الله العظيم على ذلك كثيراً.

ثم تنظر إلى الملكة- فكم من ذي روحٍ غيرُه له مالك، والله مالك كل شيء، وأنت لا مالك لك- فتحمد الله على ذلك كثيراً.

ثم تنظر إلى الرزق، فإذا هو من عند الله سبحانه فتحمد الله على ذلك كثيراً.

ثم تنظر إلى مالك وولدك، وطعامك وشرابك ولباسك، ونومك ويقظتك،

وانظر إلى اختلاف الليل والنهار، كيف يقربان البعيد، ويُخْلِقَان الجديد.

ثم تنظر إلى العافية وإلى كل شيء تخافه على نفسك، في ليلك ونهارك، مما ترى ومما لا ترى، فتعلم أنه لا يدفع ذلك ولا يصرفه ولا يكفيك ما ترى وما لا ترى إلاَّ الله سبحانه- فتحمد الله على ذلك كثيراً.

ثم تنظر إلى المصائب التي تصيب الناس في أبدانهم المركبة عليهم، فتعلم أن في تركيبك مثل ما في تركيبهم، فتحمد الله الذي ستر عليك، مما ظهر على غيرك، من العلل والآفات، ثم تنظر إلى من كان من قبلك، وإلى من هو كائن من بعدك، في دنياك وآخرتك، فتحمد الله على ما مضى وتسأله النجاة فيما بقي.

ثم تنظر إلى العلم، فتعلم أنه تعالى قد علم ما هو كائن قبل أن يكون ثم تنظر إلى القدم فتعلم أن الله قديم لم يزل، ولا يزول، ولا يزال.

ثم تنظر إلى القادر، فتعلم أن الله قادر لا بقدرة غيره، سبحانه وتعالى عما يقولون علواً كبيراً.

ثم تنظر إلى جميع ما سخر لك من جميع ما خلق الله وذرأ وبرأ، من السماء التي زينها بالكواكب والشمس والقمر، وأجرى ذلك لمنافعك، وما جعل من الرياح والسحاب، وما جعل في الأرض من الحيوان المسخر، المجبور المقهور، المنقاد إلى المنافع- فتحمد الله على ذلك كثيراً.

قال الوافد: فما وراء ذلك يرحمك الله؟

قال العالم: الصبر على قضاء الله سبحانه، فما جاء من عند الله حمدت الله عليه، ولم تسخط ذلك، وسلمت لأمر ربك، ورضيت بقضاء خالقك، وحمدت الله

على ذلك كثيراً.

قال الوافد: فما وراء ذلك يرحمك الله؟

قال العالم: تنظر بعد ذلك إلى نفسك، فتعلم أن الله خلق الإنسان من نطفة تقع في رحم مظلم، فتقيم في الرحم سبعة أيام، ثم ترجع دماً، فيكون ذلك الدم علقة أربعين يوماً، ثم يجعلها الله مضغة ذكراً أو أنثى، فيكون فيه الروح لسبعة وسبعين يوماً، ثم يخلق الله له العروق والعظام والعصب، ثم يصيره الله تعالى بعد ذلك لتمام لمائتين وسبعين يوماً، وذلك ستة(١) آلاف وأربع مائة وثمانون ساعة، فجميع ذلك حمل الولد لتمام حمل أمه كاملة أشهره وأيامه وساعاته.

فأشهره تسعة أشهر، كل شهر ثلاثون يوماً، وأيامه مائتان وسبعون يوماً، وساعاته ستة آلاف وأربع مائة وثمانون ساعة، فهذه أيام الولد كاملة، أشهره وأيامه وساعاته.

وفي تركيبه الحرارة والبرودة واليبوسة واللين. فالدم حار لين، والمرة الصفراء حارة يابسة، والمرة السوداء باردة يابسة، والبلغم بارد رطب.

وتركيب الإنسان اثنا عشر وصلة، وله مائتان وثمانية وأربعون عظماً، وله ثلاث مائة وستون عرقاً، فالعروق تسقي الجسد، والعظام تمسكها، والعصب واللحم يشدها(٢).

فلكل يد أحد وأربعون عظماً، فللكف من ذلك خمسة وثلاثون عظماً،

---

(١) في المخطوط: أربعة آلاف ومائة واثنين وخمسين ساعة.

(٢) في المخطوط: يشد العظام.

وللساعد عظمان، وللعضد عظم، وللتراقي ثلاثة أعظم، وكذلك اليد الأخرى، وللرجل ثلاثة وأربعون عظماً، للقدم من ذلك خمسة وثلاثون عظماً، وللساق عظمان، وللركبة ثلاثة أعظم، وللورك عظمان، وكذلك الرجل الأخرى.

وللصلب ثمانية عشر فقاراً، ولكل جنب تسعة أضلع، وللرقبة ثمانية أعظم، وللرأس ستة وثلاثون عظماً، الأسنان من ذلك اثنان وثلاثون عظماً. وطول الأمعاء سبعة أذرع.

فسبحان الله خالق الإنسان خلقاً بعد خلق، في ظلمات ثلاث، حتى إذا حان أوان خروجه من بطن أمه إلى الأرض لم يقدر أحد على إخراجه أبداً، ولو اجتمعت الإنس والجن ما أحسنوا ذلك.

فسبحان من أخرجه سوياً لا يعرف أحداً، ولا يسأل رزقاً، قد أوجد الله له رزقه في صدر أمه، لبناً يغذوه به؛ لضعفه وقلة بطشه.

حتى إذا جلّ عظمه، وكثر لحمه، وقطع سنه، وطحن ضرسه، وبطشت يده، ومشى على قدمه، وعرف أن الله خالقه، الذي أفضل عليه، ورزقه قبل خروجه وبعد خروجه في مهده – نسي ذلك وجحده، ورجع يطلب رزقه من مخلوق مثله ﴿قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ ۝١٧﴾ [عبس]، أما علم أن الذي رزقه في ضعفه هو الذي يرزقه في وقت قوته؟! أما سمع ما قال الله تعالى في كتابه لنبيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: ﴿لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى ۝١٣٢﴾ [طه]، أما سمع قول الله تعالى حيث أقسم في كتابه فقال عز من قائل: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ۝٢٢ فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ ۝٢٣﴾ [الذاريات].

أما سمع قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حيث قال: ((لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها))، وقال: ((لو أن أحدكم هرب من رزقه كما يهرب من الموت لأدركه رزقه كما يدركه الموت)). قال رجل لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه: يا أمير المؤمنين، من أين يأتي الرزق إلى الإنسان؟ قال: (من حيث يأتيه الموت).

قال الوافد: أيها العالم الحكيم، أخبرني ما أفضل ما أعطي العبد؟

قال: العقل الذي يعرف به نعمة الله ويعينه(١) على شكرها، وقام بخلاف الهوى حتى عرف الحق من الباطل، والضار من النافع، والحسن من القبيح.

قال الوافد: فما وراء ذلك يرحمك الله؟

قال العالم: الإيمان، وحقيقة الإيمان: الإخلاص وصدق النية، حتى إذا عملت عملاً صالحاً لم تحب أن تذكره وتعظم من أجل عملك، ولا تطلب ثواب عملك إلا من الله، فهذا هو إخلاص عملك، فإن عملت عملاً وأحببت أن تذكر وتعظم من أجله(٢) فقد تعجلت ثوابه من غير الله، ولم يبق لآخرتك منه شيء.

قال الوافد: فما تقول في المناجاة؟

قال العالم: لا تكون المناجاة إلا على الرجاء والمصافاة، بقلب سليم من الآفات والظنون والغيبات، ثم تقول: إلهي إن لم أكن لحقك راعياً لم أكن لغيرك

---

(١) في المخطوط: الذي عرفك نعمة الله وأعانك.

(٢) في المخطوط: من أجل ذلك العمل.

داعياً، وإن لم أكن في طاعتك مسابقاً لم أكن لأعدائك مطابقاً، وإن لم أكن لك عابداً لم أكن لآياتك معانداً، وإن لم أكن لحبك واجداً لم أكن لغيرك ساجداً، وإن لم أكن إلى الخيرات مسارعاً لم أكن لباب الخطيئات قارعاً، وإن لم أكن لحدودك[١] حافظاً لم أكن بكلام السوء لافظاً، وإن لم أكن في الصلاة خاشعاً لم أكن لأعدائك خاضعاً، وإن لم أكن في سبيلك مجاهداً لم أكن لدليلك جاحداً.

إلهي كيف يصافيك من لا يأتيك؟! وكيف يرجوك من لا يقترب إليك؟! أنا المتخلف عن أقراني، أنا الضعيف في أركاني، أنا الفريد بحفرتي[٢] عن إخواني، أنا الذي لم أحقق إيماني، سيدي قد أتيتك بفاقتي، وجئت إليك لما عدمت طاقتي، أنت العالم بجرمي، المطلع على ظلمي[٣]، المحصي لخطيئتي، الشاهد على طويتي، الناظر لي في خلوتي.

إلهي كسدت بضاعتي، وخسرت تجارتي، ولم أتزود من حياتي، وقد أتيتك وقد قربت وفاتي[٤].

إلهي إن لم تقبلني فأين المنجى، وإن رددتني فأين الملجأ، وإن لم تغفر لي فأين الملتجا؟!!! من للعبد إلا مولاه؟! ذهبت أيامي، وبقيت آثامي، فلا تذل مقامي، ولا تحجب عني أمامي، يا من ابتدأني بفضله، وأكرمني بتطوله.

ما الحيلة أعضائي ذليلة، ما الحيلة أحزاني طويلة، ما الحيلة حسناتي قليلة، ما

---

(١) في المخطوط: للحدود.

(٢) في المخطوط: بحرقتي.

(٣) في المخطوط: طلبي.

(٤) في المخطوط: وقد أتيتك قرب وفاتي.

الحيلة وليس لي وسيلة.

لا حيلة لي غير الرجوع، والتضرع والخضوع، والاقبال والإياب، وتعفير الوجه بالتراب، والتذلل عند الباب، وقراءة آيات الكتاب، والسجود لرب الأرباب، وترك الاشتغال، والاقبال على مقدر الأرزاق والآجال، وترك المعارضة، ورفض المناقضة. وحنين وحرقات، وأنين وزفرات، وسهر دائم، وليل قائم، ونهار صائم، وقلب هائم، ووعظ لائم، فرار بلا قرار، فراق كل محبوب، والبين عن كل منسوب.

الحيلة ترك الاستراحة في طلب الراحة، ودوام النياحة مع القيام على السياحة، وترك الخطايا، واستعداد المطايا.

الحيلة أن تخضع حتى تسمع، ويخاف القلب ويخشع، وتعتبر العين فتدمع، اقرع الباب تسمع الجواب.

قال الوافد: قد سمعت لذيذ المناجاة، كيف أصنع في داءٍ قد تمكن في قلبي حتى أقلعه وأحسمه؟

قال العالم: من أوجعته علته - أظهر عند الطبيب زلته، وأبدى إليه شكيته، من عَدِم مرادُه قلق فؤاده، من قلق فؤاده بان رقاده، ارفع نواظر القلب إلى الرب، فهو يجلي منه الكرب، ويغفر الذنب، ارفع حوائجك إلى ربك، كما ترجوه لغفران ذنبك، اكتب قصة الاعتذار بقلم الافتقار، امش إلى باب الجبار بقدم الاضطرار، في وقت الأسحار، وارفع يديك بالاستغفار.

قال الوافد: فما تقول في البكاء؟

قال العالم: لأن تبكي وأنت سليم، خير من أن تبكي وأنت في النار مقيم، بين أطباق الحميم، والشيطان لك قرين خصيم.

واعلم أنك دخلت الدنيا عند خروجك من بطن أمك باكياً عابساً، فاجتهد أن تخرج منها ضاحكاً مستأنساً، لأن تبكي وأنت في الطريق، خير من أن تبكي وأنت في وسط الحريق، البكاء مع السلامة، خير من البكاء مع الملامة، اليوم ينفعك البكاء إذا بكيت ندماً، وغداً لا ينفعك البكاء لو بكيت دماً، البكاء قبل المعاتبة، خير من البكاء عند المعاتبة، ابك لضعف فاقتك، ابك لقلة طاعتك، ابك لكثرة معاصيك، ابك لعظم مساوئك، ابك لإفلاسك، ابك لعدم إيناسك، ابك لقلة عملك، ابك لقلة حيلتك، ابك لعدم وسيلتك، ابك لكثرة وزرك، ابك لثقل ظهرك، ابك لفساد أمرك، ابك لظلمة قبرك، ابك لقسوة قلبك، ابك لخبث سرك، ابك لمضي دهرك، ابك لكشف سترك، ابك لساعة موتك، ابك لانقطاع حياتك، ابك لغربتك في لحدك، ابك لتوديع دارك، ابك لتوقع فراقك، ابك ليوم بوارك، ابك لاستقبال أهوالك.

قال الوافد: كيف أصنع إذا لم أستطع البكاء ولم تدمع؟

قال العالم: ما جمدت العيون إلاَّ من قساوة القلوب، وما قست القلوب إلاَّ من كثرة الذنوب، وما كثرت الذنوب إلاَّ بالرضا بالعيوب، وما وقع الرضا إلاَّ بعد الاجتراء على علام الغيوب، جمود العين، من وجود الرين، وقال في ذلك شعراً:

تزود من حياتك للممات ... ولا تغتر في طول الحياة

أترقد والمنايا طارقات ... كأنك قد أَمنْت من البيات

أتضـــحك أيهـــا العـــاصي وتلهـــو   ونـــــار الله تُســـــعر للعصـــــاة
أتضـحك يـا سـفيه ولسـت تـدري   بـــــأيّ بشـــــارة يأتيـــــك آت

ثم قال: أتبغي صفاء الفؤاد مع بقاء المراد؟! تضيع الأصول، وتركب الفضول، ثم تطمع في الوصول، وأنت لا تتبع ما جاء به الرسول؟! أتطلب المراد، مع كثرة الرقاد، وقلة الاجتهاد؟! أتطلب المساعدة مع قلة المجاهدة؟ هذا من علامة المباعدة. لن تنال الأماني- إلاَّ بترك الفاني، لا بالكسل والتواني، تسهر العيون تصبح غير مغبون. لن تنال غرف الجِنَان إلاَّ بصفاء الجَنَان، وخالص الإيمان، وقراءة القرآن، وتوحيد الرحمن، وإطعام الطعام، ورحمة الأيتام، وكثرة الصيام، وطول القيام. من طابت مناجاته، ارتفعت درجاته، وقلّت فزعاته.

قال الوافد: بم ينال العبد جنة الخلود؟

قال العالم: بحفظ الحدود، وبذل المجهود، وطاعة المعبود، والوفاء بالعهود، وكثرة الركوع والسجود.

من أراد الأمان، فليخلص الإيمان، ويفعل الإحسان، ويقرأ القرآن.

لن ينال جنة النعيم، إلاَّ من جاء بقلب سليم، لن تنال من الله المزيد، إلاَّ بصدق التوحيد وكثرة التحميد.

من أراد البر، لم يكتسب الوزر، من أراد العطاء، صبر على البلاء.

لا تنال شهوات الآخرة إلاَّ بترك شهوات الدنيا، لا تنال النعيم إلاَّ بترك النعيم، لا تنال معانقة الحور إلاَّ بصلاح الأمور، ومجانبة الشرور، ورفض المحذور.

لا ينال الشفاعة إلاَّ من قام لأخيه بالنفاعة، وحافظ على صلاة الجماعة،

وأطعم الأيتام في المجاعة.

من أحب الشرب من حوض الرسول- فليترك كلام الفضول، ويتثبت فيما يقول، فإنه لا بد مسئول.

قال الوافد: صف لي الحياء؟

قال العالم: من عمل بالرياء بعُد منه الحياء، وحجب منه الضياء، وتكدرت عليه الدنيا، وعاش في الناس يهودياً، وحشر يوم القيامة مجوسياً.

قال الوافد: كيف أنال حلاوة الطاعة؟

قال العالم: لا تدرك الحلاوة إلاَّ بإدمان الفكر والتلاوة، ولا تنال حقائق المعاني إلاَّ بترك الأماني.

ولا يتمكن في قلبك الخوف والوجل إلاَّ برفض الدنيا وقصر الأمل، وإخلاص العمل، وهجران الكسل.

قال الوافد: صف لي محض الورع؟

قال العالم: لا تنال الورع إلاَّ بكثرة الخوف والفزع، واختيار الجوع على الشبع، وبترك الشهوات والطمع، وصفا عند ذلك قلبك، ونلت لذة السهر والقيام، وقَرُبْتَ من ذي الجلال والإكرام، وملكت نفسك، ووافقت أنسك، ورضي عنك الرب، وغفر لك الذنب.

واعلم أنك لا تنال من الله البر والسلامة إلاَّ بالصبر والاستقامة.

ولا تنال حقائق الرجاء إلاَّ بالانقطاع إلى الله والالتجاء.

ولا تنال الكرم والتفضل إلاَّ بالندم والتبذل.

ولا تنال الراحة إلاَّ بكثرة النياحة.

ولا تنال الولاية إلاَّ بالمحافظة والرعاية.

ولا تنال مجاورة الأبرار، في دار القرار إلاَّ بترك الأوزار.

ولا يخشع القلب ويلين إلاَّ بتفكر وتبيين.

ولا تنال الخوف إلاَّ بترك عسى وسوف.

ولا تنال الاتصال إلاَّ بإهمال الاشتغال.

ولا ينقى القلب مع بقاء شيء من الذنب.

ولا تدرك صفاء الفهم وفي قلبك من الدنيا غم.

ولا يزول عنك الهم ما كان لك في الدنيا خصم.

من أنفق مما يحب فهو حقاً المحب.

من ترك ما كان يألف دخل الجنة وثوابه مضاعف.

من يعمل بما يقول شفع له الرسول، ومن عمل بخلاف ما يقول لم يكن عمله مقبول(١).

من لم يندم على معصيته أخذته الزبانية بناصيته.

من قصر في الطاعات حرم الصالحات.

من نافس في الخيرات ارتقى في الدرجات.

من اغترّ في الليل فُجِع في النهار، ومن سهى في النهار فُجِع في الليل.

من ركب الظن غبن أيما غبن.

من ركب فرس الأماني عثر في ميدان التواني.

---

(١) - كذا ولعلّه على لغة ربيعة.

التاجر برأس مالِ غيرِه مفلسٌ.

قال الوافد: كيف المجاهدة؟

قال العالم: المجاهدة في المباعدة والوحدة، والصبر على المحنة والشدة.

من لا عبادة له لا زاد له، من لا زاد له لا عقبى له.

اقرع الباب، يأتيك الجواب(١).

من أمَّل العظيم وهب الجسيم.

من أراد الجود طلبه في السجود.

من لا سجود له لا جود له.

من لا ندامة له لا كرامة له.

من لا خير فيه لا خير عنده.

خير البضاعة الطاعة.

من اختار الطاعة نجا من فجعات الساعة.

لا بد من سهر الأسحار، وقيام الليل وصيام النهار.

إذا أردت الجنة- فاسجد وتضرَّع، واظمأ وتجَوَّع، واسهر وتفزَّع، وتذلَّل وتخشَّع، وتفرد وتوحد، واخضع وتجرد- تَنَلْ فضل الواحد الأحد.

اترك الآثام تأْمن الصولة، واعمل صالحاً تكن لك الدولة، اهجر الجرائم تَصِلْ وأنت سالم.

---

(١) – كذا في الأصل بإثبات الياء، وهو واقع في جواب الطلب، وقصد به الجزاء، ولعله من باب (ألم يأتيك والأنباء تنمي إلخ)، وقراءة: (إنه من يتقي ويصبر)، أو وقع غلطاً من النساخ.

من أكثر النحيب لم يكن عليه رقيب، ما دعا إلاَّ أجيب، وكان له من الخير نصيب.

من رغب إلى الله أعطاه، ومن اكتفى به كفاه، ومن استعان به أعانه، ومن لجأ إليه آواه.

قال الوافد: كيف أكون ذاكراً وأنا لا أسلم من الغفلة؟

قال العالم: لا تكون الغفلة إلاَّ في من أكثر الغفلة.

من غفل وقع في الزلل، إذا أردت السعادة- فودع الوسادة، وجالس أهل الزهادة، وأكثر العبادة.

عجباً ممن يستريح وقد تاب، وممن يلهو وقد شاب.

ما كان في الله تلفه كان على الله خلفه، لا يضيع طالبه، ولا يخيب آمله.

اجتهد تجد، أَخْلِص تخلص، اتبع الرسول وأبشر بالوصول، من اتصل وصل، ومن ترك الجدال نال كل منال، وكُفِيَ الشدة والأهوال.

من خالف الهوى أُدخل جنة المأوى، من ندم كُرِّم.

قال الوافد: ما حيلة من دنا من الباب فمنعه الحُجَّاب، فلم يصل إلى الأحباب؟

قال العالم: حيلته ملازمة القلق والاكتئاب، والحزن والانتحاب، والْفَرَق والانتداب إلى أن يأذن له الأحباب، ويُفتح له الباب.

إذا أردت في الجنة الوقوف- أكثرت في المساجد العكوف، فإنك تأمن من كل مخوف.

كم من متردِّد لا يؤذن له، وطارق لا يفتح له، وكم من مصروف مطرود، مهانٍ مردود.

كم من مظهر انتحابه، ولا يفتح له بابه، وكم من طامع في ثوابه، وهو من

أهل عذابه.

قال الوافد: كيف الوصول؟

قال العالم: صِلْ الليل بالنهار، وتضرَّع في غسق الأسحار، لعله أن يخفف عنك الأوزار، وسبح بالعشي والإبكار، وتعوَّد الندم والاستغفار- تحرم بذلك على النار.

قال الوافد: كنا صبياناً فلعبنا، فصرنا شباباً فسكرنا، فصرنا كهولاً فكسلنا، فصرنا شيوخاً فعجزنا وضعفنا، فمتى نعبد ربنا؟

عطلنا الشباب بالجهالة، وأذهبنا العمر في البطالة، فأين الحجة والدلالة؟

قال العالم: من غفل في شبابه- ندم في وقت خطابه، الشباب لا يصبر على الصواب، ويندم عند الخطاب، ما أحسن الشباب في المحراب.

إلى متى العصيان؟ إلى متى متابعة الشيطان؟ إلى متى الجرأة على الرحمن؟ ألنا صبر على مقطَّعات النيران؟ ومجاورة الحنشان؟ ولباس القطران؟ وتهدد مالك الغضبان؟ وضرب الزبانية والأعوان- إلاّ بتزودٍ لذلك اليوم من هذا اليوم، وبتخلص من الهوان واللوم.

أيها المغرور بشبابه، والمسرور بأصحابه، والمختال في ثيابه- أما تحذر أليم عذابه، وتخاف شديد عقابه.

كم من وجه صبيح، وخد مليح، وبدن صحيح، ولسان فصيح أصبح في العذاب يصيح، بين أطباق النار لا يستريح.

كم من شاب ينتظر المشيب- عاجَلَه الموت وحل به النحيب.

كم من مسرور بشبابه- أخذه الموت من بين أحبابه إلى قبره وترابه.

أيها الشاب المجهول، إنك إلى التراب منقول، وعلى النعش محمول، وعن أعمالك كلها مسئول.

مالك لا ترجع؟ مالك لا تفزع؟ مالك لا تخضع؟ مالك لا تخشع.

آه من يوم يقول فيه المولى: عبدي شبابك فيم أبليته؟ وعمرك فيم أفنيته؟

فلا تنظر إلى الشباب وطراوته، ولا تغتر بحسنه وملاحته، ولكن انظر إلى صرعته وندامته. ما أحسن الإياب بالشباب، وما أقبح الخضاب لمن قد شاب وما تاب.

ما بقاء الشيخ في الدهر إلاَّ كبقاء الشمس على القصر في وقت العصر.

الشيب داعي الموت، وناعي الفوت.

الشيب يؤذن بالفراق، ويخبر بالتلاق.

الشيب ظاهره وقار، وباطنه انزجار.

الشيب يبعد الجنا(١) ويقرب الفنا.

الشيب يكدر المنى، ويكثر العناء.

الشيب كسل في كسل، وعلل في علل، وملل في ملل، وخلل في خلل، وآخره مكَل(٢)، وتقريب الأجل، وقطع للأمل.

---

(١) - كذا في الأصل: بإعجام الجيم، والجنى - كما في القاموس الذهب والودع والرُّطب والعسل، فيكون المعنى: الشيب يبعد حبَّ الجنا وهو الذهب أو نحو ذلك على تقدير مضاف محذوف، ويمكن أن تكون الخنا، بخاء معجمة وكتابتها (جيماً) وقع غلطاً من النساخ.

(٢) - كذا ضُبِطَ في الأصل بفتح الميم والكاف، و في القاموس: وقليب مُكُل، كعُنُق وكتِف ومُمْكَلة كمكرمة، ومكولة: نُزِح ماؤها.

فلما بلغ كلام العالم والوافد إلى هذا الحد، قال العالم: ما أسوأ عبد قرب منه الأجل، وهو يسيء العمل.

ما أسوأ عبداً[١] ظهر فيه الخلل، وهو يكثر من الزلل.

من شابت ذوائبه جفا حبائبه.

أين الاستعداد؟! أين تحصيل الزاد؟! وأنت للذنوب تعتاد، وقد ناداك المناد، أين الراجع إلى الله؟ أين المشتري نفسه من الله ربه؟ أين النادم على ذنبه؟ أين الباكي على أمسه؟ أين المستعد لرمسه[٢]؟ أين الطالب للثواب؟ أين الخائف للعذاب، ألا ترجعون إلى الله، ألا تقبلون على الله، ألا تخافون من عذاب الله؟ ألا تطمعون في ثواب الله؟ ألا تقتدون بأولياء الله؟ ألا تتقون من الذنوب؟ ألا ترجعون من العيوب؟

ألا تندمون على ما أسلفتم؟ ألا تعترفون بما اقترفتم؟ ألا تستغفرون لما اجترمتم؟

أما آن للقلوب أن تخشع؟ أما آن للعيون أن تدمع؟ آما آن للصدور أن تجزع؟ أما آن للعاصي أن يتزعزع من الذنوب؟ أما آن للخاطئ أن يرجع من العيوب؟ أما تعلم أيها العاصي أنه لا يخفى خافية على علام الغيوب؟ أما تعلم أنك مأخوذ مطلوب؟ ومتَتّبع محسوب؟ وعلى الوجه في النار مكبوب؟ أما تعلم أنك مفارق لكل صديق، ودمعك على خدك سكوب؟ أما تخاف أن تصبح وأنت عن رحمة

---

(١) - (عبداً) منصوب على المفعولية لفعل التعجب على أن المتعجب منه يجب أن يكون مختصاً وهو هنا مختص بالوصف بجملة (ظهر فيه الخلل)، وقد قال الشاعر: يا ما أميلح غزلاناً شدنّ لنا.

(٢) - الرمس هو: القبر.

الله محجوب؟ وعلى حُرِّ الوجه إلى النار مسحوب؟ فيا له من جسد متعوب، ودمع مسكوب، وقلب مكروب، وعقل مرعوب.

قال الوافد: كيف أحتال في الخلاص؟

قال العالم: أما تعتذر؟ أما تزدجر؟ أما تستغفر؟

أما لك في من مضى عبرة؟ أما لك في العواقب فكرة؟ إلى متى هذه الجفوة والفترة؟ إني أخاف عليك الشقوة والحسرة، فكم هذه الغفلة؟ وكم هذه الغرة؟ إلى متى هذه الغفلة الغامرة، والقسوة الحاضرة؟

أما تغتنم أيامك؟ أما تمحو آثامك؟ أما تكفر إجرامك؟ أما تحذر برأيك؟ أنسيت ما أمامك؟ أما تنتبه من رقادك؟ أما تتأهب لمعادك؟

أنسيت اللحد وضيقه وظلمته؟ أغفلت عن البعث والنشور، يوم يظهر كل مستور؟

إلى متى تعلَّل بالأماني الكاذبة، وتضيع الحقوق الواجبة؟ دفَنْتَ الأحباب فلم تعتبر، وغَيَّبتهم في الثرى فلم تزدجر.

ما للناس لا يرجعون؟ يوعظون فلا يتعظون ولا ينتهون، وينادَوْن فلا يسمعون، استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله، وغشى على قلوبهم الران، فالقلوب مسودة متباعدة، والأجسام منافقة متوادة، يقولون ما لا يفعلون، ويأملون ما لا يبلغون، وإذا قيل لهم اركعوا لا يركعون.

أُمِرُوا بالطاعة فقالوا: ما يأكلون؟ وما يلبسون؟

يكذبون ويسرقون وينافقون، ويَعِدُون ويخلفون، ويراؤون ويبخلون، فبأي حديث بعد القرآن يؤمنون؟ ويجمعون ما لا يفرقون، ويمنعون ما لا ينفقون،

ويبنون ما لا يسكنون، ويقطعون ما لا يلبسون. ينافقون ولا يخلصون، لا الله يخافون، ولا منه عند المعاصي يستحيون.

ينامون نوم الهائم، وينسون يوم يؤخذون بالجرائم، لا الله يخافون، ولا عقابه يحذورن، يصبحون على خلاف ما يمسون. همتهم دنية، وأفعالهم ردية، وأعمالهم غير تقية، وأحوالهم غير مرضية.

قال الوافد: كيف يصبح من يصبح بين هؤلاء؟

قال العالم: يرضى بالله صاحباً، ويعتزل منهم جانباً. ويل لمن له ذنب مستور، وثناءٌ مشهور، وهو عند الله مثبور.

ظاهره بالخير معروف، وباطنه بحب الدنيا مشغوف، وهو عن باب الله مصروف.

ثيابه أبيض من الحليب، وقلبه مثل قلب الذيب.

باطنه من التقوى خراب وهو يطمع في الثواب، وهو في الدنيا سكران من غير شراب.

ظاهره فيه سيماء العابدين، وباطنه فيه سيماء الجاحدين.

مقالته مقالة الأبدال، وفعله فعل الجهال.

سيرته سيرة المغتربين، وأمله أمل المفتونين، فهذا من المطرودين عن باب رب العالمين.

ما لي أرى الناس يركبون الشرور، ويدخلون في المحذور، ويضيعون الأيام والشهور؟

إلى متى يسوفون التوبة، ويلبسون لباس ثياب المهتدين، ويضمرون أسرار الظالمين.

إن أبعد الناس من الله بعداً عبدٌ نظر إلى عيب أخيه، ولم ينظر إلى عيب نفسه، ومن رأى من أخيه المسلم حسنة وسترها ورأى سيئةً ونشرها كبه الله في النار على وجهه، ولم يخفف عنه من عذابها شيئاً.

من لم يميز بين الحلال والحرام- أسرعت إليه سهام الانتقام.

من أسف على شيء من الدنيا يفوته- كثر نزاعه عند موته.

قال الوافد: صف لي الهالك الحقير المفتتن(١).

قال العالم: هو الذي يتأسف على رزق لم يأته، وينتظر مالاً وربما لم يستوفه، ويُخاف شره، ولا يُرجى خيره. يظهر حزنه، ويكتم شره، فهو مرتبط بالنفاق، معاند بالشقاق، قريب الخجال(٢) قليل النوال، قد رضي بالقيل والقال، لا يسلك سبيل النجاة، ولا يخاف من الموت المفاجأة. ظاهره مع أهل الدين، وباطنه مع المنافقين.

قد باين القرآن، وأغضب الرحمن، فهو للقرآن مذموم، وعند أهل الإسلام ملوم، وفي سبيل الإحسان محروم. كلما ظفر بمعصية افترسها، ومهما أدرك خطيئة ارتكبها. فقلبه لا يفزع، ونفسه لا تشبع، وعينه لا تدمع. قد آثر العمى على الهدى، وبذل الدين في الدنيا، وقد قيل في ذلك شعراً:

مضى عمري وقد حصل الذنوب ... وعزّ عليَّ أني لا أتوب

---

(١) - في الأصل: ظنن على كلمة (المفتتن) بعد أن ألحقها بين السطور فوق (الحقير).

(٢) - كذا في الأصل قال في القاموس: والخجل محركة: أن يلتبس الأمر على الرجل فلا يدري كيف المخرج منه، وسوء احتمال الغنى، كأن يأشر ويبطر عنده، والبرم والتواني عن طلب الرزق، والكسل، والفساد....

نطهِّـــــر للجـــــهال لنــــا ثيابــــاً وقــد ضربــت لقســوتها القلــوب
وأعربنــــا الكـــــلام فــــما لحنــــا ونلحـــن بالفعـــال فـــما نتـــوب

قال الوافد: أسأل الله تعالى سلوك طريقة الأخيار ومجانبة طريقة الفجار.

قال العالم: إن الله سبحانه قد بين لعباده طريق الهدى، وحذرهم طريق المخاوف والردى، بعث إليهم رسولاً، وجعل القرآن دليلاً، وركَّب فيهم عقولاً، وأمرهم ونهاهم، وخيّرهم ومكّنهم، وأعد ثواباً وعقاباً، فمن أطاع وفاه ثوابه، ومن عصى ضمنه عقابه، فإياك والظلم والعدوان، والإقدام على الزور والبهتان، وعليك بالعدل والإنصاف، والبذل والإلطاف.

ولا تظلم أحداً، فإن الظالم نادم، والظلم يخرب الديار، ويفرد الجار، ويثر[١] الغبار، ويسخط الملك الجبار، وإن من أعظم المصائب وأكثر الحسرات في تلك الوقفات- المأخوذ بالتبعات، يوم لا شفيع يشفع، ولا دعاء يرفع، ولا عمل ينفع، فكيف ينفع الظالم ندمه؟ وقد زلت به قدمه، وشهدت عليه جوارحه، فيا حسرة الظالم ويا ويحه.

قال الوافد: كيف يكون الاعتبار؟

قال العالم: انظر إلى الذين يجمعون- جمعوا كثيراً، وبنوا كبيراً، وأمَّلُوا طويلاً، وعاشوا قليلاً، هل تسمع لهم حساً؟ أو ترى لهم في القبور أنسا؟ سكنوا التراب، واغتربوا عن الأصحاب، ولم يسلموا من العقاب. حملوا أثقالاً، وعاينوا وبالاً، وصارت النار لهم منزلاً ومقيلاً، وعرضت عليهم جهنم بكرة وأصيلاً، لا

(١) - قال في القاموس: الثرُّ التفريق والتبديد.

يطيقون فتيلاً، ولا يسمعون جميلاً، ولا يرجون تحويلاً، ولا يملون عويلاً.

أين الذين شيدوا العمران؟ وشرفوا البنيان؟ وعانقوا النسوان؟ وفرحوا بالولدان؟ وجمعوا الديوان؟ وملكوا البلدان؟ وغلقوا الأبواب؟ وأقاموا الحُجَّاب؟

أما رأيت كيف دارت عليهم الدوائر، وخلت منهم المآثر، وتعطلت منهم المنابر، وضمتهم المقابر، وغيبتهم المحافر.

تمزقت جلودهم، وتفرقت جنودهم، ورجعت قصورهم خراباً، ودورهم يباباً، وأجسادهم تراباً.

أين ملوكهم؟ أين أحبارهم؟ أين مواكبهم؟ أين مراكبهم؟ أين أنصارهم؟ أين عُدَدُهم؟ أين وزراؤهم؟ أين ندماؤهم؟ أين من آواهم؟

أصبح غنيهم فقيراً، وأميرهم حقيراً. هل بقي الذكر إلاَّ لمن أطاع الله، ونبذ في رضا ربه دنياه، وخالف من خوف الله هواه، وقدم الخير لعقباه؟! يدخل دار السرور، وكفي كل محذور.

دار فيها الأمان، والحور الحسان، والأكاليل والتيجان، والوصائف والغلمان، والأنهار الجارية، والأشجار الدانية، والنعمة الوافية، والسرر المصفوفة، والموائد المعروفة، والفرش المرفوعة، والأكواب الموضوعة، والقصور المنصوبة.

هذه دار المتقين، ومحل الصالحين، ومأوى المؤمنين، قال في ذلك شعراً:

تنام ولم تنم عنك المنايا ... تنبَّهْ للمنيّة يا ظلومُ
وحق الله إن الظلم شومٌ ... وما زال المسيء هو الظلومُ
إلى الدَّيان يوم الدين نمضي ... وعند الله تجتمع الخصومُ

سل الأيام عن أمم تفانت فتخبرك المنازل والرسومُ
تروم الخلد في دار المنايا فكم قد رام مثلك ما ترومُ

وقال غيره:

أعَارَكَ ماله لتقوم فيه بطاعته وتعرف بعض حقه
فلم تعمل بطاعته ولكن قويت على معاصيه برزقه
تبارزه نهاراً ثم ليلاً وتستخفي بها من شر خلقه

ما أسوأ حال عبدٍ يصلي ويصوم، ويسهر ويقوم، ثم هو يحفر بئراً لأخيه، لا يدري أنه يقع فيه. قال الشاعر:

اغتنم ركعتين زلفاً إلى اللـ ـه إذا كنت فارغاً مستريحاً
وإذا هممت بالزور والبا طل فاجعل مكانه تسبيحاً

❁❁❁

اغتنم ركعتين عند فراغ فعسى أن يكون موتك بغتة
كم صحيح رأيت غير مقيم ذهبت نفسه الصحيحة فلتة

قال الوافد: كيف أصنع؟ كيف التواضع؟

قال العالم: يا عجباً ممن خلق من نطفةٍ، ورزق بلا كلفةٍ، كيف لا يلزم التواضع والعفة؟!

ويا عجباً ممن خلق من ماءٍ مهين، كيف يغتر بالمال والبنين؟!

ويا عجباً ممن أصله من التراب والطين، كيف لا يتواضع للفقراء والمساكين؟!

كيف يفتخر ويعجب؟ ويضحك ويطرب؟ ويلهو ويلعب- والقبر منزله، والتراب وساده، ولا يعتبر ولا يتفكر، ولا يتوب ولا يستغفر؛ أليس بعد الغنا

الفقر؟ وبعد العمارة القبر؟!

وكيف يتكبر من أوله كف تراب؟ ووسطه ريح في جراب؟ وآخره ميتة في خراب؟

وكيف يفرح بالمنى- من هو عرض للفناء؟ كيف يطمئن بالسرور- من تُعَجِّله المنية إلى القبور؟!

كيف يفرح بمضاجعة النواهد- من يضاجع الدود غداً في الملاحد؟!

أيها المعجب بالدنيا وأسبابه، المختال في مراكبه وثيابه، المفتخر بأهله وأصحابه- انظر إلى المنقول من بين أترابه، إلى ظلمة اللحد وترابه.

أيها المفخور برجاله وماله، المعجب بأحواله وأشغاله- انظر إلى المقبور وتفكر في حاله.

أيها المتطاول بعشائره وأحبابه، المسرور بعلومه وآدابه- انظر إلى من قَصَّر في شبابه، المختطف من بين أحبابه، هل منع منه حجابه؟ أو نفع أصحابه؟!

أيها الجامع لأنواع العلوم- أعلمت ما سبق لك من المعلوم؟ أتدري أمقبول أنت أم محروم؟ أم محمود عند ربك أم مذموم؟!

يا صاحب العلم والإفادة- أمعك خبر من الشقاوة والسعادة؟!

أيها الناظر في الدقائق- ألك أمان من البوائق؟ هل علمت بالحقائق، حتى رضي عنك الخالق؟ ما حيلتك إن هتك سترك غداً في مشهد الخلائق؟

قال الوافد: أخبرني من المكين في ذلك اليوم؟

قال العالم: المكين في ذلك اليوم- من أخف في هذا اليوم.

العظيم- من أتى الله بقلب سليم.

المتين- من عرف الحق المبين.

القوي الشجاع- من عرف الملك المطاع.

الحازم الوفي- من ترك العمل الدني.

قال الوافد: من الحقير في ذلك اليوم؟

قال العالم: الحقير من هو في رحمة فقير، الحقير من هو للذنوب أسير، الخاسر البائس- من هو من رحمة الله آيس، السقيم- من هو في النار مقيم، الحزين- من كان له من الشياطين قرين، الهالك- من سُلِّم إلى مالك.

يا صاحب الحسن والجمال والفخر- عند انقطاع الآجال يَبْطل الجمال.

يا كثير الأشغال- كأني بك يقلبك الغَسَّال، ماذا العجز والإذلال؟ كيف تطيق السلاسل والأغلال؟

ما أسوأ حالك- إن لم تقدِّم مالك. لا تُفْقِر نفسك وتُغْنِ عيالك.

يا ذا الأموال الكثيرة- غداً نفسك إليها فقيرة، يا ذا العز والملكة- كيف بك في دار الهلكة، يا ذا العساكر والجنود- كيف عيشك في دار الوقود.

قال الوافد: أخبرني من الملك في ذلك اليوم؟

قال العالم: الملك من رضي عنه الملك.

النبيل من استقام على السبيل.

الخليل من رضي عنه الجليل.

الشريف من هو من الأوزار خفيف.

الظريف من هو عن الحرام عفيف.

العاقل من لم يكن عن الله غافل.

يُستقبح من المؤمن كبره، ومن الشيخ كفره، ومن الفتى فقره.

حقيق بالتواضع من يموت، وبالبذل مال يفوت.

المؤمن دنياه فوت، ومعاشه قوت، وقيل في ذلك شعراً:

صنيعُ مليكنا حسن جميل فما أرزاقنا عنَّا تفوتُ

فيا هذا سترحل عن قليل إلى قومٍ كلامهم السكوتُ

وقال غيره:

أيها الشامخ الذي لا يرام نحن من طينة عليك السلام

إنَّما هذه الحياة متاعٌ ومع الموت تستوي الأقدام

قال الوافد: كيف يهنانا العيش في هذه الدنيا وهذه أفعالها في أهلها؟

قال العالم: إنَّ بنانا للخراب، وإنَّ أعمارنا إلى ذهاب، ودهرنا إلى انقلاب.

الموت يبدد الأحباب، ويفرق الأصحاب.

الموت ينزل الملوك من القصور والقباب، إلى القبور والتراب.

كلما عملنا معدود، وعلينا حفظة وشهود.

أعمالنا محفوظة، وأنفاسنا مقبوضة، وسيئاتنا علينا معروضة.

لنا من كأس الموت شراب، ولا نأمن من بعده سُوء العذاب، طوبى لمن له في الطاعة اكتساب، حتى ينال في الآخرة الثواب، الويل لمن له العتاب، والحساب والعذاب، والموت يدخل كل باب، من أخرجه الموت من داره لم يكن له إياب.

غفلنا عن اكتساب الخيرات، ولم نستعد للممات، ولا بد لنا من الحساب، ولا

بد لنا من العرض على الملك الوهاب.

ما أغفلنا عن الآخرة!! ما أغفلنا عن الورود في الساهرة!!

غفلنا عن الانتحاب، غفلنا عن الاكتساب.

غفلنا عن الآزفة، غفلنا عن الواقعة، غفلنا عن القارعة.

لم نكثر الندامة، لم نذكر القيامة، لم نخف الظلامة.

يا من بارز الله في السر والحجاب، وغلَّق عليه الأبواب، أتظن أن ذلك يخفى على الملك الوهاب؟! إنك في دينك مصاب، إن العاصي يسقى في النار من الحميم المذاب، هل معك لمالك خازن النار جواب؟ أم لك عنده خطاب؟ أترجو من غير الطاعة الثواب؟ ما أسوأ حالك عند البعث والحساب!!

ما أغفلنا عن الرحلة!! ما أغفلنا عن الزلزلة!! ما أغفلنا عن الصيحة!!

ما أجرأنا على الخالق!! ما أكفرنا للرازق!! يا ويل كل منافق.

إنَّا راحلون، إنَّا مسؤلون، إنَّا موقوفون، إنَّا مهانون.

إنَّا على سفر، بين أيدينا خطر، ما لنا لا نحذر؟ هل لنا من مفر؟ لا ملجأ من الله ولا وزر، إلى الله المستقر.

العاقل من ترك ما يهوى لما يخشى.

قال الشاعر:

سبحان ذي الملكوت ربي ليلة ... محضت بوجه صباح يوم الموقفِ

لو أن عينًا أوهمتنا نفسها ... أن العذاب[1] مُصَوَّرٌ لم تَطْرُفِ

---

(١) – ما في المعاد. (خ).

حُـتِم الفنـاءُ عـلى البريـة كلهـا فالنــاس بــين مُقَــدَّمٍ ومُخَلَّــفِ

قال الوافد: صف لي الراغب.

قال العالم: قَلَّ الراغب، وتُرِك الواجب، ما لله طالب، ولا لعذابه راهب، ولا في ثوابه راغب، ولا عن الذنوب تائب، ولا إلى التوبة منيب آيب، ولا فتىً نفسُه لله واهب، بل مدع كاذب، تارك للحق مجانب، معانق للخلائق مواظب، جاذب[١] للدنيا مجالب، مهمل للسنَّة والواجب.

إن البكاء على أمثالنا واجب، قبل الوقوع في العذاب الواصب، بين الحيات والعقارب.

نفس من الباب طريد، وقلب من النشاط شديد، وعمل من الْمُرِيد بعيد، كأن الفؤاد حجر أو حديد.

أيها القلب الشديد أما يكفيك الزجر والتهديد؟ أما سمعت الوعد والوعيد؟

نهارك عطلة، وليلك غبطة، ودهرك مهلة، ليس لك عن الجهل نقلة، أيُّ عذرٍ لك غداً أو أي علةٍ؟ إلى متى العمل والزلة؟ والمودة في غير الله والخلة، أما تخاف موقف الذلة إذا عرفت عملك كله؟ وعرضت على عالم التفصيل والجملة؟

أي ليل لك وأي يوم؟ وأي صلاة وأي صوم؟ إلى كم الغفلة والنوم؟ إلى كم تتبع عادات القوم؟ إلى كم تجوم[٢] في المعاصي حقاً ما جوم، كأني بك وقد أوقفت موقف اللوم.

---

(١) - مشغوف بالدنيا طالب صح. (خ)

(٢) - في القاموس: جام جوماً: طلب شيئاً خيراً أو شراً.

على أي عهد الله أوفيت؟ على أي وعد قمت؟ على أي توبة نمت؟ أي صلاح إليه رمت؟ هل صليت لله مخلصاً أو صمت؟ هل قعدت في رضا الله أو قمت؟

أي معصية لله تركت؟ أي طاعة لله سلكت؟ أي هوى لنفسك لله خالفت؟

أي ليلة سهرت لربك؟ أي يوم صمت من خوف ذنبك؟ هل أعملت في جوف الليل فكرك؟

قد أذنبت فهل اعتذرت، وقد أجرمت فهل جديت؟ وقد أضعت فهل أطعت؟ قد هربت فهل طلبت؟

تقول وخرقت، وتوانيت وسوفت، وبارزت وخالفت، وعصيت وجاهرت.

كأني بك وقد ندمت على إضاعتك، وتأسفت عن ترك طاعتك، وبكيت عند هجوم ساعتك، وخسرت في تجارتك وبضاعتك، ولم تنتفع بفصاحتك وبراعتك، وذهب ما كان من قوتك وشجاعتك.

قال الوافد: وعدنا الله في كتابه الرحمة.

قال العالم: إن رحمة الله قريب من المحسنين، إذا عملت بالرضا، عفا عنك ما مضى، وحرم لحمك على لظى، وإن لم تعمل بالرضا، أخذك بما بقي وما مضى، وأحرقك بنار لظى.

إذا نظر ستر، وإذا عدل قبل، وإذا رحم غفر، عظيم فضله، صادق قوله.

عليم رحيم، بالكرم موصوف، بالرحمة معروف، يستر والعبد ينشر، يكفي ويعافي، يشفي عبده، ويوفي وعده.

كم من قبيحٍ فَعَلْنَا ستَرَه، كم من رزق لنا يسره. اقرع بابه تجد جوابه، اقرأ

كتابه يبين(١) لك عتابه.

ارجع إليه يمن بالقبول، اقرب إليه يحسن بالوصول.

ما ضاع من قصده، ولا جاع من عبده، ولا خاب من أمله، ولا خسر من عمل له. بابه لا يغلق، وحكمه لا يسبق، وجاره لا يغرق.

القلوب من خوفه تَفْرَق، والصدور من هيبته تقلق، والرجاء بعفوه يَعْلَق.

من ناجاه أنجاه، ومن اتقاه وقاه، ومن أوفاه وفَّاه، ومن أطاعه أطاعه، ومن التجأ إليه نصره، ومن استغنى به ستره، من قصده قبله، من وحَّده أنحله، من عبده فضَّلَه، من تاجره ربَّحَه، من أمَّلَه فَرَّحه، من سأله منحه، من ذكره ذكره، من استهداه وفَّقه، من توكل عليه رزقه، من أمَّله صدقه، من تعزز به أعزه، من استغنى به أغناه، من سأله أعطاه، من تولاه والاه، من استأنس بذكره لم يخف ولم يخب، من تحلا بطاعته نال ما يحب. المفر إليه، وعنده المستقر.

مَنْ للفقراء إلاَّ الغني؟ مَنْ للضعيف إلاَّ القوي؟ مَنْ للذليل إلاَّ العزيز العلي؟ من للعبد إلاَّ سيده؟ وأين يوجد إلاَّ عنده.

قال الوافد: كأني بالقيامة وقد قامت!!

قال العالم: نعم كأني بالشاب المليح- وهو في النار طريح، ثاوٍ يصيح، بمقامعها جريح، يطلب الراحة لا يستريح، بين أطباق العذاب يصيح.

كم من شيخ كبير، في العذاب المستطير، لم ترحم شيبته، ولم تكشف كربته، ولم تقبل معذرته، قد أُطْعِم الضريع، وسقي الحميم، وعري وجُرِّد، وقُرِّب للعذاب

---

(١) - كذا في الأصل، وفي تأويله اقرأ التعليق السابق على قوله (يأتيك الجواب).

ومُدِّد، وضرب بالمقامع وتُهُدِّد، وغُلِّل بالسلاسل وخُلِّد وقُيِّد، وأنزل في أدراك النار وأفرد، وطرد من الرحمة وبُعِّد، وبسط له من النار ومُهِّد، وغُلِّظَ عليه العذاب وقُيِّد، ومُزِّق جلده بالسياط وبُدِّد، وصُبَّ عليه العذاب وجُدِّد، فالويل له من توابيت النيران، وغضب مالك الغضبان، يقول له: هذا جزاء ما أذنبت وعصيت، وأخطأت وتعمدت، وسوفت وتوانيت، لم تنته من العيب، ولم تتعظ بالشيب، بالمعاصي جاهرت، وبنفسك خاطرت، الصلاح أظهرت، والنفاق أسررت.

هذا جزاء من أظهر الصلاح وأضمر الفساد، هذا جزاء من أساء وظلم العباد، هذا جزاء من فَلَّتَ صلاته وأطال الرقاد، هذا جزاء من كان للمسلمين كثير الفساد، هذا جزاء من أضاع الصلاة، ولم يقم بها في الأوقات، هذا جزاء من لَهَىٰ واتبع الشهوات، هذا جزاء من عصىٰ الله في الخلوات.

قال الوافد: كيف يستريح في الدنيا من وعد بهذه المصائب؟

قال العالم: من ارتكب المحارم، وكسب المآثم، دخل هذه الدار، وخلد في عذاب النار.

يا من عصىٰ الملك العلام، وخلا في المعاصي في الظلام، يا من ذنوبه لا تحصىٰ، وعيوبه لا تنسىٰ، وذنبه لا يعفىٰ، وقد برح الخفاء، وكثر الجفاء، اخْسأ فيها يا مطلوب يا مكروب، يا كثير الذنوب، أفسدت في الدنيا دينك وضيعت فيها حظك.

يا كثير القبائح، يا عظيم الفضائح. يا كثير الرياء، يا قليل الحياء. يا مغرور، يا من عطل الأيام والشهور، يا من ركب الشرور. يا من جعل ليله لكسب الذنوب والأوزار، يا من عصىٰ الملك الجبار، يا من بارز الخالق في وقت الأسحار. يا من

يصبح عاصياً، ويمسي ناسياً، ويظل لاهياً- أصبحت من رحمة الله قاصياً.

يا مغبون يا مثبور، يا من اطمأن إلى دار الغرور، يا من قَدِم غير معذور، ما حيلتك يوم النشور؟! ما أتركك لصلاتك!! ما أغفلك عن أخذ زادك!! مهلاً عن التفريط، مهلاً عن التخليط، مهلاً قبل البين والفراق، قبل التقاء الساق بالساق، قبل محن لا تطاق.

قال الوافد: يا عجباً لهذه الدنيا ما أمكرها وأخدعها!! ما أخورها ما أدبرها!! ما أقل نفعها، ما أكثر ضرها!! تحلو وتُمِر. ما للدنيا بقاء، ما للدنيا وفاء، الدنيا بلاء، لا يجمعها ذو تقاء.

ما أكثر تخليطي، ما أكثر تفريطي، ما أغفلني عن أعمالي، ما أقبح أفعالي، إلى كم أغتر بآمالي؟ كم أُخَوّف ولا أخاف، كم أُعَرّف ولا أَعْرِف؟ كم أصر على الذنوب ولا أَنْصَرِف، كم يمهلني ربي ولا أَعْتَرِف؟ إلى متى أقول عسى وسوف؟ وأُدْخل الحرام الجوف؟

أدخلت في قلبي الظلمة، غفلت عن الطاعة، كفرت النعمة، نسيت الحرمة، واستمعت النهمة.

قال العالم: اعترف بذنبك، وارجع إلى ربك، وأقبل بكلك، واندم على فعلك، لا تحمل الثقيل، لا تستقل القليل، لا تنم الليل الطويل.

أظلم الناس من ظلم نفسه، وأضيع الناس من ضيع يومه وأمسه.

أسرق الناس من سرق من صلاته، أبخل الناس من امتن بزكاته، أنذل الناس من أساء عمله في خلواته، أجلد الناس من غلب شهواته، أغفل الناس

من ضيع حياته، أندم الناس من عطل ساعاته.

أقوى الناس من مات على التوبة، رأس مالك في الدنيا الطاعة، التقى أفضل البضاعة، من أمَّل الله أعطاه مأموله، من سأل الله بلغه سؤله.

أسلم الناس من خَمَلَ ذكره، وكثر شكره، من قنع بالعطاء سلي عما مضى.

كيف لا يهتم ولا يغتم، من لا يدري أي عمل به يختم؟ كيف يهناه رقاده، وكيف يتوسد وساده، وكيف يسكن نفسه وفؤاده، وهو لا يدري أهو من أهل الشقاوة أم من أهل السعادة؟! كيف يسكن إلى الدار والجار، ويقرّ به القرار ويأكل في الليل والنهار- من هو موعود بعذاب النار، وغضب الجبار؟!

لا تقصر في عمل الأخيار، ولا تسلك طريق الفجار، ولا تكسب الأوزار، وأطع ربك في الليل والنهار. ولا تأمن فتغتبن، ولا تجمع فتفتتن، وتَجَوَّع ولا تشبع، وتَوَرَّع ولا تطمع، وخف واحزن، فمنزلك القبر، وثوبك الكفن.

كيف يلهو بالملاهي- من بين يديه الدواهي؟ كيف يكسب الآثام- من وكل به الملائكة الكرام؟ كيف يضحك ويفرح- من عليه غداً يُضْرَح، وللدود والهوام يطرح، كيف يفرح ويَسْتَرَ- من يموت ويقبر؟

قال الوافد: ما لي لا أخفف اشتغالي؟ ما لي لا أترك جهلي؟ ما لي لا أتبع عقلي؟ ما لي لا أجهد؟ ما لي لا أخدم؟ ما لي لا أحْزِم؟ إلى متى الرقاد؟ إلى متى السهاد؟ إلى متى أخالف بما أعلم؟

أما أعلم أني إلى الله أقدِم؟ أين الحزم؟ أين العزم؟ أين الجهد؟ أين القصد؟ ما هكذا يكون العبد؟ إلى متى أنقض العهد؟ إلى متى أخلف الوعد؟ إلى متى أقول

غداً أو بعد غد؟! أما أعلم أن سكني اللحد؟

ما أقسى فؤادي!! نسيت معادي، ما أقل زادي!! قرب سفري، وركبت خطري، الآن تخلو الحدة، الآن تنقضي المدة، الآن ينزل الموت، الآن يقع الفوت، الآن يسمع الصوت، الآن يغلق الباب، الآن أفارق الأحباب، الآن أنقل إلى التراب، الآن أُحضر إلى الحساب، الآن أعاين البلاء.

ما لي لا أنتهي عن الهوى؟ ما لي لا أتبع الهدى؟

لا بد من سفر، لا بد من حضر، لا بد من يوم، لا بد من موت.

لا بد من العرض على الملك الفرد، لا بد من القبر، لا بد من الحشر، لا بد من النشر.

لا بد من حسرة، لا بد من عثرة، لا بد من زوال، لا بد من ارتحال، لا بد من الجزاء على الفعال.

خنت بالعينين، أصغيت بالأذنين، أخذت الحرام باليدين، سعيت إلى المعاصي بالرجلين، حركت بالكذب الشفتين، قطعت الرحم وعقيت الوالدين.

أعرضت عن مولاي، تتبعت هواي، نسيت ما بين يدي.

غفلت عما أساق إليه، لم أذكر ما أعرض عليه.

كأني وقد عَدِمْتُ بصر العينين، وسمع الأذنين، وبطش اليدين، ومشي الرجلين. كأني وقد منعت الخطاب بلساني، وسلبت القوى من أركاني، ونزعت روحي وأدرجت في أكفاني.

فويلي من ملائكة يشهدون عليَّ بما صنعت، ويحفظون ما ضيعت، فيا كربتاه،

ويا غماه، ويا حزناه، ويا غصصاه، ويا شجناه، ويا غبناه، ويا سوْءة حالتاه. ثم قال:

وصحيح أضحى يعود مريضاً ... هو للموت أدنى ممن يعود

وأطباء بعدهم لحقوهم(١) ... ضل عنهم سعوطهم والبرود

أين أهل الديار من قوم نوح؟ ... ثم عاد من بعدهم وثمود

بينما هم في النمارق والديباج ... أفضت إلى التراب الخدود

ثم لم ينقض الحديث ولكن ... بعد ذاك الوعد ثم الوعيد(٢)

فأجابه العالم: وهو يقول: إذا سمعت من يصلي على الرسول

أفنيتَ عمرك إدباراً واقبالاً ... تبغي البنين وتبغي الأهل والمالا

فالموتُ هَوْلٌ فكن ما عشتَ مُلْتَمِساً ... من هوله حيلةً إن كنت محتالا

فلستَ ترتاح من موتٍ ولا تعبٍ ... حتى تعاين بعد الموت أهوالا

أمَّلْتَ بالجهل أمراً لستَ تدركه ... والعمر لا بد أن يفنى وإنْ طالا

كم من ملوك مضى ريب الزمان بهم ... قد أصبحوا عِبَراً فينا وأمثالا

قال الوافد: حد لي الصلاة.

قال العالم: الصلاة صلة بين العبد والرب، وستر العيب وكفارة الذنب.

الصلاة صلة بلا مسافة، وطهارة كل خطيئة وآفة.

والصلاة مواصلة ومصافاة، ومناجاة ومداناة.

---

(١) - تخوفهم (نخ).

(٢) - في بعض هذه الأبيات إشكالات وزنية وقد أثبتها كما هي في الأصل.

المصلي يقرع باب الله، ويطمع في ثواب الله، وهو قائم على بساط الله عز وجل.

إذا كبر العبد تكبيرة الإحرام- تساقط عنه الوزر والآثام.

إذا توجه العبد إلى القبلة- فقد أبدى من نفسه الخضوع والذلة، واتبع الشرع والملة.

إذا أخلص العبد في الصلاة نيته- كَفَّرَ الله عنه ذنبه وخطيئته، وأجزل له عطيته.

إذا أخلص العبد في القراءة والتلاوة- سطع في قلبه النور والحلاوة.

إذا قرأ الفاتحة- أدرك الصفقة الرابحة، إذا أتبعها بالسورة- كثر في الآخرة سروره، وكفاه الله محذوره، إذا انحنى للركوع- فقد أظهر لله الخضوع، إذا قام على الاعتدال فقد نفى عنه الاشتغال.

إذا هوى للسجود- فقد خرج من الجحود، واستحق من الله الجود، إذا تشهد على التمام- سلمت عليه الملائكة الكرام، وبشروه عند موته بدار السلام.

الصلاة شرح للصدور، وفرح من جميع الأمور.

الصلاة نور في الفؤاد، وسرور يوم المعاد.

الصلاة للقلوب منهاج، وللأرواح معراج.

الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، وتؤمن صاحبها من نكير ومنكر.

الصلاة تغني بعد الإفلاس، وتلبس العبد الإيناس.

في الصلاة قرة العين وجلاء الدين، المصلي على بساط المولى، يناجي الملك الأعلى.

الصلاة ضياء في القبور، وبهاء يوم الحشر والنشور.

الصلاة يجوز صاحبها على الصراط، وتورث صاحبها في القلب النشاط.

الصلاة تنزع قساوة القلوب، وتكفر كبائر الذنوب.

الصلاة تسهل العسير، وتمحو الذنب الكبير.

الصلاة توسع الأرزاق، وتطيب الأخلاق.

الصلاة تقرب العبد إلى ربه المولى، ويأمن البلوى.

من لزم المحراب قرع الباب، ومن قرع الباب جاءه الجواب.

علامة صحة الإرادة- لزوم المساجد للعبادة.

الصلاة تخفف الأوزار، وتقرب المزار، وتؤمن من النار.

أقرب ما يكون العبد من ربه إذا سجد.

لو علم المصلي من يناجي ما التفت من صلاته.

من سهل في أوقات الصلاة، فقد ضيع أشرف أوقاته.

وقال في ذلك:

اخضـع لربـك في الصـلاة ذلـيلا　　　واذكـر وقوفـك في الحسـاب طـويلا

لو كنت تعلم بين يدي من تقوم كنت تلازم بابه وتدوم.

عجباً ممن ينادي الملك القاهر كيف يخطر في قلبه الخاطر.

ليس للمرء من صلاته إلاَّ ما عقل، ولا ترفع صلاته إذا غفل.

عفر وجهك بالتراب لعله يفتح لك الباب.

أحضر للصلاة باطنك كما أحضرت ظاهرك، طهر باطنك، كما تطهر ظاهرك، طهر قلبك كما تطهر ثيابك.

عجباً ممن يسأل الخلق وباب مولاه مفتوح لكل سائل!! عجباً لمن يتذلل للعبيد وله عند سيده ما يريد.

من أطال لله القيام أزال عنه الأوزار والآثام.

من أخر الصلاة عن الأوقات مِنْ غير علة من العلات حرم الخيرات والصالحات.

من ترك الصلاة إلى الليل حل به الذل والويل.

من حافظ على الصلاة تتابعت عليه الخيرات، ورفعت عنه النقمات.

من لم تكن الصلاة من باله وعزمه لم يبارك له في رزقه وترك الله سهمه.

من أضاع صلاته لم تقبل حسناته.

من ضيع صلاته كثرت عند الموت سكراته.

من غَفَل عن الصلاة والذكر ضيق عليه في القبر.

الصلاة عماد الدين، وتمامها صحة اليقين.

قال الوافد: ما لمن يقوم الليل؟ صف لي ثوابه.

قال العالم: من قام في الليل وسهر نجاه الله من اليوم العسر.

من خاف البيات لم يغلبه السبات.

من حذر من الحرام شرد عنه المنام.

من اغتنم الليالي والأيام لم يقطعها بالبطالة والمنام.

من أطال الرقاد فقد طمس النور من الفؤاد.

من دام رقاده عدم مراده.

من ألف الوطء والمهاد خرج إلى الآخرة بغير زاد.

من تعود الوسادة لم يؤدي[١] حق العبادة.

من خاف ضيق اللحد لم ينم على الخد.

من عصى مولاه كانت الجحيم مأواه.

من كسب الآثام قام إلى الصلاة من بين النيام.

من فزع من يوم القصاص تضرع إلى ربه بإخلاص.

من تحقق أن الرب اطلع في المعصية عليه أسبل الدموع في الليل على خديه.

من علم أن إلى ربه مرجعه هجر في الليل نومه ومضجعه.

من تحقق أن المصير إلى الله والرجوع أكثر من السجود والركوع.

من تفكر في قبيح الرجوع شرد عن عينيه الهجوع، وأسبل من مقلتيه الدموع.

من علم أنه مأخوذ مطلوب كان له في الليل تهجد وهبوب[٢].

من عرف عصيانه دَاوَم أحزانه.

من داوم أحزانه لم تنطبق بالليل أجفانه.

من غلب على قلبه الحزن نزع من عينيه الوسن.

من تحقق الإفلاس شرد عنه النعاس.

من علم أن الله يدعوه لم يزل يخافه ويرجوه.

إن الله يقول عز من قائل: هل من داع فأجيب؟ هل من مطيع فأثيب؟ هل من متقرب فأنا منه قريب؟ هل من تائب فأتوب عليه؟ هل من سائل فأفضل

---

(١) - كذا في الأصل.

(٢) - ذكر صاحب القاموس أن من معاني الهبوب الانتباه من النوم، ونشاط كل سائر.

عليه؟ هل من متوكل فأسوق عطاي إليه؟ هل من مستغفر فأغفر له؟ هل من مستعين فأعينه؟ هل من مستجير فأجيره؟

يا أهل الليل دام لكم الوصال، يا أهل الليل نلتم خير منال، يا أهل الليل أبشروا بالسرور والجمال، يا أهل الليل كفيتم جميع الأهوال، يا أهل الليل أمنتم الأفزاع والأشغال، يا أهل الليل تقر أعينكم عند انقضاء الآجال، يا أهل الليل عليكم بالتضرع والابتهال، فقد اطلع عليكم الكبير المتعال.

يا أهل القرآن تهجدوا بذكر الرحمن، يا أهل القرآن معكم النذير والبيان.

من سهر في الليل وقام، وتَجَوَّع بالنهار وصام- كان مقامه في الآخرة خير مقام.

يا أهل الليل قد غلقت الملوك عليها أبوابها، وطاف[(١)] عليها حجابها، وطلبت صحبة أصحابها، وأرخى أهل المعاصي أستارها، وأنا الملك الجبار، العزيز الغفار الستار، أطلب عبادي، وأزيد أهل ودادي ومن يختار على مراده مرادي، أقول: يا عبادي، أبشروا بودادي، وبالثواب في معادي.

قال الوافد: ما أجرأ العباد على المعاصي لم يخافوا الأخذ بالنواصي.

كم تغفل وتنام؟ وتظلم الأيتام؟ كأني بك وقد غافصك[(٢)] الحمام وأنت غافل في ألذ منام، يا من هو مقيم على القبائح والآثام، أما تخاف انقطاع الأيام، وحلول الحِمَام، وشهادة الملائكة عليهم السلام؟!

قال العالم: في الليل يقرع باب الوهاب، في الليل خلوة الأحباب، في الليل

(١) - قامت. (خ).

(٢) - في القاموس: غافصه: فاجأه.

تقبل توبة من تاب، في الليل يستغفر من بهت واغتاب، الليل يعمر القلب الخراب، في الليل يجيء الجواب، الليل لأهل الصلاة في المحراب.

يا أهل الأسحار لكم الأنوار، يا أهل الليل خففت عنكم الأوزار، يا أهل الليل أبشروا برضا الجبار، ومرافقة الأخيار الأبرار، يا أهل الأسحار أقبلوا على الاستغفار.

في صلاة الليل النجاة من الويل، في المناجاة نجاة، في الصلوات صِلات، أَقْبِلوا فهو ذو الإجابة، هلموا فهو ذو الإنابة، اعملوا بالصواب يفتح لكم الباب، أطيعوا فهو يضاعف لكم الثواب.

سلوا الأمان يا أهل الإيمان، تضرعوا إلى الحبيب، فهو إلى المتضرعين قريب، ارجعوا إليه يكن لكم من كل خير نصيب.

السهر السهر، يا من هو على سفر، الإدلاج الإدلاج، يا طالب المنهاج، البكور البكور، يا من يريد السرور، الأسحار الأسحار، يا من كثرت منه الأوزار، الضراعة الضراعة، يا من كثرت منه الإضاعة.

قال الوافد: صفْ فضل الصيام، والإقلال من الطعام.

قال العالم: أكثر من الصيام تسلم من الآثام، أقل من الطعام تسبق إلى القيام، من شبع من الطعام غلبه المنام، ومن غلبه المنام- قعد[١] عن القيام.

الشبع يظلم الروح، ويترك القلب مقروح[٢]، الجائع عفيف خفيف، والشبعان عاكف على الكنيف، من لم يزل شابعاً لم يزل الشيطان له متابعاً.

---

(١) - بعد. (خ).

(٢) - كذا ولعله على لغة ربيعة، لتوافق السجعة الأولى.

الشبع يكسب الجزع، ويذهب الورع، ويكثر الطمع. الصوم جُنَّة من النار، ورضاً للجبار.

من أطاع ضرسه أضاع نفسه، الجوع في الفؤاد نور، وفي المعاد سرور، من استعمل القصد استغنى عن الفصد، من أشفق على نفسه لم يتبع شهوات ضرسه!! من أطاع أسنانه هدم أركانه، من قنع شبع، ومن شبع طمع.

كم من طاعة نبعت من مجاعة، كم من قناعة أتت بخير بضاعة، لا مجاعة مع القناعة.

قال الوافد: صف لي المراقبة.

قال العالم: من راقب الله في الخلوات أجاب له الدعوات، المراقبة تورث المحاسبة، راقب مولاك في الليل إذا دجاك، وفي النهار إذا أضاك- يعصمك من هواك.

اذكر نظر الله إليك، ولا تنسَ طاعته عليك، أما تعلم أن الرب إليك ناظر، وعليك في كل الأحوال قادر.

أما تعلم أن مولاك يراك، ويسمع سرك ونجواك، ويعلم منقلبك ومثواك؟!

أرخيت عليك الأستار، وأخفيت ذنوبك عن الجار، وبارزت الجبار، بالمعاصي الكبار، وجمعت الذنوب والأوزار، وشهد عليك الليل والنهار، والملائكة الحضار. أما تخاف عقوبة الجبار؟ والخلود في النار؟

إلى كم تتستر عن أعين الناظرين، وقد شاهدك أقدر القادرين؟ كم تخاف من المخلوق وتستخفي، ولا تخاف الخالق ولا تستحيي؟ كم تنقض العهود وتستخف بالشهود؟ كم تجترئ على المعبود؟ ويعود عليك ولا تعود؟ كم رآك على المعاصي وستر؟ واطلع منك على القبائح وما نشر؟ وغطى عليك وما شهر؟!

أما تذكر قبائحك؟ أنسيت فضائحك؟ أما تخاف من ذنوبك؟ أما تزدجر من عيوبك؟ أغَفَلْتَ عن الداهية؟ ألم تخف الهاوية؟ أنسيت من لا يخفى عليه خافية؟

قد اطلع عليك مراراً، وأسبل عليك أستاراً، وبارزته غير مرة فستر وعفا، ونقضت ما عاهدته عليه ووفى، ولو شاء لأمطر عليك الحجارة من الهوى، وسلب منك العطاء، وكشف عنك الغطاء، وأطلع عليك عباده، وضيق عليك بلاده، وبدل اسمك، وغير جسمك.

هب أنه ستر عليك في الدنيا فماذا تعتذر في العقبى؟ هب أنه تجاوز وعفا، وقد نقضت ما عاهدك عليه ووفى ألم تستح من خالق الأرض والسماء؟! ألم تستح من الحفظة الكرام؟! ألم تخف من لا يتغاضى(١) ولا ينام ولا يضام، فيا حياك من قلة الحياء، وقال في ذلك:

يا من شكى حافظاه خلوته   حين خلى والعباد ما فطنوا
لم يهتك الستر إذ خلوت به   بر لطيف كفيٌّ له المننُ

قال الوافد: صف لي فضل الإنفاق وقبح البخل.

قال العالم: ليس لك من مالك إلاَّ ما لبست فأبليت، أو أكلت فأفنيت، أو تصدقت فأبقيت، وما سوى ذلك فوبال عليك.

من صان فلسه أهان نفسه، من حبس درهمه جمع على نفسه همه. البخل أدوى الداء، والجود أنفع دواء، ما ثَقَّل الميزان مثل الإحسان، في الله فَلْيَكْثُر الإخوان، النجاة في القرآن، ما حبط العمل بمثل التعاجل والنسيان.

---

(١) – في الأصل تقرأ: يناضي، وقد ظنن في الحاشية بأنها يتغاضى، ولعلّها هي الصحيحة.

من لزم السماحة لم يعدم الراحة، البخيل في الدنيا مذموم، وفي الآخرة من الخير محروم. تملك البلاد بالفرسان، وقلوب العباد بالإحسان.

من بذل أمواله نال في الآخرة آماله. من جاد بكسرته فقد بالغ في مروءته، من أخرج فضلة الأموال نجا في الآخرة من الأهوال.

قال الوافد: كيف أصنع بالنفس حتى ترجع عن شر عادتها؟

قال العالم: إن النفس لا ترجع عن شر عادتها أبداً، وليس منها إقلاع ولا رجوع إلاَّ بالقهر والغلبة، والجهد والتضرع، فبالعلم والمعرفة والزهد تحبس النفس عن شر عادتها، حتى ترجع عن شهواتها، ولا تدرك ذلك منها إلاَّ بصدق الإرادة والصبر، والمعالجة وكثرة الخوف، والعمل بالصواب، وإذا ظفرت بها حتى تردها إلى طاعة الله ورضاه، ووفقت لذلك فاشكر الله، واعرف له بالطاعة؛ إذ جعل ذلك بتوفيقه لك، فينبغي لك من بعد ذلك أن تقلع عن الهوى وتصم أذنه، وتخرج التخاليط والآفات من أماكن مزرعها، وتَغْلِبُ هواك، وتحذر النسيان والغفلة، ووسوسة الشيطان وسرعة العجلة، وتأخير الخير، والتواني والفخر.

واعلم يقيناً أنك لا تظفر بذلك من نفسك حتى تقهرها وتمنعها من الرغبة، والحرص، والكبر، والرياء، والحسد، والرئاسة، والبخل، وطول الأمل، والتقلب في طلب الشهوات، والمحبة للدنيا، والتصنع للناس، وحب المحمدة، والغش، والخيانة، وخوف الفقر، والسعي للطلب مما في أيدي المخلوقين، ونسيان الموت والغفلة عنه، والشح، والسفالة، والسفاهة.

فإذا نصرت على ذلك، ونقيت القلب عن آفات ما ذكرت لك، شكر الله تعالى سعيك على ذلك، غير أن النفس لا تصلح حتى تكدها وتقهرها؛ لأنها بالشر والفتنة والآفات مولعة، هي خزانة إبليس، منها خرج وإليها يعود، وهي تزين لصاحبها تسعة وتسعين باباً من أبواب الطاعة والخير؛ لتظفر به في كمال المائة، فكيف يسد السيل العريض، من ليس يعرف مجراه؟

وكذلك النفس إذا جمحت وطغت، كيف يحدها من ليس يعرف شرها وهواها؟ وكيف يعرف ذلك من ليس يعرف عدوه ودنياه؟ فكيف يعرف عدوه ودنياه من ليس يختلف إلى العلماء؟ ولا يجالس الحكماء؟ ولا يخالط الصالحين؟

فإذا أردت النجاة فتعلم العلم من العلماء، وخذ الحكمة من الحكماء، ولا تشد على نفسك مرة، وترخي عنها مرة، ولكن أقبل عليها بعزم صحيح، وورع شحيح، وصبر ثخين، وأمر متين، حتى تمنعها عادة شهواتها.

ثم اجمع أطرافك إلى وسطك -أعني إلى قلبك- وهو أن تُحَكِّم القلب على الجوارح، ولا تحكم الجوارح على القلب، ولا يتم لك عمل ولا يخلص إلاَّ بهذه الصفة.

فتغمض عينيك عن الحرام والشهوات، فإن العين جاسوس القلب. ثم الأذنان فلا تقرع فيهما الشر والخنا والنمائم والكذب.

ثم اللسان خاصة يجب أن تنزهه من الكذب والغيبة والمجادلة والفضول والمقاولة والشبهات، فإنها معدن قذارة النفس، وهو ترجمان القلب، فمهما لم ترد الترجمة عن القلب يموت بمادة البدن.

ثم البطن خاصة فاحفظه عن الحرام والسحت والشبهة والشهوات فإن نور

القلب وصفاه من طيب طعمة البدن وخبثها.

وأما الفرج فما دمت حارساً لبطنك من الامتلاء والشبع فأنت قادر على حفظ فرجك.

قال الوافد: كيف يكون المريد للعبادة؟

قال العالم: يكون قلبه يجول في الملكوت الأعلى، ثم يمنع نفسه من الرجوع إلى عادتها وشهواتها، فإن لم يكن كذلك فهو مغرور فيما هو فيه، وغير مستحق لما يدعي، ومحال أن يطير الطائر في الهوى، وهو مربوط في حجر ثقيل، كذلك القلب محال أن يصعد في الملكوت الأعلى وهو مربوط بالآفات، محفوف بالرغبة في الدنيا، مشغول بالتزين، والتنقل في الشهوات، والغفلة عن الطاعات، وقلة الخوف لما هو آتٍ.

واعلم أن مقام الأولياء لا يقوم به إلاَّ من عمل أعمال الصادقين، وهي الاجتهاد في الطاعات، والانتهاء عن الشبهات، والترك للشهوات، والتوكل والتفويض، والزهد والتسليم، والاعتبار والتفكر، والورع والذكر، والخوف والخلوة، والقرب والمعرفة، والحب والإخلاص، واليقين والصدق، والخشية والرجاء، وجميع ذلك لا يكون إلاَّ من القلب الصليب، الصافي الرقيق، التارك لحطام الدنيا وعنائها(١)، فإن الله تعالى يقبل على عبده بالجود والعطاء ما دام العبد مقبلاً على صفي عمله، لا يولي إلى غيره.

فإذا خيلت لك نفسك أنك من الصالحين فحقق ذلك بخمسة أشياء، واختبر بها نفسك، وهي الأخذ والعطاء، والفقر والغنى، والعز والذل، والمدح

---

(١) — قد تكون: وغثائها.

والذم، والموت والحياة.

فإذا وجدت قلبك يميل إلى واحدة منهن دون الأخرى فاعلم أن الذي أنت تزعم باطل، هذا من تخيل النفس، وأنت مغتر فيما تدعي، لم تنل شيئاً مما ناله البررة الصادقون.

واعلم أن لكل شيء حقيقة، ولكل صدق علامة، فحقيقة المعرفة معرفة النفس، فمن عرف نفسه فقد عرف ربه.

وحقيقة الصدق الانقطاع إلى الله ورفض الدنيا، فمن عرف الرب عبده، ومن عرف الدنيا زهد فيها، فمن عرف الله أحبه، ومن أحبه لم يعصه، وعمل بما يرضيه. وإن نعيم المحب ساعة واحدة أكثر وأحلى وأطيب وأعلى من نعيم أهل الدنيا بنعيمهم من يوم خلقهم الله تعالى إلى آخر ما يفنيهم، وإن رفيع الدرجات ذو العرش إله الدنيا والآخرة حبيبهم، به يستأنسون، وعلى بساط قربه يتقلبون، وفي جزيل كرمه يتنعمون، وبذكره يتلذذون، وبالوصول إليه يفتخرون، قد وعدهم من جزيل عطائه، وسعة رحمته، ومكنون فضله، ما يعجز عنه الوصف، ورضي عنهم وأرضاهم واصطفاهم، أولئك الذين لا يشقى جليسهم، ولا ترد دعوتهم، يدورون مع الحق حيثما دار، والأرض بهم رحيمة، والجبار عليهم راضٍ، جعلهم الله بركة أرضه، ورحمة على عباده، فطوبى لهم وحسن مآب.

قال الوافد: صف لي الصادق المجتهد.

قال العالم: هو الذي لا يَعِيّ عن الاجتهاد فيما يقرب به إلى الله في تحريكه وسكونه، وكلامه وقيامه وقعوده، ثم يجعل اجتهاده من جميع جوارحه بصدق تكلفه، ثم

يجعل تحريك لسانه، واستماع أذنيه، وبطش يديه، ومشي رجليه، وأخذه وعطاه، ونومه ويقظته، وجميع ما يكون منه في ليله ونهاره يصدق بعضه بعضاً.

ثم يجعل طعامه وشرابه ولباسه، وجوعه وعطشه، وقيامه وقعوده، وشبعه وريه ـ يوافق بعضه بعضاً، ويجعل جميع ذلك صدقاً منه، وقصداً إلى ما يوافق إرادته، وليكن ذلك من خالص قلبه.

فإن فعل ذلك كان صادقاً في إرادته من عبادته، فإن الصادق المحب، المستمر في الطاعة ـ ينبذ الدنيا وراء ظهره، ويظمأ نهاره، ويسهر ليله، ويترك شهواته، ويخالف هواه، ويقصر أمله، ويقرب أجله، ويخلص عمله من الآفات والتخاليط، ويرتعد بدنه من خوف الله، قد عزف الدنيا عنه لما عرف مكرها، وخاف مضرتها، لم ينظر إليها بقلبه، ولم يمش إليها بقدمه، ولم يبطش فيها بيده، حذراً من الدنيا، وحذراً من شرورها وفتنتها، فهو هارب بنفسه حذراً من أهلها، فقلبه غير غافل عن الله، مداوم على الذكر، وقد عزل عن نفسه كل شغل شغله عن الله عز وجل، وأقبل على قلبه فعمره بذكر ربه، وجعل ذلك صافياً خالصاً لله تعالى، فهو خائف وجل مرعوب، هارب من الدنيا وأهلها، محافظ على عمله، قائم على نيته، فبذلك يهتدي الضال، ويسلك الطريق، ويستجيب الله دعاءه، ويملكه من قصور الجنة، ويزوجه من حور العين، ويخدمه الولدان، فطوبى له وحسن مآب.

قال الوافد: صف لي الإخلاص.

قال العالم: إن مثل نور الإخلاص مثل نور الشمس، لو غطى عين الشمس

أدنى الغيم ـ تكدر من ضوئها على مقدار ذلك الغبار، وإن كانت عين الشمس في ذاتها صحيحة فذلك مثل الصفاء والإخلاص، وكذلك كل عمل يكون أصله لله خاصة فهو له خالص، ثم ربما شابه شيء من الدنس والكدر فأحبط عليه عمله، فالآفات التي تحبط العمل سبع:

أولهن: الكبر.

والثاني: الحسد.

والثالث: الحرص.

والرابع: الرياء.

والخامس: العجب.

والسادس: الشهوة.

والسابع: البخل.

فما دخل على المؤمن من هؤلاء فقد نقص إيمانه ومثل ذلك مثل الثوب الجديد الأبيض، يصيبه شيء من الدنس والغبار، فيذهب من نوره وصفائه وبهائه على مقدار الغبار والدنس، وإن كان الثوب في الأصل جديداً لا عيب فيه، وكذلك مثل الإنسان في صلاته يكون في طهارته محكماً وفي ركوعه وسجوده محكماً، فظاهره طاهر، وباطنه محشو من الآفات والتخاليط، فمن خلط فقد اغتر، واستعبده الهوى، وزين له شيطانه، وخيلت إليه نفسه الكذب صدقاً، والباطل حقاً، ولم يستحق اسم الإخلاص، ولو أن مؤمناً بلغ من كراماته عند الله أن يطير في الهواء ـ لم يزده ذلك إلا شدة وخوفاً واجتهاداً في العبادة، وما ازداد عند الله

خشية إلا ازداد عند الله عبادة. وما جعل الله للخالص(١) إلى الرخصة سبيلاً. فمن كان لله أعرف، فهو لله أخوف.

فينبغي لمن أراد الإخلاص في عمله ألاَّ يسكن روعته، ويكون خائفاً، وجلاً حزيناً، وإذا كان الخوف والحزن- وافقهما القبول من الله؛ لأن الخوف والحزن معدن (٢) للصفا، ومخ الإخلاص وبنيانه، وكل عمل لم يكن يوجل القلب عليه فقد حفت بعمله الآفات من حيث لا يشاء، وإن لأعمال الطاعات آفات مختلفة مغطاة، ليس يعرفها إلاَّ كل مطيع، وذلك أن الطاعة ربما هاج من صاحبها العجب والرياء، والفخر والأمان، من غير أن ينظر لها، فالعاقل يهتم لصفاء عمله وإخلاصه، ولا يغفل عن ذلك في ليله ونهاره، وحركته وسكونه، وذلك مما يدخل عليه من هوية النفس وتلبيس الهوى.

قال الوافد: صف لي تصحيح الإرادة.

قال العالم: إذا علم الله من قلبك صحة الإرادة وإخلاص العمل- أوصلك إلى الخيرات، وهدى قلبك، ويسّر أمرك، وجمع شملك، وهوّن عليك الصعوبة، وقمع عنك الشهوات، وبغّض إليك الدنيا، وبصّرك عيوبها وأدواءها حتى تعافها.

وإذا عرف منك الصدق والاجتهاد، وعلم أنك لا تختار عليه غيره- قبل الله سعيك، وشكر عملك، وصار اجتهادك تلذذاً وحلاوة، فإذا رآك الله تعمل على الحلاوة ولا تتوانى، ولا تختار عليه الدنيا، ولا تتبع هواك، ولا تطلب شهوتك ـ

---

(١) - للمخلص. (ظ).

(٢) - في الأصل معدناً للصفا.

قبل الله منك عملك، ونثر عليك من صفاء بره، ونثر عليك من مخزون رحمته، وكثر عليك عطاء ربك، ومنحك من خزائن جوده، وجزيل مواهبه ومعونته ما تقر به عينك، وما إذا رأيته زادك اجتهاداً وخوفاً وعزماً، ونظّر أثر ذلك عليك، وأورث قلبك النور والتقى والهدى، والشبع من الدنيا، وأغناك عمن دونك، وأعطاك من عطائه مالم تحسن أن تتمنى قبل ذلك، والله كريم يقبل اليسير، ويعطي عليه الثواب الكثير.

قال الوافد: كيف أخلص العمل؟

قال العالم: إنك لا تدرك ذلك إلاَّ بالعزم، ومن كمال العزم قلة التسويف، ولزوم الصدق، وتمام النية، ومن تمام النية إخلاص العمل، ومن إخلاص العمل الصدق، ومن الصدق نقاوة القلب.

ومن تمام نقاوة القلب ستة عشر خصلة، بعضها على إثر بعض، وهي درجات الصالحين:

أولها الإنابة إلى الله سبحانه وتعالى، وترك التزين من نفسك، وترك التصنع للناس، وترك الحسد، ورفض الشهوات، والزهد في الحطام، والتجافي عن دار الغرور، والاستعداد للموت، والانقطاع عن الناس، والاقبال إلى الله بكل قلبك، والاتصال بالذكر الصافي، وحسن الخلق، والرأفة بالمسلمين، والأنس بالله في الخلوات، والشوق إليه، والمحبة له والرضا بالمقادير التي من عند الله، ثم اليقين؛ فإن الله تعالى يعطي العبد على قدر يقينه.

قال الوافد: صف لي الحياة الطيبة.

قال العالم: أقول لك: إن الحياة الطيبة لا تدركها إلاَّ بخمسة أشياء: أول ذلك العقل، ثم المعرفة، ثم اليقين، ثم العلم، ثم الغنى بما عند الله، فهذه الحياة الطيبة.

فإذا أردت أن تنالها فعليك بمنازعة النفس ومعاداتها، ومخالفة الهوى، فإن لك في ذلك كفاية، فإذا أردت أن تكون من أهل الصدق في الحياة الطيبة فإنك تنفي العادة الخبيثة، ولَبِّس نفسك الصبر والخلق الحسن، وأزل عن قلبك الذكر الرديء، ولا تشغل قلبك بغير ذكر الله وطاعته، وأمت حرارة الشهوة من نفسك، وليكن الموت عندك أحب إليك من الحياة، فإن الصالحين من قبلك تناسوا قلوبهم بالحزن الطويل، والجهد الثقيل، يريدون بذلك رضا ربهم والتقرب إليه، فإن أحببت أن تسلك طريقهم، وتقفوا آثارهم ـ فَحَوِّل نفسك عن الدنيا وزهرتها، وأدِّبْ نفسك بالجوع، وأذلها بالفقر، وموتها بقرب الأجل، وأبصر بعينيك إلى عرصة القيامة، حتى كأنك تحاسب فيها، فحاسب نفسك قبل ورودك إليها، واقطع نيتك عن كل شغل يشغلك عن الله، وتأدب بآداب الصالحين الذين من قبلك، رموا بقلوبهم نحو خالقهم، وكلما تحولت قلوبهم إلى غيره ـ حملوا عليها بالزجر، ورجعوا إلى مقامهم، وقصدوا بأبدانهم نحو قلوبهم، جهداً منهم، وأيأسوا أنفسهم عن الدنيا وراحتها، وعودوا قلوبهم الجهد، وكدوها في طاعة خالقهم، فعندما عرف الله منهم الصدق والثبات ـ أثابهم بالفرح والسرور من عنده، وصرف عنهم العادة الردية.

فإذا أردت أن تكون مثلهم فغمضْ عينيك عن الدنيا، واختم أذنيك عن أقاويل أهلها، واصرف قلبك عن زهرات بهجتها، وانقطع إلى ربك، واعمر

قلبك بذكره، واستعمل لسانك في شكره، واجعل قلبك مملوءاً من محبته، وتلذذ بطاعته؛ فإنه يغنيك عن الخلق كلهم، ويهون عليك الصعوبة، ويخفف عليك المؤنة، وتصير حراً عن عبودية الدنيا إذا وصلت حبلك بحبل خالقك، وتسلم من الأشغال، وتصبح منير القلب، كثير الذكر، لذيذ المناجاة، حريصاً على الطاعات، قليل الزلل والخطأ، قليل الغفلة، حسن الفعال، صافي الذكر، قليل الكلام والفضول، واسع الصدر، خلوتك مع الله لا تزول، وأنسك بالله، لا تستوحش إن كنت في القفرة، ويكثر يقينك في قلبك، فبدنك مطيع، ولسانك ذاكر، وكلامك حق، وعملك زين، وسعيك مشكور، وكل شيء منك نور، وكل حركة وسكون منك محمود، قد أعد الله لك النعيم في جنَّات النعيم.

قال الوافد: صف لي المتقي العارف.

قال العالم: إن من صفات المتقي العارف أن يكون غذاؤه ذكر الله، ورأس ماله اليقين بالله، ومطيته الهيبة من الله، ولباسه تقوى الله، وتحريكه التفويض لأمر الله، وعزمه التسليم إلى الله، وخوفه التعظيم لله، وهو محبوس في سجن الرهبة، مقيد بالحياء، متنعم بالمناجاة، قد أمرضه الشوق، وأشغفه الحب، فهو مستأنس بطبيبه، ممكن بحبيبه، وله ورع لا يشوبه طمع، ويقين لا يشوبه طلب، وانتباه لا يشوبه غفلة، وذكر لا يشوبه نسيان، وعزم لا يشوبه تواني، وتعب لا يشوبه عجز، وعلم لا يشوبه جهل، ورجاء لا يشوبه غرة، ودعا لا يشوبه فترة، وتفكر لا يشوبه توهم، وتوحيد لا يشوبه تشبيه، وتصديق لا يشوبه تكذيب، وتعديل لا يشوبه تجوير.

فهذه صفة المتقي العارف، فعليك بهذه الطريقة فالزمها، وأقبل عليها بقولك وفعلك، وحركتك وسكونك، وسمعك وبصرك، وظاهرك وباطنك، ونظرك وتمييزك، فإن الخير والبركة بحذافيرها لمن سلك هذه الطريقة.

واعلم أنك إذا صدقت عليها نيتك، وعلم الله منك المجهود في ذلك ـ نصرك عليها، وظفرك بها؛ فمن صبر على هذه الصفة أربعين يوماً لا يشوب عمله بالكدرة والتخاليط والآفات ـ اتَّقَد في قلبه مصباح النور، وانفتح له عينا قلبه، فيبصر بنورهما إلى جميع الدنيا والآخرة، فيعرف عند ذلك مصائب الدنيا ومصائب الآخرة، فيصبر على مصائب الدنيا، ويخاف من مصائب الآخرة؛ لأن مصائب الدنيا نعم، ومصائب الآخرة نقم.

فإذا ميَّز بينهما واعتبر ـ أقبل على خيرهما عاقبة، وعمل لآخرته بطيبة من نفسه، وانتبه واطمأن، وعرف أن الآخرة خير من الدنيا، وتحصن بذكر الله في دنياه، وعمل لعقباه، فطوبى له وحسن مآب.

قال الوافد: فما يجب عليه بعد ذلك؟

قال العالم: يجب عليه أن يدعو عباد الله إلى الله، ويعرفهم أنهم قد هربوا من ربهم، فيرغبهم ويردهم إلى مولاهم من بعد هربهم منه، ويحبب إليهم خالقهم، ويعلمهم شرائع دينه، ويعرفهم آلاء الله ومنَّه ونعماه، ويلقنهم الشكر، ويرغبهم بالذكر في طاعته، ويحذرهم من معصيته، ويريهم تقصيرهم، ويخوفهم هجوم الموت عليهم، ويعلمهم التوبة، ويدلهم على الله، ويعلمهم التوحيد حتى يوحدوا الله ويصدقوه ويعدلوه، وينشر العلم فنشره غنيمة، وذلك فعل الأنبياء

والصالحين، ولو سكت هلك العالم والمتعلم جميعاً. ومثل العالم والمتعلم مثل نور الشمس ونور العينين.

افهم لو أن رجلاً بصير العينين بقي في بيت مظلم، فسُدَّ بابه، فهو لا يهتدي إلى شيء فيه مخرجه، أليس يكون فيه محتاراً، لا ينتفع ببصر عينيه مادام البيت مظلماً، حتى إذا فتح عليه الباب وخرج ورأى ضوء الشمس؟! كذلك المتعلم يكون في بيت الجهل موثقاً عليه بأنه لا يهتدي إلى الخروج، حتى يفتح عليه العالم العارف، لأن المتعلم يستضيء بنور العالم، ويهتدي إلى منارة طرقه، ويخرج من ظلمة الجهل إلى نور العلم، فعند ذلك يكون علمه خالصاً صافياً من الآفات.

فإنما مثل الجاهل مثل مكفوف البصر، لا ينتفع أبداً بضوء النهار، فالليل والنهار في الظلمة عليه سواء، كذلك الجاهل لا يعرف ما هو فيه من ظلمة الجهل وعمى القلب، ولا يميز بين الحق والباطل. والجهل داءٌ وشينٌ، لا يداويه غير العلم، والعلم شفاءٌ وزين، لا يدخل معه داءٌ ولا شين.

وليس العلم علم اللسان، المعلق على ظاهر الإنسان، الخالي عن القلب، إنما هذا مثله مثل شبكة الصياد التي ينثر عليها الحب للطير، وليس يريد بذلك مرافقة الطير ولا منفعتها، لكنه يريد أن يصطادها بذلك الحب المنثور على الشبكة، كذلك عالم السوء لا يريد بعلمه رضا الله، ولكنه يريد رضا نفسه ومنفعتها، وقد جعل هذا علمه شبكة يصطاد بها حطام الدنيا.

وإنما العلم المنجي علم القلوب المنيرة، الصافية الخائفة، القانعة باليسير، السليمة من الآفات والتخاليط، وليس العالم من قد أسكره حب الدنيا، وإنما العالم

الذي يعمل للآخرة الباقية، فهو منتظر للنزول والانتقال، مشغول يخاف أن يفاجئه الموت بحال من الأحوال، فقلبه محزون، وشره مأمون، يجول بقلبه في الجنَّة أحياناً، وفي النار أحياناً، يخاف أن يكون من أصحاب النار، ولا يكون من أصحاب الجنة، فليس له همة غير تفتيش الآفات، وكثرة الذكر في كل حركة وسكون.

قال الوافد: صف لي عمل الغافل المتواني.

قال العالم: مثل عمل الغافل المتواني مثل الصوف المندوف، تراه عظيماً كثيراً فإذا وزنته لا يقوم في الوزن، كذلك الجاهل الغافل، يسر بكثرة عدد أعماله، وليس يعرف إخلاصها، وهو يصلي ويصوم، ويزكي ويحج ويعبد، ولا نور لعلمه ولا تزكية، ولا إخلاص في قلبه، وكيف ينال البركة والنور، وهو غافل ساهٍ؟! إن قام في الصلاة قام فيها بجسده، وغفل عنها بقلبه، وإن صام تكلم بالرفث والغيبة والكذب، وإن زكى ماله كانت زكاته كأنها مغرم، يخرجها لا تطيب نفسه بإخراجها، وهو مع ذلك رافع رأسه، شامخ بأنفه، متطاول على الناس، يتمنى على ربه الدرجات العلى، فإذا حركته لم تر معه من العبادة الخالصة قدر قطمير، ولا عليه سكينة تمنعه من كثير مما يهوى، ولا له قوة يكظم بها غيظه، ولا حلم يحجره، ولا ورع يكفه ويرده، ولا له إصابة في كثير مما يدخل عليه من الشبهات.

ثم إذا حركته وجدته قليل العقل، أعمى القلب، متزيناً في نفسه، متصنعاً للناس، يرائي بأعماله وهو لا يعلم، وهو متكبر في عبادته، ويعلو على الناس وهو يزعم أنه مخلص، ويزعم أنه متواضع للناس، ثم تراه حريصاً راغباً، مكباً على الدنيا،

وهو يزعم أنه مأجور على ذلك، قد ارتفع بعمله فوق الخلائق من عجبه.

وربما تراه يتكلم بكلام الخائفين، حتى إذا جربته وحدثته وجدته جاهلاً غافلاً، فلا يرضى من الخوف بأن يذم نفسه، وربما يعتبر ويتفكر ولا ينفعه ذلك؛ لأن ذلك لا ينفعه مع غفلته، ولعله يظن أنه من التوابين، منذ دهر طويل، ولعل عنده من الروايات والأخبار ما ليس عند كثير من الناس، ثم ليس هو يعرف من عمله لا الشبهة والكدرة، والزيادة والنقصان، ولا المضرة ولا المنفعة ولا يميز بين شيء من ذلك، فإنه لو جمع فهمه ونظر إلى نفسه لعرف خطاياه.

ثم لو نظر في مطعمه وملبسه، وكسبه وحرصه على دنياه لعرف سوء حاله. ولو حفظ على نفسه سعي بدنه وجوارحه، وكثرة ما يخرج من لسانه لتبين له ما يرد عليه في يوم واحد، ولعلم جراحة دينه، ثم لو كان صادقاً في توكله وانقطاعه إلى ربه- لترك دنياه وعمل لآخرته، ولكان حريصاً على طلب الخير، ولحذر على نفسه من سوء الحساب وكثرة الأهوال.

قال الوافد: صف لي المتوكل الواثق بربه.

قال العالم: عجباً لمن يثق بالمخلوق، ولا يثق بالخالق، ومن يهتم بالرزق، وقد ضمن به الرازق.

ثق بكفاية الله واعتمد عليه، ورُدّ أمورك وأحوالك كلها إليه، من لم يثق بضمان مولاه وكله إلى خدمة دنياه.

إن الله سبحانه يقول ﴿وَما منْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾[هود:٦] ما أعجب أمورك!! تأمن ما رُهِّبْتَ، وتحزن لما كُفِيت، ولا تشكر على ما أُعْطِيت.

إلى كم تأسى على المفقود؟ وقد ضمن الرزق الملك المعبود؟ إلى كم الحزن على القوت، وقد ضمن القوت الحي الذي لا يموت؟

الرزق مقسوم، وطالبه مغموم، كثير الهموم.

من جعل بالمولى اشتغاله كفاه المولى في الدارين أشغاله.

من وكل أموره إلى مولاه لم يكله إلى أحد سواه، وأغناه وكفاه، وآواه وأعطاه، ومن اعتصم بالله وقاه، ومن استعاذ به أنجاه، ومن أمل إفضاله لم يحرمه نواله.

ومن توكل على الوهاب لم يخضع لأبناء التراب، من عرف أن الله متكفل بالرزق- ساق إليه أسباب الرزق. من أقر أن الله هو المتفضل، لم يكن على غيره متوكل(١).

من عرف أن الله هو الجواد سخا بما في يده وجاد، من عرف أن الله هو المعطي لم يعصه أبداً ولا يخطي، من عرف أن الله هو الجواد لم يطلب من غيره المراد من تيقن أن الله خالق العباد، ومالك البلاد لم يعلق بغيره الفؤاد.

أتظن من غذاك في الصغر ينساك في الكبر؟ الذي رفع عنك المؤنة وأنت طفل يأتيك برزقك وأنت كهل، الذي رزقك وأنت مُغَيَّبٌ جنين كيف لا يرزقك وأنت تضرع وتستكين؟ يرزق من جحده، فكيف يضيع من وحده، يرزق الدودة في الصخرة الصماء، والطير في الأوكار، والحيتان في البحار، والوحش في القفار، فكيف يضيعك مع الذكر في الليل والنهار؟ والتسبيح في العشي والإبكار؟ يرزق الجِنَّة والناس، إلى منتهى الآجال وانقطاع الأنفاس.

---

(١) - إلى غير متوسل (نخ).

عجباً ممن يرفع حوائجه إلى المخلوقين، ولا يطلبها من عند رب العالمين.

عجباً ممن يسأل حوائجه من ضعيف لا يسجد له أحد، ولا يسألها ممن يسجد له كل أحد.

عجباً ممن يتذلل لمحتاج فقير، ولا يتذلل للغني الكبير.

عجباً لمن يخضع ويتضعضع للعبد الفقير، المحتاج الضرير، ولا يخضع ويتضعضع للملك القدير!! الذي يعطي الكثير، ويكشف العسير، ويغني الفقير، وهو على كل شيء قدير.

من اتقاه جعل له من أمره مخرجاً، ومن دعاه جعل له منهجاً وفرجاً، أجملوا في الطلب، فما من حكمه مهرب. من أجمل في الطلب، أتاه الرزق بلا تعب.

إذا أحرزت رزق غد- فمن يأتيك بالحياة إلى غد؟

لما رأيت الناس يسألون كل معجب نزهت نفسي عنهم وجعلت حوائجي إلى الرب. قال الشاعر:

فلا تجزع وإن أعسرت يوماً ... فقد أيسرت في الدهر الطويل
ولا تيأس فإن اليأس كفر ... لعل الله يغني عن قليل
ولا تظنن بربك ظن سوء ... فإن الله أولى بالجميل

وقال غيره:

لقد علمت وما الإسراف من خلقي ... أن الذي هو رزقي سوف يأتيني
أسعى له فيعنيني تطلبه ... ولو جلست أتاني لا يعنيني

لا خـير في طمـع يـدلي إلى طبـع [١]　　وعفـة مـن قليـل العـيش تكفينـي

قال الوافد: ما شروط التائب وأوصافه؟

قال العالم: شروطه المحبة والطاعة، والاقبال والضراعة. من أراد الحبيب جاء بقلب منيب.

من اعترف أقر بما اقترف، واعتذر وأنصف، وبادر وعطف، وتاب وأكثر الانتحاب، وعمل بالصواب، وتبع المحكم من آيات الكتاب.

أين التوبة، يا صاحب الحوبة[٢]؟ أين الاستغفار يا أهل الإصرار؟ أين الوجل يا أهل الزلل؟ أين الضراعة يا أهل الإضاعة؟

توبوا وأنيبوا، ولا تسوفوا[٣] فتخيبوا.

اعتذروا واستغفروا وازدجروا، وتذللوا واعتبروا، واخضعوا وانكسروا، واصبروا على الطاعة تدركوا الفوز والنفاعة.

ارغبوا وتقربوا واندموا على المعاصي ولا تصروا، وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون.

أين الموحدون؟ أين العابدون؟ أين الحامدون؟ أين العارفون؟ أين المقتصدون[٤]؟ وأين الطالبون؟ أين المشتاقون؟

كيف ينامون ولا يشتاقون إلى جنة عرضها السماوات والأرض؟ قصورها من

---

(١) – الطَّبَع –بالتحريك–: الدنس. صحاح

(٢) ـ الحوبة: الذنوب.

(٣) – تسرفوا. (خ).

(٤) – المقتدون. (خ).

الذهب والجوهر، والياقوت الأخضر، فيها الحور الحسان، والأكاليل والتيجان، تجري من تحتها الأنهار، لباس أهلها الحرير، والسندس والعبقري(١).

أين الراغبون؟ أين المجتهدون؟ هذه دار لا تخرب، ولا يفنى شبابها، ولا تبلى ثيابها، أهلها لا يفتقرون، ولا يشقون، ولا يموتون، ولا يهرمون، ولا يحتاجون، وما هم عنها بمخرجين.

أيها الخاطئون، أيها العاصون، أيها المفسدون، أيها المذنبون، مالكم لا تتوبون؟ مالكم لا ترجعون؟ مالكم لا تخافون؟ أمعكم صبر على النار؟ ألكم في ذلك اعتذار؟ أما تخافون نار الجحيم؟ وشراب الحميم؟ وطعام الزقوم؟ ولباس القطران؟ إن جهنم حرها لا يبرد، وجمرها لا يخمد، وعذابها لا ينفد.

إلى كم هذه الغفلة؟ كم تعصون المعبود؟ ارجعوا إلى الله في وقت المهل، قبل أن ينقطع الأجل، ويرفع العمل، فإن الله يقبل التوبة، ويكفر الحوبة.

التوبة تمحو عظائم الذنوب، وتقرب العبد إلى علام الغيوب، توبوا إلى الله قبل أن يغلق الباب، ويحضر الحساب، ويقع العقاب. احذروا الله، خافوا الله، راقبوا الله. بادروا بالتوبة قبل الندم، قبل زلة القدم، قبل الأخذ بالكظم(٢).

تب أيها العاصي، قبل أن تصبح من رحمة الله قاصي(٣)، قبل الأخذ بالنواصي، ارجعوا إلى الله بالقلوب، قبل أن يكون الباب محجوب.

---

(١) ـ - البالغ في كل شئ.

(٢) - قال في القاموس: والكظم محركة: الحلق، أو الفم، أو مخرج النفس.

(٣) - كذا ولعله على لغة ربيعة لتوافق السجعات.

أين أهل التوحيد؟ تقربوا بالتوحيد إلى الملك المجيد، تنجوا من العذاب الشديد.

يا أهل القرآن، تقربوا بالقرآن إلى الملك الدَّيان تنجوا به من عذاب النيران، هو الشفيع فيكم، هو الرفيق لكم، هو الشاهد عليكم، هو الدليل، هو السبيل، هو الحجة، هو المحجة، اعرضوا أعمالكم عليه، وردوا أقوالكم إليه، أكثروا قراءته بالليل والنهار، وفي وقت الأسحار، فإن الملائكة معكم عند قراءته قعود، وعلى ما تنطقون به شهود، لا تخسروا الميزان، لا تحلفوا الأيمان، لا تذكروا البهتان، لا تبخسوا المكيال، لا تسيئوا الأعمال، لا تصحبوا الأنذال، لا تضيعوا الصلاة، لا تغُلّوا الزكاة، لا تحلوا المحرمات، لا تؤذوا الجيران، لا تطيعوا الشيطان.

أيها المضيعون للصلوات توبوا إلى المطلع عليكم في الخلوات، أيها الخائن بالعين والفؤاد تب إلى الملك الجواد، قبل أن يسلط عليك ملائكة غلاظ شداد.

أيها المؤذي للجيران تب إلى الله قبل أن تلبس سرابيل القطران.

أيها المانعون للزكوات توبوا إلى الله من اكتساب السيئات، وتضرعوا إلى الله بالدعوات.

يا صاحب الكذب والزور تب إلى الله قبل الويل والثبور. أيها الباهت المغتاب، تب إلى الله الواحد الوهاب، قبل أن تذوق أليم العذاب.

أيها الحالف للأيمان تب قبل أن تزور النيران. وقال في ذلك شعراً:

أسلفت من عمرك ما قد مضى	منهمكاً في غمرات الخطل
حتى إذا القوة زالت وقد	أقعدك العجز وحل الكسل
تبت إلينا في صدور الحياة	مستجمعاً فيك فنون الخجل

فـــأنت عنـــدي بمحـــل الرضـــا　　　وقـــد غفرنـــا لـــك كـــل الزلـــل

وقال آخر:

إذا لم تصـــن عرْضـــاً ولم تخـــشَ خالقـــاً　　　ولم ترض مخلوقاً فما شئت فاصـــنع

وقال غيره:

إذا أمســـى وســـادي مـــن تـــراب　　　وبـــت مجـــاور الـــرب الـــرحيم

فهنـــــأني أصـــــيحابي وقـــــالوا　　　لـــك البشـــرى قـــدمت عـــلى كـــريم

قال الوافد: صف لي هيئة التائب.

قال العالم: هيئة التائب العزم على ألاَّ يعود إلى عصيان المعبود، ويتأسف على ما اقترف، ويندم على ما أسلف، ويرجع مما عرف.

يندم بالقلب، على ما قدم من الذنب، يرجع إلى اليقين، ويبكي ويستكين، يكثر الصوم، ويقل النوم.

فهو مشفق من عصيانه، مطرق بين إخوانه، ظاهر خشوعه، متبادر دموعه، منقطع كلامه، قليل منامه، دائم كربه، مستهام قلبه، يسير أكله، كثير شغله، صحيح قوله لا ينقض عهده، ولا يخلف وعده، ولا يمنع رفده يطلب خلاصه، ويعرف انتقاصه إن طلبته وجدته في فكرته، وإن سألته يخاطبك بعَبْرته.

لا تسكن حرقته، ولا تزول رقته، ولا تكف دمعته.

من رآه انتبه من غفلته، ومن جالسه تاب من زلته، فهو حقير عند نفسه، غريب في أهل جنسه، كريم على ربه، نادم على ذنبه، ملتمس لما به، طامع في ثوابه، رافض لأسبابه، باك على سيئاته.

كثير الوجع، عظيم الفزع، متين الورع، ظاهر خشوعه، غزيرة دموعه، صادق رجوعه.

معتبر مفكر، شاكر ذاكر، خجل وجل، واجد ساجد، تضيق به البلاد، ويسأم من صحبته العباد، ينتظر الميعاد، ويطلب تحقيق الوداد، جهده شديد، وعمله كل يوم يزيد، وحزنه في كل نفس جديد. يتجرع الغصص، ولا يطلب الرخص.

دائم الطلب، ملازم الكرب، مواظب على التعب، رافض للطرب، ظاهر الحزن والنصب.

ضيق الأوقات، مغتنم الساعات، قليل الالتفات، حذر من كل الجهات.

ماله هدوء ولا سكون، خائف غير أمون، وجل محزون، كأنه مقيد مسجون.

لونه أصفر من خدمة الرحمن، ونفسه ذائبة خوف الهجران، نحيف البدن، خفيف المؤن.

سقيم الأركان، سليم الجَنَان، مستقيم اللسان، حريص على طلب الجِنان.

لا تصده العوائق، ولا يبالي بالخلائق، منقطع من العلائق، متمسك بالحقائق.

فهو في الطلب، إلى أن يصير إلى الطرب، وينجو من التعب.

قال الوافد: بئس العبد عبد سها ولها، وبئس العبد عبد طغى وبغى، بئس العبد جاوز الحد وتعدى، بئس العبد عبد ظلم واعتدى، أيها العالم الحكيم، والسيد الحليم، قد وصفت أهل النجاة فأبلغت في الصفات، وحذرت مما هو آت، فجزاك الله عني خيراً، وبوأك سروراً- صف لي المحب لربه، النادم على ذنبه.

قال العالم: أوصاف المحبين يحبهم الله كرماً، ويحبونه ألماً. يحبهم إرادة، ويحبونه عبادة. يحبهم رحمةً، ويحبونه خدمةً. يحبهم تفضلاً، ويحبونه تذللاً.

إذا أحبك سترك، وإذا أحببته قربك وشوقك(١)، إذا أحبك أغناك، وسترك وآواك. المحب عينه لا تنام، همته الصلاة والصيام.

أهل المحبة إذا جنهم الليل أَرِقوا، وإذا أضاهم الصبح فَرِقُوا، وإذا قرأوا القرآن صاحوا، وإذا ذكروا ذنوبهم ناحوا.

من كان بالله أعرف كان من الله أخوف.

من رجا طلب، ومن أحب تقرب، ومن خاف هرب. ينام الناس ولا ينام، ويضحك الناس ولا يضحك. المصاب الذي يدعو ولا يجاب، الأحزان تهد الأركان، وتشيد الإيمان. إن الله يحب كل قلب حزين.

الحزن عمارة القلب الخراب.

المحزون يفتح له الباب، كلام المحزون في خلوته يقول: كأني بك وقد تجرعت مرارة الفراق، وقيل ﴿إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ﴾[القيامة:٣٠]، كأني بالغطاء وقد كشف، وبالعطاء وقد صرف، كأني بالوعد وقد اقترب، وبالوعيد وقد وجب، كأني بك في اللحود مضاجع للدود، كأني بالمظلوم وقد تعلق بالظالم، كأني بهذا الضياء وقد أظلم، وبهذا العمر وقد انصرم، كأني بالمنادي وقد نادى، وبالليل والنهار قد بادى، كأني بهذا الجلد وقد ذهب عنه النشاط، وطوي من تحته البساط.

قال الوافد: صف لي التجربة.

قال العالم: تصحب أهل المعرفة وتحفظ التجارب، حتى تكون تعلم التجربة، واطلب مرادك بالصدق؛ لأن ذلك للصادقين المريدين لله.

---

(١) - وشرفك. (خ).

قلت: فبأي شيء أجد الإرادة بالصدق؟

قال: باستماع الحكمة.

قلت: أي الحكمة؟

قال: حكمة الذين يدعونك إلى الله.

قلت: فإذا وجدت الإرادة أي شيء أفعل؟

قال: ﴿قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا۝٢ نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا۝٣ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا۝٤﴾.

قلت: بأي شيء أفعل ذلك؟

قال: بقلة الطعام وقلة الكلام.

قلت: كيف أصبر على الجوع؟

قال: بذكر المقام.

قلت: وما المقام؟

قال: مقامك بين يدي الله سبحانه يوم القيامة.

قلت: وكيف أصبر عن الكلام؟

قال: أكثر ذكر الله حتى تجد حلاوته تلهيك [(١)] عن كلام الفضول.

قلت: ومن يقدر على ذلك؟

قال: الذي يريد أن يصل إلى ربه.

قلت: أدخر لي ما أيسر علي من ذلك.

---

(١) - كذا في الأصل، وقد تقدم تأويل مثل ذلك في تعليق سابق.

قال: عليك بكثرة الدعاء والتضرع، حتى يأتيك المعونة من الله سبحانه.

قلت: كيف يصل العبد إلى ربه؟

قال: إذا صبر على ذكره، وأدمن على شكره، وصل إليه بقلبه.

قلت: بأي شيء يصل؟

قال: بالجهد الدائم، وكثرة الدعاء والتضرع، ثم عرف وأيقن وعلم أنه لا يصل إلى ربه إلاَّ به.

قلت: أي شيء ينجو العبد من ربه؟

قال: بترك الذنوب، ثم عرف وعلم وأيقن أنه لا ينجو منه إلاَّ به.

قلت: أرأيت العبد إذا وصل إلى ربه أيسكن عنه الوجل والخوف أم لا؟

قال: لا.

قلت: لم وهو على يقين من ذلك؟

قال: من اليقين يكون خوفه ووجله.

قلت: أوَيكون طالباً لرزقه؟

قال: نعم يكون شديد الطلب لرزق الآخرة.

قلت: أعني رزق الدنيا.

قال: من كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وماله في الآخرة من نصيب.

قلت: كيف يكون واثقاً برزقه موقناً؟

قال: كما يكون موقناً بالموت واثقاً مصدقاً أنه لا بد أن ينزل به.

قلت: ما علامة المحب؟

قال: يقرأ القرآن ويكون قرة عينه، لا يشبع من قراءته.

قلت: كيف يخافه ويحبه من قلب واحد؟

قال: لأنه محب لواحد، والخوف منه في حبه له، والحب له في خوفه منه، مثل النار والنور فالخوف نار والحب نور، ولا يكون أبداً نور بلا نارٍ، ألا ترى إذا غلب النار تنوُّرُه يقع عليه اسم النور، كالسراج في البيت، فيقال: في البيت نور، ولا يقال فيه نار، فالنور نار السراج.

إذا غلب الخوف على العبد يقال له: خائف، والمحبة معه، وإذا غلبت المحبة على العبد- سمي محباً والخوف معه، فإذا كمل الخائف على ما وصفت لك غلب بنوره ناره، فوقدت منه المصابيح فنوَّر البيوتات كلها والظلمات، فكذلك المحب إذا كمل في الخوف كما وصفت لك، ونجا من نجاسة نفسه فهو كالمصابيح، كلامه نور، وصمته نور، وعلمه نور، ومدخله نور فهو نور من قرنه إلى قدمه، كالمصابيح فكل تحريكه أبداً نور، متصل بنور الملكوت الأعلى قلبه مع الله بحلاوة حبه، وأحواله نور إلى الله في ذكره، فطوبى له وحسن مآب، وطوبى لمن رزقه الله ذلك.

قال الوافد: صف لي المتقلب في جوعه.

قال العالم: المتقلب في جوعه كالمتشحط في سبيل الله وثوابه الجنة.

قلت: ما علامة العارف؟

قال: أن لا يفتر من ذكر ربه، ولا يستأنس بغيره.

قلت: ما أنفع الخوف لي؟

قال: مالم يُجَرِّكَ على المعاصي، وأطال منك الحزن على ما فاتك، وألزمك

الفكر فيما تصير إليه في آخرتك.

قلت: ما أنفع الصدق لي؟

قال: أن تقر بعيوب نفسك ومساوي عملك، وتتقي الكذب في مواطن الصدق.

قلت: فما أنفع الإخلاص لي؟

قال: ما نفى عنك الريا والتزين في الجماعات.

قلت: فما أنفع الحياء لي؟

قال: أن تستحي من الله أن تسأله ما تحب، وأنت تأتي ما يكره.

قلت: فما أنفع الأعمال لي؟

قال: ما سلمت من آفاتها، وكانت منك مقبولة.

قلت: ما أنفع العلم لي؟

قال: ما نفى عنك الجهل، وازددت به ورعاً، وكنت به عاملاً.

قلت: ما أنفع التواضع لي؟

قال: ما نفى عنك الكبر، وأمات عنك الطمع والغضب.

قلت: فأي الجهاد أفضل؟

قال: جهاد النفس الأمارة بالسوء حتى تردها إلى قبول الحق.

قلت: فأي المعاصي أضر عليَّ؟

قال: عملك الطاعات بالجهل.

قلت: فهو أضر عليَّ من أعمال المعاصي بالجهل.

قال: نعم.

قلت: وكيف يكون ذلك؟

قال: أليس تعلم أن أعمالك المعاصي لا ترجو بها ثواباً، وتخاف عليها من الله عقاباً؟

قلت: بلى، قال: أليس تعلم أن أعمالك بالجهل فاسدة؟ فأنت تلتمس لها من الله ثواباً، وقد استوجبت عليها من الله عقاباً.

قلت: بلى، قال: فكم بين ذنب يخاف منه عقوبة، والخوف طاعة، وبين ذنب تأمن فيه العقوبة والأمن معصية.

قلت: فما ترى في الاستئناس بالناس.

قال: إذا وجدت عاقلاً قد زهد في الدنيا ورفضها فأنس به، واهرب من سائرهم كهربك من السباع.

قلت: فأي المواضع أخفى لشخصي؟

قال: صومعتك وداخل بيتك، وكل موضع لا يجيك فيه شهرة، ولا يحيط بك فيه فتنة.

قلت: دلني على عمل أسلم به من شر الخلق، ويسلمون من شري.

قال: إذا لم يكن في قلبك غل لأحد، وأحببت لهم ما تحب لنفسك، وكرهت لهم ما تكره لها- سلموا من شرك، ولحق بهم خيرك.

قلت: ما علامة مُؤْثِر الدنيا على الآخرة؟

قال: الذي ما يبالي بما ذهب من دينه إذا سلمت له دنياه.

قلت: ما علامة الكذب في العبد؟

قال: إذا كثر كلامه فيما لا يعنيه.

قلت: فما علامة قلة الكذب؟

قال: كراهته لكثرة الكلام.

قلت: أخبرني ما حياة العبد؟

قال: الإيمان واليقين حياته، والخوف والتوكل نجاته، فإذا ثبت الإيمان في باطن قلبه فمنه يهيج ما سألت عنه من الصدق، والخوف، والتوكل، وحسن الظن، وهي أعمال سرائر القلوب، فإذا صح ذلك في القلب ظهر على اللسان والجوارح، وبان عليه الصلاح.

قلت: فما أرجو به صلاح قلبي إذا أنا عملت؟

قال: التيقظ، وخوف الانقطاع للعمر، ومراقبة الموت، والتفكر فيما تصير إليه بعد الموت، والغفلة، وطول الأمل، ونسيان المعاد.

قلت: ما علامة الإخلاص؟

قال: الندم والاستقامة على طاعة الله تعالى.

قلت: ما علامة الورع؟

قال: ترك الشبهات، ورفض الشهوات.

قلت: ما علامة أهل التقوى؟

قال: ترك ما فيه بأس ظاهراً وباطناً، وتسيء الظن بنفسك، وأنه ليس مأخوذ غيرك.

قلت: من أي شيء أكثر ذكره؟

قال: قراءة القرآن، فهو حصن الموت وترسه.

قلت: صف لي مخ الزهد.

قال: قطع الطمع عن القلب، وامتناع السؤال للخلق، وترك مخالطة أبناء الدنيا، والفرار منهم، وصدق الإرادة، وحسن النية، وصحة العزيمة.

قلت: متى أعلم أني مطيع لربي حق طاعته؟

قال: إذا لم يجدك حيث نهاك، ولم يفقدك حيث أمرك، أطاعك لما سألته، لأنه مطيع من أطاعه.

قلت: فما طاعته لي؟

قال: يجيب دعاك، ولا يمل من برك.

قلت: كيف أجاهد نفسي؟

قال: تجوعها عن طعام الدنيا، وتقطعها بالصوم، وتلزمها قيام الليل، وتحرسها عن الرياء والعجب، وتستقل عملها بعد ذلك.

قلت: أي شيء أقرب إلى الله تعالى من عمل القلوب؟

قال: اليقين هو أقرب إلى الله تعالى، وبعده العلم بالله والشكر له.

قلت: ما عمارة القلب؟

قال: الخوف.

قلت: ما طهارته؟

قال: الحزن.

قلت: ما حياته؟

قال: الذكر والتفكر.

قلت: ما قساوته؟

قال: الغفلة وطلب الدنيا وأكل الشبهة.

قلت: ما دواؤه؟

قال: الجوع سراً عن الناس، وقراءة القرآن، مع التفكر في الخلوة، والتضرع إلى الله في أوقات الغفلة، والرغبة في مجالس المذاكرين، والتجرد عن أشغال الدنيا، والحزن الدائم في القلب، مع طول الصمت، وذكر الموت في كل ساعة، وكثرة ذكر الله تعالى، والتواضع لله تعالى، والنظر في الأموات، والاعتبار بهم.

قلت: كيف تكون مراتب التوبة؟

قال: رجل تاب من الذنوب ولزم الطاعات، ورجل تاب من الذنوب وترك الدنيا وأقبل على الآخرة، ورجل تاب من الذنوب واختار الله على الدنيا والآخرة وعلى جميع الخلق، فالأول تائب ورع، والثاني تائب زاهد، والثالث تائب صديق عارف متقرب.

قلت: أخبرني عن شر الأشياء؟ قال: الكفر بالله.

قلت: أله زوجة؟ قال: نعم.

قلت: من؟ قال: البخل.

قلت: ما بعده أشر منه؟ قال: النفاق.

قلت: أخبرني ما أفضل ما أعطي العبد؟ قال: العقل.

قلت: فما أنفع العقل؟

قال: ما عرَّفك نعمة الله، وأعانك على شكرها وقام بخلاف الهوى.

قلت: فما علامة العقل في العبد؟

قال: أن يعرف الحق من الباطل، والضار من النافع، والحسن من القبيح.

قلت: فما أنفع النعم معرفةً بعد نعمة العقل؟

قال: الإيمان بالله.

قلت: فما حقيقة ذلك؟

قال: أداء ما افترض الله عليك(١).

***

(١) – قال في الأصل: تمَّ [نسخ] هذا الكتاب بمن الله وكرمه وإعانته ولطفه وتوفيقه فله الحمد على ذلك حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله الطيبين الطاهرين آمين، يوم الاثنين ثاني وعشرين من شهر شعبان من سنة ١٣٥٤هـ أربعة وخمسين وثلاثمائة وألف سنة من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام بقلم مالكها الحقير المعترف بالذنب والتقصير عبدالله بن عبدالرحمن بن محمد بن قاسم البهلولي الفياضي الملقب خولان وفقه الله آمين.
وأقول كما قال القائل:

تمّ الكتاب ولستُ أحصي شكر مَنْ ... أولاني التمكين والإمهالا
وأمدَّني بمسائل من هذه ... وأعانني سبحانه وتعالى

من كلامه عليه السلام في الوعظ وغيره

[وله أيضاً عليه السلام موعظة أخرى](١)

بسم الله الرحمن الرحيم

والحمد لله وبه أستعين، أما بعد:

فإن الدنيا دار غرور، لا يدوم فيها سرور، ولا يؤمن فيها محذور، جديدها يبلى، وخيرها يفنى، من وثق بها خدعته، ومن اطمأن إليها صرعته، ومن أكرمها أهانته، أفراحها تعقب أحزانا، ولذاتها تورث أشجانا.

أما بعد، فإن أعمار الدنيا قصيرة، ورحاها مديرة، وسهامها قاصدة، وحتوفها راصدة، والمغرور من اغتر بها، والمخدوع من ركن إليها، من زهد فيها كفيها، ومن رغب عنها وطيها، قد غرت القرون الماضية، وهي على الباقين آتية، فيا بؤسا للباقين، لا يعتبرون بالماضين، يجمعون للوارثين، ويقيمون في محلة المتحيرين.

أما بعد، فاقنع باليسير، وبادر بالتشمير، وإياك والتغرير، وانظر إلى ما تصير، فليس الأمر بصغير، وهيئ زادك للمسير، فقد أتاك النذير.

أما بعد، فقد وضح لك الطريق، فلا تحيدن عن الجادة إلى المضيق، فقد مضت الأيام، وذهبت الأعوام، وفنيت الأعمار، وأحصيت الآثار، وعن قليل تدعى فتجيب(٢)، وتظعن فتغيب، فعجباً لقلبك كيف لا يتصدع؟! وعجباً لركنك كيف لا يتضعضع؟! وعجباً لجسمك كيف لا يتزعزع؟!

---

(١) كذا في نخ (٧١٢).

(٢) في (نخ): فلا تجيب.

أما بعد، فإنه ليس لحي في الدنيا مقام، وعما قليل يأتيك الحمام، وكل خلق تفنيه الأيام، فلا تكن كالغافل النوام، فإنما الدنيا إلى انصرام، ولن يرى لها دوام.

أما بعد، فاتقوا الله عباد الله فيما تقدم به إليكم واحتج به عليكم، من قبل اللهف والندم، ومن قبل الأخذ بالكظم، وانقطاع المدة، واستكمال العدة، ومن قبل التلاقي واللزام، والأخذ بالنواصي والأقدام، فكأن قد نزلت بكم نازلة الفناء، وأخرجتكم إلى دار البقاء، وكشف عنكم الغطاء، وتجرعتم سكرات الموت، وخضتم غمرات الآخرة، وأتاكم ما كنتم توعدون، وعاينتم ما كنتم تحذرون.

أما بعد، فإنه لا عذر لمن هلك بعد المعرفة والبيان، ولا حجة لمن ركن إلى دار الفناء والحدثان، ولا ندم يغني عند وقوع(١) العيان، ولا حيلة تنفع عند فوت الزمان، وعند السياق وكلول اللسان؛ إذ لا ولد ينفع، ولا أهل يمنع، في مصرع هائل، وشغل شاغل، يُدْعَى فلا يسمع، وينادى فلا يجيب، في غصص الموت وسكراته، وتجرع زفراته وغمومه وحسراته، قد علاك الأنين، وأتاك الأمر اليقين، فلا عذر فتعتذر، ولا ردة(٢) فتزدجر، قد عاينت نفسك حقائق الأمور، وحللت في مساكن أهل القبور، في لحد(٣) محدور، قد افترشت اللبن بعد لين الوطاء، وسكنت بين الموتى بعد مساكنة الأحياء، فالنجاء النجاء قبل حضور الفناء.

---

(١) في (أ): وقع.

(٢) في (أ): رادة.

(٣) في (أ): ملحد.

أما بعد، فإن الدنيا أيام قلائل، وكل ما فيها ذاهب زائل، فتعز بالصبر عن الشهوات، وتناء بالحذر عن اللذات، وفكر فيما اقترفت على نفسك من الذنوب، وفيما قد ستر الله عليك من العيوب، أما علمت حين عصيته أن لم يكن بينك وبينه ستر يواريك منه.

أما استحييت من مولاك وقد علمت أنه يراك؟ أما خفت العقوبة حين آثرت على تقواه هواك؟!

أما بعد، فيا بؤساً لك من مخالف خاسر، ومن خائن(١) غادر أما إنك عن قليل، تهجم على البلاء الطويل، فتدارك نفسك إذ عرضتها للمهالك، واسلك بها طريق الواضح من المسالك، ولا تطمعها في راحتها أيام حياتها، واستطرف لها النصب، واحملها على التعب، لما ترجوا أن تصير إليه من الراحة غدا، فكأنك قد دعيت فأجبت، فاعمل لنفسك ما دمت في مهلة، وفقنا الله وإياك لما يحب ويرضى.

أما بعد، فاحذر على نفسك ختر الدنيا ومكرها، وخدعها وغدرها، فإنها متبرجة لطلابها، فاحذرها ولا تكن لها قتيلا، والتمس لنفسك للنجاة منها سبيلا، وانظر لنفسك أيام مكثك فيها، واعلم أنها مرحلة سكانها، وأن متاعها قليل، وخطبها جليل، ونعيمها زائل، وخيرها مائل.

أما بعد، فكن في سفرك مرتاداً، وهيئ عدة وزادا، فكأنك قد أخرجت من

(١) في (نخ): جائر.

روح الدنيا إلى ضيق اللحد وخشونة المتكأ(١)، فتيقظ من نومة الغافلين، وانتبه من وسنة الجاهلين، وانظر بعينك إلى مصارع المغترين، ومضاجع المستكبرين، أليس ديارهم خالية وأجسادهم بالية، [ومساكنهم مقفرة، وعظامهم نخرة، وعروقهم بالية](٢) وأيامهم فانية؟

أما بعد، فإنك لو رأيت يسير ما بقي من عمرك وأجلك لزهدت في طول ما ترجو من أملك، ورغبت في الزيادة من عملك، فإنك إنما تلقى غداً في حفرتك، وتخلى في وهدتك، ويتبرأ منك القريب، ويتسلى منك الحبيب، فلا أنت إلى أهلك راجع، ولا في عملك زائد، سارع فاعمل ليوم القيامة قبل الحسرة والندامة.

أما بعد، فلا يمل بك الأمل الكاذب، ولا تكن كالشاهد الغائب، فإنك والقوم على بساط واحد، والموت يأتي على كل صادر ووارد، فلا يذهبن قولي عنك صفحا، فإني لم آلك حضاً ونصحا، فإن تقبل نصيحتي فأنت بذلك أسعد، وبها أعلى عيناً(٣) وأرشد، وعن قليل يأتيك الخبر، فالحذر الحذر، فإنه يأتي أسرع من لمح البصر.

أما بعد، فإن الدنيا بحر عميق، ولنيرانها تلهب وحريق، ولطرقها مفاوز(٤) ومضيق، فالحذر إذاً لبعد مفاوزها ومضيقها، فأعد عدة سير تزحزح بها عن تلهبها وحريقها، واتخذ سفينة تنجو بها من عميق بحرها، وقرب عليك الأجل

---

(١) في (أ): متكأة.

(٢) ما بين المعقوفين ساقط من (أ).

(٣) في المطبوع: غنيا.

(٤) في (أ، ب): مغادر.

لا تخدعك بآمالها ومكرها، وقد عرفتك نفسها، وأوضحت لك لبسها، فلا تعم وأنت بصير، ولا تأمن وأنت بتحذير، فإن الذي بقي من عمرك قليل، فإما الثواب الجزيل وإما البلاء الطويل، فكن بعلمك منتفعا، وللموت متوقعاً، فإنك لا تدري على أي حال يأتيك، وفي أي وقت يفاجيك، فعجباً لك يا مكنون الأجل كيف تغتر بطول الأمل، فابك على نفسك إن كنت باكيا، وتيقظ من غفلتك إن كنت لاهيا.

أما بعد، فكأنك قد أخرجت من روح الدنيا ومساكنها، وأَبْدَتْ أهلُك لغيرك سكنها ومحاسنها، ونسيت ما كان لها من كدك، وتغيرت عما كانت لك عليه من بعدك، فتمتعوا بمالك، ولم يعبأوا بحالك- لمن لا يرثى لك غدا من صرعتك، ولا يؤنسك غداً في وحشتك، فلا تبع يا مسكين بدنياك آخرتك، ولا تجزع لها فتركبك رقبتك، وعليك بنفسك أكرم الأنفس عليك، وأحب الأنفس إليك، واعلم أنك مسؤول ومحاسب ومعاقب، فارغب في الثواب، واهرب من العقاب.

ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وصلى الله على محمد وآله وسلم.

وله عليه السلام موعظة لبعض إخوانه واعظًا ومذكراً وحافظًا لأمر الله ومبصراً

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، وعلى محمد وعلى أهله أفضل الصلاة والتسليم.

وبعد، يا أخي فأعاذني الله وإياك من مهلك غفلة الغافلين، وسلمني [وإياك] بمنه ورحمته من مضل جهالة الجاهلين، الذين حسبوا وظنوا – إذ تاهوا وتمنوا –

قصير آجالهم طويلا، فأفنوا أيام حياتهم بالغفلة منى وتأميلا، حتى عاينوا نازل الموت بكل حسرة وفوت، فأيقنوا عند نزوله بباطل المنى؛ إذ ذاقوا الموت والفناء، وعلموا أن قد كان قصيرا ما استطالوا من حالهم، وغرورا وخداعة ما كانوا فيه من مناهم وآمالهم.

يا أخي، واعلم أن الأجل حثيث الفناء، ليس لأحد معه – والله المستعان– من بقاء، لا يقف والحمد لله من أهله على من استوقفه، ولا يغفل لمحاذرة سرعة انقطاعه من عرفه، وكيف يغفله عارف به أو موقن بمعاده إلى ربه مع ما يرى من مره وحثه، وقلة تعريجه ولبثه؟ فهو دائب الحث، غير ذي إبطاء ولا لبث، يقطع منه ساعاته الليالي والأيام، ويقطع أيامه ولياليه منه الشهور التوآم، وكذلك جعل الله شهوره تقطع بمرها سنينه ودهوره، فدهره قصير، وعمره يسير، لا يطرف أحد من أهله طرفا إلا اقترب من فناء مدته زلفا، فأنفاسه ولحظاته تطويه، وساعاته وأوقاته تفنيه، يقظان كان أو نائماً، ومقيما كان أو ظاعنا، تحثه بحداء، وتدعوه بنداء، ساعات نهاره وليله، بل أنفاس عمره وتأجيله، فهو ظاعن سائر، وإن كان به غير شاعر[1]، وكأن قد أفضت أسفاره فيما يسير به ليله ونهاره، فورد محلة مثواه ومقامه، وفنيت مدة أجله وأيامه، فأقام فيه مخلدا، وبقي بعد سرمدا في حبرة ونعيم أو عذاب أليم، وقد قر في أيهما صار إليه قراره، وانقطعت فيه عنه ظنونه واغتراره، لا يزداد من أعماله في حسنة زكية، ولا يستعتب في حسنة ولا خطية، قد لزمته سعادته وشقاؤه، ودام في أيهما كان خلده

(١) في (نخ): لا يشعر.

وبقاؤه.

فوا عجباً لمن كان بهذا موقنا بل لمن ظنه -وإن لم يوقن به- ظنا كيف لعب ولها؟! وغفل فسها، ولقد اكتفى الله سبحانه في ذلك لمن لم يوقن ببعثه(١)، ولم يدن لله فيه بحقيقة دينه- بالظن، فقال سبحانه: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ۝٤ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ۝٥ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ۝٦﴾ [المطففين]، اكتفاء لهم بالظن لو ظنوا من حقائق اليقين، وتذكيرا فيه لهم بما يمكن كونه يوم الدين.

وفيما كان به المؤمنون في دنياهم يوقنون من لقاء ربهم ويظنون ما يقول سبحانه: ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ۝٤٦﴾ [البقرة]. فذكر الله سبحانه ظنهم بلقائه، ومرجعهم إليه وإلى جزائه، فكان عملهم واجتهادهم في دينهم على قدر حقيقة ظنونهم، فكيف يكون مثلهم من يدعي يقينهم وفضلهم وهو غافل لاعب، وقائل كاذب، يقول ما لا يفعل، ويقر بما لا يعمل؟

وفي مقت الله سبحانه، لمن آمن ففكر فذكر الله إيمانه، وعلمه بالإيمان لله وبالله، وإيقانه، ما يقول تبارك وتعالى اسمه: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ۝٢ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ۝٣﴾ [الصف]. ويقول سبحانه لمن ادعى الصدق والوفاء، وإتيان ما يحب الله ويرضى: ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ۝١٠٥﴾ [التوبة].

---

(١) في (ج) وهي النسخة الوحيدة التي رأيت الموعظة فيها: بنفسه. ولعل ما أثبتناه الصواب.

يا أُخَيّ، فلا تغفل عن الموت والبعث غفلة من يُرَى من أشباه الحمير، فإن بغفلتهم عن الموت والبعث بعدوا كما رأيت من النجاة والفوز والحبور، فعموا عما كان ممكنا في حياتهم من الهدى والرشاد، وشقوا بعمايتهم في المرجع إلى الله والمعاد، فدام شقاؤهم وتبارهم، وأقام ندمهم وخسارهم، ثم بكوا فلم يرحموا بالبكاء، ودعوا فلم يجابوا في الدعاء، ﴿وَنَادَوْا يَامَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾، فقال لهم مالك: ﴿قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ۝٧٧﴾ [الزخرف]، وفي ذلك ما يقول الله سبحانه: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ۝١٢﴾ [السجدة]، وعند تلك وفيها وعند ما صاروا إليها قالوا: ﴿رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ۝١٠٦ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ۝١٠٧﴾ [المؤمنون]، فما كان جوابهم عند قولهم وطلبهم وعندما أحل من سخط الله المخلد بهم إلا أن قال: ﴿اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ۝١٠٨﴾ [المؤمنون].

يا أُخَيّ، فاسمع ما تسمع سماع متبع، ولا تسمعه سماع مستمع، فرب مستمع غير سميع، وسامع مطيع، كما قال الله سبحانه: ﴿وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا﴾، تأويل ذلك: لم يطيعوا ولم يعوا، ﴿وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ۝١٩٨﴾ [الأعراف]، وتأويل ذلك: لا يبصرون من الهدى ما يبصرون.

وفي من سمع بالسمع ولم يسمع ولم يطع ما يقول الله تبارك وتعالى في التنزيل للعصاة من بني إسرائيل: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا ءَاتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ [البقرة:٩٣]، فنسأل الله أن

يمن بالسماع النافع عليك وعلينا، فإنا من الصمم والحيرة والظلم في البحر الزاخر، واللج الغامر، فلا ينجو من غمره إلا من نجاه الله، ولا يلجأ من غرقه إلا من أجاه، والله المستعان، وعليه التكلان.

ومن كلامه عليه السلام [في الوعظ]

بسم الله الرحمن الرحيم

وبعد، فاعلم يا أُخَيّ أنا وإياك في بحر من بحور العمى عميق، لا يصل معه أحد إلى هدى إلا أن يرشده الله ويهديه إلى ملجأ وثيق، فكر أهله سقيمة مدخولة، وعبر من فيه فعظيمة مجهولة، لا يعتبر بها منهم معتبر، ولا يفكر فيها منهم مفكر، فقلوب من يسمعها منهم ويراها مقفلة والله المستعان على هداها، فهدانا الله يا أُخَي وهداك بما أرانا الله منها وأراك، ونفعنا ونفعك بما أسمعنا وأسمعك، فكم رأينا وسمعنا من عبر لا نحصيها ولو جهدنا كل جهد، وفي الاعتبار بأقلها أهدى الهدى وأرشد الرشد، فمنها ما نراه بالعيان، ونسمعه في كل حين بالآذان، من موت وفناء يذهب دائبا بالأحياء، تراه عيانا كل عين، وتسمع به في كل حين، وكم رأينا عيانا من جار ومعارف وقرين مُحَالٍّ مؤالف قد دهاه من حمام الموت وفاته ما دهاه، واغتره ما كان فيه من حياة دنياه، ولحق بدار الموت والبلاء، وصار إلى محلة الموت والفناء، فمات بموته أمره وشأنه، ونسيه إذ مات أوداده وأخدانه، ولها عنه أهله، وهجر بعده محله، فلم ير منهم واقف عليه، ولم يلتفت منهم ملتفت إليه، وكم عاينت من أولئك ورأيت من ذلك؟

بل كيف رأيت يا أُخَي رحمك الله من مختطف بسقم ممض أو موت متلف،

قطع به دون مناه وآماله، وما أنعم الله عليه من نظرته وإمهاله، فتلهف على ما فاته من طاعة ربه حين لا ينفع التلهف، وتأسف عندما لا يغني عنه ولو كثر التأسف، على ما فرط فيه من إمكان نجاته، وما خسره من أيام حياته، فذهب بندمه وحسرته، وآل بهما إلى معاده وآخرته، فبقي في الحسرة مخلدا، وفي الندامة مقيما أبدا، وكان عند تلك وفيها ومعها من مقاله نحو ما ذكر الله عند مجيء الساعة من مقال أمثاله، إذ يقول سبحانه: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَاحَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٣١﴾ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [الأنعام]، وقال تعالى ذكره: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ ﴿١٠١﴾ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ ﴿١٠٤﴾ أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [المؤمنون]، فأنكص النكوص عن الآيات ترك ما أمر الله به من الحسنات، وارتكاب ما نهى الله عنه من السيئات.

يا أخي فحتى متى وإلى متى دوام الغفلة والحيرة والعمى؟! ألسنا بربنا مؤمنين؟! وبيوم البعث موقنين؟! فما لنا يا سبحان الله من أمر الله معرضين؟! ولانتقام الله بالخلاف عليه في أمره متعرضين من بعد الإيمان واليقين، والعلم بشرائع الدين؟

فرحم الله من عباده عبداً أيقن أن له إلى الله معادا، فجد وشمر في طلب نجاته، قبل نزول الموت ومفاجأته، فكم رأينا من مفاجأ مبغوت بها لم يتوقعه من وفاة وموت، أخذ في غمرته، وعلى حين غرته، فتبرأ منه قبيله وأحباؤه، وأسلمه للموت أهله وأقرباؤه، فلم ينصره أهل ولا عشير، ولم يكن له منهم نصير، بكاه من بكاه منهم قليلا، ثم هجره وجفاه طويلا، فكأن لم يره قط حيا، ولم يكن له في حياته صفيا!

فأبصر يا أخي وبادر، واعتبر بما ترى وحاذر، فرب مبصر لا يبصر، ومعتبر بما ترى لا يعتبر، يستَرُّ بالأشجان والأحزان، ويغر بالرجاء والأماني، وهو دائب في قطع عمره وأجله، مغتر بمناه ورجاه وأمله، لا يتنفس نفساً ولا يطرف طرفا إلا قطع به من أجله ناحية وطرفا، لا يغفل عنه وإن غفل، ولا يؤخر لما رجا وأمل، قد جد به المسير، واختدعه الأمل والتسويف والتأخير، فأمله خدعة وغرور، وأجله متعة وبور.

يا أخي، فالعجل العجل، فقد ترى المسير إلى الموت والترحل، لا يقلع راحله وسائره، ولا يريع على أوائله أواخره، يلحق المتأخر بالسائر الأول، والمقيم من أهله بالظاعن الراحل، لا يخلف من العباد جميعا متخلفا، بل يختطف نفوسهم خطفا، يأخذ الصغير أخذه للكبير، ويلحق بعضهم بعضا في الموت والمصير. فنسأل الله أن يبارك لنا في حلوله وموافاته، وأن يجعلنا ممن أسعده في يوم مماته، ونستغفر الله خير الغافرين، ونضرع إليه في عصمتنا من هلكات الجائرين، وصلى الله على سيدنا محمد وآله تسليما.

وله أيضاً عليه السلام

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله حمداً دائماً مقيما، وصلى الله على محمد وأهله وسلم تسليما، نستهدي الله للهدى، ونعوذ به من الضلالة والردى، فكم من ضال مغتر، ورد مدمر، قد غر حياته بالأمل والمنى، وهو يرى في كل حين الموت والفناء، يتمنى من بقائه كثيرا، وقد رأى من أخذ غريراً مما لا يحصيه بعد ولو جهد كل جهد، فكم رأى في غرته من مأخوذ! وميت بالعراء منبوذ؟ يتخالس الطير لحمه تخالسا، وتتناهشه سباع الوحش تناهشا، وكم سمع به من ملقى في بحر من البحور للموت. يأكل لحمه من ملقاه البحر ما قاربه من حوت، وكم رأى في الثرى من ملحود متناثرة أو صاله وعظامه بالدود، وقد نسيه بعد الذكر أهلوه!! وقطعه بعد مودته مواصلوه، فأغفلوا ذكره فلا يذكرونه إلا قليلا، وكلهم فقد كان له أهلا وخليلا، فكان لم يروه قط حيا في الأحياء معهم!! ولم ينالوا منه ومن كده عليهم ما نفعهم!!

فيا ويل من سقط هذا عن ضمير قلبه! وأصر مقيما على الخطيئة بعد علمه به! كيف خسر دينه ودنياه؟! وآثر ضلالته في الحياة على هداه؟! فهلك هلاك الأبد وقد رأى في حياته منجاه، ودل فيها على نجاته ورداه.

فنعوذ بالله لنا ولك من العماية عن الهدى، ونعتصم بالله لنا ولك من الهلكة والردى، فما يردى بعد هداية الله ويهلك بما حذره الله من المهالك إلا كل شقي من الخلق هالك!! فنستجير بالله من الهلكة والشقاء بعد من الله علينا بالهداية والتقى.

فكم من مهدي لقصده ورشده قد ضل بعد هدايته عن قصده، وكم من مستمع ومبصر لا يسمع ولا يرى، كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٩٨﴾﴾ [الأعراف]، وقال سبحانه: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾﴾ [البقرة].

يا أخي فانظر فيما ذكرت واستمع تسعد وتنج بإذن الله وتنتفع، ولا تك كالذين هلكوا وهم يرون، أولئك فهم المعترفون بالله المقرون، الذين رضوا من حياتهم بالتمني في المعاد لنجاتهم، بما تمنوا غرورا مهلكا، فقالوا إذ اقترفوا كذبا وإفكا، وإن كانوا قد أقروا، لا كما فعل من نحن وأنت فيه من العذاب من كبائر العصيان، ثم ادعوا النجاة بعد الإقرار بالعذاب دعوى بغير ما حجة ولا برهان.

ولفي ذلك وأولئك -وهم بنو إسرائيل عليه السلام، وذرية إبراهيم خليل الرحمن- ما يقول سبحانه:﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ﴾ [آل عمران:٢٥]، وقال سبحانه لهذه(١) الأمة فيما نزل من آياته المحكمة: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾﴾ [النساء]، فكفى يا أخي بما يسمع السامعون من هذا ومثله بيانا وتبصيرا، نفعنا الله ونفعك بتبصيره، وما من به علينا وعليك من تذكيره.

---

(١) في (نخ): ولهذه.

وله أيضاً عليه السلام رسالة إلى بعض بني عمه

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وصلى الله على محمد النبي وآله وسلم.

أمتعك الله من نعمه وحوطها، ومنعك من مذموم الأمور ومسخوطها، بما أمتع به أهل رحمته ونعمته، ومنع به من المكاره أهل توفيقه وعصمته، ومن عليك من تقوى الله وإيثارها ورفض الدنيا واحتقارها بما من به على من آثره وأجل أمره فوقره، فإن مما أمر الله به من رفض الدنيا واستقصارها دليل ممن فعله على إيثار الآخرة وإكبارها، وإن رفض الدنيا والإعراض عنها دليل ممن فعله على الإقبال على الآخرة والاستكثار منها.

وكذلك التمسك ببغض الدنيا ومقتها دليل ممن فعله على إكرام الآخرة ومحبتها، وعلى قدر يقين أولياء الله بما عظم من أمر الآخرة وأمورها زهدوا في الدنيا، فاستقلوا -جهدهم- من متاع غرورها، فتبلغوا إلى الله بالعلق، واكتفوا من نعيمها باللعق؛ إكباراً لما وجدوه فيها إجلالاً لله من السخط، ولما عليه العباد فيها من الإعراض عن أمر الله والفرط، ولما رأوا الباطل يسمو علواً، وحق الله فيها معطلا مجفواً- صحبوا أيام حياتهم بالحرق والزفرات، وهجروا ما أحل الله لهم فيها من الطيبات، وأعرضوا من الدنيا عما أعطاهم، ولم يعطه من أهل الدنيا بتحليله له سواهم، ولم يجعله حلالاً فيها إلا لمن اهتدى إلى الله هداهم، وأيقن فيها بالله يقينهم، ودانه في إيثار الحق دينهم، فحقيق بذلك منهم لسخطهم فيها على من أسخط ذا الجلال والإكرام، أولا تعلم – أغناك الله- أن من أسخط لنفسه من الآدميين ليشتغل عن كثير من المطعم والمشرب والكلام، لما هو فيه من الشغل بحرقه وأسفه وسخطه، حتى ربما ذهب سخط بعضهم في ذلك بعقله

لفرطه، فكيف بمن سخط وغضب لرب الأرباب ومغاضبه؟ أليس ذلك أولى بالقليل في تنعمه ومطاعمه ومشاربه؟ بلى إنه لأولى بذلك، وأحق ممن كان كذلك، ولذلك أزكى عند الله وأرضى، وأوجب في الفرض لو كان من الله فرضا، ولكنه سبحانه لرحمته بالمؤمنين وإحسانه إليهم ورأفته بهم وتحننه عليهم جعل ذلك لهم سبحانه تطوعا ونافلة، وفيما بينهم وبينه فضائل لهم كاملة، فقال جل ثناؤه: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ۝٨٧﴾ [المائدة]، وقال سبحانه لرسوله صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [الأعراف:٣٢]، فجعلها لهم في الدنيا وأخلصها لهم في الآخرة، ولم يجعل معهم فيها حظا للكفرة ولا للفجرة.

وقال سبحانه: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَءَامَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ۝٩٣﴾ [المائدة]، فلم يجعلها الله سبحانه إلا لمن اتقى، وحرمها على من فجر وتعدى ولم يكن من أهل الإيمان بالله والهدى، فاستقل أولياء الله منها، وأعرضوا لسخطهم لله عنها، كما جاء في أثر عن عثمان بن مظعون فيما كان حرم على نفسه من الأطعمة واللحوم، جعلنا الله وإياك من أوليائه، وأسعدنا وأسعدك بطاعته في يوم لقائه.

ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، عليه توكلنا وهو رب العرش الكريم، وصلى الله على سيدنا محمد وآل الأكرمين.

ومن كلامه عليه السلام [في العبادة بالعلم]

العبادة بالعلم، أفضل منها بالعمل، وفي العلم من الهدى والضلال مثل الذي منهما في الأعمال، فلما كان العلم بأحكام الله مما يكون هدى عند الله، والجهل بأحكام الله مما يكون ضلالاً عند الله- ترك المكلفون من العباد بعد أن نزل عليهم من الله ما نزل في ذلك من الرشاد ليهتدوا فيها أو يضلوا، كما تركوا في الأعمال ليعملوا أولا يعملوا، لكي يهتدوا فيها أو يضلوا، فأهدى الهدى فيها العلم، وأضل الضلال الجهل، وهو لكل واحد منهما فيها كسب وعمل، يثاب على أيهما اكتسب أو يعاقب، ثوابه أو عقابه على غيره من أعماله، ويجزى فيه على ما صار فيما بينه وبين الله من هداه أو ضلاله.

والعلم منهما ففرض قدمه الله قبل فرض الأعمال، وبه وبما فرض الله منه ما أبان الله به عند المؤمنين فرق بين الحرام والحلال.

ومن كلامه صلوات الله عليه:

ما أعز الإسلام ولا أكرمه ولا وقره فيما وقره الله به ولا عظمه مَنْ تَوَهَّم أهلَ هذا الدهر من أهله؛ لأن الإسلام هو دين ملائكة الله ورسله، فمن زعم أن أهل هذا الدهر ممن يستحق اسمه فقد أوجب لهم إخاءه وولاءه وحكمه.

فزعم أنهم مع ما هم من حالهم وما عليه من سوء أفعالهم إخوة الملائكة المقربين، وأولياء الأنبياء المرسلين، والله سبحانه يقول: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات:١٠]، فآخى منهم بين من في السماء والأرض، وقال: ﴿الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ

وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴿٧١﴾ [التوبة]، فوصف المؤمنين بصفة فيها لمن أراد معرفتهم أعرف المعرفة.

فكيف يأمر بالمعروف من يميل عليه، أو ينهى عن المنكر من يدعو إليه، وهو مقيم ليله ونهاره فيه؟! وكيف يقيم الصلاة بحدودها في قيامها وركوعها وسجودها من شغله بأصغر دنياه أشغل له منها! ومن هو بأقل هواه معرض به عنها؟

وكيف يُؤْتِي الزكاة من جعلها الله له مَنْ يغتصب كل مسكين نفسه وماله؟

وكيف يطيع من هو مخالف، إلا في أقل القليل لله، لا كيف، إلا عند عمي جاهل لا يفرق بين حق وباطل. والحمد لله رب العالمين، وصلواته على سيدنا محمد وعترته الطاهرين وسلامه.

ومن كلامه عليه السلام

بسم الله الرحمن الرحيم

وإنه ليجب على المؤمن في مدة الجبارين أن يكون حجة لله قوية، وساحته من معاونتهم على ظلمهم برية، وأن يكون الرزق أقرب متقربه، وأسرعه إلى الفراغ به، ليقبل قبل شغله، وما وكله الله به من عدله، ولكن لن يفلح أيام دنياه ويبلغ المفروض عليه من تقواه إلا من اتخذ الجوع أنسا، واستشعر العري لباسا، ووضع الصبر على البلوى أساسا، فأما من شأنه التفكه والرحيل، والطلب لها في كل مسلك وسبيل، ومن شغله اجتلاب أنواع الطرف، ومقامه مقام الجبار المترف- فهيهات هيهات من النجاة، غرق الشقي في بحر شقائه، فهو مضطرب بين أكناف أرجائه، فإقباله إلى الخير إدبار، ومقاربته من الحق نفار.

الطهارة

بسم الله الرحمن الرحيم

من الحجة ما كفى، فكيف قلتم في طهارة هذه الأشياء بخلاف ما قلتم به في طهارة الأعضاء، وأمر الله في الأعضاء وتطهيرها أوكد من أمره في تطهير غيرها. هذا والله المستعان مما يناقض عليكم به أصولكم، وتأباه عليكم – إن أنصفتم أقل النصف – عقولكم.

فعلى المتوضي إذا ابتدأ في الوضوء وأخذ في غسل ما أمره الله به من كل عضو أن يصب – إن شاء الله- على يده اليمنى من الماء قبل أن يدخل يده فيما يريد أن يتوضأ منه من الإناء، فيغسلها بالماء حتى تنقى من كل ما كان فيها من نجس أو أذى، ثم يغرف بها ويفرغها على يده اليسرى، فيغسل بها كل ما يحتاج إلى غسل من كل ما أمر بغسله من دبر أو قبل، حتى يطهر ذلك كله وينقيه من كل نجس أو أذى كان فيه، ثم يغسل فرجه الأعلى غسلا نظيفاً طيباً، ثم انحدر فغسل فرجه الأسفل حتى يميط ما عليه من الأدران والأذى، ثم يتمضمض - إن شاء الله- ثم يستنثر بغرفة من الماء - يفرغها بيمنى يديه- واحدة، ولا يفرد –إن شاء- بغرفة الماء استنثاراً ولا مضمضة على حدة، ثم يغسل بعد وجهه كله، أعلاه وجوانبه وأسفله، يبدأ في غسله لوجهه من أعلى جبهته وأطراف ما طلع عليها من شعر رأسه وصدغيه إلى ما ظهر من لحيته، كلها على دقنه وأطراف لحيته، ويجمع لحيته عند ذلك في بطون كفيه، فإذا أتى على ذلك كله بما حددنا من غسله غسل ما أمر بغسله من يديه، إلى آخر مناهي ما حدد له من مرفقيه، ثم يمسح برأسه وأذنيه، مقبلا في ذلك ومدبرا ببطون يديه، حتى ينقى الرأس والأذنان،

مما عليهما من الأدران، فإذا فرغ من مسح الرأس والأذنين غسل ما أمر الله سبحانه بغسله من الرجلين، فأفرغ عليهما بيديه أو بإنائه أو غيره إفراغا، وغسلهما بيسرى يديه غسلا منقيا سابغا، يأتي به على حدود مناهي الكعبين، ومسح باطن الرجلين وظاهرهما بيسرى يديه، وخلل بالماء في إفراغه له ما بين أصابع رجليه، فإنهما أولى أعضائه كلها بالغسل والوضوء والتطهير، لمباشرته بهما الأماكن الدنس والأقاذير، يبدأ في غسله لرجليه بيمناهما قبل غسله ليسراهما، فإذا فعل ذلك كله فقد أتم بإذن الله طهوره وأكمله. ومن لم يغسل من ذلك كله ما أمر الله بغسله فهو عندنا في ذلك كمن لم يتوضأ، ولم ينتفع مع تركه لذلك بما أدى، ولزمه -بتقصيره- إعادة ما صلى. ووجب عليه الوضوء لما ترك منه مستقبلا.

وتأويل الوضوء في اللسان فإنما هو الإنقاء كما قلنا لكل ما وضي أو توضأ.

باب القول في المشرك

وكذلك إن أصاب شيئاً من جسده مشرك بثوبه أو يده فهو في النجاسة كغيره، ولن يطهر أبداً إلا بتطهيره، فإن سقط مكان ما أصاب المشرك بجسده أو ثوبه عنه ولم يثبت ذلك المكان بعينه ولم يوقنه كان عليه غسل جسده كله، ولم يطهر أبدا إلا بغسله.

وكذلك كل ما أصاب ناحية من جسده من ميتة الأنعام، أو ذبيحة أهل بها لغير الله في حل أو حرام، والحكم عليه في غسله وتطهيره كالحكم عليه فيما ذكرنا من غيره، يغسله من مكانه إن علمه بعينه، وإلا غسل له جميع بدنه.

ومن أوكد ما على من لمس كل مشرك أو ثوبه أو مجلسه أو مركبه. وكل من يشاق الله سبحانه بكبائر العصيان أو يعصيه فلا يجوز أن يتخذه مؤمن قبلة أو سترة؛ لأنه ليس بطاهر، وليس ممن له طهارة ولو طهر بالماء وتطهر فأكثر ما عتى في أمر الله واستكبر؛ لأن الطهارة عند الله سبحانه طهران: أحدهما: طهر النفس، والآخر: طهر الأبدان.

فطهر الأنفس قبل أبدانهما هو برآتها من كبائر عصيانها.

وطهر الأبدان هو ما حددنا من الوضوء فيما أمر الله سبحانه بغسله من كل عضو، فمن لم يطهرهما جميعاً لم يكن طاهراً ولا مطهرا، ولم يجز لمؤمن أن يتخذه قبلة ولا سترا، وكذلك هو أبدا حتى يتوب إلى الله سبحانه ويرجع، ويقصر عن مشاقته لله سبحانه وينزع.

فهذا ما لله على المصلي إذا صلى، فرضا كانت صلاته أو تنفلا، في الطهارة من لدن بطن قدميه إلى حاق ذوائب رأسه، ثم لله عليه بعد هذا كله إذا صلى في لباسه ألا يصلي فرضاً ولا تنفلا في شيء منه حتى يزول عنه كل ما ذكرنا من النجاسة كلها عنه، وأن يكون اللباس مع زوال نجاسته غير فاحش المنظر في وسخه ولا دناسته، فإذا أنقى اللباس كله من كل نجس، وبري من كل ما ذكرنا من فاحش الوسخ والدنس، وطهر ما يتوضأ به من الماء، وكل ما يتطهر فيه من إناء.

وطهارة الماء أن لا يتغير ريح ولا لون ولا طعم، وطهارة الإناء ألا تكون فيه نجاسة تعلم، فإذا أتم المتوضئ وضوءه هذا كله، وقام بما لله عليه فيه فأكمله، فهو حينئذ الطاهر غير شك ولا مرية، ثم لله عليه بعد أن لا يصلي من بقاع الأرض إلا في بقعة نقية، ولا يستتر بسترة من حجر أو مدر إلا أن يكون طاهرا

من كل نجس أو قذر. فإذا أتم هذا كله من أمره فقد أتم ما أمره الله سبحانه به من وضوئه وطهره، فغسل دبره وقبله، وأنقى ذلك منه كله، وطهر منه ما أمره الله سبحانه بتطهيره، وقدم ما أمره الله بالتقديم له في الطهارة على غيره، وكان تقديم ما قدم منه على غيره في التطهير دليلا على حكمة من حكم بتقديمه في التدبير، وشاهدا على أن من حكمه متعالي(١) من غفلة المغاليط، وعالماً بفرقه بين المحاب في الأشياء والمساخيط.

ولتقديمه على غيره(٢) ما أمر الله به من وضوئه وتطهيره ما يقول الله سبحانه ما أوضح أمره وبيانه: ﴿أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَابِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً﴾ [النساء:٤٣].

فأوجب سبحانه على كل متغوط من الوضوء إذا وجد الماء ما أوجب من الغسل إذا وجد(٣) في ملامسة النساء، وقد يعلم أن المجيء للغائط قد يكون للخلاء والأبوال، كما قد يعلم أن الملامسة قد تكون للنساء من الرجال.

وكيف لا يَرَوْنَ مَنْ لم يغسله عنه من مجرده وهو هنالك أكثر غَيْرَ متطهر وهم

---

(١) قوله عليه السلام: «أن من حكمه متعالي»: يظهر لي -والله أعلم- أن «من» دخلت هنا بالخطأ من ناسخ أو من غيره؛ لاستقامة الكلام بدونها، واضطرابه بوجودها. وقوله عليه السلام: «وعالماً بفرقه بين المحاب ..إلخ» معطوف على المعنى، والتقدير: وكان الله بتقديم ما قدم.... حكيماً...؛ فعطف «وعالماً» على «حكيماً»، ويسمى مثل هذا: العطف على المعنى أو العطف على التوهم. (من خط السيد العلامة المجتهد محمد بن عبدالله عوض المؤيدي حفظه الله).

(٢) قوله عليه السلام: «ولتقديمه على غيره ما أمر الله به..»: المعنى: والدليل على تقديم غسل القبل والدبر هو ما أمر الله به من الوضوء والتطهير بعد الخروج من الغائط. (من خط السيد العلامة المجتهد محمد بن عبدالله عوض المؤيدي حفظه الله).

(٣) في المخطوطة: أوجد.

يزعمون ألا طهارة لمن كان في جسده أو ثوبه منه أصغر أثر؟ أفينجس عندهم منه بالقليل الأصغر ويطهر في حكمهم منه مع الكثير الأكثر؟ فأي منكر أنكر عند من يعقل أو يفكر مما قالوا أو ذكروا، وقبلوا فلم ينكروا؟ فلقد كان أهل الجاهلية الأولى ومن كان لأكل الميتة مستحلاً وإنه ليغسل عنه في جاهليته أثر البول والعذرة، وكيف لا يغسله وهو يغسل تنظفا غيره من الأشياء القذرة، وهما أقذر الأقاذير قذرا، وأنتنه ريحا وأقبحه منظرا؟ وإن كانوا أهل الجاهلية إذا طافوا ببيت ربهم ليلقون ما عليهم من ثيابهم؛ تطهرا لله بطرحها في طوافهم، فأين هذا مما في أيدي الجاهلية من اختلافهم وما يقولون به في البول والعذرة على من مضى من أسلافهم، ويضللون من أتى وخلف بعد من أخلافهم؟! فنعوذ بالله من الجهالة في دينه والعمى، ومن العبث بما قالوا لمن كان مسلما، فلو ما قيل به من ذلك في السلف قيل به في مشرك كان مشهوراً بأكل الجيف لعده عيبا فاحشاً كبيراً ولو أن ما يأكل معه من الجيف صغيراً، فكيف يقال به أو بمثله في مسلم أو إسلام أو يتوهم حكما أو جائزا عند ذي الجلال والإكرام وهو يحكم لا شريك له على كل مسلم في الدم بأن يغسله، والدم أطيب ريحاً وأنقى منظراً، وأقل عند من يعقل أو لا يعقل نتناً وقذراً؟

وكذلك الخمر وما يلزم غسله من الأنجاس كلها فليس منه شيء كالعذرة في نتنها وقذرها، ولربما ظننت أنه ما وضع هذا القول ولا أصله إلا من كان يستمله الإسلام وأهله ممن وتره المسلمون والإسلام، وكانت عبادته في جاهليته الأصنام، وما أحسبه قيل قط إلا عنهم، ولا أخذته هذه العامة المتحيرة إلا منهم،

إسعافا لهم وطمعا في الدنيا، وإيثارا منهم على البصيرة العمياء.

وعلى من تطهر مما أمره الله بالتطهرة منه من الملامسة والاجتناب أن يغسل جسده كله جميعاً، ولا يلتف فيتجفف إلا فيما تجوز الصلاة فيه من الثياب، مع[(١)] ما أوجب الله سبحانه عليه من اغتساله، بما[(٢)] كان أوجبه الله عليه قبل من الوضوء على حاله، لأن الله سبحانه قد فرض الوضوء أولا وحكمه، كما فرض من الغسل في ملامسة النساء عليه فلزمه، فجعل الله الوضوء عليه للصلاة واجبا، كما أوجب عليه الغسل من الجنابة إذا كان جنبا. وعليه أن يقدم من الوضوء عند اغتساله وتطهره ما قدمه الله عليه وبينه له فيه من أمره. فإن انتقص شيئاً مما عددنا من هذا كله في طهارة لباسه أو في شيء مما حددناه من وضوئه وغسله كان منتقصا لما أمر به، وعاصيا فيما انتقص لله ربه، وكان عليه في ذلك كله الإعادة لما ترك، وإلا كان هالكا عند الله سبحانه بتركه له فيمن هلك، ومنتقصا بما ترك منه لأمر الله وعهده، ومتعديا لما حد الله في الطهارة من حده.

فإن لم يجد المتوضئ المغتسل أو المتوضئ الذي لا يغتسل ماء طهورا يتطهران لصلاتهما به تيمما صعيدا طيبا لا يشكان في طهارته وطيبه، فمسحا إذا لم يشكا في طهارته منه بوجوههما وأيديهما، فإذا فعلا ذلك فقد أديا فرض الله في الطهارة عليهما، ولا يطهرهما في التيمم ويجزيهما مسح وجوههما وأيديهما حتى يعلق

---

(١) (مع) متعلق بقوله: «يغسل جسده». (من خط السيد العلامة المجتهد محمد بن عبدالله عوض المؤيدي حفظه الله).

(٢) (بما) متعلق بـ«اغتساله». (من خط السيد العلامة المجتهد محمد بن عبدالله عوض المؤيدي حفظه الله).

التراب بهما وعليهما ما يبين به أثر التراب فيهما. ومكان ما للوجه من الحد في مسحه من الصعيد كمكان ما له من الوضوء سواء وفقا من التحديد، وحد مسح متيمم الصعيد إذا مسح بيديه أن يمسح باطنهما وظاهرهما إلى مرفقيه، ولا يطهر أبدا إلا من أتم طهارته بيقين لا شك فيه، ولا ينقض وضوءه ولا طهارته بعد يقينه بها إلا يقين بنقضها ثابت ويصير إليه، وإلا فطهارته أبدا ووضوؤه تام وتطهيره، لا يزيل يقينه بها شك منه ولا حيرة، ولا ينقض ما له بها من حكم التطهر إلا ما خرج من قبل أو دبر، أو حدث من دم سائل يقطر، أو يسفح من أي جسده خرج فينحدر، فأما ما خرج منه من البدن يعلق، ولا يدمع أو يسيح من متعلقه في البدن فينقطع- فليس مما يحتسب به ولا يعد، ولا مما ينقض الطهارة ولا يفسد.

وكل ما يجب على الرجل في التطهرة والوضوء فواجب مثله سواء على كل مرأة حرة كانت أو أمة، لأنهم كلهم ملة وأمة.

ونفاس المرأة وحيضها فما كان بعد من دمها فهو فيما ينقض عليها من طهارتها كالدماء وحكمها، فإذا انتهى حيضها ووقف، ونقيت منه حتى تنظف- فعليها الغسل من ذلك كله، لا تطهر أبدا إلا بغسله.

فإن خرج بها وقت طمثها أو نفاسها عما تعرف فعليها الغسل من ذلك، من عدة أيامه خرجت من حكم الطمث والنفاس وكان كغيره من الدم وأحكامه تغسل منه غسلا واحدا، ثم تتوضأ بعد كل صلاة وضوءا فردا، فإذا عاد وقت طمثها إليها عدت ما كانت تعرف من وقت قرء واحد من أقرائها ثم اغتسلت عنده، ثم عادت للوضوء بعده.

الاعتقاد

وعلى من قام من الرجال أو النساء لصلاة واحدة أو أكثر منها أن يتوضأ لها كلما قام إليها أبدا، وهي وإن اجتمعت فإنما فرض الله فيها وعند القيام لها وإليها على من يريد أن يصليها وضوءاً واحدا، فإن هو فرق بين قيامه لصلاته بإقبال أو إدبار في شيء من حاجاته انتقض عليه بذلك عقد وضوؤه لصلاته وطهارته، ولزمه الوضوء كلما قام إلى شيء مفروق أو مجموع من صلواته، وإن ثبت بعد الوضوء في مسجد من مساجد الله أو بيت من بيوت ذكره فهو ما ثبت فيه وأقام أبدا ثابت على وضوئه وطهره، لأنه إذا كان كذلك فهو قائم إليها، منتظر لها بعد ومقبل عليها.

ألا ترى كيف يقول الله سبحانه: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ۝٩﴾ [الجمعة]، فما أمر الله به من السعي إلى ذكره والجمع فهو قبلها.

ومن القيام إلى الصلاة قعود من قعد لها منتظرا أو عليها مقبلا، ولم يكن بغيرها من أمور الدنيا عنها مشتغلا، فهو قائم في ذلك – وإن طال– إليها، وكأنه بذكره لله في ذلك قد دخل فيها، فوضوؤه أبدا ما كان كذلك وعلى ذلك غير منتقض، وهو في ذلك مؤدي لما عليه من الطهارة لها من الفرض، فهذا فيما به قلنا وما به في قولنا استدللنا.

وأوجبنا اللباس في الصلاة على كل مصل، وحرمنا على كل من صلى من المؤمنين كل تعرٍّ، بدت منه عورة مستورة، أو ظهرت معه فيه منه عورة، لقول الله سبحانه: ﴿يَابَنِي ءَادَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِى سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ ءَايَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ۝٢٦﴾ [الأعراف].

واللباس ما وارى العورات وغطاها، والرياش فزيادة اللباس على ما سترها ووراها، ومما أوجبنا له ذلك أيضاً ما أوجبه الله تبارك وتعالى منه على بني آدم ففرضه عليهم فرضا، فقال سبحانه: ﴿يَابَنِي ءَادَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ۝٣١﴾ [الأعراف].

فأمر تبارك وتعالى جميع الناس بالأخذ عند كل مسجد لزينة اللباس، وفيما قلنا به من هذا من منزل القرآن ما كفى وأغنى كل ذي رشد وإيمان.

ولا يجوز لأحد أن يصلي شيئاً من صلاته بشيء سرقه من ماء ولا لباس؛ لأن الله سبحانه قد حرم الصلاة عليه به كما حرمها عليه بغيرها من الأنجاس.

ومن اجتنب في منامه حتى يمني مما رأى في احتلامه وجب عليه من ذلك الغسل في إمنائه ما يجب على اليقظان في إنزاله لمائه. ومن كان نائما فلم ينزل ولم يمن أجزأه في ذلك كله من الوضوء ما يجزي كل متوض، فإن غشي أهله فأكسل ولم يمن لزمه الغسل في ذلك كما يلزمه في الإمناء سواء، لقول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ((إذا التقا الختانان وجب الغسل))، وفي ذلك ما يقول الله سبحانه: ﴿وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِى سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا﴾ [النساء:٤٣]، والجنب فإنما هو الممني المعرض لإمنائه عن أهله المنتحي، ألا تسمع كيف يقول الله سبحانه: ﴿وَالْجَارِ ذِى الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ﴾ [النساء:٣٦]، والجار الجنب فهو القاصي المنتحي بغير ما مرية ولا كذب، لا يمت بقربى وهي القرب في الرحم ماتة[١]، والإجناب

(١) في المخطوط: ماسة. ولعل ما أثبتناه الصواب. قال في مختار الصحاح: المت: التوسل بقرابة، وبابه رد، والمواتّ: الوسائل جمع ماتة بتشديد التاء فيها.

فهو ما ذكره الله سبحانه من الملامسة، لأن الله سبحانه يقول تبارك وتعالى في هذه الآية ما يدل على أنها الإجناب بغير شك ولا مرية: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ۝٦﴾ [المائدة]، ولو لم يكن الإجناب هو ملامسة النساء لما احتيج في هذه الآية إلى ذكر وجود الماء، فقال سبحانه: ﴿فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ [المائدة:٦]، وطيب الصعيد لا يكون قذراً ولا قشباً.

وسواء احتلم فأمنى في احتلامه أو لامس النساء فأمنى في غير منامه، ومن اغتسل في إكساله لم يكن مذموما على اغتساله.

باب القول في السرقة

وأوجبنا على من سرق سرقة ألا يتوضأ بها ولا يصلي فيها؛ لأنه عندنا في حكم الله ملعون عند الله بها وعليها، ومنهي منها أشد النهي من الله عن حبسها عن أهلها طرفة عين، ومحكوم عليه فيها بالقطع فيما شرعه الله من أحكام الدين، وكيف يجوز أن يصلي على سرقة أو في سرقة من سرقاته أو يتوضأ بما قد سرقه؟ فيكون بما كان من وضوئه من ذلك عند الله في أهل المهالك، قد أحبط الله به عمله وأجره، وأبطل بما ركب من ذلك طهره، فلا وضوء ولا طهارة له، وكيف يكون طاهرا أو متطهرا وقد أبطل عمله بما فارق فيه من التقوى، وركب فيه بما ركب من كبائر الأسواء، ولا يقبل الله إلا من المتقين، ولا يصلح الله عمل المفسدين، فعمله غواء فاسد، وهو عن التقوى عاند.

وكيف يصلح الله وضوءه وطهره وقد أحبطه الله ودمره؟! وكيف يطيب ذلك أو يطهر به وقد أبطل الله سعيه وعمله؟ فلم يتقبله جل ثناؤه عنه، ولم يصلح له ما عمل منه.

وكذلك ومن ذلك كل أرض مسجد أو مكان ما كان أخذ من أهله غصبا، أو مسجد بني بمال سرق أو غلب عليه أهله من المؤمنين أو الذميين غلبا، فلا يحل لأحد أن يأتيه، ولا يسع مؤمنا أن يصلي فيه؛ لأنه اتخذ بكفر في دين الله ومعصية، وأسس بأسباب لله سبحانه غير مرضية.

ألا تسمع لقول الله سبحانه ما أنور بيانه: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ۝١٠٧ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ۝١٠٨﴾ [التوبة]، فنهاه صلى الله عليه وآله وسلم إذ بني لمعصية وبمعصية عن أن يقوم فيه أبدا، وجعل تركه للقيام فيه وإن كان مسجدا من المساجد طاعة وهدى، وكيف تجوز فيه صلاة أو يكون له طهر أو زكاة ولم يأذن الله سبحانه في بنائه لمن بناه قط؟ بل بناؤه له معصية لله كبيرة وسخط، ودخوله على من بناه محرم لا يحل، فكيف تحل فيه صلاة أو تتقبل.

ألا تسمع لقول الله جل ثناؤه فيما رفع من البيوت بإذنه: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ۝٣٦ رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ۝٣٧﴾ [النور]، فدل سبحانه عليها وعلى زكاتها بما ذكر من

إذنه في رفعها وبنائها، فلو كان ما أذن الله في رفعها منها كما لم يأذن فيه لكان ذكر الإذن منها فضلا لا يحتاج إليه، وكان سواء فيها أذن أو لم يأذن فيه لكان ذكر الإذن منها فضلا لا يحتاج إليه، وكان سواء فيها أذن أو لم يأذن، وكان ما بين من ذلك كما لم يبين، فلما لم يأذن سبحانه لأحد في رفع المسجد الحرام كان محرما فيها – فضلا عن الصلاة – كل دخول أو قيام.

ومن ذلك ما نهى رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ عن أن يقوم في مسجد الضرار إذ بني مخالفة لله سبحانه وعصيانا. ولقد كان ما ذكرنا من هذا الباب قبل ما نزل من وحي الكتاب، وأن في الجاهلية منه لرسماً أصابوه فكرة أو تعلما، فقالوا قريش عندما أرادوا من بناء الكعبة: لا تخرجوا فيما أردتم من بناء بيت ربكم إلا نفقة طيبة، فاجمعوا فيما تريدون من بنائه من كل مال زكي، ونقوه من كل ظلم ومن أجر كل بغي.

الكلام في الدم

وأوجبنا في الدم إذا سال أو قطر أن يتوضأ منه من أصابه ذلك ويتطهر، لمشابهته في تحريمه وخروجه من الأبدان المتطهرة لما يجب به الوضوء إذا خرج من مخرج البول والعذرة، وكذلك كل ما حرم من هذه الأشياء كلها على كل آكل أو شارب شربه أو أكله وجب على كل متطهر لله في صلاة أو موقفٍ طهارتُه وغسلُه.

فإن قال قائل: فما بالكم لم توجبوا الوضوء في قليله كما أوجبتموه في قليل البول وكثيره؟ قلنا: للتبيين بحمد الله المنير، ولأوضح بيان قيل بمثله في تفسير؛ لأن الله سبحانه حرم قليل البول وكثيره، فألزمنا كل من توضأ غسله وتطهيره، وأنه لم يحرم من الدم إلا ما كان مسفوحا، فكفى في هذا فيما فرقنا بينه وضوحا. والمسفوح من الدماء، من كل ما سال أو قطر أو جرى فتحدر، فلولا أن المحرم

من الدماء هو المسفوح بعينه، وأن الله سبحانه بين ذلك وشرحه بحكمته وتبيينه- لما خلا الرسول للمسلم(١) ولا غيره ممن أكل لحما أن يكون في أكله له معه دما، لأنه ليس من لحم قليل ولا كثير لا من الأنعام ولا من الطير إلا وبين أضعافه لا محالة دم، فسبحان من حكم فيه حكم من يعلم.

فلم يحرمه تبارك وتعالى منها تحريما مبهما، فيكون بذلك لما أحل من بهيمة الأنعام محرما، فيتناقض أمره فيه وحكمه، ولا يفهم عنه محلله أو محرمه، ولكنه فرق بينه سبحانه ففصله، ونزل كل حرام منه وحلال منزله، وليس في شيء منه تقصير ولا فرط، ولا يعرض لأحد مع حسن نظر فيه حيرة ولا غلط، فقال سبحانه: ﴿إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا﴾ [الأنعام:١٤٥]، فبين تحريمه فيه بيانا مشروحا، فهذا ما به فرقنا بين قليل العذرة والبول، وله ومن أجله صرنا فيه إلى ما صرنا إليه من القول. وكل شيء من الدماء كلها وإن قل كان في عضو من أعضاء الوضوء غسل ذلك كله أو مسح حتى ينقى منه جميع ذلك العضو، فلا يرى منه فيه أثر، ولا يبقى فيه منه دنس ولا قذر، لأن الله سبحانه أمر بغسله، فأوجب الغسل الذي هو الإنقاء على كله.

القول في النفاس

وأوجبنا الغسل في النفاس كما أوجبنا في الحيض سواء، لأن النفاس محيض وإن اختلف به وفيه الأسماء.

وقد ذكر عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم في المحيض واختلاف أسمائه أنه قال لمرة كانت

(١) لم تتضح العبارة في المخطوط، وهذا أقرب ما فهمناه منها.

معه من نسائه فطمثت فوثبت فقال لها ﷺ: (مالك أنفست؟) وفصحاء العرب والناس يدعون المحيض باسم النفاس، والنفاس وإن دعي محيضا فقد يدعى طمثا أيضاً. وقد قال الله سبحانه: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ..﴾ الآية [البقرة:٢٢٢]، فأوجب من ذلك كله التطهر(١)، وأمر فيه كله من الغسل بما أمر، فأوجبنا اتباعا فيه لأمر الله وتنزيله، واستدلالا بما دل به علهي من دليله.

فإن سأل سائل عن الكدرة والصفرة، وما يعرض من ذلك في بعض الأحوال للمرة؟

قيل: أما ما كان في ذلك بين فترات دفق الدم، وكان وقت محيضها فيه لم ينقطع بعد عنها ولم ينصرم- فهو من المحيض ودمه، والحكم فيه عليها كحكمه، فإذا انقطع عنها المحيض -وهو خالص الدم ومحضه- وجب عليها عند انقطاعه عنها الغسل ولزمها فرضه، لأن المحيض والدم إنما هو ما كان خالصا محضا، كما أن المحيض منه ما كان مشوبا بغيره متمحضا(٢)، من دلائل ذلك أيضاً قول بعض العرب: إنا لنشرب اللبن مخيضا ومحضا، يريد بالمحض الخالص منه المحض، والمخيض فما قد خلط بالماء ومحض.

القول في الحبلى

ومن سأل عما ترى من ذلك الحبلى فقال: أمحيض هو عندكم أم لا؟

---

(١) في (نخ): التطهير.

(٢) في (نخ): متمحضاً بغيره.

قيل: لا ليس بمحيض منها ولا طمث، والحكم عليها فيه كالحكم عليها في كل حدث حدث، عليها أن تتوضأ من ذلك إذا رأته وضوءا، وتغسل أعضاء الوضوء له عضواً عضواً، وإنما دعانا إلى تصحيح اسم المحيض وما بينا به منه بذكر المحض والمحيض ما أردنا من تصحيح ما حكم الله سبحانه به منه للمرة وفيها، لكي لا يزول ما أثبته الله سبحانه إذا انقطع المحيض من فرض الصلاة عليها، فلو لم يبن ذلك بما قلنا وأبنا، ولم يقبله من وصل إليه عنا- لكان الاحتياط للمرة فيه وإن التبست معانيه أولى لمن التبس عليه ما قلنا به فيها وأرضى، وأجدر لأن لا يبطل لله عليها فرضا.

القول في الحجامة والرعاف

إن سأل سائل فقال: هل يجب عندكم الوضوء من الحجامة والرعاف؟

قيل: نعم، أوليس قد فرغنا من هذا فيما قدمناه لك من الذكر والأوصاف.

فإن قال: ما تقولون فيمن قاء دما أو قلسه؟

قيل: هذا أيضا قد بيناه نفسه، فيه وفي الرعاف والحجامة ما أوجبنا في الدم المسفوح من الطهارة الواجبة اللازمة، لأن هذا كله مسفوح متحدر، جميعه يقطر.

فإن قال: فما تقولون فيمن بصق بصاقا مختلطاً بدم، فهذا لا يسفح ولا يقطر؟

قيل: ليس عليه في هذا وما أشبهه من الدم وضوء ولا تطهر، وليس الوضوء والتطهر من الدم إلا فيما ينحدر، فأما ما ثبت من الدم في مكانه فلم يزل فليس ينقض عندنا وضوءاً ولا طهرا، لأنا لم نسمع لذلك في كتاب الله سبحانه ذكرا، ولكنا نرى له أن يمضمض منه فاه، ففي ذلك إذا فعله به ما كفاه، كما لو أصاب عضوا من أعضائه أمرناه بتنظيف العضو وحده منه وإنقائه.

فإن قال: فما تقولون فيمن كان على شيء من بدنه دم فمسحه بخرقة حتى ينقيه، هل يجزيه ذلك من غسله ويكفيه؟

قيل: نعم، إذا مسحه حتى ينقى منه أثره فقد أجزاه ذلك فيه وطهره، وكذلك دم لو خرج من أنفه فأخذه بأصبع أو أصبعين من كفه، ثم عركه حتى يذهب ريحه وأثره كان في ذلك أيضا ما أجزاه وطهره.

وكذلك ما أصاب الثوب من غير مسفوح الدماء اكتفى فيه بالعرك والإنقاء، وإذا ذهب بالعرك أثره فهو نقاؤه وطهره.

فإن قال قائل: فلم لم توجبوا في قليل المني من طهره بالعرك ما أوجبتم في قليل الدم؟

قيل: لأن الله سبحانه لم يفرق بين قليل المني وكثيره فيما أوجب من نجاسته في الحكم، وقد فرق بين قليل الدم وكثيره في حكمه، بما خص به مسفوح الدم من تحريمه، فلذلك فرقنا فيه بين الكثير القليل، وقلنا فيه بما دلنا الله سبحانه عليه من التنزيل.

ومن سأل عن دماء الخنافس وما يشبهها من الجعلان، وعن دم الثعابين والجراد والذبان؟

قيل: هذا كله قل أو كثر ليس مما يسفح ولا يسيل وإن هو عصر، ولا ينجس من كل دم كما قلنا إلا ما سال أو قطر، ويستحب منه كله ما يستحب من قليل الدم أن يغسل ويطهر، ولا نوجب منه إن لم يغسل إعادة لوضوء ولا صلاة كما نوجب ذلك على من تركه من الأنجاس المسماة، لأن الله سبحانه لم يسمه كما

سماها نجسا، وإنما استحببنا غسله لأنا نراه وسخا ودرنا ودنسا، وهذا كله أجمع فلا ذكاة عليه، وذلك مما يدل على حقيقة قولنا فيه، لأنه إذا كانت ميتته للطهارة مستحقة كانت أخلاطه كلها كذلك وإن كانت متفرقة، وكذلك ما قل من الدم حتى يكون في القلة والصغر شبيها بالخردلة أو بما زاد قليلا عليها من القذر، ولا تجب على من صلى به إعادة -إذ لا يسفح- لصلاته، ولا ينتقض عليه وإن لم يغسله [شيء] من طهارته، وما كان من الدم لا يسفح من خروجه ولا يقطر عن رأسه فلا إعادة فيه، فإن كان في بدن المصلي أو ثوبه دم بكثر حتى لا يشك في أنه مما كان يسيل أو يقطر فنسيه حتى صلى عاد لصلاته فصلى، لأن نسيانه لما يجب عليه منه لا يزيل فريضة الله في الصلاة عنه، ولم نوجب إلا ما أوجبه غيرنا.

القول في التيمم

وإن سأل سائل عمن لم يجد ماء وكان في مكان لا يقدر فيه أن يجد طيب الصعدان كيف يصنع في صلاته، وما الذي يجب عليه من طهارته؟

قيل: يصلي ولا يتيمم بشيء وإن حضره وكثر عنده فلم يعدمه، إلا أن يجد الصعيد الطيب الذي أمره الله سبحانه أن يتيممه فليتيممه، فإن لم يجده لم يمسح يديه ولا وجهه بغيره، وكان قد زال عنه فرض ما أمره الله فيه بتطهيره، لأن الله سبحانه لم يذكر أن طهرا يكون إلا به أو بالماء، وقد علم الله جل ثناؤه مكان غيرهما من الأشياء فلم يأمر المؤمنين به، ولم يذكر لهم سبحانه فيما ذكر من تطهير الصعيد لهم وغناه في الطهارة عنهم، ﴿فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ..﴾ الآية [المائدة:٦]، فجعل المسح بالصعيد لوجوههم وأيديهم تطهيراً لهم

وإتماماً للنعمة عليهم.

وقد قال غيرنا: إن من وجد برذعة حمار، أو كان في بيت مبلط بزجاج أو رخام تيمم أي ذلك وجده، فمسح بوجهه ويديه، وكان ذلك مؤديا عنه لفرض الله في الطهارة عليه، وهذا خلاف لما أمر الله به من تيمم الصعيد لا يخفى، وقول لا يقول به إلا من جهل وجفا، ولو جاز أن يتيمم بما هو غير الصعيد -لا يشك فيه- من هذه الأشياء لجازت الطهارة بخلاف ما أمر الله به من الوضوء بالماء؛ لأن خلاف ما بين الماء وغيره من الأشياء ليس بأكثر في المخالفة من خلاف الصعيد للرخام والحديد، فإن جاز أن يتيمم بخلاف الصعيد جاز أن يتوضأ بما هو مخالف للماء من كل ما كان له مخالفا من لبن أو غيره، ثم يكون بذلك مؤديا لما عليه من كل عضو وضاه به من تطهيره.

القول في الماء القليل

ومن سأل عمن كان معه ماء قليل لا يكفيه ما الذي يجب لله في ذلك من الطهارة عليه؟

قيل: يجب عليه فيما وجد من الماء أن يتوضأ به ما كانت له فيه كفاية من الأعضاء، يبدأ في ذلك بما قلنا من يمنى كفيه، ثم بالأول فالأول مما يجب في الطهارة عليه، فإذا أكمل غسل وجهه ويديه وأتمه فليس له أن يتمسح من صعيد ولا أن يتيممه، وإنما له أن يتيمم الصعيد ما لم يكن الماء عنده، فإذا حضره الماء ووجده فإنه يلزمه بوجوده للماء فرض الطهارة به والوضوء، لأن الله سبحانه فرض الطهارة بالماء إذا وجد على كل عضو، فما وجد لعضو منها كلها ماء لم تكن له بغيره طهارة ولا اكتفاء.

ألا ترى أن الماء في الطهارة أنقى وأرضى وأوجب وإن وجدا جميعا فرضا، لقول الله سبحانه: ﴿فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ [المائدة:٦]، فلما وجد الماء لبعضها كان الوضوء به عليه فيه واجبا. ألا ترى أنه لو لم يجد إلى ما فرض الله عليه من الصلاة كلها سبيلا لما كان ذلك لما يطيق أن يصليه منها واضعا ولا مزيلا.

ومن سأل عمن معه بلغة ماء من المسافرين والمرضى، وهو لا يأمن إن تطهر بها أن يهلك إن هو فعل تلفا وعطبا؟

قيل له: لا يحل له أن يتوضأ به إذا كان أمره فيه كذلك، لأن الله سبحانه حرم عليه أن يوصل إلى نفسه هلكة متلفة ما كانت من المهالك، ووعد عليه النار إن هو فعله عدوانا وظلما، فحكم به عليه لنفسه حكما حتما، فقال سبحانه: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾﴾ [النساء]، وعليه أن يتيمم كما قال الله سبحانه: {صعيدا طيبا} فيمسح منه بوجهه ويديه. وكذلك من خاف على نفسه دون الماء سلطانا أو لصوصا أو سبعا أو كرارا كان التيمم واجبا عليه، وكان حراما في ذلك كله من ابتلي به أن يعرض نفسه في شيء منها تلفا، أو يجشمها في تعريضه والطلب له هلكة أو حتفا.

ومن وجد مع غيره شيئاً من الماء فطلب شراءه فلم يعطه إلا بغلاء وهو لثمنه واجد كان عليه أن يشتريه؛ لأنه واجد له بما وجد من الثمن، وواجبة فريضة الله عليه فيه، كقول الله سبحانه: {فلم تجدوا ماء}، ومن حضرته الأشياء فوجد لها وإن غلت ما يشتريها به من الأثمان فهو لها واجد غير شك فيما يعرف من معلوم

اللسان، إلا أن يكون ذلك يحل بماله إجحافا، أو له في بذل ما معه من طعام أو مثله إتلافا، فلا يكون له الإتلاف والإجحاف بنفسه في ذلك؛ لأنه يعود في تلك لو فعلها بنفسه إلى ما نهي لها عنه من القتل والمهالك، وإلى ما لم يرده الله تبارك وتعالى له من الحرج والعسر، وإلى خلاف ما أراد الله سبحانه بعباده من التخفيف واليسير، قال سبحانه: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة:١٨٥]، وقال في آية الوضوء نفسها: ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ﴾ [المائدة:٦].

وقال سبحانه فيما فرض على الأموال من النفقات، وما حدد من ذلك تحديدا من أحكامه المفصلات: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ﴾ [البقرة:٢١٩]، والعفو من الأموال كلها فهو ما لم يكن فيه الإجحاف بها، وليس قول من قال: لا يشتريه إذا غلا قولا يجد له من أنصف أصلا؛ ألا ترى أنه إن زال عنه شراؤه لغلائه لم يكن يجب عليه وإن رخص شيء من شرائه، وهم يُوْجِبُونَ عليه إذا رخص شراءَه ويرونه بذلك واجدا للماء، وهذا فهو الأصل فيما أوجبنا عليه من شرائه في الغلاء.

ولما حددنا من قولنا في الطهارة فروع كثيرة متفرعة، وهي كلها وإن كثرت -والله محمود- فيما بينا من أصولها مجتمعة.

ومن ذلك إن سأل سائل عن عدد الوضوء فيما يجب عليه من غسل كل عضو وبينا فيه، وليس لشيء من ذلك عدد يحصى بأكثر من أن يغسل ويوضأ فينقا، وتحديد ذلك جهالة وعمى، إذ كان باسم الغسل مسمى، لأن الله سبحانه قال:

{فاغسلوا}، فقد غسلوا، أكثروا بعد الغسل أو أقلوا.

فإن سأل سائل عما يجب من الوضوء على كل من كان نائما؟

قيل: قد فرغ من هذا فيما أوجبنا من الوضوء عند كل صلاة على كل مستيقظ قاعداً كان أو قائماً.

فإن قال: فإن نام في الصلاة نفسها ساجدا، أو نام فيها قائماً أو قاعداً؟

قيل: وهذا أيضاً قد أجبنا عنه، وسواء ذلك كله كيف ما كان إذا حق فيه النوم وسمي باسمه، فهو كله نوم، والحكم فيه كحكمه.

ومن سأل عن مسح الرأس ببِل من الماء على بعض ما قد وضي من الأعضاء هل يجزيه ذلك فيه أم لا؟

قيل: لا يجزيه إذا كان بللا.

ألا ترى أن متوضئا لو وضأ بماء عضوا من أعضائه لم يجز له أن يوضي غيره بما وضاه به من مائه، وماؤه أكثر وأنقى وأشبه بالكفاية والرضا من بلل يكون على عضو من الأعضاء، فلا يجزيه إلا مسح رأسه بماء جديد، وأن يأتي في مسحه على القريب منه والبعيد، مما قبُل منه أو دبُر، وكل ما أنبت منه الشعر، لأن الله سبحانه أمره بمسحه كما أمره بغسل يديه ووجهه، فعليه مسحه كله جميعاً كما عليه غسل وجهه ويديه معا.

ولو سأل سائل عمن أمطرت على رأسه السماء أو صب على رأسه ماء وهو يتوضأ، هل في ذلك ما يجزيه من واجب مسح رأسه بيديه أو إحداهما؟

وكذلك أذناه فمعناهما معنى الرأس في مسحه، وقد فرغنا -والله محمود- من

الجواب في هذا كله، وفصلناه فيما بينا من أصله.

وإن سأل سائل عمن مسح رأسه ثم أخذ بعد المسح شعره، أو غسل يديه ثم قصر بعد غسلهما ظفره، هل في ذلك لطهارتهما نقض، أو في تجديد من ذلك عليه فرض؟

قيل: على من قام لصلاته بعد أخذ شعره وظفره أن يعود لجميع وضوئه وطهره، لأن الله سبحانه يقول: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا﴾ [المائدة:٦]، فأوجب عليهم الغسل كلما قاموا إلى الصلاة ليصلوا، إلا أن يكونوا كما قلنا في مسجد من مساجد الله منتظرين فيه لصلاتهم، أو مشتغلين فيه بذكر الله، فيكونون على وضوئهم وطهارتهم ما كانوا فيه لصلاة منتظرين أو لله سبحانه فيه ذاكرين، فإن لم يذكروا فيه وينتظروا، وخاضوا فيه بباطل فأطالوا فيه أو أقصروا- كان واجبا عليهم فيها الغسل كلما قاموا أبدا إليها.

فإن سأل سائل عن جنب اغتمس اغتماسة في ماء يغمره، هل في ذلك ما يجزيه ويطهره؟

قيل: نعم، قد طهر واكتفى، واغتسل كما أمر وتوضأ، إلا أن لا يكون أنقى ما أمر بإنقائه من دبره وقبله وجميع أعضائه، فإن ذلك ربما لم ينق وإن هو اغتسل وتوضأ، وقد حددنا ذلك كله وبيناه، فمن أدى ما عليه فيه فقد طهره وأجزاه، ومن لم يؤده كما أمر أن يؤديه ويكمله فلم يؤد إلى الله فيه فرضه، وكيف يؤديه وقد انتقص بعضه؟

ومن سأل عما يجب في القيح والصديد، وما يخرج من الدبر من الدود؟

قيل: أما القيح والصديد فأقل ما فيهما ما في الدم، وعليهما ما عليه في الحكم، يغسلان كغسله، وسبيلهما في النجاسة كسبيله، لنتنهما وريحهما، وقذرهما ومنظرهما.

وقد قال الله سبحانه: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ﴾ [البقرة:٢٢٢]، ويقول سبحانه: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا﴾ [المائدة:٦]، فمن ترك القيح والأذى له في بدن أو ثوب فقد تقذر، ومن لم ينتق منها فلم يتطهر، وقد أمر الله بالتطهر جميع المؤمنين، وأخبرهم سبحانه أنه يحب التوابين ويحب المتطهرين، فأوجبنا التطهر منهما وفيهما بما ذكرنا من هذين الوجهين جميعا عليهما.

وأوجبنا الطهارة من الدود فيما أوجبنا من التطهر، لأنه فيما أوجبنا فيه الطهارة مما يخرج من قبل أو دبر، من رطوبة أو بلل أو دابة من دود أو غير دود، أو صفاة أو كسرة صغيرة أو لطيفة كالقذاة من العود، لأنه لا يخرج من ذلك خارج وإن صغر ويبس إلا وقد خرج معه عليه نتن وإن لم ير ويحس، وفي كل ما خرج من القبل والدبر ما قد أوجبناه من الوضوء والطهارة، ولذلك ما أوجبنا في الريح -وهي ألطف خارج يخرج من تلك الموالج- ما أوجبنا من الوضوء والتطهرة، وأوجبنا ذلك فيها لأنها من الأشياء القذرة، وهي في النتن أشبه شيء بالعذرة، فلهذا كله لزمها ما لزمها، وكان الحكم في هذه الأشياء كلها حكمها، وعن الكتاب ما قلنا به فيها، وبحكم الله في الكتاب حكمنا في ذلك كله عليها.

فإن سأل سائل عما لا ينقطع من بول أو بواسير، أو عن غير ذلك مما يجب فيه الوضوء والتطهير من جميع الأقاذير؟

قلنا: أي عضو من المؤمن لزمه شيء من ذلك فلم ينقطع عنه ودوامه تركه -

لما غلب عليه منه- على حاله، ولم يلزمه تطهيره في وضوئه ولا اغتساله، ونظر إلى كل عضو سواه فغسله منه ووضاه؛ لأن الله سبحانه أمره بغسلها كلها، فلا يزيل عنه مفروض غسلها الذي فرضه الله عليه في كلها امتناع ذلك عليه في الواحد منها، ولا يزيل ما زال من ذلك عنها. وإن كانت العلة من ذلك بدبره أو بإحليله كان بذلك واحدا في حكمه وسبيله، فترك تطهيره وطهر غيره مما أمره الله سبحانه بالتطهير له، وحكم عليه أن يطهره ويغسله، فترك غسل ذلك وحده إذا لم يمكنه ولم تزل العلة عنه، وإنما قلنا يترك غسله إذا غلب أمره لأنه لا ينقيه الغسل ولا يطهره، وإنما أمرنا بالغسل للتطهير، فربما كان غسله أكثر من الأذى والتقذر، وأدعى إليه وإن كان حرجا لما نهاه الله سبحانه من الإضرار بنفسه، مع أنه غير مطهر بذلك للعضو من نجسه، فكل هذا يؤكد فيه ما قلنا، ويوجب فيه قبول ما قلنا.

ومن سأل عمن نام أو هذى أو سكر؟

قيل: عليه أن يتوضأ وأن يتطهر، لقول الله سبحانه: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى﴾ [النساء:٤٣]، فلو صلى صلاة وهو سكران لا يعقل ما يقول فيها لكان عليه أن يعود ويصليها، وكذلك يعود لوضوئه وطهره، لأنه لا يعلم أثابت أم قد نقضه في سكره، وكذلك من نام أو هذى فإن الفرض عليه هكذا، لأنه لا يعقل صلاة ولا طهرا، كما لا يعقل من شرب مسكرا، فحالهما في ذلك حال السكران، لما غلب عليهما من النوم والهذيان.

فإن سأل عمن قدم في الوضوء عضوا من الأعضاء كلها قبل عضو؟

قيل: قد فرعنا من هذا كله، عليه أن يعود للوضوء ويقدم غسل ما أخر من عضوه، ولا يؤخر من ذلك عضوا أمر الله سبحانه بتقديمه على غيره من وضوئه، وإن فعل وصلى كان عليه إعادة صلاته، لأنه لم يأت بما حد الله فيها من طهارته.

ألا ترى أنه لو سجد في صلاته كلها قبل أن يركع لعاد لصلاته وكان محرما عليه من ذلك ما صنع، ومبتدعا فيه لأخبث البدع، لأنه عمل منه وفيه بخلاف ما حكم الله سبحانه به عليه، فقدم منه ما أخره الله فلم يقدمه، وأخر منه ما أمره الله بالتقديم له، فهذا دليل بين لما قلنا به فيه، وشاهد منير فيما استدللنا به عليه، لا يأبى قبوله منصف، ولا يخالف فيما قلنا منه إلا جائر متعسف.

وإن سأل سائل عن ميت وقع في بركة أو بئر أو حوض من ماء غير كثير هل فيه ما أفسد طهارة الماء؟ قيل: لا، قد فرغنا من هذا وما كان له مشبهاً من جميع الأشياء فيما حددنا من طهارة الماء قل أو كثر مما يثبت للماء لونه وطعمه وريحه فلم يغلب حتى يتغير.

وإن سأل سائل عن بول البعير وغيره من أبوال الحمير الوحشية؟ قيل: كل شيء لم يحرم الله سبحانه من الدواب أكله فليس ينجس شيئا أصابه بوله ولا زبله، وليس شيء مما يحرم من البهائم بنجسة، إلا ما كان محرما في نفسه، مثل الخنزير وغيره من المحرمات لحومها.

كمل كتاب الطهارة، والحمد لله كثيرا طيبا

صلاة اليوم والليلة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الذي خلق فسوى، وسدد لأمره كله فقوى، ولم يكلف من فرائض أمره أحداً من خلقه عسيراً، ونور ما فرض من ذلك كله على عباده تنويراً، ولم يلبس من ذلك كله عليهم شيئاً فيخفى، رأفة منه تبارك وتعالى ولطفاً، وتسهيلا لسبل طرقه، وتخفيفا منه على خلقه.

وكان أول ما كلفهم به من فرائضه توحيده بالربوبية، وإخلاصه تبارك وتعالى بالوحدانية، فأبان لهم ما فرض من إخلاصه بالوحدانية عليهم؛ وما حكم به من توحيده بالربوبية فيهم، بدلائل جمة لا تحصى، وشواهد كثيرة لا تستقصى، من سمائه وأرضه وما بينهما، ومن أنفسهم التي هي أقرب إليهم منهما، تحقيقا في ذلك لتكليفه، وتقريبا فيه لسبيل تعريفه، فقال رحمة منه للعالمين، ﴿وَفِي الْأَرْضِ ءَايَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ۝٢٠ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ۝٢١ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ۝٢٢ فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ۝٢٣﴾ [الذاريات]، وقال سبحانه: ﴿إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ۝٦﴾ [يونس]، والآيات فهن الشواهد والدلالات، ثم لم يتركهم مع ذلك كله من إرساله رسله فيهم بالرسالات، رأفة منه بهم ورحمة، وإحسانا منه إليهم ونعمة، بعد أن أخبرهم سبحانه أن بيان ما كلفهم في ذلك من حقه مثل بيان ما بين لأحدهم إذا نطق من نطقه، كل ذلك إعذاراً منه بالبيان المنير إليهم، واحتجاجاً منه لخلقه بالبرهان المبين عليهم، كما قال سبحانه: ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ

﴿لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾﴾ [الأنفال]، فتبارك رب العالمين.

ثم فرض سبحانه عليهم بعد توحيده وما فيهم من فرائض حقه الصلاة، سياسة بما فرض منها بحقه، وإحياء بها فيهم لذكره وتعظيمه، ولما فيها من خشوع كل مؤمن وتقويمه لطاعة الله وأمره وإجلاله عند ما يخطر فيها من ذكر الله بباله، ولما له ما كان فيها وبها من العصمة والبركة، والنجاة عند قيامه إليها وفيها من كل معصية مهلكة، من كل فحشاء أو منكر، أو استكبار متكبر، ولها وفيها ولدعائه إليها ما يقول الله سبحانه لرسوله صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾، ثم قال سبحانه: ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت:٤٥] وأنهى لمن كان لأمر الله منتهيا عن كل فحشاء أو منكر، ومستكبر من معصية الله أو مستصغر. فصدق الله لا شريك له في خلق ولا أمر ولا حكم، لَخَاطِرَةُ ذكر أكبر وأنهى لمن آمن به عن كل معصية وجرم، أزجر من كل كبير من الأمور أو ناهية، وأجل وأعلى من كل جليل وعالية، ازدجر بها مزدجر فانتهى، ووفق لها موفق فاهتدى.

ولما جعل الله له من الصلاة من ذكره فيها للرسل ما تقدم من أمره، فلم تخل رسل الله من أمر الله به فيها، ولم تزل رسل الله صلوات الله عليها تدعو الأمم في سالف الدهور إليها، فقال تبارك وتعالى في إسماعيل رسوله صلى الله عليه وآله وسلم وعلى جميع رسله: ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾﴾ [مريم].

وقال عيسى صلى الله عليه وآله: ﴿وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾﴾ [مريم].

وقال تبارك وتعالى لموسى فيها قبل وصيته لعيسى صلوات الله عليهما،

والحمد الله على ما جعل من الرسالة فيهما: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي۝١٤ إِنَّ السَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾ [طه]. فأخبر سبحانه بما جعل من ذكره بها وفيها، وإنما الذكر يقول من أجل ما فيها من إجلال أمري، وما يكون من القيام لها وإليها من خواطر ذكري وإجلالي فيها، كما يقال: فعلت ذلك لذلك، كذلك فرضت الصلاة لما قلنا من هذا، وكان ما قلنا من علل ما جعلت له الصلاة فرضاً ما يقول سبحانه لرسوله صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى۝١٣٢﴾ [طه]، فكفى بهذا في تعظيم الصلاة تبايناً ونوراً من كل ظلمة وعشوى، وكانت عند الله قربة من مصليها وطاعة ورضا.

وفي الصلاة وأمره بها ما يقول مرارا كثيرة رب العالمين لمن استجاب له بالإيمان من المؤمنين: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ۝٥٦﴾ [النور]، وفيها وفي فرضها وتكريمها وما ذكر من أمرها وتعظيمها ما يقول سبحانه: ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَءَاتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ۝١١﴾ [التوبة]، فلم يعقد سبحانه الإخاء والولاء إلا بين من زكى وصلى.

ومما يدل من فهم عن الله تبارك وتعالى على تعظيم قدر الصلاة ما قال العليم الحكيم: ﴿فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَءَاتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ۝٥﴾ [التوبة]، فلم يزل سبحانه وتعالى

حكمه بتقتيلهم، ولم يأمر تبارك وتعالى بتخلية سبيلهم وإن تابوا ولم يشركوا- حتى يصلوا ويزكوا.

وفيما أمر الله به المؤمنين من الصلاة، وبعد الذي جعل بينهم بها من الإخاء والموالاة، ما يقول سبحانه: ﴿فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ -وهو أمنتم وأقمتم- فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا﴿١٠٣﴾﴾ [النساء]، والموقوت فهو المؤقت بالمواقيت والحدود، وبما لا يجهله المؤمنون من عددها المعدود، وما فيها من القيام والقعود، والسجود والركوع، والقراءة والتسبيح والخشوع. فمن دلائل من أراد علم معدودها وما قلنا به من قيامها وقعودها وركوعها وسجودها فقول الله تعالى: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴿٢٣٨﴾﴾ [البقرة]، فحكم عليهم سبحانه فيها بالقيام إذا كانوا آمنين، فإن خافوا صلوها رجالاً وركباناً، وبين ذلك كله لهم تبياناً، والرجال الذين ذكروا في هذه الآية فهم الرجالة، والركبان: فركب الإبل والخيالة، فإن أمكنهم القيام في الخوف للصلاة قاموا، وإن لم يمكنهم إلا الإيماء برؤوسهم أوموا.

ودل على أن مفروض الصلاة خمس ليس فيها زيادة ولا نقص بقوله سبحانه: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى﴾ [البقرة:٢٣٨]، فكان أول ما يقع عليه اسم صلوات ثلاث وقفا، وكانت الوسطى التي أمرهم الله بالمحافظة عليها مع ما أمر سبحانه من المحافظة على الصلوات رابعة سواها فلما كملت الصلاة أربعاً طلبن إذ علمنا أنها أربع وسطاها، فلم نجد لأربع صلوات وسطى، فطلبنا أقل ما نجد بعد أربعا متوسطاً فلم نجده -والحمد لله- إلا خمسا، فكان ذلك لعلم

عدد الصلوات بيانا وتبيانا، فعلمنا أن الصلوات التي أمروا بالمحافظة عليها أربع عددا، وأن الوسطى التي أمروا بالمحافظة عليها معها خامسة فردا، لأن الخامسة لا تكون وسطى لثلاث أبدا، وإنما هي واسطة لأربع، فدل على عدد الصلوات أجمع، وكانت فيما بان من هذا حجة على البدعية وغيرها من الرافضة وغوالي الجهلة والحشوية، لأن البدعية قالت: إنما يجب في اليوم والليلة صلاتان على المصلين، وقالت الرافضة فيها بواحدة وخمسين، وقال من فيها جهل وغلا: يجزي كل مصل ما صلى.

ثم جعل الله تبارك وتعالى لما فرض من هذه الصلوات ما جعل من الطهور والمقادير والأوقات، فتنوزع أيضا واختلف فيه، وكان ما قلنا به من ذلك وذهبنا إليه ما أخذنا وقلنا فيه عن منزل الكتاب، وما لا يأبى – إن شاء الله– علينا قبوله أولو الألباب.

فقلنا وبالله نستعين على الهدى، ونعوذ به من الضلالة والردى: وقت كل صلاة قبلها، وكذلك ما فرض الله من الطهور لها، وكل وقت كان للفريضة اللازمة فهو وقت للنافلة المتطوعة. وكل وقت لا تصلى فيه الفرائض فلا يصلح أن تصلى فيه النوافل. وخير المقادير والأوقات ما جعل وقتا للصلوات، كما خير الشهور والأزمان ما دلنا الله عليه من شهر رمضان، وخير ليالي الشهر ما ذكره الله من ليلة القدر، وخير الأيام السبعة ما دلنا عليه من يوم الجمعة.

وبلغنا كثيراً لا نحصيه أن علياً رأى رجلاً يصلي ضحى أو ضحيا فقال:

([ما])(١) له نحر الصلاة، نحره الله).

وبلغنا أن أبا جعفر محمد بن علي بن الحسين كان يقول: (والله ما صلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في مسجده الضحى قط).

وبلغنا أن علياً عليه السلام كان يقول كثيرا لبنيه: (يا بَنِيَّ، لا أنهاكم عن الصلاة لما فيها من ذكر الله، ولكني أسخط لكم خلاف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم).

وقال الله لا شريك له في الوقت وما حد للصلوات منه فيما نزل من الكتاب لرسوله صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْءَانَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا۝٧٨﴾ [الإسراء]، فجعل الله هذا وقتا للصلوات من الفرائض والنوافل محدودا، وقال له صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا۝٧٩﴾ [الإسراء]، وما أمره الله سبحانه – في صدر نهاره ولا في شيء مما وصل إلينا عن الرسول من أخباره بنافلة من النوافل، وما كان بفضيلة من الفضائل بجاهل، فأمره بالصلاة من دلوك الشمس وهو الميل والزوال، وغسق الليل فهو السواد والإظلام، وهو الطرف الآخر، والطرف الأول فهو الفجر. وفي هذين الوقتين وما فرض فيهما من الصلاتين ما يقول سبحانه: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ [هود:١١٤]، فجعل سبحانه طرف النهار الأول كله وقتا للفجر، وجعل الطرف الآخر كله وقتا للظهر والعصر، وجعل زلف الليل كله جميعا وقتا للمغرب والعشا معا، فبين أوقات الصلوات لمن فرضت عليه بيانا لا شبهة

---

(١) ما بين المعقوفين من الثمرات. وفي المنتخب (٧٣): ما له ينحر.

ولا لبسة فيه.

فوقت الظهر والعصر جميعاً لمن أراد أن يفردهما أو يجمعهما معاً من دلوك الشمس إلى غروبها، إلى أن يظلم أفق السماء ويظهر أحد نجومها لذهاب ضوء الشمس وشعاعها، لا يعتد في ذلك كله بظهور الكواكب الدرية ولا اطلاعها، فإنها ربما طلع أحدها والشمس ظاهرة لم تغب، فلا يعمل من تلك الكواكب كلها على ظهور كوكب. [و]وقت المغرب والعشاء الليل كله، وزلف الليل فأول الليل وآخره، كل ذلك وقت لهما جميعا، من شاء أفردهما ومن شاء جمعهما معا. ووقت الفجر أجمع حتى يظهر قرن الشمس ويطلع، فهذه أوقات الصلوات وما بين لها من الأوقات، لا ما قال به فيها من لم ينصف ضعفة الرجال والنساء من كل مكلف لها(١) من عسير المقاييس، وما في ذلك على ضعفة الرجال والنساء من عسير المشقة والتلابيس، التي لو كلفوا عملها دون الصلاة لفرحوا(٢)، أو رمي بهم إليها وفيها لتاهوا وتطرحوا منها في عسر عسير، وحيرة وضيق وحرج كبير، فقال سبحانه رحمة منه بالمؤمنين: ﴿مَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الحج:٧٨]، والحرج في كل أمر من الأمور فهو الضيق، والعسر في الأمور فهو التلبيس والأعاويق.

---

(١) لعلها: بها.

(٢) قوله عليه السلام: «التي لو كلفوا عملها دون الصلاة لفرحوا» هذا اللفظ في سياق بيان مشقة الصلاة، وقوله: «لفرحوا» يدلل بذلك على عظم المشقة التي تفوق أي عمل آخر، فلو كلفوا بعمل آخر غير الصلاة لفرحوا؛ ليسلموا مشقة الصلوات. (من خط السيد العلامة المجتهد محمد بن عبدالله عوض المؤيدي حفظه الله).

وزوال الشمس فهو ميلها إذا ما استوى ظلها، فزالت وأنت مستقبل القبلة عن وسط السماء، فزاد ظلها شرقا قليلا أو كثيرا على مقدار الاستواء. وغسق الليل فهو ما لا يخفى [إلا] على مكفوف بصره أعمى، وهو سواد الليل وظلمته، أوليته في ذلك سواء وآخريته. والفجر أوله وآخره فقد يعاين، فهو بين لا يشك فيه ولا يمترى، وهو ما بين إدبار النجوم إلى طلوع الشمس المعلوم، وكل وقت بين هذه الأوقات فأبين ما بين من البينات، لا يحتاج فيه إلى مقياس ضعيف ولا قوي من الناس، والحمد لله في ذلك وغيره على تخفيفه فيه وتيسيره.

ولكل صلاتين من صلاة النهار والليل وقت، والصبح فلها الفجر كله كما قلنا وقت موقوت. وآخر كل وقت كأوله وبعضه في أنه وقت كله، لا تفاوت بينه في رضا الله وطاعته، ولا في ضعف أحد واستطاعته، وكذلك بلغنا أن بعض آل محمد كان يقول: ما آخر الوقت عندي إلا كأوله. وما القول في الأوقات - والله أعلم- عندي في الأداء في الفريضة إلا مثل قوله. فأما ما ذكر عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ إن كان صدق عليه فيه (إن أول الوقت رضوان الله، وآخره عفو الله) فليس على ما يتوهمه من جهل أنه عفو عن ذنب عمل، فكيف وكلهم يزعم أن جبريل ومحمداً صَلَّى اللهُ عَلَيْهِمَا صليا فيه، وصارا منه ومن فعله إلى ما صارا إليه؟ مع أنه لو كان ذنبا لمن فعله لمنع المؤمنين[1] منه أهله، وإنما تأويل العفو منه فيما أمر الله من الوقت تخفيف الله ورحمته، وذلك فهو أيضا رضا الله ومحبته، وكل والحمد لله

---

(١) لعلها: لمنع أمير المؤمنين.

إذ فعله جبريل ورسول الله صلى الله عليهما فرشد، لا يلام عليه ولا يذم فيه ممن فعله احد. وهذه الأوقات فإنما هي لمن صلى وحده، أو كانت عليه أو شغلته من الأمور والأمراض مشغلة، وأما أوقات المساجد لعمارتها واجتماع أهلها فيها فآخرة، فما ذكر للظهر من أن يكون ظل كل شيء مثله، وما ذكر للعصر من أن يكون الظل مثليه، وما قبلنا به من هذا فأمر الله محمود بين فيه، وعلى قدر اختلاف الوقتين والفعلين، لأن أحدهما عمارة للمساجد، وذلك فليس كصلاة الواحد، والفرق في ذلك فبين عند من أنصف ولم يحف، ولم يعتسف ولم ينحرف.

وفي عمارة المساجد ما يقول الله سبحانه: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [التوبه:١٨]، وقال سبحانه: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الجمعه:٩]، وغيرنا –والله المستعان– فقد يقول في الأوقات بغير ما قلنا، ولا يقبل في ذلك وبيانه عن كتاب الله وتبيانه ما قلنا، غير أنهم جميعاً كلهم معا، إلا من جهل ففحش جهله، وقل عند علمائهم علمه– يزعمون أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (جمع في الحضر وهو مقيم من غير سفر، ولغير علة من مرض أو خوف أو مطر، بين الظهر والعصر والمغرب والعشاء)، فكفى بهذا في الأوقات من نور وضياء.

وقالوا: إنه صلى الله عليه وآله وسلم قال: ((من أدرك ركعة من العصر قبل غروب الشمس فقد أدرك العصر، ومن أدرك ركعة من الفجر قبل أن تطلع الشمس فقد أدرك الفجر)) مع إجماعهم على الجمع بين الظهر والعصر عند زوال الشمس بعرفة، وإجماعهم على الجمع بين المغرب والعشاء متى شاءوا بالمزدلفة، مع أن قول

أكثرهم: إن من طهر من النساء من طمث أو نفاس قبل غروب الشمس بقدر صلاة خمس ركعات صلت الظهر والعصر، فلم أمروها بذلك إن لم يكن ذلك وقتا من الأوقات؟ إلا أن يلزموها لو طهرت بعد سنة ما فاتها من الصلوات، وكذلك يقولون فيما يلزمونها إن طهرت قبل الفجر من صلاة المغرب والعشاء ما ألزموها من صلاة الظهر والعصر، مع ما ذكر عن ابن عباس وغيره من علماء الناس من أنهم كانوا يقولون: النهار كله وقت لصلاة النهار، والليل كله وقت لصلاة الليل، وفي هذا على بيان ما قلنا ما لا يجهل من عقل من البرهان والدليل، مع ما ذكروا أيضا عن الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فيما قلنا به من الأوقات وذهبنا إليه من أنه: (آخر عَلَيْهِ السَّلَامُ ليلة من الليالي العتمة حتى ذهب من الليل نصفه أو أكثر، ثم خرج وقد ذهب أكثر الليل وأدبر، فقال: ما أحد ينتظر هذه الصلاة في هذا الوقت غيركم، فصلاها في تلك الساعة بهم). (وأن الشمس غربت وهو بسرف من طريق مكة فأخر صلاة المغرب والعتمة حتى صلاها ببطن الأبطح)، وبين سرف وبين الأبطح أميال عشرة. فكفى بهذا وغيره، وما ذكر بعض أصحاب أبي جعفر محمد بن علي أنه كان عنده يوماً فزالت الشمس فقام من ساعته فصلى الظهر والعصر، ثم رآه في يوم من الأيام آخر أخرها حتى قيل: قد غابت الشمس عن سافل أحد، وهو جبل مطل على المدينة، إذا غابت الشمس عن أعلاه غابت منها عن كل ناحية عالية أو باطنة، مع من هذا ومثله فما لا نحصيه، ولا نأتي ولو جهدنا بإحصاء عليه، فنحمد الله كثيراً على ما من به من هذا لمن قبل الهدى عنه وآتاه، ونستغفره لذنوبنا، ونستتره لعيوبنا، ونعوذ به من شرور أنفسنا وغيرنا،

ونسأله لهداه حسن تيسيرنا، وحسبنا الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم.

ومن دلائل ما قلنا به في وقت صلاة الليل ما دلنا الله سبحانه في سورة المزمل على ذلك من الدليل، قال تبارك وتعالى لرسوله -صلى الله عليه وأهله-: ﴿يَاأَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ۝١ قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا۝٢ نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا۝٣ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا۝٤ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا۝٥ إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا۝٦ إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا۝٧ وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا۝٨﴾ [المزمل].

فدل سبحانه فيما نزل من هذه الآيات على ما قلنا به من الأوقات فيما فرض في الليل من الصلوات.

ودل على ما يجب في الصلاة من الذكر والتسبيح والقراءة، فلا يكون أبداً المزمل إلا مضطجعاً أو نائما، ولا يصلح أن يكون أبدا قاعداً ولا قائما.

والتزمل هو الاستغشاء والتدثر والاضطجاع والنوم، وقد يكون في أحدهما المتدثر الذي يتزمل ويتدثر، ولا يكون أبدا إلا أول الليل وآخره، فجعل ذلك سبحانه كله وقتا لقيامه ولتأخره فيه بصلاته واستيفائه، إلا أقل، وهو ما اشتبه منه فلم يتبينه من يريد أن يتبينه فيدري أفي الفجر هو أو في الليل، فليس لأحد أن يؤخر صلاة ليله إلى مثل ذلك الوقت من التأخير، لأنه ليس له أن يصلي إلا في وقت بيقين، وهو ما وضع الله في الوقت من التبيين، وليس يوجد أبدا وإن جهد وقت صلاة الليل ويبين حتى يدركه العلم البت واليقين إلا سواد الليل وظلمته، ولذلك ما جعله الله وقتا لهما برحمته. وقال سبحانه لرسوله صلى الله عليه وآله وسلم:

قمه كله إلا أقله. فنهاه عن القيام في قليله، وهو ما قلنا فيه بتفصيله، عندنا مما الله به أعلم، وما فهمنا فيه الفهم، لا يفهم فيه غيره، ولا نجده تفسيراً إلا تفسيره.

ثم فصل ذلك سبحانه بأمره فيما قلنا به من مفسره بقوله: ﴿نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا۝٣﴾ يريد سبحانه قبله، ﴿أَوْ زِدْ عَلَيْهِ﴾ يريد سبحانه بعده، فبين سبحانه بقوله: {الليل} ما بين نصفه إلى أوله، وبقوله {نصفه}(١) بعده: ما بين نصفه إلى أقله، وتأويل: ﴿قُمِ اللَّيْلَ﴾ إنما هو: في أي الليل شئت، فإنك لم تنه عن الصلاة إلا في أقله كما نهيت، كما يقول القائل: قم ظهرا، وإنما يريد عند الظهر، وقم لحاجتنا فجرا، وإنما يريد عند الفجر، ألا ترى كيف يقول سبحانه: ﴿نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا۝٣ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ﴾ يقول سبحانه: نصفه أو انقص منه: وهو ما قبل النصف، {أَوْ زِدْ عَلَيْهِ}: وهو ما بعد النصف، فبين هذا الأوقات كلها، وكذلك قال في تبيينها لرسوله صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ﴾ [المزمل:٢٠]، وإنما أدنى من ثلثي الليل عند نصفه وعند ثلثه. كما [لو] قال قائل سوى الله لا شريك له لمن يريد أن يأمره ويستعمله: «قم أدنى من ثلثي الليل ونصفه وثلثه» كان إنما يريد قم عند ما أمرتك بالقيام عنده في وقته، ولا يريد أن يقوم ثلثه قائما على رجليه. وكما يقول قائل لعامل من العمال أو(٢) أمره في نهاره بعمل من الأعمال: «اعمل كذا وكذا نهارا» فعمل ذلك في أي وقت شاء من نهاره لكان قد أدى إلى من أمره

---

(١) «نصفه» غير موجود في المخطوط.

(٢) لعلها: لو.

ما يجب عليه من ائتماره. غير مقصر فيما [أمر] به من العمل ولا مفرط، ولا مستوجب في تقديم ولا تأخير فيما أمر به لسخط، بل هو مؤتمر بما أمر وألزم، محافظ فيما أمر به على ما قيل وأعلم. فهذا عندنا وجه التأويل، وما فهمنا عن الكتاب في التنزيل، لا ما يقول به -والحمد لله- من لم يفهم فيه ما فهمنا عن الله من الاختلاف الكثيرة فانتبه، القليلة -والله المستعان بنوره وتبيينه- من أن رب العالمين فرض مثل الصلاة الخمس على المؤمنين، أن يصلوا الليل كله، إلا -زعموا- أقله؛ فمنهم من زعم أنه إنما فرض عليهم ثلثه، ومنهم من قال: نصفه، ومنهم من قال: ثلثيه؛ جهلاً بحق الله، ومخالفة للعلم وادعاء عليه.

و{ناشئة الليل} فهي: الليل كله، وهي آخر الليل وأوله، فكان هذا على ما قلنا أيضا دليلا لقول الله سبحانه: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا۝٦﴾ [المزمل]، ودل أن صلاة الليل قراءة مجهور بها، يقول: ﴿وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا۝٤﴾، والترتيل، فهو: الجهر والتنفيل، فأما هذّ القرآن فيها ونثره فإنا لا نأمر به ولا نستحسنه، لما ذكرنا من قول الله سبحانه. وقول رسوله صلى الله عليه وآله وسلم: ((لا تنثروا القرآن نثر الدقل[1]))، فنحن لا نأمره بذلك في فريضة ولا تنفل.

والدليل على ما أمر به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من أن هذه الصلوات في الليل فرض لا نافلة، وأنها فريضة من الله واجبة لازمة- قوله سبحانه: ﴿وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ

---

(١) الدقل: هو رديء التمر ويابسه وما ليس له اسم خاص، فتراه ليبسه ورداءته لا يجتمع ويكون منثوراً. (نهاية).

عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا الزَّكَوٰةَ﴾ [المزمل:٢٠]، فدل قوله سبحانه: أقيموا الصلاة، وتوكيده فيها -جل ثناؤه- القراءة على أن ذلك فرض لا نافلة، وأن ما أمر الله فيها فريضة لازمة، إذ لم يذكرها عن رسوله تنفلا، ولا منه صلوات الله عليه تطوعا، ولا زيادة على ما يجب ويحق فرضا من الصلاة عليه، كما ذكر النافلة وما جعل له بها وفيها من القربة إليه، فقال سبحانه: ﴿وَمِنَ الَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ٧٩﴾ [الإسراء]، فجعل تبارك وتعالى بين أمره بالفريضة والنافلة والإباحة فصولا بينة وحدودا.

فإن قال قائل: فأين الأمر بالإباحة التي قلتم والفصل بين الأمور الثلاثة؟

قيل له: قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا﴾ [المائدة:٢]، فهذا هو الإباحة والتوسعة، لا من الفرائض والنوافل المتطوعة.

وبعد الذي قلنا به من الأوقات القول -ولا قوة إلا بالله- في الطهارات، فبيان ذلك والحمد لله عن كتاب الله بيان ليس فيه التباس ولا أفانين كما فنونها كثيرة، لا يعرض فيها -لمن أنصف من نفسه- غلط، ولا تجوز بقصد ما حكم الله منها فرط، بل قصدها قريب منير، وأمرها كلها خفيف يسير، لا يعسر شيء منها على مكلف، ولا يدخلها شيء من التقصير ولا السرف.

فهي خمس طهارات أصول: النفاس والطمث والاجتناب، فواحدة وهي الغسل بالماء أو التيمم بطيب التراب، فأي ذلك من الماء اغتسل به المغتسل كله فقد طهره -من نفاس كان أو طمث أو اجتناب- غسله، كثر ما تطهر به من الماء

أو قل، إن وقع عليه اسم تطهر أو اغتسل، فلا نحد في ذلك من الماء حداً محدوداً، ولا نوجب عليه عدداً معدوداً، لأن الله جل ثناؤه لم يحد في ذلك حداً فنحده، ولم يوجب عليه من العدد عدداً معلوماً فنعده، ولا نجعل لمن اغتسل أنه يقصر عنه وأن ينقص في طهارته شيئاً منه، وإنما جعلناه كذلك لأن الله سبحانه قال: ﴿وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا﴾ [النساء:٤٣]، وقال: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا﴾ [المائدة:٦]، ولم يقل قولا: وأكثروا، فاقتصرنا من ذلك على ما اقتصر، وقلنا لمن وجب عليه الغسل: اغتسل وتطهر، وكذلك قلنا لمن طمث من النساء، وقلنا من بعدهن للنفساء؛ لأن أقل حكمها فيما تريق من دمها أن الحيض منها والطمث، لا يقول بخلاف ذلك إلا جاهل عبث، لأن الله سبحانه قال فيهن وفيما حكم من الغسل عليهن: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾﴾ [البقرة].

والاجتناب فهو ما لا يجهل –والحمد لله- من الإنزال والإمناء، فمتى صار إلى ذلك صائر فهو جنب، باحتلام كان ذلك أو بمداناة النساء.

وعلى كل مغتسل من هؤلاء يغتسل من الوضوء معه مثل الذي كان قبل الاغتسال يفعل، لا يزيل عنه فرض الوضوء كما(١) فرض الغسل فيهما(٢) واجبان على كل من اغتسل.

---

(١) لعل (كما) زائدة.

(٢) في المطبوع: فهما.

فمن لم يجد ممن سمينا ماءً يطهره تيمم صعيداً طيبا لا يستقذره، فيمسح بوجهه ويديه منه، وكان مجزيا من ذلك أن يضرب بباطن يديه على الصعيد حتى يلصقا بترابه لصقاً، ثم ينفضهما مصفوفتين نفضاً رفيقاً، ثم يمسح بهما وجهه ولحيته وعنفقته وشاربه معاً، ويتبع بالمسح من وجهه أماكن الوضوء أولا، ثم يضرب بيديه على الصعيد ضربة أخرى، ثم يعمل في نفضهما مثل ما كان عمل بهما، ثم يمسح بيسرى يديه على يمناهما، ويمسح بيمنى يديه على يسراهما، ويمسح كل واحدة من يديه إلى المرافق، فهو أحب إلي؛ لقول الله في غسلهما: {إلى المرافق}، وإنما جعل التراب لهما بدلاً من غسلهما، فيستحب أن ينتهي إلى منتهى الماء منهما[(١)]، ولا يقصر بالتراب كما لا يقصر بالماء عنهما، وإن اقتصر مقتصر على المسح على اليدين إلى الرسغين، أجزأه إن شاء الله؛ لأن الله جل ثناؤه لم يحدد التيمم للذراعين كما حدد -تنزيلا- الغسل إلى المرفقين، إلا أن مسحهما كما قلنا عندنا أحوط، وأبعد أن يكون فيه لمحتفظ[(٢)] متنعم أو مسخط.

وأما الوضوء وما قيل به من تحديده فلست أقول به ولا بشيء من تعديده، لأن الله تبارك وتعالى لم يحد منه عند أمره ما حد وا، ولم يجعل له في منزل كتابه من العدد ما عدوا، بل قرب فيه سبحانه السبيل البين اللائح، وأقام به لمن كلفه إياه الدليل المنير الواضح، فلم يلبسه بضروب التفنين، بل أناره سبحانه بمعلوم من التبيين، فقال سبحانه:﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ

---

(١) في المخطوط: منهم.

(٢) في المخطوط: بمحتفظ.

﴿إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾ [المائدة:٦]، فقال سبحانه: اغسلوا، ولم يقل: أكثروا وأقلوا، وكان فيما قال من ذلك أكفى الكفاية لنا ولأولئك ولمن مضى قبلنا، الغسل مرة ولا مرتين، اكتفاء منه سبحانه لنا ولهم في ذلك بالتبيين، فمتى ما اغتسلنا أكثرنا أو أقللنا فقد -بمن الله- ورحمته أدينا ما أوجب من الغسل علينا.

ومتى ما مسحنا كل رؤوسنا فقد أدينا مسحها بيقين من نفوسنا، ولا يعارضنا فيه شك ولا مرية، ولا تدخل علينا فيه شبهة معشية، ومن مسح مقدم رأسه واحدة فقد ثبت بأيقن اليقين عنده أنه إنما مسح من رأسه بعضه، فهو لا يأمن أن يكون لم يؤد لله فيه فرضه؛ لأن بعض الرأس ليس بالرأس، كما بعض الناس ليس بالناس، وكذلك بعضك ليس بكلك، وكذلك ليس ببعضك، وإنما قال الله لا شريك له: ﴿وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ﴾ [المائدة:٦]، كما قال: ﴿فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ﴾ [المائدة:٦]، وإن جاز مسح بعض الرأس جاز غسل(١) بعض الوجه للناس، وكان من غسل بعض وجهه فقد غسل وجهه، كما كان من مسح بعض رأسه فقد مسحه، وهذا من القول فقد يستبين فحشه وقبحه من وهبه الله رشده، وعرف حكمه فعمده.

فأما ما قيل به في مسح القدمين فرد لما في كتاب الله المبين، وكيف نغسل -عند من يعقل- الوجه والذراعين للتطهير ونترك الرجلين وهما أقرب إلى الوسخ والأقاذير؟! إن في هذا من الضعف والاختلاف لأضعف الضعف وأسرف

(١) في المخطوط: مغسل.

الإسراف!! وما يجهل هذا والحمد لله إلا من خزي وبعد من الله.

وقلنا لمن قال من الرافضة بمسح القدمين: من أين قلتم في هذا بخلاف جماعة ولد الحسن والحسين صلوات الله عليهما؟

فإن قالوا: لأنه قالت به الأئمة منهم، وهم الذين يلزم القبول عنهم.

قلنا: فأعطتكم الأئمة من ذلك ما لم تعط أبناءها، وحملتكم من هدى الله فيه ما لم تحمله أقرباءها؟ فوصلت بذلك منكم البعيد الغريب، وقطعت من أرحامها القريب الحبيب، وقد قال الله لرسوله صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ۝٢١٤﴾ [الشعراء]، فخصهم بإنذاره منه دون المؤمنين، وسماهم جل ثناؤه دونهم الأقربين، وكان لهم بعد من النذارة ما لغيرهم، فاشتركوا هم وهم في رسولهم ونذيرهم، ولرسوله صلى الله عليه وآله وسلم ما يقول: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ [طه:١٣٢]، والصلاة فإنما هي صلاة بما جعل الله من الطهور، وأنتم فإنما قلتم بالمسح وقلتم منه بما قلتم سماعا من أئمتكم زعمتم، فبالسماع علمتم منهم ما علمتم، وما في أيدينا من السماع أكثر من أهل الفرقة والاجتماع من أسود وأحمر ومتطهر وغير متطهر عن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم خلاف ما أنتم من المسح فيه، وأئمتكم فمختلف فيها، وغير مجتمع آل محمد صلى الله عليه وآله وسلم [على] أحد منها، وممن قبل عنها، ما نفروا ونبذوا إن كانوا صادقين فيه، وبترك ما اجتمع فيه المختلفون جميعاً كلهم عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، إنهم إذاً أولى بالرسالة منه، لمن قبل عنهم ولم يقبل عنه.

فإن قالوا: أخذنا به عن الله وكتابه، لأنه قال: ﴿وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ

﴿وَأَرْجُلَكُمْ﴾ [المائدة:٦]، فألحق الأرجل بالرؤوس في المسح لحقا، وجعلهما لها في المسح نسقاً.

قلنا: فبيننا وبينكم ما تلوتم من الآية، ففيها لنا ولكم في التبيان أكفى الكفاية، أليس إنما ذكر الله الرؤوس بالباء، فقال: {برءوسكم}، وذكر الأرجل بالواو وبالغسل في النسق، فانسقوا الأرجل بالوجوه والأيدي في اللحوق، والأرجل بالوجوه والأيدي في الواو أحق نسوقاً فيهما وأولى في النسق بهما لحوقا، ولو كان النسق للأرجل بالرؤوس لكان {وبأرجلكم} كما قيل: {برءوسكم}.

وكفى بهذا بيانا -إن أنصفتم- لكم، ودفعاً -والحمد لله- لقولكم، وألحقوا ذوات الواو بذوات الواو، وأقروا ذات الباء إذا كانت واحدة فردا، فكفى بهذا لما قلتم ردا إن قبلتم فيه رشداً أو هدى، وقد وضعنا كتابا كبيراً في الطهارة كلها واستقصينا فيه بما يكفيه، كفانا الله وإياكم بالحق كافية، وألبسنا وإياكم لباس عافية(١).

باب الوضوء

فإذا زالت الشمس ومالت فضربت الظلال شرقا وطالت(٢)- فقل: الحمد لله الذي أزال الشمس بعد استواء واعتدال، وجعل لها وبها ما جعل من مختلف الظلال. ثم توضأ بعد الزوال متى شئت، وفي أي وقت الصلاة هويت، ولا تتوضأ أبدا قبلها، ولكن إذا أردت أن تقوم لها فعند ذلك فتوضأ، وإنما تأويل

---

(١) في المخطوط: عافيته.

(٢) في المخطوط: أو طالت.

الوضوء أن يتنقى، إلا أن يكون متوجها لها وإليها، ويريد القعود انتظارا أو محافظة عليها، أو يريد صلاة نافلة قبلها، فيجوز الوضوء لديها وبالانتظار لها، فأما إن تشاغلت بعد الوضوء عنها بشغل من الأشغال أو بعمل ما كان ليس لها من الأعمال فلسنا نحب ذلك لك، ولا أن تخلط الشغل بما يشغلك.

وتبدأ -إن شاء الله- وضوءك بالماء بالإفراغ على يدك اليمنى من الإناء، فإذا غسلت(١) اليمنى فأفرغ بها على اليسرى، فأنق بها ما أقبل وأدبر من دنس، ثم أنق من كل دنس أو درن يسراك، واغسل وجهك كله بها مع يمناك، واغسل بهما لحيتك وعنفقتك وشاربك، وابدأ بالمضمضة والاستنشاق، ولا تلتفت إلى ما في أيديهم فيهما من الأخبار، فإنه زور وباطل وغرور، لأن في ذلك من الأنف والفم والمنخرين(٢) وغيرهما من اللحية والعنفقة والشاربين من الوجه وأقسامه، فحكمهن كلهن في الغسل كأحكامه، يلزمهن كلهن من الغسل ما لزمه، إذ جعلهن الله كلهن منه، فمن ترك منهن كلهن شيئاً لم يكن وضوؤه له في صلاة مجزيا، وكان عليه الإعادة لكل صلاة صلاها، كما عليه الإعادة لو ترك ناحية من ذراعه فتعداها.

---

(١) في المخطوط: اغتسلت.

(٢) هل المنخرين غير الأنف؟ والتثنية في (غيرهما) هل تعود على المنخرين فقط؟ كأن الأنف اسم لجملة الأنف الظاهرة، فلو اقتصر عليها ولم يذكر المنخرين لفهم غسل ظاهرها؛ فذكر -من أجل هذا- المنخرين ليدل بذكرهما على وجوب غسل التجويفين اللذين هما طريق التنفس. والضمير في «غيرهما» يعود للمنخرين؛ لقربهما، ويصح عوده إلى الأنف والفم. (من خط السيد العلامة المجتهد محمد بن عبدالله عوض المؤيدي حفظه الله).

فإذا فرغت من وجهك كله وغسل ما أمرك الله به من غسله فاغسل يمنى يديك إلى المرفق بيسراهما، ثم يسرى يديك بيمناهما، فإذا فرغت من غسل يديك فامسح بهما(١) رأسك كله وأذنيك، ما أقبل منهما وما أدبر، كما يحلق في الحج ما عليهما من الشعر، ولأنهما من الرأس حلق ما عليهما من شعرهما، وكذلك هما فيما هما عليه من المسح كأحكامه، يلزمهما من المسح ما لزمه، ولذلك جعلنا أحكامهما حكمه.

وبعد، فإذا فرغت من مسح الرأس والأذنين فاغسل بعد ذلك القدمين، تبدأ بيمناهما قبل يسراهما، غسلا سابغا يستقصى به إنقاؤهما، فإن الله أمر بذلك فيهما، وحكم بالغسل عليهما، لقوله سبحانه: ﴿فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ﴾ فاغسلوها، ﴿وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾ فاغسلوها، فألحقهما بالوجه واليدين في النسق، وتابع بينهن كلهن جميعا في نسقهن باللحق، ليس بين ذلك كله فرق في فهم ولا تفسير، إلا ما في اللسان العربي من التقديم والتأخير.

فتأويل: {إلى المرافق} و{إلى الكعبين} فيما جعل الله في اللسان العربي من التبيين كقول القائل: وحتى الكعبين، كما يقول القائل: خرجت إلى الكوفة يريد دخلتها، وصرت إلى مكة، يعني دخلتها، فهذه حدود الوضوء لكل طرف وعضو، ليس لأحد من الخلق كلهم أن ينتقصها بعد الذي بينها الله به من أمرها وخصها، ومن انتقص من حدودها شيئاً لم يكن شيء(٢) من وضوئه له في صلاته

(١) في المخطوط: بيمنى.

(٢) في المخطوط: شيئاً.

مجزيا، ومن قدم منها مؤخراً أو أخر من حدودها مقدماً لم تجزه طهارته، ولزمه إذا لم يضع كل شيء منها موضعه إعادته.

وسنقول إن شاء الله بعد الذي حددنا في الوضوء والصلاة ما يستحب أن يقال به من الذكر والتسبيح والأبواب المسماة.

يستحب أن يقال إذا أخذ في الوضوء وابتدائه، وقبل أن يدخل في شيء من قسمه وأجزائه: باسم الله وبالله وعلى ملة رسول الله، والحمد لله ولا حول ولا قوة إلا بالله.

فإذا فرغت من الوضوء كله ومن غسل ما أمر الله بغسله فقل: الله أكبر كبيرا، والحمد لله كثيراً، اللهم لك الحمد فيما هديت من هذا إليه، وفيما قويتنا من هذا برحمتك عليه، اللهم اجعلني من التوابين المتطهرين، إنك رؤوف رحيم.

فإذا قمت إن شاء الله للصلاة قلت في الافتتاح لها قبل التكبير والقراءة: الحمد لله الذي لم يتخذ ولدا، ولم يكن له شريك في الملك، ولم يكن له ولي من الذل. فإذا فرغت -إن شاء الله- من هذا الافتتاح لكل صلاة تصليها من صلوات النهار والليل والإصباح كبرت ساعة ابتدأت في مكانك، وقرأت حينئذ ما تيسر من قراءتك، غير محدود لك في شيء من القرآن بحد، ولا مقصود بك عن سوره كلها إلى قصد.

وما قلنا به منه فإنما أخذناه من الكتاب وقلنا عنه؛ لقول الله جل ثناؤه فيه عند دلالته برحمته وفضله عليه، عند ذكره تبارك وتعالى وما أمر به فيها من الافتتاح والتكبير قبل القراءة التي أمر الإنسان بها: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ۝١١٠ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ

شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴿١١١﴾ [الإسراء]، فأمره سبحانه كما ترى إذا قام للصلاة وانتصب قبل أن يقرأ أن يقول بافتتاحه لصلاته، وما استدللنا عليه بتبيينه ودلالته، ثم أمره بالتكبير ودلالاته. فإذا[(١)] فرغ من قول ما ذكرنا في الافتتاح، وكان ذلك -إن شاء الله- لمن تفهمه أوضح الإيضاح، لأن الله سبحانه قال لرسوله صلى الله عليه وآله وسلم: قل ثم كبره، فالأمر بالقول قبل أن يكبر، فإذا كبر فحينئذ دخل في الصلاة وفيما أمر من القراءة، والافتتاح كما ترى قبل التكبير، ثم القراءة بعد بما تيسر من التنزيل، فإذا قرأ من القرآن في صلاته بقليل أو كثير بعد الافتتاح وما بعده من التكبير فقد أدى ما أمر به من القراءة قل أو كثر في الصلاة.

ومن لم يفتتح ويكبر ويقرأ ما تيسر من القرآن فقد قصر فيما أمر، وعليه أن يعود حتى يأتمر لله في ذلك كله بأمره، ويصير فيه أجمع إلى ما أمر الله به، والحمد لله الذي به هُدَى من اهتدى، ونسأل الله أن يوفقنا وإياك لما اختلف فيه من الهدى، وحسبنا الله وبدلائله من كل دليل، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

وعلى من ائتمر في الصلاة لله بأمر تسكين أطرافه وخفض بصره، وترك الالتفات فيها والتلتف، والخشوع فيما هو فيه بها من القيام والمنتصب، فإنه منتصب فيها بين يدي الله، فعليه فيها الخشوع والتذلل والترتيل فيها جهده

---

(١) جواب (إذا) مقدر، أي: فليكبر؛ لأن الله سبحانه قال لرسوله صلى الله عليه وآله وسلم..إلخ. (من خط السيد العلامة المجتهد محمد بن عبدالله عوض المؤيدي حفظه الله).

بالقراءة، فإنه بلغني أن الله سبحانه قال لموسى في التوراة: (يا موسى، قم بين يدي مقام العبد الذليل، يا موسى، إذا قرأت التوراة فاقرأها بصوت حزين).
جعلنا الله وإياك من المطيعين، وفيما أمرنا وإياك به من الصلاة له من الخاشعين، فإنه يقول سبحانه: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ۝٤٣﴾ [البقرة]، ويقول سبحانه: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ۝٤٥﴾ [البقرة].

وعلى كل مؤمن صلى أن لا يصلي مع من لا يتولى، ولا يتخذه في صلاته له سترا، لأن الله لم يجعل له زكاة ولا طهارة، وليس لأحد أن يستتر بغير طاهر من كل ما يستتر به ساتر، وإذا فسد أن يصلي للدنس والنجس إلى قبلة أو حجر(١) فكيف يجوز أن يصلي خلف ظالم أو فاجر وهو أدنس من القبلة والحجر دنسا، وأنجس مما نجس نجسا؟ وكيف يؤتم ويقدم من يتعدى ويفجر ويظلم وهو عند الله مهان ملعون، ولله بتعديه وظلمه عدو مبين؟ والتقدمة والإمامة تشريف وكرامة، وصلاته ووضوؤه وطهارته غير مقبولة، والمغفرة من الله بجرمه ما أقام عليه غير مأمولة، لأنه يقول سبحانه: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ۝٢٧﴾ [المائدة]، وإذا لم يتقبل منه وضوءه فليس من المتطهرين.

وإذا لم يكن متطهرا ولا زكيا نقيا فليس لأحد أن يصلي معه ولا يكون في صلاته مقتديا، وقد وضعنا لهذا في كتاب الطهارة حججا فيها منه بيان وإنارة،

---

(١) قوله عليه السلام: «إلى قبلة أو حجر»: القبلة قد تكون من حجر أو غير حجر؛ فالحجر أعم. (من خط السيد العلامة المجتهد محمد بن عبدالله عوض المؤيدي حفظه الله).

وفيه إن شاء الله ما شفى وكفى لمن كان للحق من نفسه منصفا.

وفي القيام في الأمر المفروض الصلوات لا فيما يتقرب به إلى الله من النوافل المتطوعات ما يقول جل ثناؤه وتباركت بقدسه أسماؤه: ﴿فَإِذَا أَمِنتُمْ﴾(١) [البقرة:١٩٦]، يعني سبحانه: من الخوف فكنتم آمنين: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ ۝٢٣٨﴾ [البقرة]، وفي الافتتاح للصلاة والتكبير(٢)، وفي التخفيت بالصلاة والتجهير بعد افتتاحها وتكبيرتها الأولى ما يقول فيها سبحانه لمن صلى: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ۝١١٠﴾ [الإسراء]، يقول سبحانه: اطلب من القول بين الإخفات والجهر قبلا، فأمر الله سبحانه رسوله صلى الله عليه وآله وسلم في الصلاة بالواسط بين الجهر والإخفات من القراءة، اختيارا منه سبحانه في الأشياء للأوساط على التقصير فيها والإفراط، لأن الإخفات فيها شبيه بالسر والضمير المكتوم، والإجهار الفاحش من الأصوات شبيه بالتنكير المذموم.

ألا تسمع لما ذكر الله سبحانه من قصص حكمة لقمان، وما نزل الله لرضاه بها منها في منزل القرآن، إذ يقول لابنه فيما يأمره به: ﴿وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ۝١٩﴾ [لقمان]، فلما كان رفع الصوت في غير

---

(١) في المخطوط: ﴿وإذا آمنتم﴾.

(٢) هل «حافظوا» تتمة لـ«فإذا أمنتم» فكيف يكون المعنى؟ هو تتمة، والمعنى: فإذا أمنتم فصلوا كما عزم الله عليكم في قوله: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ...﴾، وهذا في الفرائض المفروضات، لا في النوافل فالترخيص فيها والتخفيف سنة. (من خط السيد العلامة المجتهد محمد بن عبدالله عوض المؤيدي حفظه الله).

الصلاة من التنكير كان في الصلاة أفحش وأنكر، وفيما أمر الله به منها أكبر.

وفي ركوع الصلاة وسجودها بعد الذي قدمناه من حدودها ما يقول سبحانه: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝٧٧﴾ [الحج].

وفيما قلنا من تسكين الأطراف فيها وما أمر الله به من الخشوع والإقبال عليها ما يقول سبحانه: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ۝٢﴾ [المؤمنون]، ومن يشك في أن من الخشوع في الصلاة تسكين العيون وغضها؟ وكذلك أنه يجب تسكين الأيدي وحفظها، فذلك من الخشوع فيها ومن الإقبال عليها، وما قلنا في ذلك ومن دلائله ما ذكر عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ من أنه قال: ((ما بال رجال يرفعون أيديهم إلى السماء في الصلاة كأنها أذناب خيل شمس، لئن لم ينتهوا ليفعلن الله بهم وليفعلن))، لا يجهل ذلك من رواتهم إلا متجاهل. فأمر الصلاة كلها والحمد لله سكون وخشوع لله.

ثم قال تبارك وتعالى في تسبيح ركوعها بعد الذي بينه وفصله من أمر خشوعها، أمرا منه بينا، وحكما متقنا، ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ۝٧٤﴾ [الواقعة]، فوقفنا سبحانه من التسبيح على صراط مستقيم. ثم قال سبحانه في تسبيح السجود بقول ظاهر بين محدود: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ۝١﴾ [الأعلى]، دلالة منه لكل من صلى على ما يقول عند الركوع والسجود في صلاته، رحمة منه وتخييرا(١)

---

(١) قوله عليه السلام: «تخييراً» لعلها: «وتخيراً» أي: اصطفاء. (من خط السيد العلامة المجتهد محمد بن عبدالله عوض المؤيدي حفظه الله).

وتوفيقا[١] لهم بدلالته، فيسبح للركوع سبحان الله العظيم، القليل من التسبيح بذلك في الأداء كالكثير، فمن زاد واستكثر فقد استكثر من الخير، وله في الإكثار منه بإكثاره الثواب الكثير، ومن اقتصر وأقل كان مؤديا لما حمل من التسبيح لله في صلاته، ومستدلا عن الله فيه بدلالاته. وتسبيح السجود بعد الركوع: فسبحان الله الأعلى، فمن سبح بذلك في سجوده أجزاه مكثرا أو مقلا.

فإن قال قائل: قال الله: {سبح} ولم يقل في صلاتك، وهذا غير ما استدللت به من دلالاتك.

قيل: فلا يخلو هذا من أن يكون أمر به في الفريضة أو النافلة، لما فيه من ذكر الله بهذه المقالة، لما فيها لقائلها من الفضل المبين، ففي ذلك على ما قلنا أدل الدلائل باليقين، إن كان في النافلة يقال ما تدرك به وتنال[٢] ولما فيه من ذكر الله ذي الجلال، وكان تسبيحه بذلك للنافلة من الإكبار له والإعظام، فالفريضة الواجبة أولى، إذا كان ذكر الله بها أفضل فضلا، وكانت الصلاة إنما فرضت لذكره، ولما فيها من إجلال أمره، وقد قال الله في الصلوات نفسها، وما جعلها له من ذكره بها: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِكُمْ﴾ [النساء:١٠٣]، فأمر سبحانه بذكره بعدها، كما أمر بذكره فيها ومعها. وقال سبحانه: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا۝٤١ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً

---

(١) لعلها: وتوقيفاً.

(٢) قوله عليه السلام: «إن كان في النافلة يقال ما تدرك به وتنال» أي: ما تحصل به النافلة ويدرك به فضلها. (من خط السيد العلامة المجتهد محمد بن عبدالله عوض المؤيدي حفظه الله).

﴿وَأَصِيلًا۝٤٢﴾ [الأحزاب]، فكفى بهذا وبغيره من أمثاله في كتاب الله على ما قلنا دليلا، والحمد لله كثيراً على ما نور من أموره تنويرا.

فأما ما يذكر عن عمر من أنه كان يقول: سبحان ربي العظيم الأعلى، فلست أرى -والله أسأل التوفيق- أن يسبح بربه[(١)] من صلى؛ لأنه قد يقول مثل هذا ويفعله من يجحد الإسلام ويعطله، ممن يثبت مع الله إلها آخر، وإلهين وأكثر، ثم يزعم أن الله لا شريك له أعظم وأكبر من الخلق من الشركاء، فيقول: ربي الأعظم الأعلى هو الذي خلق الأرض والسماء، وهو إلهنا الأكبر الذي لا يرى، ولنا آلهة سواه أخرى لا تخلق شيئاً ولا تنشئ[(٢)] كما يخلق ربنا الأعلى، وإنما نعبدهم معه لنتقرب بعبادتهم عنده، وليكونوا شفعاء في حياتنا هذه الدنيا، ولا يوقنون ببعث ولا حساب، ولا بمرجع إلى عقاب ولا ثواب، كما قال جل ثناؤه: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [الزمر:٣٨]، وقال سبحانه لرسوله: ﴿قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ۝٣٨﴾ [الزمر]، وقال: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [الزمر:٣].

وأما التكبير في كل ركوع وسجود قبل ما سنذكره إن شاء الله من التشهد

---

(١) في المطبوع: أن يسبح به من صلى.

(٢) قوله عليه السلام: «لا تخلق شيئاً ولا تنشئ» هذا من قول من يثبت مع الله آلهة أخرى، وقوله: «كما يخلق ربنا..» متعلق بتخلق في قوله: «لا تخلق شيئاً». (من خط السيد العلامة المجتهد محمد بن عبدالله عوض المؤيدي حفظه الله).

فتقول كلما ركعت أو خفضت أو رفعت: الله أكبر، فإذا أنت كبرت وقللت بعد أو أكثرت فقد أديت في التكبير ما أمرت، وذلك فهو -إن شاء الله- من الخشوع، إلا في رفعك لرأسك -ولا قوة إلا بالله- من الركوع فإنك تقول: سمع الله لمن حمده، وتأويلها: قبل الله ممن شكره فعبده.

وأما ما جاء في التشهد والذكر والدعاء من القعود في كل ركعتين من الظهر والعصر والمغرب والعشاء، وما يلزم كل مصل في صلاته من القعود بعد الفراغ من كل ما فيها من السجود- فمن دلائل ذلك وعلمه(١) وما دل الله به عليه من حكمه قوله سبحانه لرسوله صلى الله عليه وآله وسلم فيمن كذب بها وتولى: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِى يَنْهَىٰ۝٩ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ۝١٠﴾ [العلق]، ثم قص -سبحانه- من ذكره وما وعد من النكال في خلافه لأمره، فيما نزل في هذه السورة من وحيه، وما ذكر سبحانه عن الصلاة من نهيه، ثم قال سبحانه لرسوله صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ۝١٩﴾ [العلق]،وقال تعالى: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ۝٨﴾ [الشرح]، فمن الاقتراب والرغبة والانتصاب القعود بعد الفراغ في كل صلاة للطلب إلى الله والرغب والمناجاة، ومن ذلك ما جاء من التشهد، وهي الشهادة لله بالتوحيد من كل موحد، والشهادة للرسول صلى الله عليه وآله وسلم بما جعل الله من الرسالة فيه، والذكر بعد لله بما حضر، والدعاء لله بما تهيأ وتيسر، فأي ذلك مما قال به قائل أو سأل الله به في صلاته سائل أدى ما يلزمه ويجب، ونقول -إن شاء الله- في ذلك بما يستحب مما ذكر عمن مضى، وكل ذلك وإن اختلف فيه فهو لله رضا.

---

(١) في المخطوط: وعمله.

فمن ذلك ما جاء به عن زيد بن علي عليهما السلام وهو أيضا ما ذكره عن علي بن أبي طالب عليه السلام: (بسم الله، وبالله، والحمد لله، والأسماء الحسنى كلها لله، أشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، واشهد أن محمداً عبده ورسوله، ثم الصلاة على النبي صلى الله عليه وآله وسلم بما يمكن ويحضر مما يستحسن من قول كريم أو ثناء أو تعظيم).

والتشهد والذكر في كل ركعتين من كل صلاة كالتشهد والذكر عند الفراغ من جميع حدودها المسماة، من القيام والافتتاح والتكبير والاقتراء والركوع والتسبيح وذكر الله والخشوع، وإذا أمر الله بالذكر والدعاء في غير الصلاة ووكده فأمره سبحانه بذلك في الصلاة أقرب إليه وأوكد عنده في الذكر والدعاء.

وفي الصلاة على النبي صلى الله عليه وآله وسلم ما يقول تبارك وتعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾﴾ [الأحزاب]، ويقول سبحانه: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ [الإسراء:١١٠]، ويقول سبحانه لرسوله صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾﴾ [الأحزاب].

وفيما يقول تبارك وتعالى في الجلوس والمقعد بعد الصلاة للذكر والتشهد: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا﴾ [النساء:١٠٣]، فأمرهم بذكره في القعود كما أمرهم إذا كانوا ركعا وسجودا، وفرض الصلاة الأول فإنما كان ركعتين بما كان فيهما من القيام والركوع والسجود، فأقر فرضهما كله على ما كان

عليه من الركوع والسجود والقعود، وزيد فيهما ومنها وعليها في كل أربع ركعتين آخرتين، ولذلك لزم القعود في كل ركعتين. وسنذكر -إن شاء الله- التشهد للآخرتين فيما جاء عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم من القول عنده وبه وفيه.

باب التقصير

وقلنا: تقصر الصلاة للمسافر من كل بر وفاجر، لأن فرضهما[1] المقدم كان في السفر والحضر على ركعتين، وقبلنا ذلك وأخذنا به لما فهمناه منه عن كتاب الله المبين، ولم نأخذ ذلك عن روايتهم وإن كانوا قد رووه، ولم نقبله عنهم -والحمد لله- وإن رأوه، قال الله لا شريك له فيما[2] قلنا فيه من ذلك بعينه، وفيما فهمنا عن الله بالكتاب من تبيينه فيه نفسه لرسوله صلى الله عليه وأهله: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِينًا﴿١٠١﴾﴾ [النساء]، فأبان في هذه الآية نفسها قصرها في السفر تبيينا، ودل على أن فرضها فيه ركعتان، وأنهما عليهم كلما ضربوا في الأرض ثابتتان، قصرها في هذه الآية إنما هو تنصيفها إذا كانوا في حرب مع الإمام، أو مجمعين جميعا منه في مقام، ألا تسمع كيف يقول تبارك وتعالى لرسوله صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا...﴾ [النساء:١٠٢]، يقول سبحانه: فإذا أتموا ركعة وسجدوها فلتأت الطائفة الأخرى التي لم تصل فلتصل

---

(١) لعلها: فرضها.

(٢) في المخطوط: وفيما.

معك الركعة الثانية بعدها، وكل طائفة من الطائفتين فقد قصرت صلاتها عن أن تتمها، إذ لم تصل مع الرسول صلى الله عليه وآله وسلم إلا بعضها، فهذا هو التقصير لما لم يكونوا يقصرون، فإذا أمنوا أتموا مع الإمام ركعتين ركعتين كما كانوا يتمون. وفي ذلك ما يقول سبحانه: ﴿فَإِذَا أَمِنتُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ۝٢٣٩﴾ [البقرة]، يقول سبحانه: أتموا مع رسولكم إذا أمنتم ولا تقصروا، فالإتمام بالإمام هو ما به أمروا، فكانت صلاتهم الظهر والعصر ركعتين كما ترى في السفر، وكان الأمر على ما قلنا في الإمامة من القصر، وأقرت الصلاة على ركعتين في السفر، وزيد عليها فأتمت أربعا في الحضر، فليس لفاجر ولا بر سافر في خير أو شر أن يزيد على صلاته في سفره، ولا ينقص منها في حضره، ومن زاد على فرض عليه من الصلاة في السفر فعليه أن يعود لصلاته، كما لو زاد على صلاة الحضر لفسدت عليه الصلاة فأعادها لزيادته.

فالتقصير إنما هو كما قلنا مع الإمام، ركعتان في السفر فهما أتم التمام، وكذلك فرضهما في كل سفر وحضر، ثم لم يكن التقصير فيها إلا بما قلنا من القصر، وليس يجوز أن يقال: قصرت الصلاة إلا على ما قلنا، ولا وجه للتقصير فيها إلا من طريق ما تأولنا، وإنما يقال في الصلاة: زيد عليها، ولا يقال بشيء من التقصير فيها، لأنه إذا قيل فيها: قصرت الصلاة إلا بما ذكرنا كان كأنه خلاف لما في كتابه مما أمرنا، من الركعتين اللتين كانتا في الحضر والسفر علينا لله فرضا، فزيد في صلاة الحضر وأقرت صلاة السفر، وكان ذلك كله لله رضا، فيما[١]

(١) لعلها: فما.

نقص من ذلك كله أو زاد لزم فيه كله أن يعاد.

والقنوت فما روي عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: ((القنوت ثلاث كثلاث المغرب))، ولسنا نضيق على المصلي بما قرأ فيهن، وقد ذكر عن علي بن أبي طالب صلوات الله عليه أنه قرأ في الركعة الأولى الحمد وسبح اسم ربك الأعلى، وفي الثانية الحمد لله وقل يا أيها الكافرون، وفي الثالثة الحمد وقل هو الله أحد. وروي عنه صلى الله عليه وآله وسلم أنه: كان يقنت بتسع سور بعد الركوع، ويستحب له أن لا يدعو في القنوت إلا بآية من كتاب الله، وكذلك أيضا في قنوت الصبح، مثل قول الله سبحانه: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة:٢٨٦] إلى آخر السورة، ومثل قوله: ﴿رَبَّنَا ءَاتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ۝٢٠١﴾ [البقرة]، ثم كبر وخر ساجدا وسجد سجدتين وتشهد ثم سلم تسليمتين عن يمينه وعن يساره.

تم الكتاب وربنا المحمود، وله الكبرياء والجود، وصلى الله على رسوله سيدنا محمد وأهله وسلم تسليما

***

مسائل القاسم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على محمد النبي الأمي وآله وسلم.

قال محمد بن القاسم رحمة الله عليه:

سألت أبي القاسم بن إبراهيم عليه السلام عمن نام ساجداً[١] في صلاة نافلة، قائما أو راكعاً أو ساجداً أو قاعداً في نافلة أو فريضة.

فقال: من نام في صلاته نوما كثيرا أو قليلاً أو خفيفاً أو ثقيلاً يلتبس بعقله ويوقن به عاد لوضوئه وصلاته.

وسألته عمن صلى أمام القبلة بصلاة الإمام؟

فقال: من فعل ذلك فليس في شيء من صلاة الإمام، إنما يكون إماما لمن يؤمه بالاستقدام، وأن يكون إن كان واحدا قائما على اليمين لا على اليسار، وذكر أن الوليد بن يزيد قدم المدينة وهو ولي العهد بعد هشام فصلى في داره وصلى أهل المدينة في المسجد بصلاته، فأنكر الناس ذلك من فعله، وكان الوليد يجعل على دار مروان خصيا يكبر بتكبيره الناس. وذكر أن عبدالعزيز بن مروان كان يصلي بأهل الإسكندرية على ظهر المسجد، ويصلي الناس أسفل في المسجد بصلاته، فأنكر ذلك عليه بعض العلماء، وقرأ: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ﴾ [آل عمران:١٣٧]، يريد أن ذلك خلاف السنة الماضية.

---

(١) كذا في المخطوط: عمن نام ساجداً................ أو ساجداً..إلخ.

وسمعته رحمة الله عليه يقول: لا بأس أن يتيمم الذي لا يجد الماء ثم يأخذ المصحف أو يقرأ حزبه من القرآن؛ لأن الله جعل التيمم لمن لم يجد الماء طهورا في الصلوات وهنَّ وهي من الفرائض الواجبات.

وسألته عن قول الله سبحانه: ﴿الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ﴾ [المعارج].

فقال: دائمون هو: متعاهدون مدايمون(١)، لا يصلون بعضا ويتركون بعضا، وقد قدم الله ذلك فرضا، وجعل الصلاة كتابا موقوتا، عدداً وسجودا وقياما وقعودا، فمن لم يداوم على ذلك كله ويضع كل شيء من ذلك موضعه فليس على صلاته بدائم، ولا بفرض فيها بقائم.

وسألته هل يتوضأ للصلاة في شيء من المساجد؟

فقال: لا يتوضأ في شيء منها في تور ولا طست ولا غيرهما، ولقد بلغني أن القاسم بن محمد بن أبي بكر رأى رجلا يتمضمض ثم مج في المسجد فنهاه عن ذلك، فقال: إنه يُفْعَل فيه ما هو أشد من هذا، النخامة وغيرها، فقال القاسم: هذا ما لا يجوز.

وبلغني أن هشام بن عبدالملك بن مروان دخل مسجد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ليصلي فيه، فذكر أنه على غير وضوء، فأتي بتور فيه ماء وطست فتوضأ في المسجد، فأنكر الناس ذلك يومئذ وعظموه.

وسألته عمن يترك الأعمال يوم الجمعة وفيها من الرجال والنساء تعظيما لها؟

---

(١) كذا في المخطوط.

فقال: لقد بلغني أن بعض الصحابة كان يكره ذلك، لما فيه من التشبه باليهود في ترك الأعمال يوم السبت.

ولقد بلغني أن عمر بن الخطاب عاتب رجلا من أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن[1] التعجيل للجمعة، فقال: أهذه الساعة؟ فقال الرجل: كنت في السوق. وهذا خلاف ترك الأعمال فيها تعظيما لها.

وسألته رحمة الله عليه هل تصلى نافلة أربعا معا لا يسلم في الثنتين منها؟

فقال: صلاة الليل والنهار مثنى مثنى إلا الوتر، وتأخير الوتر لمن نوى القيام إلى آخر الليل أفضل من تعجيله، ومن لم ينو القيام عجله وكان ذلك خيرا له.

وسألته رحمة الله عليه عن الرجل يكون في العمل فيستمر فيه ثم يصلي كذلك؟

فقال: لا بأس بذلك إن شاء الله. وسمعته رضي الله عنه يقول: لا بأس بالدعاء في السجود.

وسألته رضي الله عنه عن العبد والخصي يؤمان الناس في الصلاة؟

فقال: لا بأس بذلك، إذا ثبت لهما اسم الإيمان وحكمه.

وسمعته رحمة الله عليه يقول: كان الميسر فيما بلغني وفيما يذكر في الجاهلية أربعة أشياء: فاثنان منها على وجه التأله والعبادة، وهما الأنصاب والأزلام، واثنان من الباطل، وهما الخمر والقمار، فالخمر والميسر اليوم في الإسلام أكثر من أن يحصى، منه اللعب بالحمام، وكذلك كل ما ماثله في المقامرة من الأمثال.

---

(١) كذا في المخطوط.

وقد بلغني أن أهل الجاهلية يتراهنون ليلة البدر أيهما يسبق الشمس أو القمر، قال: وكانوا يتبايعون الجزور بالمائة درهم ثم يجزرونها أجزاء ويتساهمون على تلك الأجزاء، فأيهم ما خرج سهمه أولاً أخذ أفضل الأجزاء فضلاً، ثم الذي يليه كذلك، وأخذ آخرهم شر تلك الأجزاء والقسوم، وكان عليه ثمن تلك الجزور.

قال: والأزلام ثلاثة قداح في أحدها: أن أفعل، وفي الآخر: لا تفعل، والمغفل القدح الثالث ليس فيه شيء، فإن خرج الذي فيه: أن أفعل فعل، وإن خرج: أن لا تفعل لم يفعل، وإن خرج: الغفل أعاد فضرب.

وسألته عمن يصلي وحده بين الصفوف؟

فقال: بئس ما صنع، وصلة الصفوف أفضل، وليس يجب عليه إعادة صلاته وإن فعل.

وقال رحمة الله عليه: ومن خرج مسافراً من أهله حتى تستتر عنه بيوت قريته ثم أقام لانتظار أصحابه وبعض حاجته إنه يقصر صلاته في مقامه قصر المسافر في سفره.

وسألته عن السجود على كور العمامة؟

فقال: لا بأس به إذا سجد على بعض جبهته.

وسألته هل يجوز للرجل يصلي ومعه جلد فارة مسك؟

فقال: لا، إلا أن تكون ذكية غير ميتة؛ لأنها دابة تحيا وتموت، وهي شبيهة بالثعلب، وقد كانت منها دابة لمحمد بن القاسم وقعت عندنا وصارت إلينا، ثم ماتت بعد مقام طويل، وأخذ منها مسك كثير غير قليل.

وسألته عن ثوب يصيب ناحية منه بول أيغسل الثوب كله أم تغسل الناحية التي أصابها البول منه؟

فقال: إن علمت الناحية وعرفت غسلت وحدها واكتفي بذلك، وإن لم تعرف الناحية غسل الثوب كله بالماء.

وسألته هل ينقش في الخواتيم شيء من القرآن؟

فقال: القرآن خير ما نقش فيها وفي غيرها، ولا بأس بنقش القرآن فيها، وقد كان نقش خاتم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: محمد رسول الله. وهذا من القرآن.

وقال في مسح الأذنين: يمسح ظاهرهما وباطنهما.

وسألته عن تخليل اللحية بالماء؟

فقال: تخلل اللحية وتغسل مع الوجه غسلا، ويفرغ عليها الماء كما يفرغ عليه إفراغا.

وسألته هل على النساء تكبير أيام التشريق بعد الصلاة؟

فقال: عليهن التكبير كما على الرجال.

وسألته عمن قرأ سجدة من القرآن فسجد، هل يكبر حين يسجد وحين يرفع؟

فقال: يفعل، وذلك أفضل؛ لما فيه من ذكر الله، وما يفعل من غيره في الصلاة كلها لله.

وسألته عن الصلاة في السراويل والرداء؟

فقال: لا بأس إن شاء الله.

وسمعته رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: لا بأس بالصلاة في الإزار والعمامة.

وسألته عن الرجل يكتب العلمَ وفيه ذكر الله والرسالةَ، هل يكتب في ذلك بسم الله الرحمن الرحيم وهو جنب؟

فقال: لا يكتب شيئا من القرآن، وبسم الله الرحمن الرحيم لا شك من القرآن في ذلك.

وسألته عن الصلاة تحت السقايف في المسجد الحرام؟

فقال: التقدم إلى البيت والدنو منه أفضل، إلا أن يخشى من الشمس إن ظهر لها عينا(١) أو لها ضررا.

وسألته عمن صلى والناس يطوفون حول البيت فيمرون عليه بين يديه؟

فقال: لا بأس في ذلك عليه.

وسألته عن غسل الجمعة أواجب هو؟

فقال: غسل الجمعة من السنة ومن الأمر بالمعروف، وليس وجوبه وجوب الفرائض.

وسألته عمن نسي التشهد مع إمام يؤمه؟

---

(١) كذا في المخطوط، ولعلها: عنتاً.

فقال: يتشهد إذا سلم الإمام، ويسجد سجدتي السهو بعد التسليم.

وسألته عن مسافر شغل في جهازه لسفره حتى خرج وقد صليت العصر من قريته، وتوارت عنه بيوت أهله وقريته؟

فقال: يصلي العصر ركعتين.

وسألته عمن يحول خاتمه في أصابعه ليحصي به صلاته وطوافه بالبيت؟

فقال: لا بأس بذلك، وهو من المحافظة عليهما وحسن العناية بهما إن شاء الله.

وسألته عمن ألصق قرطاسا بدواء على صدغيه لصداع يجده أينزعه عند الوضوء؟

فقال: إن كان يخاف أن يضره فليمر عليه الماء، وإن كان شيئا لا يخاف ضره فلينزعه، وكذلك الجراح والكسر.

وسألته عن الرجل يصلي بعد الوتر؟

فقال: لا بأس بذلك إن بدا له.

وسألته عن التكبير أيام التشريق في المجالس؟

فقال: التكبير وذكر الله حسن في كل مكان وعلى كل حال، والتكبير لازم في أيام التشريق خلف الطواف.

وسألته رحمة الله عليه عمن كان في طريق فيه اللصوص والخوف هل يجوز أن يخفف صلاته؟

فقال: رب تخفيف لا ينقص الصلاة فذلك جائز له، ورب تخفيف ينقصها، فما كان من ذلك فلا يجوز له أن يفعله.

وسألته عمن تمضمض فأدخل إصبعه في فمه يدلك بها أسنانه، أيعيد إصبعه تلك فيما يتوضأ من الماء؟

فقال: لا بأس بذلك.

وسألته رحمة الله عليه عن القراءة بالألحان للقرآن؟

فقال: أما لحن طرب أو عبث فلا يقرأ به، ولكن يقرأ بالحنين والأحزان، وقد ذكر أن الله أوحى إلى موسى بن عمران صلى الله عليه: يا موسى، إذا قمت بين يدي فقم مقام العبد الذليل، وإذا قرأت التوراة فاقرأها بصوت حزين.

وسألته عن أجرة المعلمين للغلمان على ما يتعلمون منهم من القرآن؟

فقال: كل من أدركنا من آل محمد صلى الله عليه وآله وسلم ومن فقهاء المدينة فكلهم لا يرى به بأسا.

وسألته رحمة الله عليه هل تجهر النساء بالتكبير في أيام التشريق؟

فقال: لا يجهرن ولا يرفعن أصواتهن، ويكون تكبيرهن قدر ما يسمعن أنفسهن.

وسألته عن المرأة يطول بها الدم كم تترك الصلاة؟

فقال: تترك الصلاة قدر أيام أقرائها التي عرفتها، ثم تغتسل وتوضأ لكل صلاة -إن شاء الله- تصليها.

وسألته هل يستنجي أحد وفي شماله خاتم فيه ذكر الله؟

فقال: ترك ذلك أفضل، وأحب إلي ألا يفعل.

قلت: فيحرك المتوضئ خاتمه عند الوضوء ليصل الماء إلى ما تحته.

فقال: يحركه أبلغ في طهارته.

وسألت أبي رحمة الله عليه عمن يحك جسده ويدخل يده نحو صدره وهو في الصلاة؟

فقال: يسكن الأطراف كلها أمثل، وإن حكه شيء أو آذاه نحاه.

وسألته عن علي بن أبي طالب رحمة الله عليه هل زوج ابنته عمر بن الخطاب؟

فقال: خبر من الأخبار قد ذكر، ولا يدرى ما حقيقته.

وسألته عن ولاية علي بن أبي طالب صلوات الله عليه فريضة من الله كالفرائض؟

فقال: موالاة علي بن أبي طالب أكبر الفرائض، واجبة من الله ورسوله على كل مسلم.

وسألته عن قول الله: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ [البقرة:٢١١].

فقال: لا تكون أمة واحدة وفيهم نبي أو وصي.

وسألته عن العقل في الإنسان أطبع هو أم مستفاد؟

فقال: هو الحفظ والفكر، وأصل العقل فطرة وخلقة.

وسألته من كان أول الناس إسلاما مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم؟

فقال: علي بن أبي طالب، وكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أدبه، وكان في حجره، وهو السابق إلى الله والمقرب.

وسألته عن وصي النبي صلى الله عليه وآله وسلم من كان، وعن تراثه؟

فقال: كان علي بن أبي طالب وصيه في مهماته وعهوده، وأما الميراث فإن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ توفي وكل ما يملك من الدنيا فقد فرقه على أمته، وذكر أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أعطى فاطمة صلوات الله عليها فدكا، ولم يترك رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ إلا سلاحه فأخذه علي بن أبي طالب.

وسألته عن الحديث الذي روي: ((أن من مات ولم يعرف إمامه مات ميتة جاهلية))، وكيف يعرف؟

قال: بنعوته وصفاته.

وسألته عن الإيمان؟

فقال: الإيمان من الأمان، والإيمان فهو السلامة من كبائر العصيان التي أوجب الله عليها لأهلها النار، فمن استكمل ذلك فقد استكمل الإيمان.

وسألته عن الإسلام؟

فقال: هو الاستسلام لما(١) أمر الله به من الإسلام.

وسألته عن القدر؟

فقال: الخير والإحسان من الله لا يستنكر، وما كان من خلاف ما أمر الله به فهو من أهله، والله بريء منه، وما كان من حسن مأمور به فهو من الله، وما كان من معصية أو شتم لله فالله بريء منه، لأنه يذمه ويعيبه، ولا يصلح أن يكون من الله مذموما عنده.

---

(١) في المخطوط: بما.

فهذا إن شاء الله يكفي، ولا يستنكر ذلك ولا يجحده أحد أنصف أو تكلم بما يعرف، وأما سوى ذلك فلا يراد الخوض فيه ولا الشغل به.

وسألته عن الاستطاعة؟

فقال: أي ذلك قال به قائل إذا أثبت أن الله لم يكلف العباد إلا ما يستطيعون فهو مقبول، وقوله صحيح معقول.

وسألته عن إمامة أمير المؤمنين أكان من الرسول إليه وصية، أم قال: أنت الإمام بعدي أم كيف؟

فقال: دلالة من الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وإشارة عليه(١) كانت منه إليه كافية مغنية.

وسألته عن الاختلاف الذي بين أهل البيت؟

فقال: يؤخذ من ذلك بما أجمعوا عليه ولم يختلفوا فيه، وأما ما اختلفوا فيه فما وافق الكتاب والسنة المعروفة فقول من قال به فهو المقبول المعقول.

وسألته عن إطلاق الرأي عند الضرورة؟

فقال: ليس لأحد أن يقول برأيه إلا ما أشبه الكتاب والسنة المعروفة، وإلا أمسك فلم يقل.

وسألته عمن قعد عن علي رضوان الله عليه في حربه؟

فقال: من قعد عن علي في حربه فهو ضال.

وسألته عن إنفاق المزبق والمكحل؟

---

(١) معنى قوله عليه السلام «دلالة من الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وإشارة عليه» يقول: إن الدلالة على إمامة أمير المؤمنين بالنص الخفي، وإنها دلالة تقوم بها الحجة وتكفي وتغني. (من خط السيد العلامة المجتهد محمد بن عبدالله عوض المؤيدي حفظه الله).

فقال: التحرز من ذلك والتورع أفضل وإن أجازه الناس بينهم.

وسألته عن جمع صلاتين في السفر والحضر؟

فقال: لا بأس به.

وسألته عن المرأة تموت من أحق بميراثها؟

فقال: قرابتها وذوو محرمها أولى الناس بها.

وسألته عن الاستثناء في الطلاق وما أشبه ذلك؟

فقال: الاستثناء جائز في كل يمين.

وسألته عمن أصبح جنباً في شهر رمضان وهو يمكنه الغسل قبل طلوع الفجر هل عليه شيء؟

فقال: لا بأس به، وأحب إلينا أن يغتسل.

وسألته عمن حلف بالمشي إلى بيت الله وليس عنده ما يبلغه ولا يحمله؟

فقال: لا شيء عليه، لا يكلف الله أحدا إلا ما أطاق.

وسألته عن رجل محتاج يتكفف[1] باليسير ويرد ما يتفضل به الناس عليه، الأخذ منهم أفضل أم الرد؟

فقال: إن رد فلا بأس، وإن أخذ فلا بأس إذا احتاج.

وسألته عن قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم: ((إني تارك فيكم ما إن تمسكتم به كتاب الله وعترتي أهل بيتي)) من العترة؟

فقال: العترة هم الولد.

---

(١) في المخطوط: يتكفكف.

وسألته عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؟

فقال: الأمر بالمعروف ما كانت لله فيه طاعة، والنهي عن المنكر كل ما كانت لله فيه معصية.

وسألته عن مرأة هلكت وتركت عبدا مدبرا ما ترى فيه، وتركت أمتين أعتقت من ذلك ثلثهما؟

فقال: إن كان ثلثهما يحتمل عتق المدبر أعتق، وإن لم يكن يحتمل فلا يعتق. وقال في المعتق من الأمتين أيضاً: إذا احتمل ثلثها ما أعتقت منهما عتق ما أعتقت ونفذ كل ما له أوصت، من بعد أن يخرج الدين الذي عليها إن كانت عليها ديون، فإن الدين يخرج من قبل الثلث ومن قبل كل وصية.

وسألته عن قول الله: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ [هود:١٠٧].

فقال: خبر من الله من القدرة والاقتدار على كل شيء، وليس هو خبر أن الله مخرج من النار بعد دخولها أحدا، ولو خرج منها خارج بعد دخولها لم يكن فيها مخلداً، وقد قال الله في غير مكان: ﴿خَالِدِيْنِ فِيهَا﴾، ﴿وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴿٤٨﴾﴾ [الحجر].

وسألته عن قول الله تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴿٨﴾﴾ [الشمس]؟

فقال: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴿٧﴾﴾ يقول سبحانه: وما قدرها، وما هاهنا من تسوية التقدير وحكمة التدبير الذي لا يكون إلا بالله، ولا يوجد إلا من الله،

وقد قال بعض المفسرين: {وَمَا سَوَّاهَا﴿٧﴾} هو ومن سواها. {فَأَلْهَمَهَا} هو عرفها تعريفا بينا ليس مما يلتبس بكفره منعمه، ولا يعايا بشيء من المعرفة بين فجورها وتقواها، إذا عرفها هيبتها واجتراها، لأن الهيبة اتقاء، والفجور اجتراء.

فهي تعرف من الأشياء كلها ما تجترئ عليه من الفجور، وما تهاب وتخشى من جميع الأمور، فهي على ما لا تهاب مجترية، ولما هابت متقية، فهي ملهمة لتقواها وفجورها؛ لمعرفة ما تهابه وتجتري عليه من أمورها.

وسألته أيضاً عن قول الله سبحانه: ﴿وَالسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦٓ﴾ [الزمر:٦٤]؟

فقال: إنما يريد سبحانه قدرته عليهن، ونفاذ أمره وقضائه وحكمه جل ثناؤه فيهن، لأن كل ما كان من الأشياء مطويات في يمينك فأنت عليه أقدر منك على غيره من جميع شأنك، ومن كان في يديه شيء مطوي كان على حفظه كله قويا، ولا يتوهم أنهن مطويات في يمينه كطي الثياب إلا عميّ جهول لعاب، وما في ذلك لو كان كذلك من الإكبار ومن القوة والاقتدار؟!

وأما قبضته وإحاطته وقدرته فذلك أنه يقال لمن كان محيطاً بشيء وقادراً عليه إذا سئل عنه من يعرفه هل له قدرة فيه؟ قال: نعم والله ما هو إلا قبضته وفي يده. وليس يريد بذلك إذا قاله قبضة الكف، والله لا شريك له متعال عن أن يوصف من أوصاف الإنسان بوصف.

وسألته عن قول الله: ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ﴾ [الزمر:٥١]؟

فالإنابة إليه، هي: الرجوع بطاعته عليه، وإسلامهم له، هو: سلوكهم سبيله، فلم ينب إليه سبحانه من تولى عنه، ولم يسلم له جل ثناؤه من تبرأ منه، فالإنابة

إليه هي: الاعتصام، والإسلام له هو: الاستسلام، ولم يعتصم به قط من آثر غيره، ولم يسلم له من خالف أمره.

وسألته عن قول الله سبحانه: ﴿قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ﴾ [عبس]؟

فهو: لعن الإنسان ما أقل شكره، وكذلك كل من كفر بآيات الله، ولم يصر فيما أمر به إلى مرضات الله، فمن كان كذلك أو عمل بذلك فهو الكافر غير الشاكر لما أولي ووهب له من النعم، فأعطي في مبتدأ خلقه حين أنشي من نطفة من ماء مهين، فحفظ في الرحم في مستقره فأتم تقديره، وحسن تصويره، ثم يسر للسبيل الذي هو مخرجه من بطن أمه، بعد كماله في لحمه وعظمه.

وسألته عن قول الله سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ﴾ [النساء:٤٨]؟

فتأويل ذلك: أن الله قادر على ما شاء من مغفرة أو تعذيب لمن خلق وأنشأ، وليس ذلك خبراً من الأخبار أنه غير معذب لمن وعده بالنار؛ لأنه جل ثناؤه لو لم يعذب من وعده بالعذاب من أهل الكبائر لكان في ذلك خلف وإكذاب لما وعد به في ذلك من الميعاد، وفيما ذكر سبحانه من وفاء ميعاده ووعده في ذلك ما يقول سبحانه في كتابه: ﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِنْ دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ [الرعد]، ليس بين قوله سبحانه: {لا يغفر} وبين: {يعذب}، فرق، لأن من لا يغفر له فقد عذبه، ومن عذبه فلم يغفر له.

وسألته عن: ﴿مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الزمر:٦٠]؟

فالمقاليد هي: المفاتيح، ومفاتيح الغيب فهي المقاليد.

وسألته عن قول الله سبحانه: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا﴾ [الحديد:٢٢]؟

فالمصيبة في الأرض فهو: ما يكون في الأرض عامة، والمصيبة في الأنفس فهو: ما يكون في الأنفس خاصة، والكتاب فهو علم الله بذلك كله، وما أحاط بالأرض والأرض يقينا من علمه، فكل ذلك كما قال الله لا شريك له لا يؤوده منه علم ما علم، وقوله: {مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا} فهو من قبل أن يخلق الأنفس وإنشائها.

وسألته [عن]: ﴿وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ﴾ [الإسراء:١٣]؟

وطائره فهو: ما يلحقه وما يلزمه من خيره وشره، فكله مكتوب محفوظ عليه إذا لقي الله وصار إليه، كما قال سبحانه: ﴿نُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا ﴿١٣﴾ اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾﴾ [الإسراء].

وسألته عن قوله: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ﴾ [الإسراء:٧١]؟

فإمامهم: هو ما كتب عليهم ولهم من سالف أعمالهم، فمن أوتي كتابه بيمينه فهو عن يمينه، وتأويل: ﴿مَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾﴾ [الإسراء]، فهو: أن من كان في الدنيا ضالاً فهو في الآخرة أضل ضلالا، إنه ليس بعد البعث ضلال ولا هدى، فمن ضل في الآخرة أو اهتدى فهو مهتدٍ أو ضال أبدا.

وسألته عن قول الله سبحانه: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ

﴿قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾ [الحجرات:١٤]؟

فالإسلام هو: الاستسلام والذلة والإذعان، يعني الإجابة والطاعة والإيمان، فهو سر أو إعلان، فسره في القلوب الباطنة، وعلانيته في الأعمال الظاهرة، ألا تسمع كيف يقول سبحانه: ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات:١٤].

وسألته عن قول الله سبحانه: ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ [آل عمران:١٤٠]؟

والأيام أيام الدول، فهي بين الناس كما قال الله عقب، وما فيها من إحسان أو إساءة فأعمال لمن عملها من العمال، يثاب المحسن فيها على حسنته، ويعاقب المسيء فيها بسيئته.

وسألته عن قوله: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ۝٦٧﴾ [الفرقان]؟

فالقوام من النفقة بين السرف والإقتار، وهو السيرة التي رضيها الله في النفقة للأبرار.

وسألته عن حديث الثقلين؟

وهو حديث صحيح مذكور كثير، في أيدي الرواة مشهور، ومن تمسك كما قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بهما فلن يضل أبدا، لما جعل الله فيهما ومعهما من النور والهدى، وكتاب الله تبارك وتعالى كما قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فهو أحدهما، وفيه الشفاء والبرهان والنور، وأهل بيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كلهم مجمعون، فمنهم عدل أبدا بمن الله لا يجور، فمن تمسك بالمتقين منهم لم يضل، ولم يجز عن الحق

ولم يمل، وكيف يضل متبع من يعدل في اتباعه على عدله، وهو فيه كمثله. وحديث سفينة نوح من ذلك، وهي النجاة بها كذلك، ومثل أهل بيت النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ كلهم وفيما ذكر من التمسك بهم كمثلها في نجاة من نجا، وفيما ذكر من الضلالة والهدى.

[وسئل عن المسح على الخفين والقدمين؟

فقال](١): وأما المسح عل الخفين فإن أهل البيت مجمعون أنه فاسد لا يجوز، وأما المسح على القدمين فليس فيه إلا ما يقول أصحاب الإمامية عمن يقولون به عنه، ولم ندرك أحدا من آل الرسول إلا وهو يفعل بخلاف ما قالوا به، فيغسل ولا يمسح.

وسألته عن السماوات والأرض، كيف الأرض والسماء بعضها فوق بعض؟

وكذلك ما سألت عنه من الأرض فأعلى السماوات آخرها، وأول السماوات أولها، وكذلك أول الأرض أعلاها، وآخرها أسفلها.

وسألت أبي رضوان الله عليه عن قول الله عز وجل ثناؤه: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾ [الإسراء:٩٧]؟

فقال: تأويل ذلك إن شاء الله: أنهم يبعثون يوم القيامة حين يجمعون ويحشرون على صورهم التي فارقوا الدنيا عليها وهيئاتهم، فعلى ما فارقوا الحياة عليه من ضلالهم وعماهم، فمن فارق دنياه وهو أعمى في بصره بعث كذلك عند حشره، وكذلك يبعث الأبكم، وهو الأخرس اللسان، وكذلك الأصم من

---

(١) ساقط من المخطوط.

صمم الأذن، فكل يبعث ويحشر على ما كان عليه في دنياه من الأحوال، وكذلك يبعثون على ما كانوا عليه في الدنيا من الهدى والضلال، وليس تأويل: {على وجوههم} -إن شاء الله- ما يذهب إليه أهل الجهالات من تبديل الله في يوم القيامة للخلق والهيئات التي كانوا عليها في الدنيا بديا، وكيف يتوهمون صماً وبكماً وعمياً والله يقول سبحانه في ذلك اليوم: ﴿وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا۝١٠ يُبَصَّرُونَهُمْ﴾ [المعارج:١١]، هو: يرونهم، وكيف يتوهمون صماً بكماً خرساً وهم يقولون: ﴿يَاوَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً﴾ [الكهف:٤٩]؟ وكيف يتوهمون ذلك وهم يقولون في يوم الحساب: ﴿رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا﴾ [السجدة:١٢]؟! فكفى بما بين الله من هذا ومثله بيانا لقوم يعقلون على أن الأمر في ذلك ليس كما يتوهم الجهلة ولا كما يظنون.

[وسئل عن قوله سبحانه: {وقرءانا فرقناه}؟

فقال:](١) {وقرءانا فرقناه} تأويله: فرقناه قطعا، وفرقنا وجعلنا مفرقا ﴿لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ﴾ [الإسراء:١٠١]، وهو على مهل وبمكث، وتأويل {نزلناه} فهو قليلاً قليلاً، كذلك يذكر -والله أعلم- أن جبريل صلى الله عليه كان يعلم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ما علمه من القرآن خمس آيات خمس آيات، لما أراد الله إن شاء الله بذلك لفؤاده من الثبات، كما قال الله سبحانه: ﴿كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا۝٣٢﴾ [الفرقان]، تأويله: ونزلناه تنزيلا، والتنزيل هو الإبانة والتفصيل.

---

(١) ما بين المعقوفين ساقط من المخطوط.

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ﴾ [الدخان:١٧]، فقال: يقول: اختبرنا وعذبنا، لأن الفتنة اختبار ومحنة، وتعذيب وعقوبة.

وقوله سبحانه: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ [الفتح:١٨]، فقال: خبر عن رضا الله عمن بايع تحت الشجرة إنما هو لقد رضي الله عمن آمن بالله، ألا ترى كيف يقول رب العالمين: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الفتح:١٨]، فذكر أن رضاه تبارك اسمه إنما هو عمن آمن ممن بايعه، وشايعه في البيعة وطاوعه.

وقوله: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُواْ تَفَثَهُمْ﴾ [الحج:٢٧]، فقال: التفث هو الشعث، وشعثه: امتناعه مما يمنع منه المحرم من الطيب وغيره، وما يلزمه ما كان محرما في إحرامه، حتى يطوف بالبيت العتيق كما أمره الله بالطواف.

[تفسير معنى الخدع ونحوه في حق الله تعالى ومسائل أخرى]

بسم الله الرحمن الرحيم، عن القاسم بن إبراهيم عليه السلام: أحسن الله رشدك وتوفيقك، وقوم لقصد الحق طريقك، وبلغك صالح الأمل برحمته، وأتم عليك وفيك ما وهب من نعمته، قد فهمت -استمتع الله بك(١)- ما وصفت، وتعرفت من مذاهبك بما تعرفت، فقرب الله قربك، ووصل -بحقه- سببك، فبمثلك -بمن الله- يتوصل إلينا، فكيف تطلب لنفسك الإذن علينا.

وسألت سددنا الله وإياك للرشد والاهتداء عن المخادعة من الله والمكر

(١) قوله عليه السلام: «استمتع الله بك» بمعنى: متع الله بك، مثل: استقر بمعنى قرّ. (من خط السيد العلامة المجتهد محمد بن عبدالله عوض المؤيدي حفظه الله).

والاستهزاء؟

فأما المخادعة -وفقك الله- فليس يجوز القول بها على الله، ولا ينسب شيء منها كلها إلى الله، ولا تحتملها في الله الألباب، ولم ينزل بها من كتب الله كتاب، لأن المخادعة إنما هي حيل من المحتال فيما يخادع به من كذب في فعل أو مقال، ولعجز المخادع عن كثير مما يريد كاد فيه بالمخادعة من يكيد، والله جل ثناؤه متعال عن كل مخادعة واحتيال، لا يجوز شيء من ذلك عليه، ولا يصح القول بشيء منه فيه.

وأما الخدع من الله لمن خادع الله والاختداع فليس في القول به على الله جل جلاله عيب ولا شناع، وفيه ما يقول الله سبحانه: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾ [النساء:١٤٢]، ولم يقل جل ثناؤه: وهو مخادعهم.

وأما مكر الله واستهزاؤه فهو: استدراج الله وإملاؤه. ومكر من كفر بالله ربه فإنما هو احتياله على الذين يكذبونه في وحيه، واستهزاء من كفر بالحق والمحقين، فيشبهه كذبا في القول والفعل بالمتقين(١).

فمتى قيل أبدا للمبطلين: خادعوا ومكروا فإنما يراد به فيهم كذبوا وكفروا، وأظهروا خلاف ما أبطنوا وأسروا.

ومتى قيل لهم استهزأوا وسخروا فإنما يراد به فيهم تلعبوا وبطروا، [و] في

---

(١) قوله عليه السلام: «واستهزاء من كفر بالحق والمحقين، فيشبهه كذبا في القول والفعل بالمتقين» معناه: فيشبه الاستهزاء وليس باستهزاء حقيقة وإنما استهزاء كاذب قولاً وفعلاً؛ لأنهم إنما ضروا أنفسهم وتعرضوا بسببه إلى غضب الله ونقمته أما المتقون فلم يلحقهم منه ضرر. (من خط السيد العلامة المجتهد محمد بن عبدالله عوض المؤيدي حفظه الله).

ذلك ما يقول الله سبحانه لرسوله صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ۝٦١ وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ۝٦٢ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ۝٦٣﴾ [الأنفال].

يقول سبحانه: وإن يريدوا أن يخدعوك فيمكروا بالكذب فيما أعطوك، فيعطوك المسألة كذبا، ويكذبوك بالمخادعة تلعبا، فحسبك في ذلك بتأييد الله ونصره، وبما ألف من قلوب المؤمنين على دينه وأمره، وإذا كان استهزاؤهم ومكرهم إنما هو إخفاؤهم ما يخفون، وسترهم من أمرهم لما يسترون، وأمور الله أستر وأبطن، وأخفى عنهم وأكن، وذلك فقد يكون مكراً من الله بهم واستهزاء، واختداعا من الله لهم صاغرين وإخزاء، وبذلك كان الله خادعا لمن خادعه لا مخادعا ولا مخدوعا، وكان قلب من خادعه سبحانه من العلم بمكر الله به مقفلا مطبوعا، ليس فيه لله حذار، ولا عن منكره ازدجار، حتى يدهاه من أخذ الله دواهيه، ولا يوقن أن شيئا منها يأتيه، كما قال سبحانه: ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ۝٥٤﴾ [آل عمران]، وقال جل جلاله عن أن يحويه قول أو يناله: ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ۝٥٠ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ۝٥١﴾ [النمل]،

وسألت يرحمك الله عن قوله: ﴿وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ﴾ [البقرة:١٣]، فإنهم الكبراء والرؤساء منهم، وخلو المبطلين إليهم هو كونهم معهم وفيهم.

وسألت يرحمك الله عن: ﴿يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ﴾ [البقرة:١٠١]، وعن السحر؟

والسحر أمر لا يكون ولا يواتي أهله إلا بعظيم من الكفر، والأئمة فيه والمعلمون له فهم الشياطين الكفرة الظالمون، ولذلك يقول منهم من علمه من يريد أن يتعلمه: لا تكفر؛ ليكفر إذا كفر بإقدام وتصميم بعد النهي بالتوقيف والإبانة للكفر والسحر والتعريف، فكفر أهله بعد المعرفة بالتصميم ككفر إبليس فيما صمم من الكفر بالسحر.

وقوله: ﴿وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ﴾ [البقرة:١٠٢] فقد يكون نفيا لأن(١) يكون السحر أنزل عليهما، وإكذابا لمن نسب السحر من اليهود إليهما، ﴿وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ﴾ [البقرة:١٠٢]، فقد يكون في النفي للسحر عنهما في التبيان كقوله سبحانه في النفي: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ﴾ [البقرة:١٠١]، و{هاروت وماروت} فقد يقال: اسمان نبطان(٢)، معروف ذلك فيما يستنبط من اللسان، لأن ماروت القرية في لسان النبط هو القرية وواليها، وهاروت القرية فيما نرى هو مستخرجها وجانبها، ولو كان من يعلم السحر لكان من الملائكة إذاً من قد كفر، ولما صح قوله سبحانه فيهم: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ ۝٢٦ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ۝٢٧ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ۝٢٨﴾ [الأنبياء]، وقوله سبحانه: ﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ﴾ [النساء:١٧٢]، وقربتهم

---

(١)في المخطوط: لا أن.

(٢) كذا في المخطوط.

هي منزلتهم عند الله في الزلفى والمكان، وبراءتهم كلهم عند الله من العصيان، ولو كان منهم صلى الله عليهم من عصى بكفر أو غيره لذكره الله بعصيانه كما ذكر إبليس في تنزيله، أما تراه كيف نحاه لمعصيته عنهم، ولم يجعله -إذ عصى- منهم، فقال فيهم: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي﴾ [الكهف:٥٠]، وذريته فإنما هم أمثاله وقبيله، وفي إبليس وقبيله ما يقول الله سبحانه في تنزيله: ﴿إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ [الأعراف].

وسألت عمن يسكن في الهواء بين الملائكة والإنس؟

والجن والإنس فهما كما قال الله الثقلان، فالملائكة عليهم السلام سماويون، والإنس كلهم جميعا أرضيون، والجن بين السماء والأرض هوائيون.

وسألت عن آية القصاص هل يقتل فيها الحر بالعبد، وهل تجب الدية في شيء من العمد؟

وقد فصل الله فيما سألت عنه في ذلك من أمره بقوله وعند ذكره: ﴿الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى﴾ [البقرة:١٧٨]، فجعلهم في القصاص أصنافا مختلفة شتى، وعلى ما ذكر الله من اختلافهم وشتاتهم اختلفوا باجتماع في دياتهم، فدية العبد على قدر قيمته، والمرأة مخالفة للرجل في ديته، وهذا كله مجتمع عليه، لا أعلم أحداً يقول بخلاف فيه.

واختلافهم -رحمك الله- في الديات دليل على اختلافهم في القود والجراحات، وما اختلف من ذلك فيه فليس بواحد، والخلاف فبين بين الحر

والعبد، ولا يحكم في المختلف بالاستواء [إلا] من لا علم له بالحكم في الأشياء، ولا قود ولا قصاص بين حر وعبد، وليس أمرهما في كثير من الدين بواحد، حد العبد في الزنا وغيره ليس بحده، والسيد في كثير أموره فليس كعبده، وكذلك المرأة في كثير من أمورها فليست كالرجل، ولو كانت كهو لما كان له عليها من لفضل ما ذكر الله سبحانه في قوله: ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ [البقرة:٢٢٦]، وكفى بهذا في اختلافهما بيانا وحجة.

فإن قتل القاتل عبداً أو امرأة عمداً، وكان بقتله إياهما في أرض الله مفسداً- قتل إذا صح فساده عند الإمام صاغراً، ولم يحرز قاتله من القتل أن يكون حراً؛ لقول الله سبحانه: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة:٣٢]، وفي الناس الحر والعبد جميعا معا، فأحل الله من قتل الأنفس بالفساد في أرضه ما أحل من قتلها بترك التوحيد ورفضه. فأما من قتل عبداً أو امرأةً مغاضباً أو فلتة أو حصره فليس كمن قتلهما مفسداً، وكان بفساده في أرض الله متمرداً.

وأما ما سألت عنه من قول الله سبحانه: ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ﴾ [البقرة:١٧٨] فهو العفو من الطالب عن الدم إلى الدية، إذا كانت نفس الطالب والمطلوب بذلك راضية، وهذا إذا تراضيا به فما لا يقول أبو حنيفة وأصحابه بغيره، فجعل الله لرأفته ورحمته بخلقه العفو عفوين: عن الدية والدم جميعا، وعفواً عن الدم إلى الدية؛ رأفةً منه وتوسيعاً،

وأمر الله تبارك وتعالى الطالب بحسن الطلب فيها والمتابعة، وأمر المطلوب بحسن الأداء لها؛ زيادة من الله في الرحمة وتوسعة.

وسألت عن قوله: ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا﴾ [البقرة:١٨٥]؟

فهو: من حضر الشهر فلم يغب عنه فليصم في حضوره له ما ألزمه الله فيه منه، والمشاهدة له فهو أن يحضره كله، ومن شهد بعضه فلم يحضر كله، والشهر كما قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: ((ثلاثون وتسعة وعشرون))، وليس الهلال والرؤية بشهر تام، ولو لزم من حضر الرؤية الصيام لكان ذلك لأهله إضراراً، وعاد تيسير الله فيه إعسارا.

وقد سافر رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ إلى بدر وغير بدر فصام في سفره وأفطر، ولو لزم من رآه وأهله في أهله المقام لما قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: ((عمرة كحجة، العمرة في رمضان))، ولما جاز لأحد من الناس فيه اعتمار.

وسألت يرحمك الله عن: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ﴾ [البقرة:٢٢٠]؟

فهو المحيض الخالص من دم الحيض، فليس لأحد أن يصيب منه وفيه ما ينجسه ويؤذيه، فأما دم الاستحاضة فدم ليس بمحيض كدم الحيضة، فدم المحيض دم خالص ليس فيه كدرة، ودم المستحاضة دم فيه كدرة وصفرة، وبينهما عند من تقعدهما من النساء فرق لا يجهله منهن إلا الحمق، فإذا طهرت المرأة من الحيض -وهو ما قلنا به من الحيض- لزمها وحل منها ما يلزم ويحل من المرأة النقية من حيضها المتطهرة.

وسألت عن قول الله سبحانه: ﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ﴾ [البقرة:٢٢٩]؟

فإن سرح فهو للثلاث التطليقات تمام، وإن أمسك فالثالثة الباقية من الطلاق كان الإمساك والمقام.

وسألت هل يلزم الطلاق لغير سنة، أو على خلاف ما أمر به في الطلاق من العدة؟

يلزمه منه ما ألزم نفسه وإن عصى فيه ربه، ولو كان لا يلزم في ذلك شيء كان الأمر فيه سواء والنهي، ولم يجر فيه نهي ولا تجدوه إذا لم يكن فيه طلاق ولا مضرة.

وسألت عن القرء ما هو؟

فهو الحيض، فليس بأطهار، وإنما القرو الجمع للحيض من التدفق والانتشار، مما يجمعه به النساء من الخرق، يتنطقن به لذلك من النطق، وكذلك تقول العرب في الأقراء إذا أرادت أن تأمر أحداً بجمع ما في إناء أو سقاء: أقر لنا من الماء في الحوض أو في الإناء، وبات فلان يقري من مائه في حوضه وسقائه.

وسألت عن: ﴿لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ﴾ [البقرة:٢٣٣]؟

وقد قال بعض الناس في ذلك: وعلى الوارث في ذلك ألا يضار، وليس قول من قال بذلك حجة فيما قال ببينة ولا إسفار. وقال واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد وغيرهما: على وارث اليتيم إذا لم يكن له مال الاسترضاع له والكسوة

والإنفاق، والوارث الذي أمر بالنفقة فهو من يرث اليتيم إن مات بالقرابة، وليس هو بالزوج ولا الزوجة.

وسألت عن تمتيع المطلقات هل وجوبه كوجوب الفرائض الواجبات؟

فذلك واجب على من لم يسم مهرا، موسراً كان أو معسرا، وفي ذلك ما يقول سبحانه: ﴿عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ﴾ [البقرة:٢٣٦]، والموسع فهو الموسر، والمقتر فهو المفتقر. فكل يعطي على قدره في يسره للمتعة وعسره، وليس في ذلك عد معدود ولا حد في الأشياء محدود، هذا فرض واجب، وحد في المتعة لازم، كما قال الله سبحانه: ﴿حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ۝٢٤١ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ۝٢٤٢﴾ [البقرة].

ومن سمى من الأزواج لامرأة مهراً فلها مهرها موسراً كان الزوج أو معسراً.

وسألت عن قوله: ﴿مِنْهُ ءَايَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾ [آل عمران:٧]؟

فالمحكمات كما قال الله: {هن أم الكتاب}، والمحكم منه فما صحت حجته في الألباب، والأم من علم كل شيء فهو البين من علمه غير الخفي، وأم أمهات العلوم كلها فأنور ما يكون من العلم عند أهلها، وكذلك الكتاب فمحكماته من غير شك أمهاته، التي لا يشتبه على عالمهن منهن علم، ولا يدخله في الإحاطة بهن شك ولا وهم، ولا يحتاج في البيان عنهن إلى إكثار ولا تطويل، بل تنزيل الله فيهن كاف من التأويل، كقوله سبحانه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ۝١١﴾ [الشورى]، ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ

الْخَبِيرُ﴿١٠٣﴾ [الأنعام]، وقوله: ﴿هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر:٩]، وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴿٤٤﴾﴾ [يونس].

فهذا وأشباهه من كتاب الله فهو المحكم الذي ليس فيه -بمن الله- شبهة ولا وهم. وأما متشابه الآيات من الكتاب فلا يكون أبدا إلا متشابها كما جعله رب الأرباب، فليس يحيط غيره بعلمه، ولم يكلف أحدا العلم به، وإنما كلف العلم بأنه من عند ربه، كما قال سبحانه: ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴿٧﴾﴾ [آل عمران]، فجعل الإيمان به والعلم بأنه من عنده فريضة عليهم في متشابه الكتاب، ولو كان عند غيره بالاستخراج معلوما لما كان متشابها في نفسه ولا مكتوما، ولزال عنه اسم الإخفاء والتشابه بما(١) يوجد له من المخارج في العلم والتوجه، ولما قال الله: {متشابها} جملة وإرسالا حتى يقال متشابها عند من كان به جاهلا(٢). وفي تشابه كتاب الله وإخفائه، وما أراد بذلك سبحانه من امتحان كل محجوج وابتلائه أعلم العلم وأحكم الحكم عند أهل العلم والحكمة، وأدل الدلائل على الله في الأشياء كلها من القدرة والعظمة.

وسألت عن قول الله سبحانه: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ [آل عمران:١٠٦]، وقلت: هل هناك إلا مسود الوجه أو مبيضه؟

---

(١) في المخطوط: كما. والمثبت من مجموع الإمام المرتضى محمد بن الهادي عليهما السلام (١/ ٣٧٨).

(٢) في مجموع الإمام المرتضى: ولما قاله الله سبحانه: متشابها عند من كان به جاهلاً.

وهم -رحمك الله- وإن كانوا كذلك وعلى ما ذكر الله سبحانه من ذلك فهم فرق أصناف، بينهم في أحوالهم اختلاف، فمنهم مؤمن وفاسق ومشرك ومنافق وقاتل وقاذف وسارق، وتنزيل الآية فيما سألت خاص غير عام، لأنه ليس كل من يسود وجهه يقال له: كفرت بعد الإيمان؛ لأن في النار من فرق الكفار من لم يكن مؤمنا قط في دنياه، ولم يزل على كفره فيها وعماه، فكيف يقول لأولئك: ﴿أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ [آل عمران:١٠٦]، أليس هذا عندك من أزور الزور وأبهت البهتان؟! وابيضاض الوجوه هنالك فإنما هو سرورها وبهجتها، واسوداد الوجوه إنما هو حزنها وحسرتها. والقول في هذا يومئذ من القائلين فإنما هو لمن كفر بعد إيمانه برب العالمين.

وسألت عن قوله: ﴿لَوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾ [آل عمران:١٥٤]؟

والكتاب -رحمك الله- فقد يكون من الله علم، ويكون إيجابا من الله، فكتب في هذه الآية عليهم إنما هو علم منهم وفيهم، وليس معنى كتب يكون معنى فرض ووجد فيما ذكر من هذه الآية ومثلها، ولكنه خبر عن إحاطة علمه بالأشياء كلها وقد قال غيرنا من إخوانك بغير ما قلنا به في الآية من جوابك، فأما [ما] يقول به من ليس يعلم فليس يسع مؤمنا به جواب ولا تكلم.

وسألت عمن يتخبطه الشيطان من المس، وما المس؟

فالمس هو اللمم، واللمم فهو الخبل.

وأما ما سألت عنه من التخبط فما يعرف من خبط المتخبط، وهو الغشيان(١) من خارج لا من داخل، وكما نعلم من مقاتلة المقاتل، وإنما مثل الله أكلة الربا إذ مثلوا رباهم وما حرم الله عليهم من الربا ونهاهم بالبيع الذي فيه إرباء، وإنما هو أخذ بالتراضي وإعطاء، فقالوا: ﴿إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ﴾ [البقرة:٢٧٤]، شبهوا ما لم يجعل الله متشابهاً، فشبهوا الحرام بالحلال، والهدى فيه بالضلال، فمثلهم الله في ذلك لما هم عليه من الجهل بمن يعرفون أنه عندهم أنقص أهل النقص من أهل الجنون والخبل.

وسألت عن قوله: ﴿إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ﴾ [البقرة:٢٨٢]، هل ذلك فرض عليهم لا يسعهم أن يتركوه؟

فنعم هو فرض عليهم فيمن لم يأمنوا، وليس بفرض عليهم فيمن أمنوا، فاجراً كان المؤتمن أو برا، أو موسراً كان الغريم أو معسرا.

وسألت عن قول الله سبحانه: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴿١٧٨﴾﴾ [آل عمران]؟

وقد نهاهم جل جلاله عنه، فالإملاء منه الإبقاء منه، وتأخير(٢) العذاب والنقم فيما ارتكبوا من الجرم، [وبهذا](٣) كله وعنه وبما تولى الله منه(٤) أتوا من

---

(١) في مجموع الإمام المرتضى (١/ ٣٧٤): والغشيان.

(٢) في مجموع الإمام المرتضى المخطوط والمطبوع ناقلاً عن جده القاسم عليه السلام: الإملاء منه الإبقاء ومنه تأخير العذاب.

(٣) في المخطوط: بياض في الأم. والمثبت من مجموع المرتضى عليه السلام.

(٤) في المخطوط: عنه.

الإثم والإساءة ما أتوا، وعصوا الله بما عصوا. فاعلم أن الإملاء نعمة من الله وإحسان، وازدياد الإثم منهم فإساءة وعصيان، فمن الله سبحانه الإملاء، ومنهم الاعتداء، وتأخيره سبحانه لإنزال العذاب بهم إنما هو ليزدادوا إثما بكسبهم، ليس لما يحبون من سرورهم، ولا لما يريدون من أمورهم، ولكن ليزدادوا بالبقاء والإملاء إثما، ولأنفسهم بما تركوا من البر ظلما، وإن كان ما تركوا من الهدى -وإن لم يفعلوه- ممكنا(١)، كان(٢) ما تركوا من الهدى في نفسه حسنا، ولهم لو صاروا إليه -ولن يصيروا- منجيا(٣)، وكان كلهم لو أتاه بإتيانه له مهتديا، فالإملاء والإبقاء هو من فعل الله بهم، وازدياد الإثم فهو من كسبهم هم وفعلهم، وما يمكن من الإملاء(٤) من الأمور فسواء في المكنة من البر والفجور، فلما آثروا هواهم على ما يمكنهم من هداهم جاز أن يقال: أملوا [ليزدادوا إثماً، كما يجوز لو اهتدوا أن يقال: أملوا](٥) ليزدادوا براً وهدى.

ومثل: ﴿لِيَزْدَادُوا إِثْمًا﴾ [آل عمران:١٧٨]، هو قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ۝٥٦﴾ [الذاريات]، وهم وإن خلقهم الله ليعبدوه، فيحتملون لغير العبادة إن أرادوه، والعبادة لله وخلافها إنما هو فعل منهم، إذا

---

(١) في مجموع المرتضى (٢/ ٤٢٥): لهم ممكناً.

(٢) في مجموع المرتضى: وكان.

(٣) في مجموع المرتضى: محيياً.

(٤) في مجموع المرتضى: وما يمكن ويكون بالإملاء.

(٥) ما بين المعقوفين من مجموع المرتضى.

فعلوه [نسب](١) إليهم ولم يزل عنهم، وكل ذلك ففعل لهم وصنع، والله هو الصانع لهم المبتدع، ففعل الله بريء من فعلهم فيما كان من الإملاء لهم، ففعل(٢) الله تأخير وإملاء، وفعلهم ازدياد واعتداء، وبين ذلك فرق لا يجهله إلا أحمق.

وسألت عن قول الله سبحانه: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا۝﴾ [النساء]؟

فمعنى تؤتوا: هو أن تعطوا السفهاء، وإن كانوا لكم أبناء وآباء، يجب عليكم رزقهم وكسوتهم فيها، وأمرهم أن ينفقوا عليهم ويكسوهم منها، ويقولوا لهم من القول معروفه وحسنه، وهو السهل من القول ولينه، ونهاهم أن يعطوا سفهاءهم أموالهم التي جعلها الله قياما لهم، والقيم هو المعاش واللباس، الذي به يبقى ويقوم الناس، فتهبوها لهم أو تأمنوهم فيها، وتجعلوا لهم سبيلا إليها، فيفسدوا معاشهم منها عليهم إن أعطوهم إياها وسلموها إليهم، وأمرهم ألا يؤتوا أموالهم التي جعلها الله لهم إلا أن يأنسوا، ومعنى يأنسوا: فهو أن يروا منهم رشدا، فيدفعوها إليهم، ويشهدوا بدفعها عليهم، فكيف يجوز أن يؤتي أحد ماله أحداً إذا كان في أرض الله أو لنفسه مفسدا، وقد نهى الله عن ذلك نظراً من الله للعباد، وحياطة منه برحمته لأرضه وخلقه من الفساد.

وسألت عن: ﴿وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [النساء:٦]؟

---

(١) ما بين المعقوفين من مجموع المرتضى.

(٢) في المخطوط: فعل. والمثبت من مجموع المرتضى.

فهو: ومن كان لليتيم وليا فليستعفف، معناها فليعف عن أن يأكل من مال اليتيم شيئا، ومن كان فقيراً -يعني معسراً- فليأكل من مال اليتيم بالمعروف، يقول: بأمر مقدر موظوف، ليس منه فيه إسراف، ولا بمال يتيمه إجحاف.

وسألته عن: ﴿لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا﴾ [النساء:١٨]؟

ووراثتهم كرها هو: أن يمسكهن الأزواج رغبة في الميراث وشرها، لا رغبة فيهن ولا محافظة عليهن، وجعل الله ذلك عليهن اعتداء وبهن إضرارا، وقد قال الله تبارك وتعالىٰ: ﴿وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِتَعْتَدُوا﴾ [البقرة:٢٢٩].

وسألته عن: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً﴾ [النساء:٩٢]؟

يقول سبحانه: أن يقتله إلا زلة وغلطا، فإما وهو يثبته مؤمناً ويعرفه بالله موقناً فليس له أن يقتله، وإن قتله أيضا مخطيا، وكان في إيمانه بالله ممتريا؛ إذ كان من قوم عدو للمؤمنين، ولم يكن عند من قتله من المعاهدين- كان عليه فيه تحرير رقبة مؤمنة، ولم يكن عليه ما كان عليه في الأول من الدية. وإن كان من قوم بينهم وبين المؤمنين ميثاق -والميثاق هو الذمة والموادعة والهدنة- كان علىٰ قاتله فيه تحرير رقبة مؤمنة، وإن لم يجد فصيام شهرين متتابعين، فأي ذلك فعل فهو من الله عليه توبة، ومعنىٰ توبة الله عليه من الله عائدة ورحمة.

ولا يقتل -رحمك الله- ملي بمعاهد ولا ذمي وإن كان الملي قتله عمدا، إلا أن يكون بقتله في أرضه مفسداً فيقتل إن رأىٰ ذلك الإمام بفساده، وتمرده في أرض الله وعناده؛ لقول الله سبحانه: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ﴾ [المائدة:٣٢]، فأحل الله سبحانه من

قتل الأنفس بالفساد ما أحل من قتلها بالقصاص بين العباد.

وسألته عن المحاربة لله ولرسوله والسعي بالفساد في الأرض؟

ومعنى ما ذكر الله في الآية من المحاربة والفساد، وما أمر به فيه من التقتيل والصلب والقطع أو النفي من البلاد- فهو الإجلاب والجيئة(١) والذهاب، والاستدعاء على الحق والمحقين، والمخالفة على الأرباب(٢) المتقين، والتحيل والحشد للمبطلين إليهم، والقول بالزور والبهتان عليهم، في سفك دمائهم، والتماس ضرائهم، ومجاهدة أولياء الله فيهم بالمحاربة، وإجماعهم عليهم بالأذى والمناصبة، فمن بلغ هذا من المبطلين وصار إليه كان حكم الله -جل ثناؤه- عليه وجزاؤه على ما هو من ذلك فيه أن يقتل أو يصلب أو يقطع أو ينفى من الأرض والبلاد التي سعى فيها على الله ورسوله والمحقين بما ذكره الله من الفساد.

وليس ما في أيدي هذه العامة من تفسير هذه الآية المحكمة عن ابن شهاب الزهري وأضرابه، ولا من كان من لفيفه وأصحابه، الذين كانوا لا يعدلون بطاعة بني أمية، وما أشركوهم فيه من دنياهم الدنية، فلم ينالوا مع ما سلم لهم منها ما حاطوا به ودفعوا به عنها، من تلبيس لتنزيل، أو تحريف لتأويل، وابن شهاب لما كان كثرة وفادته إليهم معروف، وبما كان له من كثرة الضياع وكثرة الغلة بهم موصوف.

---

(١) كأنها في المخطوط: والحثة.

(٢) كذا في المخطوطات. لا مانع من إطلاق الرب والأرباب على غير الله تعالى مع التقييد فيقال: رب الدار ورب الإبل، وقوله هنا: «الأرباب المتقين» مقيد بالصفة فلا اعتراض. (من خط السيد العلامة المجتهد محمد بن عبدالله عوض المؤيدي حفظه الله).

وقلت: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [المائدة]، ما تأويلها؟

وتأويلها -استمتع الله بك وبنعمته عندك- هو تنزيلها، وذلك أن من حكم بأحكام التنزيل بخلاف حكمه فهو غير شك من الكافرين به؛ لأن من أحل ما حرم الله أو حرم ما أحل الله بعد الإحاطة بعلمه فهو من الكافرين بالله في حكمه، لأنه منكر من حكم الله فيه لما أنكر، ومن أنكر من أحكام الله [و]تنزيله حكماً فقد كفر، ولله أحكام هي ليس في تنزيل، في تحريم من الله وتحليل، ولكنها من أحكام التأويل، حكم بتنفيذها والحكم بها، فمن لم ينفذها ويقم إذا أمكنه تنفيذها فهو من الظالمين، وفي تعطيلها من الفاسقين.

وسألته عن: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾ [الأنعام:٩]؟

وكانوا يقولون: لولا أنزل عليه فيكون معه مشهد(١)، فيشهد له من رسالته بما ينكرون، فقال الله سبحانه: ﴿وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ﴾ فيهم بأخذهم ﴿ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ﴾ [الأنعام]، يقول تبارك وتعالى: ثم لا يتركون ساعة ولا يؤخرون، فما ينفعهم إذا أخذوا إيمانهم بعد رؤيتهم للعذاب وعيانهم.

ثم قال سبحانه: {ولو أنزلنا ملكا} ما أيقنوه إلا أن يروه رؤية ويعاينوه، وما كانوا ليروه عياناً إلا أن يجعله الله مثلهم إنساناً، في الصورة والحلية، وما للرجال من الهيئة، لا في جميع حدود البشرية، ولكنه في الرؤية والمنظر، فقال سبحانه: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ﴾ [الأنعام]،

(١) كذا في المخطوط، وفي المصابيح: شهيداً.

يقول سبحانه: ولو فعلنا ذلك به فجعلناه رجلا كما يعرفون لزادهم ذلك لبسا إلى لبسهم، ولما أيقنوا أنه ملك في أنفسهم، ولو نزلنا عليه الملك على حاله ملكا لما كان أحد منهم معاينا له ولا مدركا، إلا أن يأتيهم من الصورة وهيئتها في مثل لباسهم منها، فيرونه ويدركونه بمثل دركهم رؤيتهم لها(١)، وإلا لم يروه ولم يعاينوه أبدا، وكيف يرون من كان من الملائكة ولم يروا قط من الجن أحداً؟ والجن في احتجابها عنهم أقرب إليهم قربا، والملائكة أبعد عنهم مكانا ومحتجبا.

وليس يعاين أبدا من الملائكة الحضرة إلا عند الموت الذي ليس بعده تأخير ولا نظرة، حين يكشف عن المحضور الغطاء، ويزول عنه الأخذ والإعطاء، فيرى من الحضرة ما لم يره، ويحدث الله له عند المعاينة لهم بصرا، فيعاينهم عند الموت وفي غمراته، وعندما وقع فيه من غصصه وسكراته، كما قال الله سبحانه: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ ۝١٩﴾ [ق]، وقد قال في الموت وما بعده من البعث: ﴿لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ ۝٢٢﴾ [ق]، وكما قال سبحانه: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ﴾ [الأنعام:٩٣]، فالملائكة هم الذين يبسطون أيديهم ويقولون: ﴿أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ ءَايَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ ۝٩٣﴾ [الأنعام].

وقلت: أرأيت لو جعل الله الملك رجلا، ومن كانت الرسل تراه من الملائكة

---

(١) في المخطوط: بها. والمثبت من المصابيح.

قبلا، أهم في تلك الحال والهيئة والصورة ملائكة أم رجال؟

بل هم في تلك ملائكة وإن انصرفت بهم الهيئة والأحوال، ألا ترى أن الذهب والنحاس وإن لم يكونا هم الناس فقد تصنع منهما صور وهيئات، ويحدث فيهما تماثيل مختلفات، والذهب وإن اختلفت هيئاته ذهب على حاله، وكذلك النحاس وإن كثرت فيه الصور فهو نحاس على حاله، لم ينقل واحد(١) منهما عن خليقته وذاته ما نقل عنه من متقدم صورته وهيئاته، وإنما تبدوا الملائكة إذا بدت بأمر الله وإرادته إلى البشر، بما جعل الله لها وأحدث فيها من الهيئات والصور، لا البشر بما لا يدركون(٢) ولا يرون من الصور والهيئات إلا ما يبصرون، فجعل الله من الملائكة رسلا، وجعل من شاء منهم كما شاء إن شاء رجلا.

وقال في ذلك تبارك وتعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ①﴾ [فاطر]، فالتبديل للخلق والزيادة ليس إبادة، وكذلك من مسخه الله تبارك وتعالى قردا أو خنزيراً فإنما أحدث له عن هيئته وصورته تبديلا وتغييرا، فبدل هيئته وصورته، وأقر نفسه وذاته، ولو كان المسخ للممسوخ إبادة وإفناء لكان ذلك فطرة وإنشاء وابتداء، ولم يقل تغيير ولا مسخ ولا تبديل، ولم يصح بذلك -إذا لم تكن الذات موجودة- خبر ولا قيل.

---

(١) قوله عليه السلام: «لم ينقل واحد» واحد: نائب فاعل للفعل «لم ينقل»، وقوله: «ما نقل عنه» ما: بدل من «خليقته». (من خط السيد العلامة المجتهد محمد بن عبدالله عوض المؤيدي حفظه الله).

(٢) هكذا في المخطوط، وفي المصابيح: لأن البشر لا يدركون.

وسألته: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴿١١٠﴾﴾ [الأنعام]؟

فتقليب أفئدتهم وأبصارهم تضليله إياهم فيما يعملون، وتركه تبارك وتعالى فيما هم فيه من ضلالهم يعمهون، والتضليل من الله لهم فإنما هو بعملهم، وسواء في المعنى أضلهم وضللهم، كما سواء أكفرهم وكفرهم، ألا ترى أن من أضللت فقد ضللته، ومن أكفرت فقد كفرته.

وسألته عن معنى: ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ﴾ [الأنعام:١٢١]؟

ومعنى إيحاء الشياطين هو إلقاء الشياطين للمجادلة للمؤمنين عليهم، والشياطين كما قال الله سبحانه فقد تكون من الجن والإنس، وما يلقون إلى أوليائهم من المجادلة من زخرف القول واللبس، كما قال الله سبحانه: ﴿شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴿١١٢﴾﴾ [الأنعام]، يريد سبحانه بقوله: {فذرهم وما يفترون}، من الخزي[1] بزخرف القول وغروره وما يقولون، فسيعلمون من بعد ما هم فيه من دنياهم إلى أي منقلب ينقلبون.

وسألته عن تأويل: ﴿مَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ﴾ [الأنعام:١٢٥]؟

فتأويلها رحمك الله من يرد الله أن يرشده فيزيده هدى على هدى، لأنه لا يعطي الهداية إلا من اهتدى، كما قال تبارك وتعالى في زيادته لهم هدى إلى هداهم: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴿١٧﴾﴾ [محمد]، والتقوى

---

(١) في المصابيح: من الكذب. وفي (مسائل عن القاسم): الخزي.

فمن الهدى، وآتى فمعناها: وأعطا، فهو آتاهم التقوى بتبصرته وتقويته لهم على ما عملوا منها، وبمنعه لهم تبارك وتعالى من الضلالة ونهيه لهم عنها، وليس بين الضلال والهدى منزلة هادية لأهلها ولا مضلة، فمن يرد الله أن يهديه بعد الهدى يشرح، يريد: يفسح صدره للتقوى، ومن يرد أن يضله الضلالة والعمى يجعل صدره بما اتبع من الضلالة والهوى ضيقاً حرجاً كأنما يصعد في السماء، كذلك يفعل الله بأهل الضلالة والاعتداء.

وسألته عن قول الله سبحانه: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ﴾ [الأعراف:١٥٥]، ما هذه الفتنة؟

وهي الابتلاء من الله والاختبار والمحنة، وإضلاله وهداه بها فهو عنها وبسببها، و ﴿يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [فاطر:٨]، هو إضلاله إن[(١)] ضل وهدايته لمن اهتدى، ومن ضل ضلله، ومن اهتدى كان مهتديا عنده، وزاده تبارك وتعالى في هداه، وآتاه كما قال سبحانه تقواه.

وسألته عن قول نوح صلى الله عليه: ﴿وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ﴾ [هود:٣٤]؟

فإنما أخبر صلى الله عليه عن نفاذ قدرة الله فيهم، ولم يخبر أنه يريد، ولا أنه لإغوائهم مريد، وإنما قال: إن كان، ولم يقل: أن قد كان، فقد أوضح وأبان لكل من يعقل اللسان أنه إنما أراد بقوله صلى الله عليه الخبر عما لله من الاقتدار، لا ما يذهب إليه من لم يهتد للرشد من أهل الإجبار، فأخبر أنه غير نافع لهم نصحه

---

(١) في كتاب (مسائل عن القاسم عليه السلام): لمن.

وإن أراد نصيحتهم إن كان الله يريد هلكتهم، فصدق صلى الله عليه؛ لأنه إن أراد شيئا وأراد الله أن يفعل سواه ليكونن ما أراد الله صنعا وخلقا وشاءه، ولا يكون من ذلك وفيه ما أراد نوح صلى الله عليه، وكيف يريد الله إضلالهم وإغواءهم وهو يدعوهم ألف سنة إلا خمسين عاما إلى هداهم؟! ما يزعم هذا أو يقول به إلا من جهل أمر ربه في الرأفة والرحمة والعلم والحكمة، وكيف تدعوا رسله العباد إلى خلاف ما شاء وأراد؟! الله أحكم أمراً وأجل قدراً من أن يكون في ذلك كما قال من خاب وافترى.

وكذلك ما قال شعيب صلى الله عليه: ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الأعراف:٨٩]، فقال إلا أن يشاء ولم يقل: أن قد شاء، بل وكد بقوله فيه ومعناه أن لن يريده الله أبدا ولن يشاءه، ولكنه أخبر عن قدرته على كل ما شاء في بريته.

ومثل هذا من التنزيل سوى قوله سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء:٤٨]، ولن يشاء أن يغفر لمن وعده من أهل الكبائر بالنار؛ لما فيه من إخلاف الوعد وإكذاب الأخبار، التي منها ﴿وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ [الحج:٤٥]، و﴿ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ ۝٢٠﴾ [ق]، ومنها قوله: ﴿مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ۝٢٩﴾ [ق]، وقوله جل ثناؤه لرسوله صلى الله عليه وآله وسلم في منزل الكتاب: ﴿الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ۝١٧﴾ [غافر].

ومثل ذلك قول عيسى صلى الله عليه: ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ

﴿فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝١١٨﴾ [المائدة].

وقول إبراهيم صلى الله عليه: ﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٣٦﴾ [إبراهيم]، وكل ذلك منهم فإنما هو خبر عما لله من القدرة على ما يشاء من العذاب والمغفرة.

وسألته عن قول الله سبحانه: ﴿فَلَمَّا ءَاتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَاءَ فِيمَا ءَاتَاهُمَا﴾ [الأعراف:١٩٠]؟

فهو ما وهب لهما من ولدهما وأعطاهما، جعلا[(١)] فيما أحسب بين الله وبينهما، فعبداً لله[(٢)] ويحرث الحرث، وقد يذكر في التوراة أنهما سمياه عبد الحارث، وقالوا: إن الحارث هو إبليس، [وهو][(٣)] فيما أحسب وهم وهمته اليهود في التفسير فقالت فيه بالتلبيس، وأدخلوا مكان ما جعلاه له من الحرث عبد الحارث، فجعلوه عبدا لما جعلاه، ولم يفرقوا فيه بين الحرث والحارث، ألا ترى كيف يقول سبحانه: ﴿فَلَمَّا ءَاتَاهُمَا صَالِحًا﴾ يعني: ولدا ذكراً ﴿جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَاءَ﴾ منه ﴿فِيمَا ءَاتَاهُمَا﴾، يريد تبارك وتعالى: نصيبا فيما أعطاهما من صالح الولد، فجعلاه بينهما وبين التعبد، ألا ترى لقوله سبحانه فيه إذا يسلماه[(٤)] كله إليه: ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝١٩٠﴾ [الأعراف]، يقول: فتعالى الله أن يكون هو وهم في شيء من الأشياء مشتركون، كما قال في أهل الجاهلية: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا

---

(١) في المصابيح: جعلاه.

(٢) في المصابيح: فعبد الله.

(٣) ما بين المعقوفين من المصابيح.

(٤) هكذا في المخطوط، وفي المصابيح: إذ لم يسلماه.

ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا﴾ يعني شركاً ﴿فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴿١٣٦﴾﴾ [الأنعام]، وكذلك قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ﴿٥٦﴾﴾ [النحل]، وليس يتوهم الشرك عليهما بالله إلا من لا علم له فيهما بأمر الله.

وسألته عن: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ [الأعراف:١٧٢]؟

وذكرت ما قالت به العامة في ذلك من قولهم، وليس ما قالوا به فيه بشيء مما يلتفت إليه؛ لأنهم قالوا: أخذ من ظهر آدم، وقالوا:......[١] من بني آدم، وآدم غير بنيه، وظهره غير ظهورهم، وذريته غير ذراريهم، والذراري تكون صغاراً وكباراً، وأطفالا ورجالا، وكل أهل الجاهلية من رجال العرب الذين كانوا يشركون قد أخذوا، ومعنى أخذوا أخرجوا ذرية من ظهور آبائهم من بني آدم لا يشكون، وكلهم كان شهد وأقر[٢] بأن الله ربه، وأن ما يرى من السماوات والأرض خلقه، فاستشهدهم الله على ربوبيته بما يشهدون، وبما كانوا يقرون به كلهم فلا ينكرون، وفي ذلك ما يقول سبحانه: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴿٦١﴾﴾ [العنكبوت]، ولم يقل سبحانه: إنه استشهد على ربوبيته أحدا من الأطفال، ولا

---

(١) بياض في المخطوط قدر كلمة.

(٢) في المخطوط: كانوا شهد ويقر.

يكون الاستشهاد والشهادة إلا للرجال.

والله أعلم ما يكون وغيره وما كان، ونسأل الله أن يفهمنا ويفهمك عنه البيان.

وسألته عن: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ [الأنفال:٤٤]؟

فتأويل {ليقضي} ليتم أمره فيهم وفيكم، ونصره لكم عليهم. والتقليل من الله في أعينهم للمؤمنين فإنه تبينه من الله للمستبينين، والتقليل فقد يكون أنواعا، إن كان لأنواعه كله جماعا، ليس ينكرها ممن أنكر منكر، لأن الله على كلها -لا شريك له- مقتدر.

وسألته عن: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ۝٢٢﴾ [الأنفال]؟

فهم رحمك الله أهل الكفر بالله الذين لا يؤمنون، والذين علم الله لو أسمعهم بزيادة في التبيين لما كانوا يسمعون، يريد تبارك وتعالى لما كانوا يطيعون، وفيهم ما يقول الله سبحانه: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ۝٥٥﴾ [الأنفال]، وفي أن السمع هو الطاعة ما يقول سبحانه: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانْظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا۝٤٦﴾ [النساء].

وسألته عن قول اليهود: ﴿عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ﴾ [التوبة:٣٠]؟

فقد يمكن أن يكون عنى بذلك ماضيهم، وأن يكون أيضا اليوم من يقول

من باقيهم، وليس كلهم لقيت، وإنما لقيت منهم من شاهدت ورأيت.

وسألته عن: ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ﴾ [التوبة:١١٤]. فيما ذكر عنه رب العالمين: ﴿وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ۝٨٦﴾ [الشعراء]؟

فلما تبين له أنه من أصحاب النار بالإصرار تبرأ منه وما كان عليه من الاستغفار.

وسألته عن: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ﴾ [التوبة:١١٥]؟

يقول سبحانه: ليتركهم ضلالا بعد تبيينه لهم ما بين حتى يبين لهم كل ما يحذرون.

وسألته عن قوله: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا﴾ [السجدة:١٣]؟

فقد يكون أن يكشف عنها عماها، ويريها من آياته ودلائله عيانا ما يحدث لها معرفة وإيقانا لا يكون معه لها أجر، ولا يجب به لها ذخر، ويكون منها درك اضطرار، لا درك نظر ولا فكرة ولا اعتبار، وفي ذلك وبه الجزاء والثواب، وعلى ترك ذلك وفي إغفاله ما يجب العقاب، وهو وإن كان كذلك فعلى ما وصفنا من ذلك، فهدى وبصيرة غير حيرة ولا ضلال، وفيه إذا كان ما أخرج أهله من الجهل بالهدى ومن الضلال.

وهذا رحمك الله فوجهه من الهدى، لا ينكره و لا يجهله من أبصر واهتدى، وما كان لهذه الآية مشابها ونظيراً فكفى بهذا الجواب فيه حجة وبرهانا منيرا.

وسألته عن يونس صلى الله عليه، وقول الله سبحانه فيه: ﴿وَذَا النُّونِ إِذْ

ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ [الأنبياء:٨٧]؟

اعلم رحمك الله أن قوله: {فظن} أنه ليس يخبر عن يونس بظنٍّ ظنَّه؛ لأنه لو كان كذلك منه لزال اسم الإيمان عنه، ولا يزول اسم الإيمان في حال عمن خصه الله بالإرسال، وفي ذلك لو كان تجهيل للمرسل فيمن يصطفي ويختص من الرسل، ولكن {فظن} قول من الله في يونس قاله يبين للسامعين زلة يونس وإغفاله، يقول سبحانه: فظن يونس أن لن نقدر عليه في إباقته من الفلك إلى من أبق إليه، فهو ليس يظن، ولكنه مقر موقن بقدرتنا عليه، ونفاذ أمرنا فيه، فما(١) أبق إلى الفلك فاراً هارباً، وذهب مع يقينه بقدرتنا عليه مغاضباً- إلا لإغفاله وزلته التي نجاه الله منها بتوبته، فهذا وجه {فظن أن لن نقدر عليه} الذي لا يجوز غيره من الوجوه، وهو كلام صحيح لا تنكره فيه العقول.

وسألته عن: ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى ۝٦٧﴾ [طه]؟

فلم يوجس صلى الله عليه أن يغلب أو يقهر، ولكنه أوجس ألا يبصر من حضره من السحرة ومن الناس حقيقة الحق ما أبصر، فيظنون أن ما جاء به من الحق كسحر السحرة، وأن موسى صلى الله عليه من الكفرة، وقد كان خاف قولا منهم واعتسافا فقالوا: ﴿إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا﴾ [طه:٦٣]، وقالوا فيه: ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ [الأعراف:١٠٩]، وقال موسى صلى الله عليه فيما قالوا به من ذلك: ﴿أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ ۝٧٧﴾ [يونس].

---

(١) في المخطوط: فَلِم.

وسألته عن قوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ ءَايَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴿٥٢﴾﴾ [الحج]؟

فتأويل تمنى: هو قرأ، وألقى الشيطان في أمنيته تأويله: ألقى الشيطان في قراءته، وقراءته عليه السلام فهو ما ألقى من القرآن إلى أمته، وإلقاء الشيطان فيما كانوا يقرؤون من القرآن وآياته هو إلقاء من الشيطان في أمنيته وقراءته، والإلقاء في القراءة من الشيطان ليس إلقاء في قلب الرسول ولا فيما جعل الله له من اللسان، ولكنه إلقاء من الشيطان في القراءة بزيادة منه في القراءة أو نقصان، وقد رأينا في دهرنا هذا بين من يقرأ آيات القرآن اختلافا كثيراً في الزيادة والنقصان، فما كان من ذلك صدقا وحقا فمن القرآن، وما كان منه كذبا وباطلا فهو من الشيطان، في أيدي الروافض من ذلك والغلاة ما قد سمعت وسمعنا والله المستعان من القراءة.

فأما (تلك الغرانيق العلا، وإن شفاعتها ترتجى)، فقد فهمنا منه ما ذكرت، وسمعنا منه بعض ما سمعت، وهو كلام مغور فاسد لا يتكلم بمثله حكيم، ولا ماجد كريم، لا يشبه بفساده في تأليفه وقبحه في نفسه وضعفه أن يكون من بليغ من بلغاء العرب، فكيف من الرسول، أو الرب الذي لا تدركه بتحديد العقول، ولا يشبه قوله في الحكمة قول.

وسألته عن قول إبراهيم صلى الله عليه: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴿٩٦﴾﴾ [الصافات]؟

فالله خلقكم وحجارة الأصنام التي كانوا يعبدون، وكما قال صلى الله عليه: ﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾ [الصافات]، وسواء قوله: {ما تنحتون} وقوله: {وما تعملون}.

وسألته عن: ﴿فَرَدُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فِيٓ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ [إبراهيم:١٢]؟

فهو عضهم على الأيدي بأسنانهم، وهو شيء يفعله المغتاظ إذا غضب أو اغتاظ، ويفعله أيضا المتحير المتفكر إذا التبس عليه ما يفكر فيه وينظر.

وسألته عن قول الله سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ [الفرقان]؟

فالشهادة هي الحضور، والزور من الأشياء فهو البور، وهو الباطل والكذب، واللغو فهو الغفلة واللعب، فذلك كله وما كان منه فلا يشهدونه، وإذا مروا به أعرضوا.

وسألته عن قول الله: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۝ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ﴾ [هود:١١٩].

فذلك فلن يزالوا كما قال الله سبحانه مختلفين؛ لأن الاختلاف لا يزال أبدا بين المحقين والمبطلين، وهو خبر من الله عما يكون، وأنهم لن يزالوا مختلفين فيما يستأنفون، فالاختلاف منهم وفيهم؛ ولذلك نسبه الله إليهم، وقوله: {إلا من رحم ربك} يريد من المؤمنين، فإنهم في دينهم متآلفون غير مختلفين. وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ [هود:١١٨]، يقول سبحانه: للمكنة مما يجب به الثواب والعقاب من السيئة والحسنة، ولولا خلقه لهم كذلك وعلى ما فطرهم عليه من

ذلك لما اختلفوا في شيء، ولما نزل عليهم أمر ولا نهي، ولا كان فيهم مسيء ولا محسن، ولا منهم كافر ولا مؤمن، ولكانوا كالموات الذي لا يحسن ولا يسيء، ولا يفجر عند الله ولا يتقي.

وسألته عن: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِى﴾ [النحل:٩٨]؟

فقد يكون الإيحاء إلهاماً، ويكون الإيحاء من الوحي كلاما، ويكون الإلهام تعريفا وفطرة، ويكون الكلام تعليما وتذكرة، وأي ذلك كان فعلم وبيان، لا ينكره ولا يدفعه بالله مقر، ولا يأباه إلا ملحد في الله متكبر، لا ينكر صاغراً وإن كابر بالإنكار في أن للنحل وأشباهه احتيالا، وأن لها صنعا محكما وأعمالا، فيما يرى من شهدها وعجيب ما فيه من عقدها.

وسألته عن قوله: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآيِفَةٌ﴾ [النساء:١٠١]؟

فتأويلها ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ﴾ يريد: في سفر وخوف معهم، فأقمت الصلاة لهم ﴿فَلْتَقُمْ طَآيِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ﴾ يقول سبحانه: من جميعهم معك، وليأخذوا أسلحتهم كلهم، من قام معك في الصلاة ومن لم يقم معك منهم، ﴿فَإِذَا سَجَدُواْ﴾ يعني الذين معه في صلاتهم آخر سجدة منها فأتموا، وفرغوا من صلاتهم كلها وسلموا، ﴿وَلْتَأْتِ طَآيِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّواْ فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ﴾ [النساء:١٠١]، كلهم، من صلى معك ومن لم يصل منهم، ولا يقال للطائفة الآخرة: لم يصلوا إلا والطائفة الأولى قد صلوا.

ولا تصلى صلاة الخوف إلا في سفر، ولا يصلى شيء منها في حضر؛ لأن أهل

الحضر في بيوتهم وحصونهم مستترون، وأهل السفر لعدوهم بارزون مصحرون. وصلاة الخوف أن يصلي الإمام بإحدى الطائفتين ركعة واحدة، ثم يقومون فيتمون الركعة الثانية ثم يسلمون، والطائفة الآخرة الواقفة للعدو في سلاحهم مستلمون، وليس لهم شغل من صلاة ولا غيرها سوى المواقفة والحراسة لأنفسهم وإخوانهم من عدوهم بالمصافة، فإذا رجعوا إليهم من صلاتهم، وقعدوا للعدو موقفهم، ولم يزايلوا أبدا مواضعهم، حتى يتم إخوانهم من آخر الصلاة ما أتموا، ويسلموا من صلاتهم كما سلموا، فتكون كل واحدة من الطائفتين قد حرست كما حرست، وأخذت منها من الحراسة ما أخذت، وأعطت من الحراسة ما أعطت، وصلى بها من الصلاة مع الإمام ما صلت، فهذا عندنا أحسن ما سقط إلينا في صلاة الخوف.

وكذلك صلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فيما بلغنا صلاة الخوف في غزوة له غزاها يقال لها: ذات الرقاع. وفقنا الله وإياك للتقوى في كل محنة نزلت بنا أو بلوى، وصلى الله على محمد وآله الأبرار، الطيبين الأخيار.

وسألت وفقنا الله وإياك لمرضاته، ولعلم ما أوجب الله علينا وعليك علمه من آياته، عن قول الله جل جلاله عن أن يحويه قول أو يناله: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ٧٢﴾ [الأحزاب]، ما وجه ما أراد الله بذلك من المقال؟ ومن أين جاز أن يقال: أَبَيْنَ وأشفقن السموات والأرض وهن مَوَاتٌ لا ينطقن وشيءٌ لا يأبى ولا يشفق؟

فقد يحتمل وجه ما أراد الله تبارك وتعالى بذلك وتنزيله ما أبانه الله من تظليم الإنسان بما بناه الله عليه من بنيته للخيانة في الأمانات، والتأدية[١] ما صغر حليته في الخلقة والتركيب عن قدر ما ذكر الله من الخلق العجيب، وأنت رحمك الله فقد تعلم أنك لو عرضت بفكرك وفي تقديرك ونظرك -فضلاً عما قد تعلمه يقيناً بقلبك- على ما قد تعرفه من السماوات أمانة من الأمانات لما حملتها ولا شيئا منها؛ إذ كن عندك في علمك غير ناطقات، وهن فإذا كن كذلك فهن لحمل الأمانات غير مطيقات، فإذا كن من ذلك لنفس خلقهن وما بنين عليه من ضعفهن ممتنعات أفضل مما يقول به منها قائل أو يتحير من علمائها عالم.

وقد يحتمل أيضا أن يكون إنما أريد السماوات والأرض والجبال: أهلهن ومن جعل ساكنا لهن مما يطيق ويأبى ويشفق، كما قال إخوة يوسف: واسأل العير، وليسوا يريدون إبلها، فهذا وجه من الوجوه ليس بسيء ولا مكروه، مفهوم معقول، يجوز بمثله في العرب القول.

وسألت عن: ﴿ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ﴾ [الحشر:٢٣]؟

فالله هو المؤمن لأوليائه من سخطه، والمهيمن: الشهيد، والله هو الشهيد على أعدائه بمعصيته.

وأما الحمى عن الضربة الموجعة فإن الله جعلها تكون من الطبيعة، فالضربة من الضارب، والحمى فمن الطبائع، ألا ترى أن الحمى لو كانت من الضارب

---

(١) أي: التأدية للأمانات. «ما صغر حليته»: بدل من «بما بناه الله عليه»... أي: ما أبانه الله من تظليم الإنسان مع صغر حليته في الخلقة وتركيب البنية عن قدر ما ذكر الله من خلق السموات والأرض. (من خط السيد العلامة المجتهد محمد بن عبدالله عوض المؤيدي حفظه الله).

لزمه فيها القصاص والقود، وهذا مما ليس يدرك حقيقته أحد، وقد قال الله سبحانه: ﴿وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾ [المائدة:٤٧]، والجروح من الجارح، وليس الحمى بعمل شيء(١) من الجوارح.....(٢) فهو علم الله المعلوم.

وسألت عن: ﴿زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ۝٢﴾ [التكاثر]؟

فهو دخلتم المقابر.

وسألت عن زرع الأرض المغتصبة؟

فلا يجوز الزرع فيها لغاصبها ولا غير غاصبها، إلا أن يزرع بإذن صاحبها.

وسألت عن شراء اللحم من اليهود والنصارى؟

فإنا لا نرى أن يباع منهم ولا يشترى، فإنهم ليسوا ممن يؤمن عليه أن يخلطوا مالا يحل فيه.

وأما القصر من غير خوف فيقصر كل من سافر آمن أو خائف، أو كان فاجراً أو برا.

وأما التشهد فما قيل به فيه فجائز كله، التشهد الذي يذكر عن ابن عباس، وما يذكر من ذلك عن ابن مسعود، وأحسن ما سمعنا به في ذلك عن علي وزيد بن علي: (بسم الله، وبالله، والحمد لله، والأسماء الحسنى كلها الله، أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، والصلاة على النبي صلى الله عليه وآله وسلم).

---

(١) في المخطوط: شيئاً.

(٢) هنا بياض في المخطوط.

وقد سمعنا في آمين ما سمعت، ولم أسمع أحدا من العرب يتكلم [بها] في كلامه، ولا أحسبها إلا من اللسان العبراني، وإنا لنمسك عنها وعن القول بها.

وأما الدعاء في المكتوبة في أمر الدنيا والآخرة فجائز حسن، وهو في: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ۝٢.......... إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ۝٥ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ۝٦﴾ [الفاتحة]، فهذا كله دعاء.

والسجود في السهو للصلاة في الزيادة والنقصان فهو بعد التسليم، وما كان قبل التسليم من زيادة في ركوع أو سجود فهو زيادة يحتاج فيها ولها إلى ما ذكر الله من السجود في مثلها.

ولا بأس بالجمع بين الظهر والعصر والمغرب والعشاء. ودخول وقت العصر في آخر وقت الظهر لمن جمع، ووقت المغرب والعشاء لمن جمع فقبل غروب الشفق، إن أراد ذلك مريد.

ومن صلى الصبح سبح بعد صلاته، ولم يصل بينه وبين طلوع الشمس.

والتسليم من الصلاة عن اليمين والشمال. ورفع اليدين فقد اختلفت فيه الأقاويل، وإن أحب ذلك إلينا أن يُسَكَّنا تسكين غيرهما؛ لأن تسكينهما هو خشوعهما، وكذلك تسكين العين فهو لها خشوع.

ويجزي في الوضوء مرة مرة. ويقرأ في الصلاة على الجنائز في التكبيرة الأولى، وما بعد ذلك فيدعى.

وليس يجب الغسل من الحجامة، ولكن من احتجم توضأ. ويغتسل للجمعة، والرواح إلى عرفة، والعيدين، وكل ذلك من السنة.

ومن صلى صلاة فثبت في مقعده ولم يخرج من مسجده صلى ما بعدها من صلاته بوضوئه، وإن أكثر الاشتغال والإدبار والإقبال كان أحب إلينا له يجدد وضوءه، وكذلك بلغنا أن عليا صلوات الله عليه ورضوانه كان يفعل يجدد وضوءه لكل صلاة من الفريضة.

والإقران أفضل من الإفراد والتمتع بالعمرة إلى الحج. ولا يقرن بين العمرة والحج إلا من ساق هديا، ومن قرن طاف طوافين، وسعى سعيين، ولم يحل عن عمرته حتى يحل من حجته. والإفراد للحج أفضل -والله أعلم- من التمتع بالعمرة إلى الحج؛ لأن حجة عراقية أو مدنية أفضل من حجة مكية، والإهلال إذا طال أفضل منه إذا قصر؛ لطول الإحرام.

وتقطع التلبية في الحج إذا رميت جمرة العقبة. وأفضل الهدي ما وقف بعرفة، وإن قلت: حتى أشتري من منى أجزأ المتمتع.

والضحية واجبة على كل ذي يسار وجده ممن حج أو لم يحج. وصيام يوم عرفة أفضل من إفطاره، والدعاء في الصيام أقرب إلى الإجابة من الإفطار.

وكل ما سال أو قطر من الدم ففيه الوضوء، وليس في مس الإبط وقص الشارب وتقليم الأظفار والقيء والقلس وضوء. وما جاء من الوضوء من ما مسته النار فليس للنار، وإنما أحسبه -والله أعلم- للأكل والاشتغال. ولا نحب للجنب أن يتعوذ بشيء من القرآن؛ لما في ذلك لتنزيل الله من الإجلال.

وسألت عن قوله: ﴿وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ۝ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ [فصلت:٧]؟

فهي البر والأمور المرتضاة، ومنها زكاة الأموال، وصالح عمل العمال، الذين

يعملون لله، ويسعون في مرضات الله.

وأما قوله: ﴿وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ۝٣﴾ [النور]، النكاح هاهنا قد يكون المسيس والمجامعة، ويكون العقد والملك والتزويج الذي جعله الله طاعة.

وأما قوله: {لا ينكها} هو لا يأتيها، ولا يرتكب سخط الله فيها، إلا مشرك من المشركين بالله، أو زان مثلها عند الله، وهذا كله كما قال الله سبحانه.

وأما قوله: ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ﴾ [البقرة:٢٢٣]، الحرث هو: المزدرع الذي جعله الله في النساء والنماء، و{أنى شئتم} هو متى أردتم؛ لأن العرب كانت تزعم أن إتيان النساء وهن حوامل أو مرضعات حرام؛ خوفاً للفساد.

وسألت عن قوله: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ۝٢﴾ [الأنعام]؟

خلقه سبحانه لهم من طين فهو خلقه لأبيهم آدم صلى الله عليه؛ لأن ما كان نسلا منه فمخلوق مما خلق منه، {ثم قضى أجلاً}، الأجل المقضي هو الموت والوفاة، والأجل المسمى عنده هو أجل يوم الحساب والمجازاة.

وسألت عن الأرواح بعد مفارقتها الأبدان أحية أم ميتة؟

أرواح المؤمنين إذا فارقت أبدانها في نعيم وكرامة، وأرواح الظالمين إذا فارقت أبدانها في خزي وندامة، حتى ترد الأرواح إلى أبدانها في يوم البعث والقيامة، فإذا جاء ذلك فهو التخليد والدوام الذي ليس له فناء ولا زوال، ولا له عن أهله

براح ولا انتقال.

وسألت عن قوله: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا۝٥٦ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ﴾ [الإسراء:٥٧]؟

الذين كانت العرب تدعوهم ملائكة الله، وكانت العرب تزعم أن الملائكة بنات الله، كما قال الله سبحانه: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ۝٥٧﴾ [النحل]، والملائكة هم الذين كانت العرب تدعوا، والملائكة الذين كانوا يدعون فهم الذين يبتغون الوسيلة إلى الله، ويرجون من الله الرضوان والرحمة.

وسألت عن قوله: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا۝١٢﴾ [الكهف]؟

يقول سبحانه: بعثنا أهل الكهف بعد طول نومهم في كهفهم لنعلم أي الحزبين أحصى لما لبثوا في كهفهم مقيمين، أهم أم من علم لبثهم من الملائكة لبثهم[1] في كهفهم، هم الحزبان، وهم في العلم والمكث مختلفان.

وسألت عن: ﴿وَالطُّورِ۝١ وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ۝٢ فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ۝٣ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ۝٤ وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ۝٥ وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ۝٦﴾ [الطور]؟

الطور هو: طور سيناء، وقد ذكره الله في غير مكان، والبلد الأمين، فأقسم بهما لما هو أعلم به سبحانه من أمرهما.

---

(١) هكذا في المخطوط بتكرير (لبثهم).

﴿وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ ۝٢ فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ ۝٣﴾ [الطور]، هو: ما نزله الله من كتبه، وكتب في رق وغيره.

﴿وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ۝٤﴾ هو: بيت الله الذي يعمر أبدا بذكر الله، وبالوافدين في كل حين إلى الله، كما قال سبحانه لإبراهيم وإسماعيل صلى الله عليهما: ﴿طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ۝١٢٥﴾ [البقرة].

﴿وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ ۝٥﴾ هو: السماء.

﴿وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ ۝٦﴾ هو: البحر الأعظم. المسجور: فهو المحبوس على حدوده ومنتهاه، فليس يجوز حدا من حدوده ولا يتعداه.

وسألت عن قول الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ۝١١٤﴾ [التوبة]؟

فإن الأواه المتأوه هو الرحيم، والحليم هو اللبيب الحكيم.

وسألت عن قوله سبحانه: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ۝٢٢﴾ [محمد] الآية؟

فتأويل {فهل عسيتم} هو لعلكم أنتم أيها المدعون من كنتم، وتأويل {توليتم} هو أدبرتم عن الإجابة والقبول والإنابة، {أن تفسدوا في الأرض} بقتل بعضكم لبعض، فتقطعوا الأرحام، إذا لم تجيبوا الإسلام، لأن من لم يجبه أفسد في أرض الله؛ إذ لم يتبع حكمه، ففجر في دين الله وقطع رحمه، ومن أجابه أصلح ووصل، إذا سمع عن الله وقبل، ولم يتول ولم يدبر، فلم يفسد ولم يفجر.

وسألت عن تأويل: ﴿قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا﴾ [آل عمران:١٦٧]، وقلت: ما معنى {أو ادفعوا}؟

فتأويل {قاتلوا} يعني: كونوا بقتالكم لله مطيعين، أو ادفعوا فكونوا بقتالكم عن أنفسكم وحرمكم مدافعين إن لم تكونوا لله مجيبين، وفي ثوابه على القتال لعدوه راغبين.

وسألت عن قوله: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا..﴾ الآية [المائدة:٩٣]؟

يقول الله سبحانه: ليس على من اتقى وآمن جناح -يعني: إثماً- فيما أكل وطعم من طيبات الأطعمة، التي ليست عند الله بمحرمة؛ لأن من المؤمنين من كان يترك أكل بعض الطيبات زهادة في الدنيا، والتماسا في ذلك لما يحب الله ويرضى، وممن ذكر بذلك عثمان بن مظعون، كان فيما بلغنا قد حرم على نفسه أكل اللحوم، فنهاه الله وغيره من المؤمنين عن تحريم ما لم يحرم من المطاعم الطيبة، وقال: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴿٨٧﴾﴾ [المائدة]، فأخبرهم سبحانه وغيرهم من الأتقياء البررة أنها لمن آمن به في الدنيا خالصة في الآخرة، فقال سبحانه: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [الأعراف:٣٢].

وسألت عن قوله سبحانه: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ [المائدة:١٠٥]؟

إنما قال سبحانه للذين قالوا: ﴿حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا﴾ [المائدة:١٠٦]، من دينهم وأكثروا الاتباع لدين غيرهم، عليكم بأنفسكم خاصة، فليس يضركم إذا

اهتديتم ضلال من اعتقد ضلالة، كان أبا أو غيره؛ لأن كل امرئ إنما يحاسب بما عمله وما له، فإن اهتدى نجا سالما، وإن ضل هلك ظالما؛ لأنه ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى۝٣٨ وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى۝٣٩﴾ [النجم].

وسألت ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْۖ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝١٩٤ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ..﴾ الآية [الأعراف:١٩٥]؟

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ فهو من دونه سبحانه كذبا وافتعالا، وقد يكون تأويل «من دونه»: أنهم دونه كبرياء وجلالا.

والذين كانوا يعبدون فهم من عبدوا من الملائكة المقربين، ومن كانوا يعبدون من دونه من الآدميين، ومن عبد من الناس أحدا من الشياطين، هؤلاء كلهم فهم عباد أمثالهم، وقد عبدوا من عبدوا من العباد ما كانوا يعبدون من الأصنام والتماثيل والأوثان، التي ليس لها أرجل ولا أيدي ولا أعين ولا أسماع، ولا عندها لأحد عبدها أو لم يعبدها ضر ولا انتفاع، وفي الأصنام ما يقول الرحمن له الكبرياء والجلال: ﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا﴾ [الأعراف:١٩٥]، وما ذكر من غير ذلك عند ذكرها، وليس شيء من ذلك كله لها، فكيف يعبدونها مع زوال ذلك كله عنها وهو(١) أفضل في ذلك كله منها إلا لفعلهم الفاسد المدخول بالمكابرة لحجة العقول؟

وسألت عن قوله: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ

---

(١) لعلها: وهم.

لَنَا﴾ [المائدة:١٠٩]؟

ومسألة الرسل من الله عما أجيبوا في يوم البعث فمسألة عن الله ذات حقيقة وحكمة ورحمة، برية من كل جهل وعبث، وإنما هي تقرير لهم ولأممهم وتعريف وتوقيف، وإبانة أنه لا يأخذ أممهم إلا بجرمهم؛ لأنه هو الله الرحيم الرؤوف، وأنه علام ما خفي عن الرسل من غيرهم فيما كان من الجواب لهم في حسناتهم وذنوبهم.

وسألت عن قوله سبحانه لرسوله ÷: ﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ [يونس:٩٤]؟

ليس [معنى] قوله سبحانه: {فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ} أنه فيه، ولا أنه يشك في شيء مما نزله الله إليه ولكنه تنزيه له من ذلك كله، وتثبيت ليقينه ولتفضله فيه على غيره، ألا ترى أنه يقال لمن كان موقنا يقينا صادقا، وكان فيما اعتقده منه كله معتقدا عقدا محقاً: إن كنت يا هذا في شك مما أمرك فتثبت فيه بغيرك، فيغضب على من قال له ذلك؛ ليقينه، كان موقنا بذلك في دنياه أو دينه. وقد يكون من أسباب اليقين لغيره برسالته وما نزله الله عليه من حكمه وآياته ما في أيدي أهل كتب الله من ذكره وهدايته في دينه وأمره، فقال سبحانه: {إن كنت}(١)، ولم يقل: إن كان غيرك ممن آمن أو لم يؤمن في شك أو ارتياب- فاسأل عن أمرك أهل الكتاب.

---

(١) كيف ترتب: فقال سبحانه..إلخ على قوله: وقد يكون من أسباب؟ فقال سبحانه: {إن كنت...} أي: إن كان غيرك في شك- فهو من باب: إياك أعني واسمعي يا جارة. (من خط السيد العلامة المجتهد محمد بن عبدالله عوض المؤيدي حفظه الله).

وسألت عن قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَٰدَةُ بَيۡنِكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ حِينَ ٱلۡوَصِيَّةِ ٱثۡنَانِ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ أَوۡ ءَاخَرَانِ..﴾ الآية [المائدة:١٠٦]؟

{شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ} هي الشهادة بينكم[1] في قضاياهم ومواريثهم عند نزول الموت وحضوره عندما يكون في ذلك للميت من أموره أن يستشهدوا عند الموت شهيدين من أنفسهم، أو آخرين من غيرهم إن لم يحضر مسلمان عند الموت من غيرهم[2]؛ لأنه ربما حضر الموتُ الرجلَ المسلم في السفر أو غيره وليس عنده إلا كافر أو مجرم، فيضطر إلى شهادتهما وإن هو لم يرض بهما، فإذا كانا معروفين في دينهما بالتحرج من الزور والظلم استشهدوا على الوصية وغيرها إذا لم يظفر بمسلم، ﴿فَإِنۡ عُثِرَ﴾ وهو: ظهر على أنهما آثمان، وأنهما ليسا بصادقين فيما عليه يشهدان، حبسا بعد صلاة من الصلوات، وحبسهما وقفهما، فأقسما في وقت مما ذكر الله من الأوقات، و﴿إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ﴾ هو: ظننتم أنهما كذبا فزادا أو نقصا، فليحلفان بالله لا نشتري بشهادتنا وقولنا ثمنا، ولا نشهد بغير الحق لأحد ولو كان ذا قربى، ولئن فعلنا فكتمنا شهادتنا ﴿إِنَّآ إِذٗا لَّمِنَ ٱلۡأٓثِمِينَ ١٠٦﴾ يريد: إنا إذا لمن الظالمين. وفيما في الشهادة من الظلم بالإخفاء لها في الكتم ما يقول الله سبحانه: ﴿وَمَن يَكۡتُمۡهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٞ قَلۡبُهُۥ﴾ [البقرة:٢٨٣]، فإن استحق أنهما كاذبان حلف من المظلومين آخران.

---

(١) في المصابيح: بينهم.

(٢) كذا في المخطوط بتكرير (من غيرهم).

مما سئل عنه الإمام القاسم بن إبراهيم عليه السلام

بسم الله الرحمن الرحيم

وسألت يرحمك الله عن قول الله سبحانه: ﴿فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ﴿٨٥﴾﴾ [طه]؟

فقال: فتنهم في بلوى الله لهم من بعد موسى بما كان من العمل فيهم، وإضلال السامري لهم فهو بدعائه إياهم إلى ما قالوا به من العجل أن يقولوا: {هذا إلهكم وإله موسى}، وبما ألقى من القبضة التي أخذها من أثر الرسول فنبذها في جوف العجل فخار، فكان لهم في ذلك من الفتنة ما كان، وكان قولهم في ذلك ولما رأوا منه في العجل بما(١) قالوا، فلما سمعوا صوت خواره ضلوا به، كما ضلوا أن قالو فيه بما قالوا.

وسألت عن قول الله سبحانه: ﴿وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [البقرة:١٠٢]؟

فقال: الإذن من الله في هذا الموضع هو التخلية، والاستطاعة التي جعلها الله في الساحر(٢) والتقوية، وليس بإذن من الله ولا رضا.

وسألت عن قوله: ﴿ءَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴿٦﴾ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى

(١) في المخطوط: إنما.

(٢) في المخطوط: السامري. والمثبت من المصابيح من المكتبة الشاملة.

﴿قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ﴾ [البقرة:٧]؟

فقال: الختم من الله على قلوبهم وعلى سمعهم وما جعل على أبصارهم من الغشاوة كالران الذي قال الله: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ۝١٤﴾ [المطففين]، والختم فهو الإقفال(١)، وهو الطبع، فمعنى هذه كله واحد فيهم، وهو بما وجب من لعنة الله عليهم.

وسألت عن قوله: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ [الأنعام:٢٥]؟

فقال: والأكنة هي الحجب، وهي مثل الطبع والختم.

وسألت عن قول الله سبحانه: ﴿مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ۝١٦٢ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ۝١٦٣﴾ [الصافات]؟

فقال: تقول الملائكة: ما أنتم عليه بغالبين ولا إليه بجارين(٢) إلا من هو صال الجحيم، يقول: لا يجيبكم إليه ولا يرضى قولكم فيه إلا من هو أهل النار والعذاب الأليم.

وسألت عن قوله: ﴿وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ﴾ [المائدة:٤١]؟

---

(١) قوله عليه السلام: «والختم هو الإقفال» لم يرد أنه ختم حقيقة وتغطية حقيقية؛ بدليل ما عرف من مذهبه عليه السلام وجواباته على المجبرة، وإنما أراد أنهم صاروا كالمختوم على قلوبهم بسبب ما وجب عليهم من لعنة الله واستحقاقهم لغضبه ونقمته. (من خط السيد العلامة المجتهد محمد بن عبدالله عوض المؤيدي حفظه الله).

(٢) في المخطوط: بمجبورين.

فقال: ومن يرد الله فتنته من بريته ابتلاءه أو إضلاله[١] أو إخزاءه ممن شاقه وعصاه فلن تملك له من الله في ذلك شيئا، والملك في ذلك والقدرة لله وحده.

{لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ} يريد سبحانه: أنه لم يرد تزكية قلوبهم ولا تطييبها بما هم عليه من معصيته؛ لأنه إنما يطيب ويزكي قلوب أهل طاعته، فأما من لم يرد أمره ولا توبته[٢] فليس يزكي قلبه ولا يطهره.

وسألت عن قول الله تعالى: ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ۝٢٦ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ۝٢٧ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ۝٢٨ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ۝٢٩﴾ [التكوير]؟

فقال: ولذلك[٣] ما يشاء الاستقامة إلا وقد شاءها الله قبله ورضيها فيما نزل تبارك وتعالى وقواه عليها، ودله جل جلاله إليها.

وسألت هل يصح الحديث الذي جاء أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: ((الأئمة من قريش))؟

---

(١) يريد إضلال من شاقه أو عصاه أي: يريد حرمانه من الألطاف، فهو مجاز مرسل من إطلاق المسبب على السبب، وذلك يكون بمنعه وحرمانه من الألطاف والتوفيق؛ لأنه لا يستحقها لمشاقته لله وتمرده عن طاعته، ويحرمانه منها، فيتمادى في العصيان والطغيان من تلقاء نفسه وبمجرد اختياره. (من خط السيد العلامة المجتهد محمد بن عبدالله عوض المؤيدي حفظه الله).

(٢) قوله عليه السلام: «فأما من لم يرد أمره ولا توبته» معناه: «أمره» أي: ما هو عليه من العصيان والتمرد عن طاعة الله. «ولا توبته»: ولا التوبة عليه أي: لا يريد التوبة عليه لما هو عليه من العصيان. (من خط السيد العلامة المجتهد محمد بن عبدالله عوض المؤيدي حفظه الله).

(٣) قوله عليه السلام: «ولذلك» الإشارة هنا تعود إلى مقدر كأنه قال: ليس الأمر كما يقوله الذين لا يعلمون وليس تأويلها كما يؤولون، ولذلك...إلخ. (من خط السيد العلامة المجتهد محمد بن عبدالله عوض المؤيدي حفظه الله).

فقال: الأئمة كذلك كما قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في الإسلام منهم، وهو صلى الله عليه وآله وسلم وولده وذريته فمن قريش لا من غيرهم.

وسألت عن قوله سبحانه: ﴿قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ﴾ [الفتح:١٦]، من هؤلاء؟

فقال: هم هوازن، وهم أشد الناس بأسا، وقد قالوا: فارس والروم، وقالوا بنو حنيفة.

وسألت ما تفسير الحديث الذي روي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: ((صنفان من أمتي ليس لهما في الإسلام نصيب: المرجئة والقدرية))؟

فقال: المرجئة الذين يقولون: الإيمان قول بلا عمل، وغير ذلك من الأقاويل المختلفة لهم ما قد عرفت، القدرية فهم المجبرة.

وسألت عن قوله سبحانه: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ [النساء:٥٩]؟

فقال: أولو الأمر أمراء السرايا، وعلماء القبائل، وحلماء العشائر، والحكماء الذين يأمرون بالمعروف والهدى، وينهون عن الردى، لما أمروا بها أمر به رب العالمين. وأبرار آل الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وعلماؤهم، وهم فولاة الأمر منهم، لما فضلهم الله به على غيرهم من قرابة رسول الله، ومشاركتهم لأهل البر فيه، فلهم من القرابة ما ليس لغيرهم، وهم شركاء الأبرار في برهم.

وسألت هل ذهب من القرآن شيء، وما يروى في المعوذتين؟

فقال: المعوذتان من القرآن، وقال: وكيف يذهب من القرآن شيء وقد قال

الله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ۝٩﴾ [الحجر]، وقال: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ۝٢١ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ۝٢٢﴾ [البروج].

وسألت عن أي سورة نزلت أول ما نزل من القرآن، وما نزل بمكة، وما نزل بالمدينة، وما آخر ما نزل من القرآن؟

فقال: يقولون: أول ما نزل {اقرأ باسم ربك}، وآخر ما نزل: {إذا جاء نصر الله} وقد قيل: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾ [البقرة:٢٨١] آخر آية.

وسألت عن معنى قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لعلي: ((أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي))؟

فقال: يقول: أنت تكفيني ما كان كفى موسى في قومه عند مخرجه عنه، وكذلك أنت فيما خلفتك عليه بعد مخرجي من أمتي ودار هجرتي، وإنما قال هذا في مخرجه إلى تبوك(١).

وسألت عن قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم: ((من كنت مولاه فعلي مولاه، ومن كنت وليه فعلي وليه))؟

---

(١) قوله عليه السلام: «وإنما قال هذا في مخرجه إلى تبوك» نعم، إنما قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم ذلك في غزوة تبوك فأثبت لعلي فيها أنه لا يصلح لخلافة النبي صلى الله عليه وآله وسلم على المدينة إلا هو، وإذا أثبت لعلي عليه السلام هذه المنزلة ثبتت له على الإطلاق بدليل تنزيله هذه المنزلة من النبي صلى الله عليه وآله وسلم بمنزلة هارون من موسى في استحقاقه لخلافة موسى. (من خط السيد العلامة المجتهد محمد بن عبدالله عوض المؤيدي حفظه الله). وقد ذكر هذا الحديث الإمام عليه السلام في (كتاب الإمامة) في سياق الأدلة على إثبات إمامة علي عليه السلام فقال: «وخرج إلى تبوك واستخلفه وأعلمه أنه لا يصلح لخلافته إلا هو، وقال له: ((يا علي، أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى غير أنه لا نبي بعدي)))».

فقال: تأويله من كنت ناصره فعلي ناصره[١]، وذلك أن المولى في لسان العرب هو النصير.

وسألت عن قول الله عز وجل: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ [الفتح:١٨]؟

فقال: {لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ} فكل مؤمن زكي بايعه[٢] مصطفى عند الله رضي بايعه تحت الشجرة فقد رضي الله عنه كما قال لا شريك له.

وسألت عن قوله سبحانه: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة:٤]؟

فقال: إكمال الله لدينهم فإسلامهم[٣]، ما فصل الله لهم في كتابه من حلالهم وحرامهم، وذلك بعد إكمال الله لا شريك له في تحريمه وتحليله، وقد قيل: إن

---

(١) الناصر هو أحد معاني المولى والولي، وقد فسر الإمام القاسم المولى والولي في (الكامل المنير) بقوله: «فولاية الله تعالى وولاية رسوله صلى الله عليه وآله وسلم وولاية علي عليه السلام على الخلق واحدة»، وقال الإمام عليه السلام في هذا المجموع في كتاب (الإمامة) ما لفظه: ثم أُمِر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن يبلغ ما أنزل إليه من ربه، فكان من أكبر الإبلاغ عن الله الإمام الذي يستحق مقامه، ويؤدي عنه الدين الذي أكمله الله، فأخذ بيد علي في يوم غدير خم في حجة الوداع في آخر عمره فقال: ((يا أيها الناس، ألست أولى بكم من أنفسكم؟)) قالوا: بلى يا رسول الله، قال: ((فمن كنت مولاه فعلي مولاه، اللهم والِ من والاه، وعاد من عاداه))، فجعله عَلَماً لأولياء الله ولأعدائه، فمن تولى علياً كان له ولياً، ومن عاداه كان له عدواً» فقد استدل بهذه الآية على إمامة أمير المؤمنين كما ترى. (من خط السيد العلامة المجتهد محمد بن عبدالله عوض المؤيدي حفظه الله).

(٢) هكذا في المخطوطات، ولعل كلمة «بايعه» زائدة من بعض النساخ، والله أعلم.

(٣) قوله عليه السلام: «إكمال الله لدينهم فإسلامهم ما فصل الله لهم..إلخ»: أي: إكمال الله لدينهم فهو إكماله لإسلامهم، وهو ما فصله الله لهم في كتابه..إلخ. (من خط السيد العلامة المجتهد محمد بن عبدالله عوض المؤيدي حفظه الله).

هذه الآية نزلت في حجة الوداع، والحج آخر ما نزلت فريضته.

وسألت ما الذي ادعت فاطمة رضي الله عنها في فدك، أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهبه لها في حياته، وشهد لها علي وأم أيمن، وما ادعى أبو بكر؟

فقال: ادعت فاطمة أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهب فدكا لها في حياته، وشهد لها به مؤمنان: علي وأم أيمن(١).

وسألت عن معنى خصومة علي والعباس إلى أبي بكر ثم إلى عمر فيما قد روي عنهما؟

فقال: ليس هذا بشيء، ولا يصح، ولا يلتفت إليه، قد كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم دفع إلى علي بغلته وفرسه ورمحه ودرعه وعمامته.

وسألته هل كان أبو بكر وعمر في بعث أسامة بن زيد؟ وكيف هذا؟

فقال: قد كانا جميعاً في جيشه وبعثه.

وسألته كيف كان يأتي الوحي إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم؟

فقال: كان إذا نظر إلى جبريل في أول نظرة يصيبه ما يصيبه، فأما الوحي من القرآن فإنما يقرؤه عليه فيأخذه من فيه؛ لأن الله يقول: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰ ۝٦﴾ [الأعلى]، وقال: ﴿سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝٤﴾ [المزمل]، أي: كريما شريفا.

---

(١) السؤال والجواب بلفظ واحد إلا زيادة (مؤمنان) في لفظ الجواب، وهل يريد أن يعمل بشهادة رجل وامرأة؟ نعم، الجواب ناقص من أصله، وقد كان الواجب على أبي بكر أن يتبين بعد سماع شهادة علي عليه السلام الذي هو نفس الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بنص القرآن في آية المباهلة، لا أن يرد دعواها وقد علم أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: ((إنها بضعة منه يريبه ما رابها)). (من خط السيد العلامة المجتهد محمد بن عبدالله عوض المؤيدي حفظه الله).

وسألته ما ترى في شهادة أهل الخلاف وذبائحهم من المرجئة والمشبهة والفساق وشربة الخمور، وفي أسواق العامة؟

فقال: أما ذبائح أهل الملة كلهم فتؤكل، إلا من كان لا ينفي عن الله التشبيه فإني لا أحب أن توكل ذبيحته، وشهاداتهم إذا كانوا أهل ورع وأمانة وإن كانوا أهل الخلاف فتجوز، إلا أنه قد ذكر أن الخطابية هم صنف من الروافض يتقارضون الشهادة فيما بينهم، فإن كانوا كما يذكر عنهم فلا تجوز شهادتهم ولا نعمة عين.

وسألته أين موضع الجنة والنار يوم القيامة؟

فقال: خلقت الجنة والنار، وهما في غير سماء ولا أرض، ولو لم يخلقا لم يكن يقال: آخرة؛ أنها قد خلت مع الدنيا(١).

وسألته هل يصح ما روي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: أن في ثقيف كذاباً ومبيراً(٢)؟ وهل يصح ما قيل في المختار: إنه تنبأ؟

وقال: ليس يصح في المختار ما يقولون، وقد كانت له أفعال وأيادي محمودة، وقد دعا له جميع آل محمد الرجال والنساء حين بعث إليهم برأس عبيدالله بن زياد لعنه الله.

---

(١) قوله عليه السلام: «لم يكن يقال: آخرة أنها قد خلت مع الدنيا» المعنى: ولو لم يخلقا في الآخرة في غير سماء ولا أرض لما صح أن يقال: آخرة؛ لأنها قد خلت وفنيت مع الدنيا. (من خط السيد العلامة المجتهد محمد بن عبدالله عوض المؤيدي حفظه الله).

(٢) في المخطوطات: كذاب وميتم، والمثبت من شرح نهج البلاغة ومسند الحميدي ومسند أحمد وصحيح مسلم وغيرها كثير. والمبير: المهلك.

وسألته عن قول الله سبحانه: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ﴾ [النحل:٤٣]، ومن هم؟

فقال: أهل العلم والفقه، وقال: وأهل الذكر: من نزل عليه كتبه من بني إسرائيل.

وسألته ما معنى ما قالوا في اللوح والقلم؟

فقال: واللوح المحفوظ فهو علم الله الذي قد أحاط بجميع ما كان وما يكون، ليس هنالك لوح ولا قلم.

وسألته هل يخرج من دخل النار بعد مدخله فيها؟

فقال: لا يخرج منها من دخلها، ولا يدخلها من المؤمنين الأبرار أحد، والله محمود، لأن الله ذكر أن من دخلها خالد فيها، ولم يذكر خروج أحد.

وسألته هل أوصى النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى أمير المؤمنين في الخلافة، وهل أكرهه القوم على بيعتهم؟

فقال: قد أخبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم بما يكون في أمته من بعده في كتاب الجفر، من الملوك إلى نزول عيسى بن مريم صلى الله عليه، وبما يكون في أمته من الاختلاف، ووصف كتاب الجفر، وذكر أنه تقطع وذهب وقد كان صار إلى أبي هاشم عبدالله بن محمد بن الحنيفة، ونسخته عند آل محمد يتوارثونه، وأما أمر القوم فقد عرفته، وما كان من تخليطهم، والله المستعان.

وسألته عن قول سبحانه: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ﴾ [الرعد:٤]؟

فقال: قطعة مالحة وقطعة لينة، وقطعة أعدى، وقطعة تسقى، وقطعة جبال، وقطعة عمران وقطعة خراب، بعضها إلى جنب بعض متجاورات، ثم وصف

فوضع كفه في الأرض ثم رفعها، ووضع أيضا إلى جنب الموضع الذي كان وضعه أولا.

وسألته عن عيسى عليه السلام؟

وقد تعلم أرشدك الله أنه قد مات من قبل عيسى كثير ممن كذبه، ومات بعده كثير، فكيف يؤمن به ولم يحضر رجعته صلى الله عليه ومن لم يدرك دهره؟ وحديث رجعته فما قد جاءت به الأخبار من أنه صلى الله عليه يرجع إلى الدنيا نازلا من السماء، فيحتج الله(١) سبحانه على خلقه بما أبلغهم أولا، ولرسوله محمد من الحق(٢)، ويحتج لمحمد صلى الله عليه بما أبلغ قومه فيه من الإيمان بما جاء به محمد صلى الله عليه من آيات الله وكتابه، ويأمرهم باتباع محمد صلى الله عليه، ويبين لهم ما حرفوا من كتب الله في محمد صلى الله عليه، والسلطان سلطان آل محمد صلى الله عليه وعليهم وسلم.

وقالت المعتزلة: إنه لا يرجع إلى الدنيا، وإنه توفاه الله، وتأولوا فيه قول الله لا شريك له: ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ﴾ [المائدة:١١٨]، وقوله: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [آل عمران:٥٥]،؟

وقال من خالفهم: تأويل {إِنِّي مُتَوَفِّيكَ} تسليمه له غير مجروح ولا مكلوم

---

(١) لعلها: لله.

(٢) قوله عليه السلام: «فيحتج الله سبحانه على خلقه بما أبلغهم أولاً، ولرسوله محمد من الحق»: معناه: إذا نزل عيسى عليه السلام في آخر الزمان من السماء فإنه يقيم حجة الله على خلقه بما أبلغهم أولاً قبل رفعه من الحجة على صحة دين الإسلام ونبوة نبيه محمد صلى الله عليه وآله وسلم. (من خط السيد العلامة المجتهد محمد بن عبدالله عوض المؤيدي حفظه الله).

ولا مصلوب، كما قال الذين لا يؤمنون: إنه صلب وقتل، كذبهم الله تبارك وتعالى فقال: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ﴾ [النساء:١٥٧]، وأي القولين قيل واحتج به محتج فليس فيه بحمد الله ريعان ولا حرج، ولا يستكثر(١) من الله تبارك وتعالى أي ذلك ما كان؛ لأن الله تبارك وتعالى ذو الحكمة والبيان.

وسألته عن قول الله لا شريك له: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى۝﴾ [طه]؟

فقال: هو ملك وعلا، وكذلك تقول العرب فيمن ملك بلداً وغلب ملكه فيه: إنه قد استوى عليه، إذ ملك وغلب فيه، وليس يتوهم ما ذكر الله من ذلك استواء مقعد، ولا مشابهة في القعود بين الله وبين أحد. وكذلك: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾، فهو علوه عليها، ونفاذ أمره وخلقه وصنعه فيها.

وسألته عن قول الله سبحانه: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ [هود:٧]، ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [البقرة:٢٥٤]؟

فقال: العرش -رحمك الله- والكرسي فإنهما ملك الله وسلطانه، كما العرش والكرسي مقعد لكل ملك ومكانه، وليس يتوهم من آمن بالله أن ما ذكر الله سبحانه من كرسيه وعرشه ككراسي خلقه وعروشهم التي كانت تكون مقاعد لهم في ملكهم، {وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ}، وكان ملك الله على الماء، إذ ليس إلا الماء، كما ملكه اليوم على الأرض والسماء وعلى جميع ما فيهما من الأشياء.

وتأويل: {كُرْسِيُّهُ} إنما هو: وسع ملكه السماوات والأرض، ووسعه لهما

(١) لعلها: يستنكر.

إحاطته بهما وقدرته عليهما وعلى كل ما فيهما.

وسألته عن قول الله سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ﴾ [الشورى:٥١]؟

فقال: ليس يتوهم عاقل أن احتجاب الله بإرخاء ستر ولا بإغلاق، ولكنه كما قال سبحانه لعجز الأبصار عن دركه بالرؤية والعيان، إذ يقول سبحانه: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ [الأنعام:١٠٣]، وهذا فهو أحجب الحجب، وما لا يكون إلا الله(١) تبارك وتعالى.

وسألته عن قول الله سبحانه: ﴿يَانَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ ۝٦٩﴾ [الأنبياء]، هل كان ذلك من الله للنار كلاما؟

فقال: هو مثل قول الله سبحانه: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ۝٤٠﴾ [النحل]، يخبر سبحانه أنه لا يمتنع عليه إذا أمر أمر ولا كون(٢)، وكذلك قوله: ﴿يَانَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ ۝٦٩﴾ [الأنبياء]، إنما هو ما صيره الله فيها من النجاة والتسليم، كما قال سبحانه: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ﴾ [العنكبوت:٢٤].

وسألت عن قول الله سبحانه: ﴿لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ۝٢٢٦ وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝٢٢٧﴾ [البقرة]؟

---

(١) لعلها: لله.

(٢) في المخطوط: إذاً أمراً ولا كوناً.

فقال: المولي: الحالف بالله أو ببعض الأيمان ألا يقرب أهله، فأنظره الله أربعة أشهر وأجله، فإن فاء -والفيء أن يرجع إلى مداناة أهله- كان ذلك له، وكان الله غفوراً رحيماً فيما أخطأ به على نفسه من اليمين، وإن مضى لحاجته لم يكن له إضرار بزوجته، فإن عزم على فراقها فإن الله سبحانه كما قال: {سميع عليم}، ولم يذكر الله في الإيلاء كفارة، ولكنه قال: {فإن فاءوا فإن الله غفور رحيم}.

وسألته عن قول الله سبحانه، وجل عن كل شأن شأنه: ﴿وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ١٠٨﴾ [طه]؟

فقال: خشوعها سكونها، وأما الهمس فهو حس[1] الأقدام الذي ليس معه صوت ولا كلام؛ لما يدخل قلوبهم من الرعب والخوف والفزع، ولما عاينوا عند ظهور آيات الله في القيامة من الأمر الهائل المستفظع.

وسألته عن قول الله سبحانه: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ٦٢﴾ [الرحمن]؟

هاتان أخروان بعد الجنتين المذكورتين، وهذه الجنان كلها فهي في الجنة، غير أنها مواضع تنعيم مرتبة، والجنة تجمع هذه الجنان كلها.

وسألته عن قول الله سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ﴾ [النور:٤]؟

فقال: يرمون: يقذفون المحصنات؛ بأن ينسبوا إليهن الفاحشة التي لا تكون منهن، فأخبر الله سبحانه أن من قال فيهن رمياً لهن وكذباً عليهن ثم لم يأت بشهود أربعة وجب عليه الحد ثمانين جلدة، وسقطت منه العدالة، ولم تجز له شهادة، إلا أن يحدث له توبة.

---

(١) تنظر؛ فليست هكذا في المخطوط ص٢٨٠.

وسألته عن قول الله لا شريك له: ﴿وَأَحْسَنُ نَدِيّاً ۝٧٣﴾ [مريم]؟

فقال: الندي: المجلس، وكذلك الندي والنادي، ولذلك قال الله في لوط صلى الله عليه حين قال لقومه: ﴿وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ﴾ [العنكبوت:٢٩]، يعني بالنادي: المجلس.

وسألته: ﴿أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزاً ۝٩٨﴾ [مريم]؟

فقال: الركز هو: الحس.

وسألته عن قول الله: ﴿وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ۝٣٥﴾ [الأنبياء]؟

فقال: في هذا ونحوه الاختبار بالخير(١) والشر، والخير ما يكون من الله ليس من أفعال العباد، الخير من ذلك: الخصب، وكثرة الأمطار، وصحة الزمان، ورخص الأسعار، وقلة الأمراض، وطول الأعمار، وكثرة الأولاد، وسعة الرزق، وزيادة الثمار.

والشر أفعال أخر، كالخوف والجوع، ونقص من الأموال والأنفس والثمرات، فطوبى للصابرين، كما قال الله سبحانه: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ۝١٥٥ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ۝١٥٦ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ۝١٥٧﴾ [البقرة].

وسألته عن قول الله سبحانه: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ۝٣٣﴾ [الأحزاب]؟

---

(١) في المخطوط: والخير.

فقال: الرجس: الفعل الردي النجس من المعاصي والأدناس والأسفاه التي تكون في بعض الناس، فأمر الله سبحانه النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأمر أهل بيته بتقواه وطاعته وترك الرجس من جميع معصيته، بما(١) أذهب عنهم من كل رجس أو دنس، وبعدهم به(٢) من كل معصية ونجس، وطهرهم كما قال الله سبحانه: {تطهيرا}، وجعل لهم بما نزل فيهم من هذه الآية ذكراً عليا وشرفا كبيرا.

وسألته عن قول الله سبحانه: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ﴾ [البقرة:٢٢٨]؟

فهو ما جعل الله في الأرحام من طمثهن وحملهن، لأن ينقطع به ما بين الأزواج وبينهن إذا كان من أزواجهن، فينقطع بينهم الميراث والرجعة، وربما كرهت المرأة من زوجها المراجعة التي للزوج عليها ملك ما لم تستكمل العدة، ويكون رأي زوجها لو علم له منها بحمل أن يرتجعها، ويكون ذلك له عليها ما لم تضع حملها، فتكتم لكراهتها لزوجها ما خلق الله من الولد في رحمها حتى تضع وتلد، فلا يكون له عليها ملك ولا رد، فتكون بذلك لزوجها مضارة وبه مضرة، وبأمر الله فيما أمرها من ذلك غير مؤتمرة. وكذلك إن كتمت ما خلق الله في رحمها من طمثها وحيضها الذي تنقضي به عدتها، وتزول نفقتها وموارثتها- كانت في ذلك كله لله عاصية، وعن أمره ونهيه عاتية.

---

(١) قوله عليه السلام: «بما» متعلق بأمر في قوله: وأمر أهل بيته بتقواه. (من خط السيد العلامة المجتهد محمد بن عبدالله عوض المؤيدي حفظه الله).

(٢) الضمير في (به) يعود إلى: «بإذهاب الرجس» المفهوم من الآية وسياق الكلام. (من خط السيد العلامة المجتهد محمد بن عبدالله عوض المؤيدي حفظه الله).

وسألته عن قول الله سبحانه: ﴿وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحۡلَةٗ﴾ [النساء:٤]؟

فقال: صدقاتهن: مهورهن، ومهورهن فأجورهن، ونحلة: فإنما هي هبة مسلمة لهن، فأمرهم الله أن يؤدوا ذلك إليهن، وجعله حقا عليهم لهن، لا يسعهم حبس شيء منه عنهن إلا بطيب نفس منهن، أو هبة يهبنها للأزواج عن طيب من أنفسهن، فقال سبحانه: ﴿فَإِن طِبۡنَ لَكُمۡ عَن شَيۡءٖ مِّنۡهُ نَفۡسٗا فَكُلُوهُ هَنِيٓـٔٗا مَّرِيٓـٔٗا ٤﴾ [النساء].

وسألته عن قول الله سبحانه: ﴿وَلِكُلّٖ جَعَلۡنَا مَوَٰلِيَ مِمَّا تَرَكَ ٱلۡوَٰلِدَانِ وَٱلۡأَقۡرَبُونَ﴾ [النساء:٣٣]؟

فقال: إن الموالي هم الولاة والقرابة المتوارثون، ولأنه(١) قد يرث غير القريب، وإنما أراد الله بالموالي في هذه الآية كل نسب، ألا ترون أن الزوج والزوجة قد يرثان وإن لم يكن بينهما نسب، لأن لكل من كان [كذلك] حقا وحرمة ونسبا.

وسألته عن قول الله سبحانه: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٖ يَطۡعَمُهُۥٓ﴾ [الأنعام:١٤٥]؟

فإنما هو خلاف على اليهود فيما كانوا يحرمون ما لم يحرم الله من أشياء كانوا

---

(١) لأي شيء هذا التعليل؟ وهو نقض لما قبله؟ وما معنى قوله عليه السلام: «ألا ترون أن الزوج والزوجة قد يرثان وإن لم يكن..إلخ»؟ فسر عليه السلام الآية بالقرابة المتوارثون، وأراد أن الوراثة غير منحصرة فيما تضمنته الآية؛ لأنه قد يرث غير القريب النسيب، ألا ترى أن الزوج والزوجة يتوارثان وليس بينهما قرابة نسب، وبهذا التوجيه ينحل الإشكال. (من خط السيد العلامة المجتهد محمد بن عبدالله عوض المؤيدي حفظه الله).

يحرمونها، وخلاف على أهل الجاهلية أيضا في تحريم أشياء كانوا يفترون على الله فيها الكذب فلا يستحلونها، وهي أشياء تكثر عن أن تعد فيما كتبنا لكم من هذا الكتاب، وليس مما يحتاج إليه فيما سألتم عنه من الجواب، وليس يحرم في مأكل ولا مطعم إلا ما حرم الله في كتابه المحكم، ومن ذلك ما ذكر في هذه الآية وغيرها من أشياء كثيرة لا يحتاج في جوابكم هذا إلى تفسيرها.

منها: أكل أموال اليتامى ظلما.

ومنها: أكل ما جعله الله من الربا محرما.

ومنها: أكل أموال الناس بالباطل، كثيراً مما نهى الله عن أكله لكل آكل، فقال سبحانه: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ١٨٨﴾ [البقرة]، وقال سبحانه: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ١٣٠﴾ [آل عمران]، وقال سبحانه: ﴿لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ٢٩ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ٣٠﴾ [النساء]، فحرم الله هذا كله إذا كان لمسلم ملكا ومالا، مواتا كان أو حيوانا، ولم يحرم سبحانه على طاعم أن يطعمه من حيوان الأنعام إلا ما ذكر الله في الآية مما خصه بالذكر من الحرام، فأحل سبحانه ذلك كله مستحلا، ولم يحرم شيئا منه تحريما، فأحل ما حرم منه وفيه لمن اضطر من المؤمنين إليه، وفي إحلاله لذلك وإفضاله وما من به فيه من جلاله ما

يقول سبحانه: ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ۝١١٥﴾ [النحل]، وليست المغفرة هاهنا من ذنب ولا عن حرام مرتكب، ولكنها مغفرة تخفيف ورحمة فيما وضع من التكليف.

وسألته عن قول الله سبحانه: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ [هود:١٠٨]؟

فهي سماوات الآخرة وأرضها الباقية، وليست سماوات هذه الدنيا ولا أرضها التي هي زائلة فانية. وأما {إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ} فإنما هو [إخبار] عن قدرة الله على إفنائها إن شاء، وذلك فهو كذلك؛ إذ كان هو الذي خلق وأنشأ، لأنه لا يقدر أحد أبدا على أن يبقي شيئاً [شاء](١) تخليده وإبقاءه إلا من يقدر أن يفنيه، فلم يشاء سبحانه إفناءه، ولكنه شاء تخليده وإبقاءه، وأخبر بقدرته إن شاء على الإفناء كما قدر على الإبقاء، وأن أهل الجنة فيها بإبقائه لهم باقون، فإنهم خالدون فيها أبدا لا يفنون، وكما لا تفنى أرضهم فيها ولا سماؤهم، فلذلك لا يفنى -ما بقيت الجنة- بقاؤهم، والحمد لله الذي لا يخلف وعده، ولا يخلد من الأشياء إلا ما خلده.

وسألته عن قول الله سبحانه: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ ۝١٢﴾ [يس]؟

فقال: فإنه يقول سبحانه: في علم عليم، ولا يتوهم أن ذلك إمام من الكتب، وأن اللوح لوح من خشب، فإنما يراد بها ومثلها إحاطة الله بعلمها كلها؛ لأن أحفظ ما يحفظ الآدميون ما يوقعون في الكتب ويكتبون، فمثل الله ذلك لهم من

---

(١) ظنن بها بين المعقوفين في هامش المخطوطة.

علمه وحفظه بما يعرفون، وأخبرهم أن الذي عنده سبحانه من ذلك وفيه كله على خلاف ما يصفون، لفرق ما بينه وبين خلقه في كل صفة، وليعرفوه في ذلك كله من الفرق بما يجب من المعرفة.

وسألته عن قول الله سبحانه: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾؟

فليست عليهم بتحية ولا تسليم، ولكنها جهرة(١) لهم وقطعه بينه وبينهم وتكليم.

وأما ما سألت عنه من: ﴿وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ۝٤﴾ [الرحمن]، فتأويله يخضعان لله ويذلان بكل ما فيهما من أصل وفرع، أو مفترق من أفنانهما أو مجتمع.

وعن إمام(٢) سألت في إثبات الإمامة هل تجوز الصلاة خلفه إذا كان موافقا في غيرها من أمر الدين؟

فقال: إن الولاية واجبة من الله عز وجل بتنزيله في كتابه لكل فاضل على كل مفضول، ولكل عالم من الخلق على كل مجهول، وأولى الناس بها أقربهم إلى الله قربة، وأرفعهم عند الله منزلة ودرجة، وأولئك هم السابقون، كما قال الله سبحانه: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ۝١٠ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ۝١١﴾ [الواقعة]، فأولاهم بها أقربهم إلى ربهم، وإمامهم فهو أعلمهم، وأعلمهم فهو أسبقهم إلى الإيمان والإحسان، وأعرفهم وأحكمهم بما نزل الله في الفرقان.

---

(١) لعلها: هجره.

(٢) كذا في الأم. (من هامش المخطوطة).

وفي ذلك وكذلك ما يقول الله سبحانه: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ۝٧٦﴾ [يوسف]، ويقول سبحانه: ﴿أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لَا يَهِدِّي إِلَّا أَنْ يُهْدَى فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ۝٣٥﴾ [يونس]، في كل هذا يخبر أن الولاة والأئمة في كل قرن وزمان هم الذين يعلمون، وفي كل هذا وما لم يذكر من أمثاله مما نزل في الكتاب دلالة بينة ظاهرة نيرة لأولي الألباب.

وأما الصلوات فلا يجوز فيها أن يؤتم إلا بكل زكي بر بريء من الملاعب كلها والملاهي. ومن لم يعرض عن اللغو -وهو كل لعب ولهو- فليس من عباد الله، وعباد الله الذين ذكرهم بالإعراض عن اللغو فهم العباد لله، كما قال سبحانه: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ۝٦٣ وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا ۝٦٤ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ۝٦٥ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ۝٦٦ وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ۝٦٧ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ۝٦٨ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ۝٦٩ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ۝٧٠ وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا ۝٧١ وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ۝٧٢﴾ [الفرقان]، وقوله سبحانه: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ﴾ [القصص:٥٥].

ومن الزور ولهو الأمور الغناء والدف، واللعب والعزف، وما يعرض عن

ذلك من سمعه وحضره، ولا من لم ينكر منكره. وقد ذكر أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان يقول: ((صوتان ملعونان فاجران في الدنيا والآخرة: صوت عند نعمة، لعب ولهو ومزامير شيطان، وصوت عند مصيبة، خمش وجه وشق جيب ورنة شيطان)).

فمن اشتبه عليه مدكر[(١)] الإمامة، وما حكم الله به من ذلك على الأمة، ولم يدر أفرض الله ذلك عليه أو لم يفرضه، ولم يعلم من ذلك ما يلزمه- فهو ضال غير مهتدي، وأمره في ذلك مسخوط عند الله غير مرضي، لأن الله كلفه العلم كما كلفه العمل، فجهل من ذلك ما علم[(٢)]، فعليه أن يتعلم ما جهل، فإن لم يفعل كان مقصرا، ولم يكن مهتدياً ولا برا.

...........[(٣)] ثوب كافر أو جسد كافر وهو مبتل؟

فقال: ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ كما قال سبحانه ﴿فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ﴾ [التوبة:٢٨]، وهو في النجاسة كالدم المسفوح الكثير، وكالميتة ولحم الخنزير، وإن أصاب شيء من ذلك كله من المشرك أو غيره جسد مسلم أو ثوبه، أو مصلى مسلم أو مسجده، فبان في شيء من ذلك قذر أو نتن ظاهر مبين- غسل ذلك وطهر كما يغسل البول والعذرة، وإن لم يبن من ذلك أثر ولم يظهر به قذر

---

(١) قوله عليه السلام: «فمن اشتبه عليه مدكر الإمامة»: أعتقد أن الأصل: فمن اشتبه عليه أمر الإمامة. (من خط السيد العلامة المجتهد محمد بن عبدالله عوض المؤيدي حفظه الله).

(٢) قوله عليه السلام: «فجهل من ذلك ما علم» المعنى: فجهل من ذلك ما عُلم وجوب العلم به فعليه أن... (من خط السيد العلامة المجتهد محمد بن عبدالله عوض المؤيدي حفظه الله).

(٣) بياض في المخطوط.

ولا نتن كان كما لم يكن، وكما يبقى من ماء الغدران، وما يكون في الأودية من ماء الأمطار، الذي يكون فيه الدم المسفوح الكثير، والميتة والجيف ولحم الخنزير، فلا يتبين في الماء أثر، ولا يظهر فيه نتن ولا قذر، فلا بأس بشربه، ولا في الوضوء به؛ لأن اسم الماء لازم له، وقد قال الله سبحانه: {ماء طهورا}، وما لزم الماء اسمه كانت له طهارته وحكمه، وقد ذكر أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان يتوضأ من بئر بالمدينة يقال لها: بضاعة، وكان يلقى فيها الميتة والجيف وخرق الحيضة، لأنه لا يبين في البئر شيء من النتن والأقاذير، وكذلك ما مس المشرك أو لباسه من ماء مسلم أو ثيابه فليس على المسلم غسله ولا تطهيره إلا أن يبين نتنه وقذره وتغيره، ولا ينبغي لمسلم أن يمس المشرك(١) جسدا أو لباسا، لأن الله جعل المشركين أنجاسا، وليس ينبغي أن يمس المسلم ولا يلمسه، وقد ذكر عن بعض السلف الماضين منهم الحسن بن أبي الحسن البصري أنه كان يتوضأ من مصافحة اليهود والمجوس والنصارى، ولسنا نحن نوجب ما أوجب الحسن.

وسألته عن رجل كان في حداثته وغرته لا يتأهب لوضوء ولا يتنزه من بوله والخمر والمسكر، أيجب عليه أن يعيد ما صلى في تلك الحال؟

قال: من كان كما قلت -رحمك الله- تاب إلى الله من ماضي إساءته وتقصيره، وحافظ فيما يستقبل على ما أمره الله بالمحافظة عليه من أمر الصلاة وغيره، وكان بذلك إن شاء الله مجتزيا، وفيما بينه وبين الله في التوبة مكتفيا.

وسألته عن رجل ترك الصلاة في حداثته عشر سنين، وكان شارب مسكر ثم

(١) لعلها: لمشرك.

تاب، أيعيد الصلاة أم كيف يصنع؟

فأجاب فقال: من ترك صلاته عشر سنين مقلا كان في الترك أم مكثراً تاب إلى الله فيما يستقبل من ترك صلاته، كما يتوب إلى الله من غير ذلك من سيئاته، وإن كانت توبته إلى الله من ذلك في نهار صلى مثل ما ترك من صلاة النهار كله، وإن كانت توبته إلى الله من ذلك ليلا صلى مثل ما ترك من صلاة ليله، وليس عليه ما مضى من السنين إذا تاب إلى الله رب العالمين، ولو لزمه قضاء الصلوات لزمه قضاء غير ذلك من الفرائض الواجبات.

وسألته عن رجل له أبوان وأولاد فساق فماتوا أو مات منهم ميت أيستغفر لهم؟

قال: من كان والده أو ولده فسقة أو فجرة لم يحل له أن يستغفر لهم؛ لأن الاستغفار طلب وشفاعة، وقد قال الله سبحانه في الملائكة الذين اصطفاهم: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى﴾ [الأنبياء:٢٨]، وقال سبحانه في إبراهيم صلى الله عليه: ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾﴾ [التوبة].

وقال سبحانه: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾﴾ [التوبة]، فكذلك الاستغفار لا يحل لمن وعده الله بالعذاب الأليم؛ لأن في ذلك طلبا لإخلاف الوعد والوعيد، ولا يجوز طلب ذلك من الله الولي الحميد المجيد الذي لا يخلف وعده، ولا يظلم أبدا عبده، ولا تستوي منزلة الأبرار والفجار عنده،

كما قال سبحانه: ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴿٢٨﴾﴾ [ص]، وقال سبحانه: ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴿٣٦﴾﴾ [القلم]، يريد سبحانه: مالكم لا تفهمون ولا تعلمون.

وسألته عن رجل مات وعليه صلوات كثيرة فاتته، أيقضيها عنه ولده من بعده؟

قال: الصلاة -يرحمك الله- لا يقضيها ولد عن والد، ولا أحد من الناس كلهم عن أحد؛ لأن الصلاة لا تكون أبدا إلا من مصليها، ومن قصد إلى الله بها وخشع فيها، وليست كالحج؛ لأن الحج له بلغة ومعونة، وفي الحج نفقة للحاج وكلفة ومؤنة.

وسألته عن رجل له قرابات فسقة لا يصلون ولا يصلحون، أيقطعهم أم يصلهم، فإن قطعهم أيكون قاطعا لرحمه أم لا؟

قال: ليس لأحد من المؤمنين أن يواد أحدا من الفاسقين، كان أبا أو ابنا أو أخا أو قرابة؛ لقول الله سبحانه: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا ءَابَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ﴾ [المجادلة:٢٢]، ولقوله سبحانه: ﴿فَأَعْرِضْ عمن تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴿٢٩﴾﴾ [النجم]، والإعراض: فهو الهجرة والمجابنة، وسواء في ذلك القرابة وغير القرابة.

وسألته عن الأعجمي الذي لا يقيم القراءة، وعن المرأة التي لا تحسن القرآن، أتجزي عنهم صلاة؟

قال: على الأعجمي -رحمك الله- وعلى النساء الأعجميات أن يقرأوا في صلاتهم ما تيسر من القرآن بالعربية؛ لأن الله سبحانه يقول: ﴿فَاقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾ [المزمل:١٨].

وسألته عن رجل له جيران فساق يعلنون الشرب، ويأتون المنكر، فإن أنكر عليهم ساءوه وآذوه، أيجوز له الكف عنهم؟

قال: ينكر المنكر على من أتاه وإن ذلك خالفه وأسخطه وساءه، إلا أن يتقي منه تقية أو يخشى منه مضرة أو بلية؛ لقول الله سبحانه ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً﴾ [آل عمران:٢٨].

وسألته عن رجل صلى خلف إمام مخالف، أيقتدي بصلاته أم كيف يصنع؟

قال: من صلى مع إمام لا يقتدى به لم يصل بصلاته، وصلى صلاته لنفسه، وكذلك كان يفعل الصالحون من آل محمد صلى الله عليه وآله وسلم؛ لأن المصلي إنما يصلي صلاته على عقدة ونية وعلى مهله، فإن صلى الصلاة بغير ذلك لم يكن له صلاة، قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: ((لا يؤمن فاجر برا، ولا أعرابي مهاجرا))، وقال صلى الله عليه وآله وسلم: ((إن سركم أن تزكوا صلاتكم فقدموا خياركم))، وقال صلى الله عليه وآله وسلم: ((صلاتكم صلاة إمامكم، إن صلى قاعدا فصلوا قعودا، وإن صلى قائما فصلوا قياما))، وإذا لم يقبل [الله] صلاة الإمام لم يقبل صلاة من خلفه، وإنما يتقبل صلاة من اتقاه

وخافه، والتقوى هي الإيمان والبر والإحسان، ولا يثبت الإيمان بحكمه ولا باسمه إلا لمن عرف به، والمعرفة بذلك فلا تكون إلا بأحد الوجوه الثلاثة: إما بعيان لذلك ومشاهدة، وإما بأخبار متواترة مترادفة، وإما بخبر من ذي ديانة وثقة وطهارة وأمانة، فمن لم يكن معرفة إيمانه بأحد هذه الوجوه الثلاثة الموصوفة لم تكن حقيقة إيمانه أبدا عند أحد بمعلومة ولا معروفة.

سئل: لأي معنى كره حف الشوارب؟

فقال: لما جاء في ذلك عندنا من الأثر، ولما فيه من تشويه البشر، ولكن يؤخذ أخذا وسطا، لا مقصراً ولا مفرطا، ففيه إن شاء الله ما كفى وأغنى.

وسألته عن معنى: لا حول ولا قوة إلا بالله؟

فقال: لا حول ولا زوال ولا انتقال ولا قوة يريد لا احتيال إلا بالله وبقوته لمن قوي أو حال في كل شيء من علمه(١)، فكل ما كان فيه من قوة لذلك أو عليه فبالله سبحانه كانت.

وسألته: كيف يسلم على مقابر العوام من عباد الله الصالحين فقال: يسلم إن شاء الله على المؤمنين والمؤمنات الصالحين والصالحات، وفي سلامه عليهم ما كفاه إن شاء الله فيهم.

وسألته عن الصدقة على سؤَّال العامة وأهل الأخلاق.

فقال: لا بأس بالصدقة على كل سائل إن شاء الله من كان، ولا أحسبك إلا قد سمعت أن رسول الله صلى الله عليه قال: ((أعطوا السائل ولو [جاء] على فرس)).

---

(١) لعلها: عمله.

ويقول في التلبية: إن الحمد والنعمة لك. يعني بالكسر.

وقال: جاء عن أبي جعفر محمد بن علي أنه كان يقول: والله ما صلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الضحى قط إلا يوم فتح مكة، وجاء عن أمير المؤمنين صلوات الله عليه أنه كان يقول: (يا بني، إني لا أنهاكم عن الصلاة، ولكني أكره لكم خلاف رسول الله صلى الله عليه).

وسألته هل على النساء الجهر في القراءة في الصلاة التي يجهر فيها؟

فقال: لا يجهرن النساء من القراءة فيما يجهر فيه إلا بقدر ما يسمعن أنفسهن ولا يسمعه غيرهن؛ لأن خفضهن لأصواتهن من سرهن(١).

وسألته كيف يكره الصلاة على اللبود والمسوح والسجود عليها ولا يكره لباسها؟!

فقال: يكره ذلك لأن من التذلل له وضع الوجه والجبين على الأرض وقرارها وترابها، لأن السجود إنما هو تذلل لله سبحانه، وخشوع من العبد فيما بينه وبين الله عز وجل، وإن صلى على شيء مما ذكرت فلا نزعم أن صلاته فاسدة، ولا أن عليه الإعادة.

وقال: لا يدخل الميت لحده إلا في أكفانه، وقد سمعنا ما سمعت، يعني: حديث القطيفة التي بسطت في لحد النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وليس كل ما يروى يصح، وقد يكون أن يوضع فيه القطيفة وغيرها ثم ترفع عنه.

وسألته هل تحتجب المرأة الشابة عمن ليس لها بمحرم؟

---

(١) لعلها: سترهن.

فقال: تفعل المرأة من ذلك إن شاء الله ما أجاز الله لها في كتابه.

[وسئل عن ولاية عقود النساء] من العربيات؟

قال: الأمر في ذلك إلى الأولياء، وإليهن في ذلك السخط والرضا.

وقال رضي الله عنه: رأيت المصحف بخط علي بن أبي طالب صلوات الله عليه، وفيه أيضا خط سلمان والمقداد، وهو كما أنزل، وهو عند بعض ولد الحسن، وإن ظهر الإمام فستقرئونه، وليس بين ذلك وبين الذي في أيدينا زيادة ولا نقصان، إلا مثل: قاتلوا اقتلوا وأشباهه، لا في تقديم السور وتأخيرها.

وسألته عن الماء على الطرقات فيشرب منه المؤمن والفاسق أيؤجر على ذلك؟

فقال: يؤجر إن شاء الله، وقد ذكر أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: ((في كل ذي كبد حرى أجر))، وقد سقى الله الناس من قبل الإسلام.

وسألته عن مرارة الذئب والسباع وكل ذي مخلب من الطير؟

فقال: لا بأس إذا تعولج بها وتداوى وكان فيها شفاء، وأما الحدأ والخنزير فلا ينتفع بهما، فذاتهما محرمان.

وسألته عن الثياب التي تشترى من الأسواق من قوم ليست لهم معرفة، أيغسل ذلك أم لا؟

قال: إذا كانت نقية ليس فيها دنس اكتفي بنقائها.

وسألته عن الكفار وأهل الكتاب حرام علينا طعامهم وشرابهم ونكاحهم؟

فقال: لا يأثم أحد في قوته وقوامه إذا أخذه من حلاله، وإنما الإثم في الإفساد والإفراط.

وأما النكاح فلم يحله الله إلا بالإسلام والملة.

وسألته عن الأخفاف التي تشترى من الأسواق والصلاة فيها، لا يدرى ذكية أم غير ذكية، وكذلك اشتراء السمن والزيت في زقاق أو ديابي، لا يدرى كيف كان أصل التذكية، هل يجوز أكل هذه الأشياء والاصطباغ بها؟

فقال: أما الأخفاف فإذا خاف ألا تكون ذكية كان الذي هو أفضل عندنا وعند آل رسول الله كلهم جميعاً ألا يصلي فيها ولا يتوجه ولا تشترى، وما كان من السمن والعسل والزيت وغيرهما من إدام أو طعام فلا بأس أن يشترى إلا أن يتغير أو يتبين فيه أثر أو قذر.

وسألته عن رجل له ولد يخالفونه في الرأي والدين، هل يجوز له أن يحرمهم ميراثه ويزويه عنهم؟

فقال: إذا خالفوه في التوحيد وشبهوا خالقهم بشيء من خلقه فنعم إن قدر أن يحرمهم ويزويه عنهم، وإن كان عند الله سبحانه أعذر وأولى(١).

وسئل عن الخمس في أموال الناس من هذه الفتوح التي كانت ولا تزال في أيدي المسلمين، لم يخرجوا منها الخمس من سهم آل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ولم يعطوا؟

فقال: ليس على أحد في ماله من عين أو أرض أو عقار إلا ما فرض الله عليه

---

(١) قوله عليه السلام: «وإن كان عند الله سبحانه أعذر وأولى»؟ معناه: أنا قد أفتيناه بجواز حرمان ولده من الميراث، وإن كان حرمانه عند الله أحرى وأولى؛ لما حكم الله به على لسان نبيه صلى الله عليه وآله وسلم من عدم التوارث بين أهل ملتين مختلفتين. (من خط السيد العلامة المجتهد محمد بن عبدالله عوض المؤيدي حفظه الله).

من الزكوات من الفرض، ولا يعمل حتى يقوم إمام عدل فيدفعها إليه، أو يتحرى صاحبها أهلها فيدفع إليهم الزكاة، وأما الأخماس فهي لآل الرسول صلى الله عليه وعليهم.

وسألته عن آدم صلى الله عليه حيث أسكنه الله الجنة، ما كانت الجنة مخلوقة أم لا؟

فقال: الجنة مخلوقة في غير سماء ولا أرض، وقد أسكن الله آدم وزوجته الجنة، وأخرجهما منها بعصيانهما وأكلهما الشجرة.

وسألته عن الذبيح أهو إسماعيل أو إسحاق؟

فقال: قد صح أنه إسماعيل على ما في كتاب الله من التنزيل؛ لأن الذبح والقربان بمنى، وفي ذلك دليل على أنه إسماعيل، لأنه كان بمنى، وإسحاق يومئذ بالشام، إلا أن اليهود تأبى وتزعم أن الذبيح إسحاق، وليس قولهم في ذلك محمودا.

وسألته عن بلد فتح بالسلطان الجائر، ولا يدرى كيف فتح عنوة أو صلحا، إلا أنا وجدنا أرضها ودورها في أيدي آبائنا، وورثناها عن الآباء واشتريناها، والسلطان قد وضع عليها خراجا معلوما يأخذه منها في كل سنة، فهل يجوز ما يأخذ السلطان منه أن يحتسبه من العشر، فإنه إذا أعطى السلطان العشر لم يبق ما يكفيه لعياله، وهو ذو عيال؟

فقال: أما ما ورث من الآباء وراثة ولم تكن الأمور في فساده بينة فملكه لأهله ولمن ورثه، وأما العشر فما أخرجت الأرض على من ملك من مسلم

فلازم، وترك ذلك والتقصير فيه على صاحبه محرم، وما أخذ من ذلك من لا يستأهل الأخذ فهو واجب العشر على صاحبه فيما بقي في يديه، ولا يزكى ما أخذ السلطان، وقد قال بعض القائلين: عليه العشر في الجميع، وكيف يجب العشر فيما لم يملكه وما قد غصب عليه وأخذ من يديه؟ وإنما جعل الله العشر في ما يملكون.

وسألته عن الإسلام؟

فقال: هو الاستسلام لله والاعتصام بالله، قال الله لا شريك له في إبراهيم صلى الله عليه: ﴿أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٣٠﴾﴾ [البقرة].

وسألته عن الإيمان؟

فقال: هو الأمان من كبائر العصيان، من الشرك وغيره من كل ما وعد الله عليه من ركبه -وسمى به من أتاه من الفجار- النار.

وسألته عن الضحية للمفرد؟

فقال: أحب إلي أن يضحي إلا أن يكون معسرا، وليس بلازم له.

وسئل القاسم بن إبراهيم عليه السلام [عن التوجه إلى بيت المقدس؟ فقال]: إنها كانت صلاة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى بيت المقدس بضع عشر شهراً لا أنها(١) كانت قبلة بني إسرائيل، ثم نقل الله القبلة إلى بيته الحرام، وهي قبلة الإسلام ما بقي الإسلام.

وقال القاسم عليه السلام: ليس لإمام أن يقول: إني إمام، لأن هذا إنما يكون

---

(١) في المطبوع: إلا أنها.

للرسول عليه السلام، ولذلك لم يقل علي صلوات الله عليه: إني إمام، لإشارة النبي صلى الله عليه وآله وسلم وكثرة دلائله عليه، ولما بان به وسبق إليه، وكذلك الإمام بعده له آية تدل عليه، وهي العلم والبيان، والسبق إلى الخيرات، والدعاء إلى الله والقيام بأمره.

وحدثني محمد بن حاتم قال: قال أبو محمد: قال علي بن أبي طالب صلوات الله عليه لعبدالله بن جعفر: إذا قمت إلى الصلاة فارفع بصرك موضع سجودك، ثم تستفتح بالقراءة، فتجعل لسانك ترجمانا لقلبك، ولا تغيب قلبك عما يقول لسانك، لا تعنى بشيء من شانك، إلا بما أنت فيه من صلاتك، ولا تذكر في تلاوتك غير ما تتلوه، ويكون همك الآية التي تتلوها، فإذا فرغت من القراءة وصرت إلى الركوع لم تذكر إلا التكبير وحسن الخضوع، وكذلك إذا اعتدلت في القيام لم تذكر إلا الركوع، وكان ذكرك السجود، فإذا فرغت من ركعة حفظتها، ثم ابتدأت الأخرى تصنع فيها كما صنعت في الأولى، لا تذكر غير قراءتك وغير حفظك؛ لأن الصلاة لا بد لها أن تحصى لا يزاد فيها ولا ينقص منها، حتى تؤدي إلى الله عز وجل فرضك كما أمرك بعونه وتوفيقه.

وسألته عمن وجب عليه حد من حدود الله، وليس به إمام يحده كيف يصنع؟

قال: يتوب إلى الله فيما بينه وبينه، ومن تاب إلى الله من ذلك كان مجزيا له إن شاء الله؛ لأن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ذكر عنه أنه قال: ((من أتى شيئا من هذه القاذورة فيستتر بستر الله، وليتب منها إلى الله)).

وسألته عن أموال الجند وأعوان الظلمة وأنفسهم؟

فقال: أما ما كان من أموالهم التي كانت لهم وراثة قد أحرزوها في بيوتهم، فلا يحل أخذها، إلا أن يكون مال من أموال الله قد عرف أنه لله فيحكم فيه الإمام بحكم الله، وسنة أمير المؤمنين صلوات الله عليه جارية من يوم الجمل.

وسألته عن نحل لرجل ثارت فذهبت فأخذها رجل فجمعها، فجاء صاحبها الأول يطلبها؟

فقال: النحل ذباب ليس كسائر ما ملك الله العباد من أموالهم، وأرجو ألا يكون على من أخذها بأس، وإن نوزع رجل فردها على صاحبها فهو أفضل إن شاء الله.

وسألته عن أكل الحوت الذي يسمى الطير وما أشبهها من الحيتان؟

فقال: هو حلال طيب لا بأس به، وهو من صيد البحر الذي أحل(١) للعباد.

وسألته عمن هدم مدينة من مدائن المسلمين بأمر كافر وفيها ركز بيوت شرابهم أو عمل في هدمها؟

فقال: إذا اتقى وخاف ولم يكن إلا المحضر ولم يهدم ولم يفسد لم يكن عليه في ذلك شيء، فإن هدم وأفسد شيئا لأحد يعرفه فيستحله منه أو يصالحه، وإن لم يعرفه ولم يدر لمن هو تاب إلى الله فيما بينه وبينه، وسلم إن شاء الله من الإثم بتوبته.

وسألته عن رجل فاتته صلاة حتى دخل وقت غيرها بأيهما يبدأ؟

فقال: يبدأ إن شاء الله بالتي دخل فيها، ثم يصلي مثل الصلاة التي قبلها.

---

(١) في المخطوط: أحله.

وسألته عن الرجل يكون عنده الوديعة فيقلبها ويضمنها ويربح فيها، لمن يكون ربحها؟

فقال: أحب شيء إلي إن فعله ألا يكون شيء من الربح له؛ لأن الوديعة ليست له بمال، وكذلك ما نال بها فليس له بمال، وليس لصاحب الوديعة أن يقلبها إلا برضا صاحبها وإذنه؛ لأن تقليبه لها مخاطرة وظلم واعتداء، ويدفع الربح إلى الإمام فيفعل الإمام فيه ما يرى.

وسألته أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: ((لله خيرتان من علمه من الناس، فخيرته من العرب قريش، وخيرته من العجم فارس)).

قال: وذكر أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: ((والذي نفسي بيده لو كان الدين منوطاً بالثريا لنالته رجال من فارس، وأسعدهم به فارس)).

وذكر[١] أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال لبني هاشم: ((اطلبوا الولد في نساء العجم؛ فإن في أرحامهن بركة)).

وسألته عمن حج وهو فاسق في دين الله؟

فقال: حجته غير مجزية له، ولا يقبلها الله عنه، لقول الله سبحانه: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ۝٢٧﴾ [المائدة]، وليس بمتقٍ من كان من الفاسقين.

وسألته عن البيعة؟

فقال: لا تجوز البيعة إلا لإمام قد بان بعلمه وفضله وثباته. وقال: لا يجوز الغزو مع من ظلم وتعدى؛ لأن الغازي معه عون من أعوانه على ما هو عليه من

---

(١) في المخطوط: وسألته وذكر.

إفساده وعمايته.

وسألته هل يجوز أن يختلف إمامان في عصر واحد؟

فقال: لا يكون هذا أبدا.

وهل يجوز أن يتساويا في عصر في حكم واحد في كل الخصال، لا يفضل أحدهما صاحبه، فيستوجبان الإمامة؟

فقال: هذا لا يكون أبدا، وفي بطلان هذا ما قال الله لا شريك له: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ۝٧٦﴾ [يوسف].

وسألته متى يلزمني فرضه؟

فقال: إذا عرفته فقد لزمك فرضه.

فقلت: الإمام يعرف الناس بنفسه؟

قال: يعرف الناس بنفسه بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والواجب على الناس أن يطلبوه في معدنه.

قلت: فأين معدنه؟

قال: آل الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، يكون أزهدهم وأعلمهم وأورعهم، ويبين نفسه بالدعوة إلى الحق.

وسألته عن الأرض هل تخلو من قائم لله بحجة؟

فقال: لا تخلو من قائم لله بحجة، وذلك بعد النبي صلى الله عليه وآله وسلم؛ إذ كانت النبوة ختمت به.

وقال أبو عبدالله محمد بن القاسم: كان أبي رضي الله عنه يقول في هذه المسألة: إن

الأرض لا تخلو من حجة لله، والحجة عنده كتب الله وحقائق برهانه، وهذه حجة الله على جميع خلقه، وإنه لا بد أيضا في كل قرن من أن يكون فيهم عالم هو أفضلهم وأعلمهم، وإن لم يبلغ علم من مضى قبله، فهو في أيامه ودهره في فهمه وعلمه، وإن قصر [عن] مبلغ أفاضل العلماء من آل النبي الذين مضوا فيما تقدم في أول الإسلام وخلا؛ لأنه لا يقول أحد يعقل وينصف: أن كان بعد علي عليه السلام من علماء آل النبي صلى الله عليه وآله وسلم، [من] كان من العلم والفقه على مثل ما كان علي صلى الله عليه قد أحاط به وآتاه، كما لم يكن علي عليه السلام في فضل علمه يبلغ ما آتى الله النبي صلى الله عليه وآله وسلم من فضائل الحكمة والعلم والفضل في جميع أحواله.

وأما ما كان يروى: أن ((من مات لا إمام له مات ميتة جاهلية)) فتفسيره واضح مشروح، أن الله قد فرض على خلقه في كل حين إقامة أحكامه وشرائعه التي نزل في كتابه وسنن نبيه، ولا يقيم ما فرض الله من الأحكام إلا أن يحكم بها الإمام، فإن لم يكن إمام يقيمها ويحكم بها كان على الناس طلبه حتى يقيموه للأحكام وينفذها، فإذا كانت دار الإسلام قد غلب عليها أئمة الجور لزم أهل الإسلام مجاهدتهم وإزالتهم حتى يقيموا إماما عدلا، يؤمهم ويقيم أحكامهم عليهم، وينفذ مقاسم الفيء التي أمر الله بقسمها فيهم، فإن كان الغالب عليهم الجورة من الأئمة الظلمة كان الفرض من الله فيهم المحاربة والمجاهدة، فإنما الناس أبدا بين أمرين، إما أن يكون مع إمام حق يقوم بأحكام الله في الدين، فيكونوا مؤتمين بإمام حق ورشد في الدين، وإن كانوا في دولة الظالمين العاصين فيلزمهم أن يكونوا لهم مجاهدين محاربين، فهم أيضا في هذه الحال مأمومين،

والناس في كل حين بين فريضتين من الله لازمتين فيما حكم الله به من أحكام الدين: فرض طاعة إمام حق إن كان ظاهراً قائما، أو فرض مجاهدة إمام جور إذا كان غالباً ظالما.

وسألته من أين جاء فساد إمامين في عصر واحد؟

فقال: أما الإمامان فلا يخلوان من أن يكون أحدهما أفضل من الآخر، فيكون المفضول بفضل الآخر عليه قد زالت إمامته، ويلزمه تقديم الفاضل في الدين والعلم وطاعته، وذلك أن الله يقول في كتابه: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ۝٧٦﴾ [يوسف]، وفي هذه المسألة جواب يكتفي به من كان ذا لب شافي؛ لأنه واضح مبين مفهوم كافي.

عن أبي إدريس عن أبي الجحاف قال: قال علي رضي الله عنه: (من مات ليس له إمام مات ميتة جاهلية إذا كان حراً تقيا).

عن أبي جعفر أنه كان يقول: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حين رجع من غزوة حنين وأنزلت عليه: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ۝٣﴾ [النصر]، (يا علي ويا فاطمة، قد جاء نصر والله والفتح، ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا، فسبحان ربي وبحمده إنه كان توابا، وإني لم أؤمر أن أسبح ربي وأستغفره إلا لما حضرني من لقاء ربي).

ثم أنزلت على إثرها: ﴿الم ۝١ أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ

﴿الْكَاذِبِينَ ۝٣﴾ [العنكبوت]، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: يا علي ويا فاطمة، إن الله قد فصل الفتنة على الذين يقولون: إنا لنعلم الذين صدقوا في قولهم، ونعلم الكاذبين في إيمانهم، فهذا وعد واقع واجب.

ثم أنزلت: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ۝٤﴾ [العنكبوت]، قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: يا علي ويا فاطمة، قد علم الرب أن أقواما من بعدي عند الفتنة سيعملون السيئات ويحسبون أنهم سابقون.

فقال علي رحمة الله عليه: فكيف يحسبون أنهم يسبقون يا رسول الله ومن ورائهم الموت؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: يا علي، إنهم لم يسبقوا قضاء الله الذي قضى فيهم الموت.

ثم أنزل: ﴿مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۝٥﴾ [العنكبوت]، بحق(١) أن من رجا لقاء الله أن يستعد لأجل الله، وأن يكون تائبا تابعا لطاعته، مجتنبا لخلاف الله ومعصيته، وأن يعلم أن الله يعلم ما يعمل ويسمع ما يقول؛ ولذلك قال الله سبحانه: {وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۝٥}.

ثم أنزل الله: ﴿وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ۝٦﴾ [العنكبوت]، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ((قد قضى الله على المؤمنين عند الفتنة بعدي الجهاد)). فقال علي: يا رسول الله، علامَ يُجَاهَدُ الذين يقولون آمنا؟! فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ((تجاهدونهم على الإحداث في الدين)). فقال علي: يا رسول الله إنك تقول: تجاهدونهم، كأني سأبقى بعدك إلى مجيء الفتنة؟

---

(١) لم تفهم الكلمة في المخطوط، وليست بحق.

فأعوذ بالله والرسول أن أؤخر بعدك، فادع إلى ربك أن يتوفاني قبل ذلك. فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ما كنت حقيقا أن تأمرني أن أدعوا الله لك أن يقدم أجلك قبل ما أجَّل الله وقضى! والله يقول سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا﴾ [آل عمران])).

فقال علي رضي الله عنه: يا رسول الله، فما هذه الأحداث التي نجاهدهم عليها؟

قال: ((ما خالف القرآن وخالف سنتي، إذا عملوا في الدين بغير الدين، وإنما الدين أمر الرب ونهيه)).

قال علي: يا رسول الله، فإنك قلت يوم أحد إذ استشهد من المؤمنين من استشهد فأخرت عني لشهادة فرأيت وجدي وأسفي: ((إن الشهادة من ورائك))؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ((فإن ذلك إن شاء الله كذلك، وكيف ترى صبرك إذا خضبت هذه من هذا؟ وأهوى بيده إلى لحيته ورأسه)).

فقال علي رضي الله عنه: ليس ذلك يا رسول الله حينئذ من مواطن الصبر، ولكنه من مواطن البشرى والشكر.

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ((فأعدد قبل خصومتك فإنك مخاصم)). فقال علي عليه السلام: يا رسول الله، أرشدني إلى الفلج عند الخصومة؟! فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: آثر الهدى، واعطفه على الهوى من بعدي إذا عطف قومك الهوى على الهدى وآثروه، واعطف القرآن على الرأي إذا عطف قومك الرأي على القرآن، وحرفوا الكلم عن مواضعه بالأهواء العارضة، والآمال الطامحة، والأفئدة الناكثة، والغش المطوي، والإفك المؤذي، والغفلة عن ذكر الموت والمعاد، فلا يكونن

خصومك أولى بالقرآن منك، فإن من الفلج في الدنيا أن يخالف خصمك سنة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وأن يخالف القرآن بعمله، يقول الحق ويعمل بالباطل، وعند ذلك يملأ لهم ليزدادوا إثماً ويضلوا ضلالا كبيرا، وعند ذلك يتفاخرون بأموالهم وأنسابهم، ويزكون أنفسهم، ويتمنون رحمة ربهم، ويستحلون الحرام والمعاصي بالشبهات والأسماء الكاذبة، ويستحلون الربا بالبيع، والخمر بالنبيذ، والنجس بالزكاة، والسحت بالهدية، ويظهرون الباطل، ويتعاونون على أمرهم، ويزينون الجهلاء، ويفتنون العلماء من أولي الألباب، ويتخذونهم سخريا)).

فقال علي: يا رسول، الله بمنزلة ردة هم إذا فعلوا ذلك أو بمنزلة فتنة؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ((بل بمنزلة فتنة، لو كانوا بمنزلة ردة أتاهم رسول من بعدي يدعوهم إلى الرجعة من بعد الردة، ولكنها فتنة يستنقذهم الله منها إذا تأخرت آجال السعداء بأولياء من أولياء الله، فيهديهم بهم، ويهتدي بهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله.

فقال علي عليه السلام: من آل محمد الهداة أو من غيرهم؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: بل بنا يختم الله كما فتح بنا، وبنا ينقذون من الفتنة كما بنا أنقذوا من الشرك، بعد عداوة الشرك، فصاروا إخوانا في دينهم.

[وسئل] عمن وطي امرأته في شهر رمضان ما عليه؟

فقال: قد قيل: نصف قوته سنة، إلا أنه يلزمه(١) حق الله في غلته.

---

(١) قوله عليه السلام: «نصف قوته سنة، إلا أنه يلزمه حق الله في غلته» المعنى: أنه قد قيل: إن كفارة من وطئ زوجته في نهار رمضان نصف قوته سنة أي: إطعام مسكين ستة أشهر، وليس الأمر كذلك فلا يلزمه أن يخرج من غلة أرضه إلا حق الله أي: العشر أو نصف العشر. (من خط السيد =

[وسئل] أيحل له(١) أخذ الزكاة والعشر إذا كان فيها دخل عليه من غلة أرضه، أو يجب عليه بيع أرضه من الأصل كلها، حتى لا يبقى له قليل ولا كثير؟

فقال: يحل له أخذ العشر والزكاة إذا احتاج إليها وإن كان له مال أو لم يكن له مال، وليس له أن يبيع جميع ماله ويهلك نفسه.

وسئل هل في الحيوان مثل البغال والحمير وغيرها من جميع الدواب شفعة؟

قال: نعم، في كل ذلك شفعة، لأن الشريك أحق بذلك إذا أراد من غيره؛ لما له فيها من الشركة، فالواجب على من باع أن يعرض على شريكه إذا عزم يبيعها.

وسئل هل يجوز(٢) للمرأة شرب الدواء لأن لا تلد، ويسقي الرجل أمته لئلا تلد، ويشرب الرجل ليقطع شهوته؟

فقال: لا يجوز لهم ذلك.

وسئل عمن يقول بالتوحيد والعدل وامرأته لا تقول به؟

فقال: ينبغي له أن يدعو امرأته جاهدا إلى التوحيد لله والإقرار بعدله، وليست المعاندة في ذلك كالجاهلة، لأن المعانَدَة، إباء وإلواء، والجاهلة غلط وخطأ، وقد يتوب المخطئ من خطئه، ويقبل من المهتدين من الهدى ما هو عليه من رأيه، والمعاند الذي لا يقبل ما يلقى إليه من الحق في توحيد الله ليس كالجاهل الذي يتوب من جهله، وينيب إلى الحق بعد ضلاله.

العلامة المجتهد محمد بن عبدالله عوض المؤيدي حفظه الله).

(١) لمن يحل؟ يسأل السائل هل يجب على الفقير بيع أرضه التي تغل ما لا يكفي لتحل له الزكاة. (من خط السيد العلامة المجتهد محمد بن عبدالله عوض المؤيدي حفظه الله).

(٢) في المخطوط: يجب. والجواب يدل على ما أثبتناه.

وسئل عن رجل تزوج بامرأة وهما على غير ما ينبغي من الاستقامة، من الجهل بمعرفة الله، وغير ذلك مما لا يرضي الله، ثما تابا ورجعا، أيجب عليهما تجديد النكاح أم لا؟

قال: هما على نكاحهما الأول ثابتان؛ لأن النكاح إنما يثبت بالأولياء ويصح، والدليل على ذلك الواضح: أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أقر جميع من أسلم من أصحابه وكل من دخل من العرب وغيرهم في دينه على نكاحهم الأول، ولم يأمر بأن يغير ولا يجدد(١) ولا يبدل، وفي هذا ما كفى فيما سألت عنه وشفى.

وسئل عمن ركب كبائر العصيان أيزول عنه اسم الإيمان؟

فقال: من ركب كبائر العصيان زال عنه اسم الإيمان.

وسئل عن رجل أوصى إليه رجل أن يحج عنه من مال الموصي، فلم يفعل الرجل حتى جاء السلطان الجائر فأخذ المال منه؟

فقال: قد أثم هذا الرجل وظلم نفسه في ترك إنفاذ وصية الموصي حتى أخذها واغتصبها الظالم العاصي، فأسلم له فيما بينه وبين ربه أن يبدلها من ماله؛ إذ كان أبطلها بتوانيه وتغافله.

وسئل عن التهلكة؟

فقال: إن ذلك هو الاستسلام للعدو الظالم الذي لا يخاف الله في ارتكاب المظالم.

وسئل عن رجل سعى برجل إلى سلطان جائر: أن لفلان عليه كذا وكذا

---

(١) في المخطوط: يحدث. ولفظ السؤال يدل على ما أثبتناه.

درهما، حتى أخذه السلطان ثأراً[١] لما قال عليه الساعي، وكانت سعايته بزور وكذب، وأخذه لما قال عليه السعاة ظلما وعدوانا، فغصبه ماله؟

فقال: السلطان الجائر هالك بمثل هذا الظلم للمسلمين وقبوله لقول شهود الزور، وتلزم السعاة العقوبة الشديدة، وأن لا يقبل لهم شهادة إلا أن يتوبوا، وليس عليهم غير هذا.

وسئل عن رجل حج حجة الإسلام وهو بمعرفة الله وتوحيده جاهل، إلا أنه اعتقد أن يحج عن نفسه ما أوجب الله من فرضه؟

فقال: هذا هو مجز عنه إن شاء الله، وإن جددها بأخرى بعد المعرفة فهو أحوط له.

وسئل عن امرأة مؤمنة خطبها رجل مؤمن وليس لها ولي؟

فقال: يزوجها أقرب من يليها من عشيرتها، وإن لم يكن لها قرابة فيتولى عقد نكاحها رجل من المؤمنين، ويحضر الشهود، لا بد في النكاح والطلاق من الشهود؛ لخوف المظلمة والجحود.

وسئل عن الشيخ الكبير يطلب رجلا يحج عنه إذا كان لا يستطيع السبيل إلى الركوب لضعفه؟

فقال: لا بأس بذلك أن يطلب رجلاً يحج عنه إذا كان لا يستطيع السبيل لضعفه عن السفر.

وسئل عن امرأة أسلمت مالها إلى بعض ولدها على أن يرزقها أيام حياتها، ثم

---

(١) في المخطوط: ثار.

إنها هلكت في السنة الأخرى أو الثانية؟

فقال: المال لورثتها جميعاً مع الابن الذي أفضت إليه.

وسئل عن رجلين خرجا في طلب سلب الناس، فسلب أحدهما رجلا فأعطى الشريك من السلب؟

فقال: الذي سلب ضامن غارم، وهو الدافع إلى صاحبه السلب، ولا يحل للمدفوع إليه أكل شيء مما أخذ ولا ينتفع به،،إن كان الشريكان تعاونا على الظلامة لزمهما جميعا الغرامة.

وسئل عن قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ((لا تحل الصدقة لغني ولا قوي ولا لذي مرة سوي))؟

فقال: اعلم أن قوله: ذي مرة سوي، والمرة هاهنا القوة، والسوي هو الصحيح الذي ليس به مرض ولا علة فتمنعه من اكتساب المعيشة والبلغة.

وسئل عن رجل قتل ابنه؟

فقال: لا يقتل والد بولده، ولا سيد بعبده، إلا أن يكون قتله ظلماً وفساداً في الأرض واعتداء فيفعل في ذلك إمام المسلمين ما يرى. وأي ابن قتل أباه فعلى الإمام في ذلك النظر بما يراه.

وسئل هل للأب أخذ مال ابنه وهو غني عنه لا يحتاج إليه؟

فقال: الأمر فيه ما جاء عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم من قوله: ((أنت ومالك لأبيك))، وإنما الولد -رحمك الله- هو هبة وهبها الله للأب، قال الله سبحانه: ﴿يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ۝٤٩﴾ [الشورى]، وقال سبحانه في آدم صلى الله

عليه: ﴿فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَالِحًا لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ١٨٩﴾ [الأعراف]، فتفسير {ءَاتَيْتَنَا صَالِحًا} يعنيان: لئن وهبت لنا وأعطيتنا صالحا، {لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ١٨٩} فدعواه كما ترى عطية وموهبة لهما من رب العالمين، وكذلك قالت امرأة عمران: ﴿رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي﴾ [آل عمران:٣٥]، ولا محرراً إلا ما هو لها موهبة وعطية من الله لها(١) من طينة الولد، وماله -كما قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ((لأبيه))- إلا أن يخرجه الأب بتزويج أو غيره من يده(٢)، فيقع المواريث والحقوق، فيأتي أمر مفروق.

وسئل عن امرأة أرضعت جارية هل يجوز لولد زوجها من غيرها أن يتزوجها؟

فقال: إن كانت المرضعة أرضعت الجارية بلبنها من زوجها فلا يجوز لولد زوجها من غيرها أن يتزوجها؛ لأن الجارية أخت الغلام من جهة لبن أبيه، وهو لبن الفحل المنهي عنه.

---

(١) قول الإمام عليه السلام: «ولا محرراً إلا ما هو لها موهبة وعطية من الله لها» المعنى: أن ما نذرت به امرأة عمران هو هبة وعطية من الله لها. (من خط السيد العلامة المجتهد محمد بن عبدالله عوض المؤيدي حفظه الله).

(٢) قول الإمام عليه السلام: «إلا أن يخرجه الأب بتزويج أو غيره من يده»: يقرر الإمام القاسم أن الولد وماله لأبيه ويستدل بالآيتين المتقدمتين، ولكن ما دام تحت يده وفي كنفه؛ فإذا خرج من عنده بتزويج أو غيره فينقطع حق الوالد في ابنه ومال ابنه، ولم يبق من الحق بين الابن وأبيه إلا المواريث والحقوق التي أوجبها الله للوالدين على ولدهما. (من خط السيد العلامة المجتهد محمد بن عبدالله عوض المؤيدي حفظه الله).

وسئل عن المولى هل يجوز نكاحه للعربية؟

فقال: لا نعلم بين علماء آل الرسول في ذلك اختلافاً إذا رضي الأولياء وكانوا أهل عدل وعفاف.

وسئل عن القيام مع من ليس بإمام؟

فقال: لا يجوز شيء من ذلك إلا بإمام أو بولاية من إمام؛ لما يكون في ذلك من الجُمَع الأحكام.

وسئل عن أفضل الحج؟

فقال: ذلك ما فضله رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فهو القدوة، وقد جاء عن علي رحمة الله عليه أنه قال: من تمام حجك وعمرتك أن تحرم من دويرة أهلك، ولا يقرن الحج والعمرة إلا من ساق بدلة.

وسئل متى يقطع التلبية في الحج والعمرة؟

فقال: إذا رميت جمرة العقبة؛ لأن الذي لبى به من حجة حين أحرم وهو بعد فيه، لم يحل له من الصيد والطيب ما حرم، فإذا رمى جمرة العقبة حل له ما حرم الله عليه إلا النساء، حتى يطوف بالبيت لإفاضته، فإذا أفاض وطاف حل له ما كان حراما عليه من النساء قبل إطافته به.

والعمرة فيقطع التلبية فيها إذا عاين البيت المعتمر أو رآه؛ لأنه حينئذ قد بلغ غايته ومنتهاه، وغذا لم ير البيت فهو بعد في أمره، وأول ما هو فيه من التلبية كآخره.

[وسئل عن الحج عن الميت؟]

فقال: لا بأس به، وأقل ما في ذلك فالأجر للميت على تزود الحاج عنه وبلغته وإعانته له على سفره ومؤنته ونفقته.

[وسئل عن] النوافل وأفضل ما في ذلك، أدل دليل من قبل(١) الله سبحانه مثل: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾﴾ [البقرة]؟

فقال: أما أفضل النوافل من الصلاة فصلاة التسبيح، وهي صلاة جعفر بن أبي طالب التي علمه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذ صار إليه بحنين، فقال له صلى الله عليه وآله وسلم: ألا أهب لك، إلا أعطيك، ألا أعطيك، ألا أنحلك؟ قال: حتى ظننت أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سيعطيني ما لم يعطه أحدا قبلي، فعلمني صلاة التسبيح، وهي فمعروفة عند أهل العلم، فمن أراد تعلمها.

وسئل عن أشياء تحرم بها الزوجة على زوجها من غير تكلم بطلاق؟

فقال: من ذلك أن يزني(٢) هو، أو تزني، أو تختلع منه، أو تفتدي، أو ترتد إلى الشرك بعد الإسلام، وفيما ذكرنا في ذلك من البيان ما يقول الله سبحانه: ﴿الزَّانِي

---

(١) قوله عليه السلام: «أدل دليل من قبل» أي: أوضح دليل من القرآن في فضل النوافل ما جاء في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ..﴾. (من خط السيد العلامة المجتهد محمد بن عبدالله عوض المؤيدي حفظه الله).

(٢) قوله عليه السلام: «أن يزني هو أو تزني»؟ المعنى: أنه يحرم نكاح الزانية، وإنكاح المؤمنة للزاني، فإذا زنى الزوج أو الزوجة فرق بينهما؛ لأن الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة والزانية لا ينكحها إلا زان أو مشرك: ﴿الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾﴾. (من خط السيد العلامة المجتهد محمد بن عبدالله عوض المؤيدي حفظه الله).

لاَ يَنكِحُ إِلاَّ زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لاَ يَنكِحُهَا إِلاَّ زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ﴾ [النور:٣]، الآية، وإذا كان ذلك فاسدا منفسخا محرماً كان عقده منفسخا محرما، وقد ذكر أن عليا صلوات الله عليه حد رجلا زنا من أهل القبلة وفرق(١) –لما حد– بينه وبين زوجة له مؤمنة، وفرق رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بين المتلاعنين ولم يصح زنا الزوجة ببينة ولا يقين، وجرى ذلك في اللعان سنة، فكيف إذا كانت زوجية أحدهما منتفية؟

وسئل عن رجل أوصى بوصية موقوفة على مسكنة أهل بيته، ثم إن الله تبارك وتعالى أفاء عليهم واستغنوا؟

فقال: إذا استغنوا ردت في سبيل الخير، مثل مواساة أولي الحاجة، وذوي القربى إن احتاج منهم أحد بعد ذلك، وبني السبيل من أهل الديانة.

وسئل عن أكل ما لم يجر تحريمه في تنزيل من كتاب الله عز وجل من الطير والسباع. فقال: لا يؤكل من ذلك إلا ما أحله عز وجل وبينه في تنزيله في بهيمة الأنعام، والأغنام وغير الأغنام، وصيد البر والبحر، وما خصه الله من ذلك ومثله بالذكر.

وسألته عن أكل الثمار إذا مر بها من غير أن يحمل؟

فقال: لا بأس إذا كان محتاجا إليه، وليس له أن يفسد ولا يتلف فيه تلفا.

[قال محمد بن القاسم] سألت أبي رحمة الله عليه ورضوانه عن قول الله سبحانه: ﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا۝١ فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا۝٢ فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا۝٣﴾

---

(١) في المخطوط: وقذف.

[الصافات]؟

فقال: الصافات صفا فيما أرى -والله أعلم- أنها الملائكة التي وصف الله بذكره وهي واقفة وقفا. والزاجرات: هن الذاكرات التي يعلن بالذكر، ويزجرن فيه بالزجر، والزجر: فهو الرفع للصوت والإعلان فيه بالرجات؛ لأن الصوت الشديد ربما صدع من صخر الجبال ما صلب فأسمع، ولذلك وفيه ومن الدلالة عليه ما يقول سبحانه في تسبيح الملائكة: ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ [الشورى:٥]، خبراً عن رفعهم للأصوات وتسبيحهم، ويتفطرن فهو: يتصدعن، وفوقهن فهو: ظهورهن وذراهن، وهو ما يلي الملائكة صلوات الله عليهم من أعلاهن، يدل على أن الملائكة عليهم السلام الصافات صفا، وأنهم هم الموصوفون بما ذكر من هذه الصفة وصفا، بقولهم صلوات الله عليهم: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾﴾ [الصافات].

وسألته عن قول الله سبحانه: ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا ﴿١﴾ وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا ﴿٢﴾ وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا ﴿٣﴾ فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا ﴿٤﴾ فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا ﴿٥﴾﴾ [النازعات]؟

فقال: النازعات فيما أرى -والله أعلم- هي السحايب المنتزعات بالأمطار من البحار والأنهار، وبما في الأرض من الندوة والبخار.

{وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا ﴿٢﴾}، هو: الماتحات متحا، وهي الناشطات الماتحات في نزعهن وإطلاعهن، والنشط هو: الإغراق، وهو القوة القوية في جبذهن وإطلاعهن لما يطلعن في الهواء، بما ينزعمن الماء، وهن السابحات في الهواء

سبحاً كما يسبح في الماء من كان سابحا، يمينا ويسارا، وإقبالا وإدبارا، وهن أيضا السابقات برحمة الله وفضله من المطر والغيث، غير المسبوقات بإمساك الله للمطر لو أمسكه عن الأرض وأهلها بعدله، وقد تكون السابقات سبقاً هي البروق؛ لأن البرق أسرع شيء خفقا، وأحثه اختطافا وسبقا.

والسحائب أيضا فهن المدبرات بما جعل الله من الغيث فيهن[١] والأعاجيب لكل ذي حكمة أو نظر مصيب، وغيرها إلى يوم يحشرون، وكذلك البرزخ الذي جعله بين البحرين شارعا، فهو المحبس الذي جعله الله حاجزا بينهما مانعا، لكي لا يختلط البحر العذب السائغ للشاربين بالبحر المالح الأجاج الذي لا يطيق شربه أحد من الناس أجمعين، رحمة منه جل ثناؤه للإنسان وغيره من بهائم الحيوان، كما قال سبحانه: ﴿وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا۝٤٩﴾ [الفرقان]، رأفة ورحمة في ذلك للإنسان وغيره، وقدرة على إحكام أمره فيهما وتقديره.

وسألت عن قول الله سبحانه: ﴿وَالْفَجْرِ۝١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ۝٢ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ۝٣ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ۝٤ هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ۝٥﴾ [الحجر]؟

والفجر: هو انفجار الليل عن صبحه، وانفتاقه عن ضوء الصبح ووضوحه، والليالي العشر وما ذكر الله من الليالي العشر هي ليالي ذي الحجة إلى آخرها يوم النحر، والشفع والوتر من العدد فهو كل زوج أو فرد، وفي ذلك لكل ذي

---

(١) لفظ المصابيح: من الغيث فيهن للشجر والثمار والنبات، وفيما ذكرنا من هذا أعجب عجيب لكل ذي حكمة ونظر مصيب.

حكمة أو لب أعجب ما يتعجب له من العجب، والليل إذا يسري فهو الليل، ويسري فهو السير، والليل فهو يسري ويمضي حتى يطلع الفجر ويضيء، والقسم فهو الحلف والإيلاء، وذو الحجر فهو من جعل الله له عقلا، والحجر فهو العقل والنُّهَى واللب والحجا.

وسألت عن قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ﴾ [الحجرات:١١]؟

فقال: الألقاب الأنباز التي يلقب بها بعضهم بعضا، التي هي خلاف الأسماء التي سمت بها الآباء، فحرم الله عليهم أن يسمي بعضهم بعضا بالألقاب، وجعل ذلك حكما مفروضا في الكتاب.

وسألت عن قول الله سبحانه: ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ [آل عمران:١١]؟

فقال: كمثل آل فرعون كحالهم.

وسألت عن قول الله عز وجل: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي ءَاذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾﴾ [البقرة]؟

فقال: الصيب: المطر الذي فيه الظلمات والرعد والبرق، والذين يجعلون أصابعهم منه في آذانهم خوفا من الهلكة على أنفسهم.

وسئل عن قول الله سبحانه فيما يحكى عن يعقوب صلى الله عليه لجماعة بنيه: ﴿يَابَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ﴾ [يوسف:٦٧]؟

هذا من يعقوب صلى الله عليه حين خرجوا عنه مسافرين، فخاف عليهم من

النفس وعيون الناظرين، فأمرهم عند دخول القرية بأن لا يدخلوا جملة واحدة، لما كانوا عليه من كمالهم وكثرتهم وجمالهم، وكانوا أحد عشر رجلا، لم ير مثلهم جمالا ولا كمالا، فخاف عليهم وأشفق صلى الله عليه من أن يراهم أهل تلك البلدة مجتمعين جماعة واحدة على ما هم عليه من كمالهم وحسنهم وجمالهم، فأمرهم أن يتفرقوا وأن يدخلوا من أبواب متفرقة شفقة عليهم من العين والنفس، قال الله سبحانه: ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ﴾ [يوسف:٦٨]، يخبر سبحانه أن الحذر للنفس والعيون لا ينفع إلا بدفاع الله وتوفيقه ولطفه وحفظه.

وسألت عن قول الله سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾ [البقرة:٢٦]؟

فقال: الاستحياء من الله عز وجل ليس على طريق الخجل، وإنما المعنى -والله أعلم- في قوله: {إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي} إن الله تبارك وتعالى لا يرى أن في التمثيل للحق والصدق بما هو صحيح صادق من الأمثال عيبا ولا خطأ، ولا مقالا بتخطئة لشيء من قول الله سبحانه لأحد من أهل الصلاة.

وسئل عن قول الله سبحانه: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ۝١١﴾ [الضحى]؟

فقال: هذا أمر من الله لنبيه صلى الله عليه وعلى آله بنشر نعمته عليه، وذكر إحسانه إليه، لأن الله تبارك وتعالى شاكر يحب الشاكرين، ويرضى الشكر والثناء عليه بنعمه من المؤمنين، ويريد أن يحدث المؤمنون بعضهم بعضا بنعمه عليهم

وإحسانه إليهم؛ ليكونوا بذلك ذاكرين.

وسئل عن قول الله سبحانه: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ [النجم:٣١]؟

فقال: هذا نهي من الله سبحانه لعباده عن تزكية أنفسهم؛ لأنه لا شريك له أعلم بسرهم وعلانيتهم، والله تبارك وتعالى لا يخطئ علمه فيهم ولا يغلط، ولا يسخط إلا في موضع السخط، وقد يغلطون في أفعالهم ويخطئون فيظنون أنهم في بعض ما يعملون لله مرضون، وهم عنده في ذلك مسخطون، ويقولون القول الذي يتوهمونه لله رضا وهو عند الله سخط، ألا ترى كيف يقول سبحانه: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ﴾ [النجم:٣١]؟ وكذلك الله سبحانه هو أعلم بهم من أنفسهم، والمحيط بعلانيتهم وسرهم.

وسئل عن قوله سبحانه: ﴿لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ﴾ [البقرة:٢٦٣]؟

فقال: هذا نهي من الله سبحانه للمؤمنين بأن يكونوا بالمن والأذى لمن تصدقوا عليه بصدقاتهم مبطلين [بأذى] منهم لمن أحسنوا إليه، وكثر الامتنان بذلك الإحسان إليه.

وسألت عن الإيمان؟

ونحن نقول: قول وعمل بمنزلة الروح من البدن، العقد بالقلب، والإقرار باللسان، والعمل بالجوارح، يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، قال الله تبارك وتعالى في صفة الإيمان: ﴿وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿١٢٥﴾﴾ [التوبة]،

وقال تعالى: ﴿الم۝١ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ۝٢ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ۝٣ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ۝٤ أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ۝٥﴾ [البقرة]، وقال: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ۝٧١﴾ [التوبة]، وقال: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ۝٢ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ۝٣ أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ۝٤﴾ [الأنفال]، وقال: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ۝١٥﴾ [الحجرات]، وقال: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ۝٢ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ۝٣﴾ [الصف].

ولم يرض تبارك وتعالى بالقول دون الفعل، بل ذكر أنه مقت من فعل المؤمنين القول بلا فعل، وأن الإيمان بالله هو الطاعة. فأكمل الناس في طاعة الله أحبهم إلى الله وأشد الناس حبا أكثرهم إيمانا بالله.

وقال فيما شهد به للمؤمنين: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ۝٣ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ۝٤ أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ۝٥﴾ [البقرة]، وقال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ۝١ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ

خَاشِعُونَ۝٢ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ۝٣ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ۝٤
وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ۝٥ إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ
فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ۝٦ فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ۝٧ وَالَّذِينَ
هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ۝٨ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ۝٩ أُولَئِكَ
هُمُ الْوَارِثُونَ۝١٠ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ۝١١﴾ [المؤمنون]، وهذا وصف الله تبارك وتعالى للمؤمنين وما شهد لهم به من وراثة الجنة والفردوس، شهد الله للمؤمنين الموصوفين بهذه الصفات بالفلاح، وشهد على من خالف هذه الصفات أنهم عادون، وسلخهم من اسم الإيمان، وقال: ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة:٦٧]، بقولهم: نسوا الله أن يطيعوه وأن يذكروه كما أمرهم فنسيهم من ثوابه، والنسيان هاهنا: الترك. نسأل الله أن يجعلنا من المتقين المطيعين لله ولرسوله برحمته.

وسألت عمن يقول: أنا مؤمن إن شاء الله، وعمن يقول: أنا مؤمن لا أشك في إيماني، والصواب في ذلك؟

فالمؤمن هو الذي لا يشك في إيمانه، والمؤمن حقا الذي لا يفعل شيئا من معاصي الله. وإذا سئل الإنسان عن نفسه أهو مؤمن؟ فإن قال: مؤمن حقا زكى نفسه، وإن قال: أنا مؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبجميع ما افترض الله على عباده. فقد صدق على نفسه، إلا أن الإيمان قول وعمل، فإذا وافق القول العمل بالطاعة لله فهو مؤمن حقا.

والإيمان على ثلاثة وجوه:

إيمان يلزم إذا قال العبد لا إله إلا الله محمد رسول الله فيلزم اسم الإيمان.

وإيمان بالله.

وإيمان عند الله.

فأما الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبجميع ما افترض على عباده، فلا يجوز ذلك بالشك.

والإيمان عند الله أن يقول العبد: أنا مؤمن عند الله حقا، لأن الله يقول: ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى۝٣٢﴾ [النجم].

وسألت متى يكون العبد مؤمنا مستوجبا للجنة؟

فذلك إذا أدى ما افترض الله عليه، واجتنب ما نهى الله عنه، فلا يقول: إني مستوجب الجنة جزما، لأنه لا يدري بأي شيء يختم عمله، ولكن يقول: إن مت على ذلك فأنا مؤمن مستحق للجنة.

فقال القاسم عليه السلام: حدثنا محمد بن منصور، قال: حدثنا إسماعيل بن صهرا، عن سليمان بن جعفر، عن القاسم بن فضيل، عن أبيه، عن جعفر، قال: (خرج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في بعض غزواته فبينما هو يسير إذ استقبله قوم فقال: من القوم؟ فقالوا: مؤمنون يا رسول الله. قال: وما حقيقة إيمانكم؟ قالوا: الصبر عند البلاء، والشكر عند الرخاء، والرضا بالقضاء. قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: حلماء علماء كادوا من الفقه أن يكونوا أنبياء، إن كنتم صادقين فلا تبنوا ما لا تسكنون ولا تجمعوا ما لا تأكلون، واتقوا الله الذي إليه ترجعون).

وأما من قال: أنا مؤمن حقا فشرطها شديد. روي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه: (لقي رجلا فقال: كيف أصبحت يا حار؟ فقال: أصبحت مؤمنا حقا يا رسول

الله. فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: إن لكل إيمان حقيقة، فما حقيقة إيمانك؟ فقال: عزفت نفسي عن الدنيا، فأظمأت نهاري، وأسهرت ليلي، وكأني بعرش ربي بارزا، وكأني بأهل الجنة يتزاورون، وكأني بأهل النار في النار يعذبون، فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: عرفت يا حار فالزم).

وسألت عن الإسلام؟

والإسلام: شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدا عبده ورسوله، والإقرار بما جاء من عند الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم شهر رمضان، وحج البيت من استطاع إليه سبيلا، وولاية علي بن أبي طالب صلى الله عليه، والبراءة من عدوه، والعمل بما دل القرآن على حلاله وحرامه كما الإسلام والإيمان، ومن لم يعتقد بعد النبي صلى الله عليه وآله وسلم إمامة علي بن أبي طالب لم يقبل الله له صلاة ولا زكاة ولا حجا ولا صوما ولا شيئا من أعمال البر، ثم من بعده الحسن والحسين، ومن لم يؤمن بأن الإمام كان بعد النبي علين كأن يؤمن بالنبي والقرآن، والصلاة والصيام، والزكاة، والحج، لم ينفعه شيء من عمله إلا عجمي، أو صبي، أو امرأة، أو جاهل لم يقرأ القرآن، ولم يعلم العلم، فإن جملة الإسلام تكفيهم.

وسئل عن قول الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَايِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا۝٥٦﴾ [الأحزاب]؟

فصلاة الله لا شريك له هي: البركة والثناء، وكذلك صلاة الملائكة والمؤمنين فهي أيضا البركة والثناء، والدعاء من الثناء، ومثل ذلك قول الله لا شريك له: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ۝١٠٣﴾ [التوبة]، وصلاته عليهم صلى الله عليه: هي دعاؤه لهم وثناؤه عليهم.

وسألته عن قول الله: ﴿أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ۝١٢﴾ [الطلاق]، قال: ما الإحاطة؟

فقال: الإحاطة بالشيء: العلم به على حقيقة العلم وصدقه، ومن ذلك قول الله سبحانه: ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ ۝٥٣﴾ [فصلت]، يريد سبحانه: علما وقدرة وملكا(١). ومثل ذلك في العلم قوله سبحانه: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا ۝١٠٧﴾ [طه]، ﴿بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ﴾ [البقرة:٢٥٤].

وسئل عن تفسير لا حول ولا قوة إلا بالله؟

فقال: هذا لا حول من مكان إلى مكان ولا حيلة في شيء من الاحتيال، إلا بتقوية الله عن الزول والانتقال. قوة إلا بالله: يقول بما جعل الله للأقوياء المطيقين والعقلاء المحتالين.

وسئل عن تأويل سبحان الله، وتعالى الله؟

وتعاليه: هو ارتفاعه وكبره. وسبحان الله معناها في اللغة: أن يريد تبارك وتعالى أنه بعيد مما قال فيه من جهل جلاله وافترى عليه.

وسئل عن تأويل: سمع الله لمن حمده؟

قال: هو قبل الله ممن شكره شكره له، ومن شكر الله ما أمر الله به من الصلوات، وغير ذلك من وجوه الخيرات.

وسئل عن تأويل السلام عليكم؟

وسئل عن قول الله سبحانه: ﴿كِرَامًا كَاتِبِينَ ۝١١ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ۝١٢﴾ [الانفطار]؟

---

(١) في المخطوط: ومالكاً.

فقال: ليس من الآدميين أحد إلا ومعه حافظان من الملائكة يحفظان عليه الصالح والطالح من قوله وأعماله، أحدهما عن يمينه والآخر عن شماله، كما قال الله عز وجل: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ۝١٧ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ۝١٨﴾ [ق].

وسئل عن الرقيب؟

فقال: هو الحفيظ. والعتيد فهو المتهيء.

والرصد: هو الذي يرصد الشيء.

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ((تعس عبد الدنيا، تعس عبد الدينار والدرهم، تعس عبد الحلة والخميصة، تعس ثم انتكس فلا انتعش)).

ثم قال عيسى بن مريم صلوات الله عليه: بحق أقول لكم: إن حب الدنيا رأس كل خطيئة.

وسئل عن قول الله: ﴿يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ﴾ [البقرة:٢٧٤]؟

قال: التخبط إنما يكون من خارج ليس من داخل، وإنما هذا مثل مثله الله لمن يعقل، ومن يعقل يفهمه عن الله –إن شاء الله– ويعلمه، قال عيسى بن مريم صلى الله عليه في الإنجيل: لا تطرحوا اللؤلؤ المنير بين غابات الخنازير. قال: والغابات الجماعات، والغابة الجماعة.

وسئل عن قول الله سبحانه: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ...﴾ [النور:٣١]، إلى آخر الآية؟

فقال: زينتهن فمحاسنهن مما يواري الثياب من صدورهن وسوقهن وأرجلهن، وكل ما يستحسنه المستحسن منهن، وما ظهر منهن من الوجه والكف فلا بأس أن يبدين ذلك.

وسئل ما الصراط الذي يذكر أنه يوضع يوم القيامة فيحوز الناس عليه؟

فقال: أما الصراط: فالطريق والسبيل الظاهر الذي ليس فيه ميل.

وسئل عن قول الله: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ [الإسراء:٨٥]؟

فقال: الروح من أمر ربه كما قال لا يجاب فيه بغير ما قال الله في ذلك، لا أن الله سبحانه قد أبان ما هو وأي شيء هو.

وسئل عن الروح الذي يكون في الناس والحيوان؟

فقال: الروح: هو الروح المتحرك الذي به يحيى الحيوان، ويذهب ويقبل ويدبر، ويعرف وينكر، وهو شيء لا يدرك بالعين، وإنما يعرف بالدلائل واليقين.

وسئل القاسم رحمة الله عليه ورضوانه عمن أتى امرأته في دبرها هل يحرم ذلك عليه ما حل منها؟

فقال: لا يكون ذلك وإن كان آثماً، ولا يحرمه عليه(١) وإن فعله محرما، ولا يكفر عنه إثمه وخطيئته إلا بالتوبة والاستغفار، وبتحريمه في ذلك ما حرم الله من إتيان النساء في الأدبار، وكذلك إتيان النساء في المحيض فحرام، وخطيئة عند(٢) الله وجرم وآثام، وفيما ذكرنا من ذلك كله ما يقول سبحانه في تنزيله: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾ [البقرة:٢٢٢]، تأويل ذلك: ايتوهن من حيث أمركم الله في القبل لا في الدبر لأن الدبر ليس بمكان محترث، ولا يصلح فيه شيء من الحرث(٣)، وفيما ذكرنا من القبل مبتغى الولد

---

(١) في المخطوط: وما لا خير انه عليه.اهـ [لفظ (خير) بدون نقط وعليها في المخطوط: كذا].

(٢) في المخطوط: عن الله.

(٣) في المخطوط: في الحرث.

والنسل، وفي ذلك من نعم الله وإحسانه وموهبة الله للولد وإنشائه ما يقول سبحانه لمن صام في ليالي الصوم، وما حرم الله في ذلك عليهم في نهار كل يوم: ﴿فَٱلْـَٰٔنَ بَٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُواْ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْۚ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِۖ﴾ [البقرة:١٨٦]، والابتغاء: فإنما هو في القبل لا في الدبر، وتأويل: ﴿مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْۚ﴾ هو ما علم الله أنه سيكون من نسلكم.

وأما (المص) وأشباهها، والمرسلات والنازعات وأمثالها- فإن فيها من العلوم والسر للوحي المكتوم ما لا يعلمه إلا من وهبه الله إياه، وألهمه فيه وفي العلم به هداه.

وأما العشار فهي: الإبل الحوامل إذا حملت أولادها.

وأما عطلت: فإذا تركت عند مجيء القيامة وما ذكر الله من مجيء الطامة.

وأما اللوح المحفوظ: فهو علم الله المعلوم.

وأما النفاثات في العقد فهن: السواحر. والنفث فهو: الرقا والتفل بالريق. والعقد: فهو عقد السواحر لعقدٍ كُنَّ يعقدنها في السير والخيط.

وأما أصحاب الأعراف فإنهم: أصحاب ما علا من منازل الجنة وأشرف وأناف، من الغرف العالية، والمنازل المشرفة المنيعة، التي يرون منها لشرفها وعلوها النار وبعض من يعذب فيها، ممن كانوا يعرفون في الدنيا بالختر والإسراف والتكبر، فيعرفونهم في النار بسيماهم التي هي هيئاتهم وحلاهم، لا يعرفونهم بغير ذلك منهم، لما غيرت النار بأكلها من ألوانهم، فيقولون عند معرفتهم إياهم ما قصه الله في كتابه من قولهم.

وأما ﴿يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [السجدة:٤] فأنبأ الله لا شريك له أنه يكون في يوم واحد من أمره، فيما ينزل من سمائه إلى أرضه من تقديره ما مقداره عند

غيره لو دبره من المقدرين من الآدميين ألف سنة في التدبير، وأخبر في ذلك عن قدرته التي ليست لقدير.

وأما ﴿خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ۝٤﴾ [المعارج] فإنما هو أيضا: خبر عما له من القدرة في تعجيل القضاء والحكم إذا فصله، ولا يفعله غيره(١) في خمسين ألف سنة من ذلك لو فعله، وهو(٢) يقدر -ولا شريك له- على أن يفعله في يوم واحد.

وأما: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا﴾ [يوسف:٢٦] فإنه كان رجل من قرابتها له حكم وفضل، شهد لما اختلفوا في أمر يوسف -صلى الله عليه- وأمرها فيما ظنوا به وبها، فيما قالت: إنها لم تطلبه وإنه طلبها، قال: إن كان قميصه قد من قبل فهو الذي أرادها ولم ترده، وإن كان قميصه قد من دبر فهي التي طلبته فهرب عنها.

وأما ﴿لَا تَقْرَبُوا الصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ﴾ [النساء:٤٣] فهو سكر الشراب وغيره من كل ما أسكر من بنج أو نوم أو حريق(٣)، وكل ما التبس به العقل من خمر أو غيره.

تم بحمد الله

***

(١) في المخطوط: في غيره.

(٢) في المخطوط: هذا يقدره.

(٣) قوله عليه السلام: «أو حريق» قد يتغير عقل المرء بالدخان أو بنوع من الدخان. (من خط السيد العلامة المجتهد محمد بن عبدالله عوض المؤيدي حفظه الله).

الفهرس

كتاب مديح القرآن الكبير ٥
مديح القرآن الصغير ٢٧
الناسخ والمنسوخ ٣٥
[ذكر بعض أنواع النسخ وبيان حسن ذلك] ٤٣
[اعتراض الملحدين على القرآن بما فيه من التكرير والجواب عليهم] ٤٨
[العلم بقدر القرآن وقصده] ٥١
[ذكر الله بالقرآن] ٥٦
[متشابه القرآن وما يظن متشابهاً وهو محكم] ٥٨
تفسير القرآن ٦٥
تفسير سورة الحمد ٦٦
تفسير سورة الناس ٦٨
تفسير سورة الفلق ٦٩
تفسير سورة الإخلاص ٧٢
تفسير سورة المسد ٧٣
تفسير سورة النصر ٧٤
تفسير سورة الكافرون ٧٦
تفسير سورة الكوثر ٧٦
تفسير سورة الماعون ٧٨
تفسير سورة قريش ٨٠
تفسير سورة الفيل ٨١
تفسير سورة الهمزة ٨٣
تفسير سورة العصر ٨٦
تفسير سورة التكاثر ٨٨
تفسير القارعة ٨٩

تفسير سورة العاديات ٩٢
تفسير سورة الزلزلة ٩٣
تفسير سورة البينة ٩٥
تفسير سورة القدر ١٠٠
تفسير سورة العلق ١٠٥
تفسير سورة التين ١١١
تفسير سورة الشرح ١١٣
تفسير سورة الضحى ١١٦
تفسير سورة الليل ١١٧
تفسير سورة الشمس ١٢٠
تفسير سورة عبس ١٢٥
تفسير سورة النازعات ١٢٩
كتاب المكنون ١٣٥
سياسة النفس ١٦٥
العالم والوافد ١٩٥
من كلامه عليه السلام في الوعظ وغيره ٢٨٩
[وله أيضاً عليه السلام موعظة أخرى] ٢٩٠
وله عليه السلام موعظة لبعض إخوانه واعظاً ومذكراً وحافظاً لأمر الله ومبصراً..... ٢٩٤
ومن كلامه عليه السلام [في الوعظ] ٢٩٨
وله أيضاً عليه السلام ٣٠١
وله أيضاً عليه السلام رسالة إلى بعض بني عمه ٣٠٣
ومن كلامه عليه السلام [في العبادة بالعلم] ٣٠٥
ومن كلامه صلوات الله عليه: ٣٠٥
ومن كلامه عليه السلام ٣٠٦
الطهارة ٣٠٧

باب القول في المشرك ٣٠٩
الاعتقاد ٣١٥
باب القول في السرقة ٣١٧
الكلام في الدم ٣١٩
القول في النفاس ٣٢٠
القول في الحبلى ٣٢١
القول في الحجامة والرعاف ٣٢٢
القول في التيمم ٣٢٤
القول في الماء القليل ٣٢٥
صلاة اليوم والليلة ٣٣٣
باب الوضوء ٣٥٢
باب التقصير ٣٦٤
مسائل القاسم ٣٦٧
[تفسير معنى الخدع ونحوه في حق الله تعالى ومسائل أخرى] ٣٨٧
مما سئل عنه الإمام القاسم بن إبراهيم عليه السلام ٤٢٩
الفهرس ٤٩١